أضواء على النفس البشرية

الدكتور الزين عباس عمارة

دار الثقافة
بيروت - لبنان

أضــواء

عَلى النفس البشرية

أضواء على النفس البشرية

الدكتور الزين عباس عمارة

استشاري ورئيس قسم الطب النفسي
مستشفى الجزيرة ومستشفى أبوظبي المركزي
وزارة الصحة - دولة الإمارات العربية المتحدة

بكالوريوس الطب والجراحة (جامعة الخرطوم)
دبلوم الطب النفسي (جامعة لندن)
زمالة كلية الأطباء النفسانيين الملكية (المملكة المتحدة)

دار الثقافة
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

بسم الله الرحمن الرحيم

ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر

ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلاً »

صدق الله العظيم

(الأسراء : ٨٥)

الاهداء

الى روح أبي...
تمطر قبره شآبيب الرحمة...
وتسند رأسه وسادة الغفران..

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد انبثقت فكرة هذا الكتاب من اسم البرنامج التليفزيوني بعنوان (أضواء على النفس البشرية) والذي كنت اقدمه من تليفزيون السودان في مطلع حياتي العملية عام ١٩٦٥ مع استاذي وزميلي الأكبر الدكتور / طه بعشر كبير اخصائي الطب النفسي بوزارة الصحة سابقا والمستشار الاقليمي لهيئة الصحة العالمية للصحة العقلية لاقليم شرق البحر الابيض المتوسط بالاسكندرية حاليا وقد اشتركت فيه نخبة من كبار الاخصائيين في حقل الصحة النفسية بالسودان وقد كان الهدف من البرنامج نشر الوعي الصحي حول الرعاية النفسية للفرد وقد امتد البرنامج على مدى عامين متتاليين ناقش شتى الموضوعات واجاب على كثير من التساؤلات من المشاهدين حول طبيعة الامراض النفسية والظواهر الاجتماعية كظاهرة الزار والهيستيريا والطب الشعبي وقضايا الشباب ومشاكل الزواج.

وقد توقف البرنامج عندما سافرت في بعثة دراسية الى بريطانيا ولكنني داومت على مناقشة هذه الموضوعات في الصحف في سلسلة مقالات تلقي الضوء على دهاليز النفس البشرية مؤمنا بان الروح من أمر ربي بينما النفس البشرية مجموعة وظائف فسيولوجية تسيطر عليها الاجهزة العصبية المركزية

العليا للمخ وتخضع للدراسة والتحليل وبهذا تكون دراسة سلوك الانسان أحد مهام الطبيب النفسي.

وينبغي ان أضيف ان محتويات هذا الكتاب ليست تلخيصا لحلقات ذلك البرنامج وليست تضمينا لآراء المشتركين فيه ولا يعني بالضرورة الاتفاق او المشاركة في المسئولية فيه فهو تعبير عن وجهة نظري الشخصية في الموضوعات المطروحة شكلا ومضمونا نتيجة قناعتي الخاصة وممارستي الشخصية للطب النفسي على مدى عقدين من الزمان في مجتمعات مختلفة في البيئة والثقافة والتقاليد.

وقد اتخذت في هذا المنحى اسلوبا بعيدا عن التعقيدات اللغوية والمصطلحات العلمية والتي لم تكن أصلا من أهداف البرنامج وتركت تفاصيل الحقائق العلمية الدقيقة مع مجموعة المراجع والملاحق في كتاب آخر صدر بعنوان (المدخل الى الطب النفسي) للمتخصصين في هذا المجال.

كما يمثل هذا الكتاب بداية أخرى متواضعة في مجال الكتابة باللغة العربية والترجمة ومحاولة في هذا المجال حول قضايا هي من صميم اختصاص الطبيب النفسي وقد عمدت الى محاولة تسليط الضوء على الفارق بين وظيفة العالم النفسي والطبيب النفسي والعلاقة بينهما وهذه نقطة التباس في ذهن القارىء غير المتخصص والذي وجد تراثا عظيما من اسهامات علم النفس في مقابل أشتات متناثرة في المكتبة العربية حول حقيقة وواقع الطب النفسي.

وارجو ان يوفقني الله في اخراج الرصيد المتبقي من كتاب (محاضرات في الطب النفسي) وهو مجموعة محاضرات قدمتها في فترة عملي في تدريس طلاب قسم علم النفس بجامعة الامارات العربية المتحدة او الدارسين في معهد التأهيل التربوي أو دورات التدريب في كلية الشرطة او الدورات التنشيطية بوزارة الصحة للاطباء المتقدمين لامتحان الجزء الاول من زمالة كلية الاطباء الملكية بانجلترا. .

وانني اعمل جاهدا في سبيل ان يرى النور قريبا كمساهمة في وضع لبنة أخرى في الصرح الهائل الذي وضع حجر أساسه قلة من الرعيل الأول من

الاطباء النفسانيين العرب لكي تعكس ملامح الوجه المشرق من الطب النفسي والجانب المضيء خارج الزنزانات الفردية والمصحات العقلية والمستشفيات الأثرية ذات السمعة الاسطورية والتي اصبحت وصمة في جبين الخدمات الطبية الحديثة التي غيرت وجه الواقع الصحي في ارجاء الوطن العربي.

والله الموفق وهو المستعان.

المؤلف

الفصل الأول

* قضايا الاغتراب

١ ـ سيكولوجية الغربة

٢ ـ سيكولوجية العنف والعدوان

٣ ـ القلق طاعون العصر الحديث.

٤ ـ حصاد العمر في الغربة.

٥ ـ آيبون عائدون ـ تائبون

٦ ـ مغادرون .. نعم ... عائدون ... لا

٧ ـ حقيقة الوجه الآخر

٨ ـ حوار حول هجرة العقول

٩ ـ هجرة العقول.

سيكلوجية الغربة

الغربة حالة انفصال عن الوطن الام.. وقد تكون حالة ولادة جديدة فتحتاج الى مراحل التكيف التي يتدرج فيها الطفل حتى عتبة الفطام النفسي، وقد تكون مخاضا متعسرا تنتج عنه تشوهات سلوكية أو جراحات نفسية أو تخلف في النضج الانفعالي أو نكوص نتيجة الاحباط في مجابهة صراعات الاقبال والاحجام الخ..

وفي الغربة تنتج عدة صراعات شعورية ولا شعورية تولدها عوامل الدفع والجذب في كلا الاتجاهين... وأكثر العوامل وضوحا عوامل الدفع خارج الوطن الام وعوامل الجذب اتجاه الوطن الجديد... ويمكن تمييز هذه المواقف حسب قوة الدوافع الفطرية التي تتحول تبعا للظروف والتعلم واختلاف الافراد وتتمثل في طريقة الاستجابة ونوعية الحافز وطبيعة الطموحات وأشباع الغرائز... والدوافع المكتسبة التي ترتبط بأهداف جديدة أكثر واقعية مع متطلبات الحياة وتسيطر عليها الميول والاهتمامات.

وأكثر العوامل تأثيرا في عملية الدفع والجذب عامل الشخصية... وتعريف الشخصية رغم ابتذال الكلمة يمثل أكبر العقبات التي تتحدى الاختبارات النفسية المتوفرة حتى الآن، ولعل هذه أخطر مصيدة العصر للمشتغلين في ميدان علم النفس فمن التعميم المبهم الى التحديد الطوبائي تمتد مساحات واسعة في عجز العلم المعاصر عن ادراك خفايا النفس البشرية.

وإذا كان لا بد من تعريف الشخصية فهي مفهوم الانسان كوحدة متكاملة من الصفات المتفاعلة مع بعضها البعض والتي تميزه وتحدد معالمه كفرد بين الآخرين وهنا نجد أكثر من ثغره، وبعدد هذه الثغرات تتسع رقعة العجز بايجاد مقاييس ثابتة لقياس الشخصية بالملاحظة الذاتية أو الملاحظة المقننة أو الاختبارات الاسقاطية أو اختبارات المواقف.

على أن أكثر ما يهم في هذا المجال أن نحدد منذ البداية ان اختلاف تحديد مفهوم الشخصية واجه علم النفس بأكبر التحديات التي حين يجتازها يمسك الترمومتر الذي يقيس به درجة حرارة الانفعال ونوعية الاكتئاب وحجم الضغوط النفسية وقياس السلوك بدرجة أكثر دقة من المقاييس المتوفرة في معامل علم النفس التجريبي.

لقد اختلف الناس في تحديد من هو الشخص السوي والطبيعي وغير الطبيعي وكل مفهوم له دلالات متنوعة ومفاهيم مختلفة بين فرد وآخر فقد يتصور بعض الناس أن الشخصية السوية هي التي لا تعاني من مرض وهذا مفهوم خيالي لان بعض الشخصيات غير المريضة تعاني من عدم القدرة على التكيف وعدم الاتزان والاستقرار النفسي... وقد يتوهم البعض أن الشخصية السوية هي المتشابهة في العادات والطباع مع من حولها وهذا مفهوم مثالي فبعض العلماء والقادة والموهوبين أكثر ما يميزهم اختلاف قدراتهم وطباعهم عن الآخرين وقد يكون هذا سر زعامتهم وابداعهم فلذلك أفضل ما يميز تعريف الشخصية هي السمات الايجابية التي تعني التوازن النفسي وحالة الاستقرار المعقول والقدرة على حل الصراعات الداخلية وتوجيه حيل النفس الدفاعية بدرجة تساعد على التكيف ولا تسيطر على السلوك فتبرز التناسق لا التناقض بين التركيب الوظيفي والديناميكي للشخصية وبين متطلبات البيئة.

اذا سيكلوجية الغربة هي مجموعة هذه الصراعات الشعورية واللاشعورية... مشاعر الاحباط النفسي والتوتر العاطفي... وصراعات الاحجام والاقبال بمختلف أنواعها ولا يتم التكيف الا اذا تميزت الشخصية

بالسمات السوية المتمثلة في الاستقلال، ويعني القدرة على الاعتماد على النفس وتحمل المسئولية في اتخاذ القرار بحيث لا تتفتت ارادة الفرد حين يجد نفسه مضطراً لاتخاذ قراراته بنفسه.

والاستقلال لا يعني الغاء التعامل مع وجهات نظر الآخرين وكلما ضعفت سمة الاستقلال كلما كان أثر الغربة أكثر سلبية حين تتعدد أمام الفرد الاختيارات.

ثم تأتي سمة التحكم في الذات وهي القدرة على توجيه التصرفات والانفعالات الى أهداف منطقية تحقق أغراضه دون انحراف الهدف رغم وجود عوامل مشطة أو تيارات مضادة تجمع بين احتدام الانفعال والعاطفة عند الآخرين دون انكارها ويتحكم في عاطفته وانفعاله دون سيطرتها عليه.

ثم يأتي عامل التكيف وهي مأساة المغترب... فرغم ايجابيات الشخصية وعوامل الدفع والجذب فان التكيف هو القناة الامثل لانفعالات الانسان لتكون اكثر انسجاما مع البيئة الجديدة. يتمسك بأفكاره وتقاليده في حدود... يغير... ويبدل... ويحور فيما حوله ويتنازل عن البعض مقابل التعامل مع واقع الحياة.

وسمة الحب... حب الآخرين ضرورة حياتية لتقوية الشعور بالانتماء للمجتمع الذي يعيش فيه الفرد رغم التعدد في الاختلاف والكثرة في التنوع.

ومن أهم سمات الشخصية التي تتأثر بسيكلوجية الغربة وتشكل سلوك المغترب هي تعدد الاهتمامات... ان الشخصية السوية متنوعة الاهتمامات من النزوع الى الراحة النفسية... الى الرغبة في تربية الاطفال... الى الحاجة لجمع المال الى الاستمتاع بفوائد الاسفار... قوس قزح... أو لوحة شعبية ذات ايقاعات تعطي الحياة معنى كبيرا وشاملا لا يقتصر على اهتمام واحد... متى ما وقفت الظروف دون تحقيقه أصيب الفرد بالانهيار وحالة اكتئاب نفس... وحتى يكتمل هذا الاطار يجب أن يكون لحياة الانسان هدف وأن يخطط الفرد للمستقبل وكلما كان أشباع الغرائز دافعا لا

شعوريا لاستمرارية الكفاح تحت ظروف قاسية والابتعاد عن احتمالات الضيق بالحياة والشعور بعدم جدواها تأخر الوصول الى الهدف الواحد المرصود.

ومن ابرز تحديات سيكلوجية الغربة... التحكم في عملية التوافق الاجتماعي والتوازن النفسي، ... ولا يتم هذا في فراغ... انما بالتعاون مع الآخرين ورسم طريق الوصول الى الغايات بما يتناسب وقدرات الانسان بحيث لا تكون محصلة الطموح الطفيلي اصطداما بجدار تطلعات الآخرين فيصاب الفرد بخيبة الامل والمرض النفسي.. أن التخطيط للمستقبل لا يلغي أهمية التعامل مع الحاضر... وضرورة العيش مع وقائع الماضي. ان جنون الاغتراب (أمغزنت بسايكوزس) ومعذرة للترجمة هي صورة لظاهرة نفسية اجتماعية داهمت المجتمع الاوروبي وهو في حالة تسيب حضاري وتفكك أسري... وهجرة عشوائية... وتلاقح لقيط بين ثقافات متعددة أفرزت وضعا طوق المجتمع فضاعت معالم الطريق أمام الفرد في غابة الحضارة الجديدة. فأصبح الداخل مفقوداً والخارج مولوداً ولعل الترجمة العلمية لظاهرة جنون الاغتراب تحمل طابع السبة أو الحكم الاخلاقي أكثر من التفسير العلمي بظاهرة يتحول المجتمع فيها الى غابة متحضرة أو مدينة متوحشة... ويتكيء الفرد فيها على طرف السكين وينام على سنان حراب العزلة. لقد قدم أحد اساتذة جامعة (نيوكاسل) الانجيلزية دراسة مستفيضة لوضع المهاجرين من جزر الهند الغربية والجزر الآسيوية والافريقية وانعكاسات وضع الهجرة على حياتهم النفسية والعائلية ومعدلات الانتاج وحالات الاصابة بنوبات الاكتئاب وهوس الاضطهاد والبنيوراسينيا واللامبالاة ومحاولات الانتحار وحوادث الطرق... أو العنف والسلوك السايكوباتي ووضعها تحت البحث كمؤشر لحقائق عملية تبحث في جذور الاعصار الداخلي الذي هز المجتمع الانجليزي واضطربت فيه العلاقات الاجتماعية الى درجة الانفجار... ان شيئا أقرب من هذا يحدث في المجتمعات الجديدة التي تعاني من مشاكل الهجرة. ان عدم التكيف مع المجتمع يحدث عندما يرى الفرد في نجاح الآخرين خطرا يهدد أمنه وينزع طمأنينته

ويفقده القدرة على التحكم في انفعالاته وتوجيه تصرفاته بصورة لا تمثل خطرا على حياة الآخرين في محيط العمل أو الطريق العام ان فقدان الحب الذي يحرم الفرد الثقة في نوايا الآخرين... ان ضيق اهتمامات الفرد وحصر هدفه في جمع المال جعل الصدام حتميا فالمورد العذب كثير الزحام كما أن رؤية الحياة من مجالات أصبحت غير واردة ومع مرور السنين يتأثر الفرد بفشله في الحصول على أكبر قدر من الثروة في أسرع وقت ممكن بأقل جهد ممكن وبأي وسيلة ممكنة دون اهتمام بشرعية العمل... بحيث يصبح كالقط الذي فوجيء بالضوء في غرفة مظلمة يحاول الاندفاع الى أي اتجاه حتى على جثث الآخرين ويصبح التسامي عملا مراهقا يرجع بالفرد الى مرحلة طفولية مبكرة من العمر يحاول فيها أن يصب قلقه ورغباته المكبوتة في قنوات مقبولة اجتماعيا ومرفوضة عقلانيا ويصبح في قمته عندما يتحول من الاختيار بين موقعين كلاهما مثير للذة صراع بين موقعين كلاهما مثير للألم ــ وهذه قمة المأساة، ان التحول الحضاري والتكنولوجي الذي استبدل الانسان بالآلة في مجال الانتاج وأثر سلبيا عليه وجعل من العالم مدينة واحدة بوسائل الاتصال الحديثة فأثر ايجابيا عليه وجعله فريسة صراع نفسي عند الاختيار بين الصعود في الطبق الطائر أو الهبوط الاضطراري للقاع، ولا خيار لمن لا يختار... ورغم ان مجتمعنا الشرقي ما زال يقف على قواعد ثابتة من الايمان والتوحيد الا أنه مثقل بجراحات قبلية في خريطة الوطن العربي... وجراحات شعوبية في ذهنية الفكر الحضاري وجراحات طائفية في بنية الصرح الاسلامي... هزت ايمان الفرد في الداخل وهددت أمنه في الخارج... ولولا تماسك رابطة الاسرة وعاطفة الابوة... وتقاليد القبيلة وبقايا جذور الانتماء للأرض لارتفعت نسبة حوادث الانتحار بسبب العزلة النفسية وأمراض الكآبة بسبب ضعف العلاقات الاجتماعية... الا أن القلق على المستقبل وانعدام الثقة بالنفس وضعف الايمان وعدم الشعور بالاطمئنان للمجهول زاد من حدة شعور الفرد بالضياع وعدم القدرة على التركيز وكثرة النسيان وارتفاع درجة الانفعال وانعدام لغة مشتركة للتخاطب في محيط العمل وأسلوب حضاري

للتعامل في الطريق العام رغم الديكور الخارجي في روعة المظهر الفردي وجمال البناء المعماري وسيرك الاعلانات عن افتتاح منافذ جديدة للتكييف النفسي وقنوات مستحدثة لتصريف فائض التوتر النفسي الداخلي. ان التوتر النفسي أكبر آفات العصر الحديث ــ يقف في رأس قائمة الامراض التي تفتك بالثروة البشرية... كالسكتة القلبية بين فئات الشباب والتي تعتبر بالمعايير الطبية خارج دائرة هذا الخطر الجديد... صحيح أن عناصر السمنة وقلة الحركة وتعاطي المنبهات والادمان بشتى الصور والافراط في التدخين بكل الانواع عناصر أساسيه في ربط النتائج بالمسببات في ارتفاع هذه النسبة ولكن عنصر ضغوط الحياة العصرية تساعد بصورة مباشرة في مزج تركيبة هذا العقار القاتل الذي يتناوله الفرد في كل وجباته في طبق فضي محلى أو مستورد فيظل يدور في الحلقة المفرغة بين مأساة المغترب وجنون الاغتراب... وعندما تتوقف محركات البوصلة التي ترصد اتجاهات الرياح التي تحركنا في الداخل يصدق علينا قول الشاعر العربي :

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا
وتهجو ذا الزمان بكل قبح ... ولو نطق الزمان لنا هجانا

سيكلوجية العنف والعدوان

ان المجتمع المتحضر قد خرج من شريعة الغاب الى حكم القانون وسيطرة العقل ولكنه فوجيء بأن سرعة خطى العصر الحديث قد افقدت العقل سيطرته وسلبت القانون هيبته أمام المتغيرات الحضارية نتيجة السرعة المثيرة والمذهلة التي اختزلت المسافات واختصرت الزمن، حتى أصبح الحدث الواحد في أقصى مناطق العالم كالحجر الذي يلقي به في لجة الماء تنداح منه دوائر تتسع حركتها في كل الاتجاهات حتى يصعب على الناظر في صفحة الماء تحديد كيف بدأ الحديث ومتى ينتهي الاثر ؟

وأصبح الفارق بين الفعل ورد الفعل فوق طاقة وقدرات الفرد في مواجهة احداث الحياة وبالضرورة أصبح العنف نهاية المطاف للسلوك العدواني يصعب تحديد بدايته كما يستحيل تأكيد نهايته... وبذلك أصبح العنف أحد سمات العصر الخارجة عن ارادة الفرد الفاعل والمتفاعل مع الاحداث.

مصدر العنف

ان العنف والعدوان صنوان متلازمان كالظل رغم الفارق النوعي والموضوعي فلا يوجد عنف بدون شعور عدواني مسبق ظاهر أو مستتر، والعدوان ليس مرادفا للعنف ولكنه مسبب له... ومؤشر اليه... ويمكن

رصده ولكن يصعب التنبؤ بلحظة انفجاره وهنا تكمن خطورته... واذا أردنا أن نستأصل العنف كوسيلة تعبير فلا بد أن نعالج العدوان كظاهرة سلوكية.

ان نظرة المجتمع للعنف تختلف حسب الظروف الموضوعية والحضارية والقيم الانسانية السائدة في المجتمع المتضرر من العنف... ان اختناقات الحياة وضيق دائرة الحركة للفرد في هذا الاطار أوجدت مواقف متناقضة تولد منها السلوك العدواني والتعبير عنه بالعنف فازدياد زحام المدن مع الكثافة السكانية في رقعة أرض ضيقة ومكننة الحياة مع ارتفاع العطالة... وضيق الشوارع مع كثرة السيارات ومتطلبات الانسان مع ضغوط الحياة... ووفرة الكمليات مع شح الامكانيات وتعدد الجنسيات مع اختلاف اللغات شلت وسيلة الاتصال والتخاطب وهي لغة التعبير عن الحاجات والرغبات ونقل الانفعالات وتغيير الاتجاهات والتحكم في سلوك الآخرين بالحوار... وبذلك تحول المجتمع الاستهلاكي الى آلة ضخمة تدور بقوة تعتصر الفرد الى درجة الاحباط النفسي المؤدي الى شتى أنواع الصراعات ثم العنف.

لقد أصبحت قدرة الانسان على السيطرة على استجاباته اللاارادية لكل هذه المثيرات المتواترة المتلاحقة قاصرة على محاولات الانسياق وراء المغريات والسباحة في اتجاه التيار بكل ما في ذلك من مخاطر على الفرد والمجتمع.

إن العنف قد تخطى مرحلة الظاهرة الاجتماعية في كثير من المجتمعات الى مرحلة المشكلة النفسية المرضية بكل المقاييس المتعارف عليها فأصبح يتخذ شكل النهاية المأساوية للسلوك العدواني المباشر والتحولي... ويمثل التعبير المدمر لنزعات لا تخضع للانضباط ولا تقبل التحكم مما يجعل العنف في أكثر الحالات تعبيرا عن مثيرات ليست ذات صلة مباشرة بالسبب المثير.

فاذا كان العدوان هو نمط السلوك أو سمة الشخصية فالعنف تعبير بشتى

الاشكال عن هذا السلوك والقوة هي ابرز وسائل التعبير عن العنف رغم أن القوة في حد ذاتها ليست بالضرورة عدوانا أو عنفا فهي عنصر انضباط قد يكون ضروريا لترويض روح العدوان وتقليم اظافر العنف طالما ظلت تخضع للاستعمال المقنن في الوقت المناسب وبالقدر المطلوب... والا أصبحت نوعا من العنف يولد العنف... في حد ذاته.

نظريات العنف :

لقد أصبحت دراسة سيكلوجية العنف أحد أكبر اهتمامات الانسان المعاصر في شتى مجالات الحياة باختلاف درجاته... رجل الشارع... ورجل السياسة... ورجل الاقتصاد وخبراء الاجتماع وعلماء النفس... الخ... وأصبح انشاء المؤسسات المتخصصة في دراسة هذه الظاهرة أعظم هموم كل المجتمعات المتحضرة في هذه الحقبة من التاريخ التي ترفع شعار (العصر الذهبي للازمات النفسية)... وتتصدر قائمة هذه الأزمات موجات العنف التي أصبحت مصدر فزع اجتماعي وقلق فردي وتفكك أسرى في كل المجتمعات. وأتخذت الدراسات عدة اتجاهات بداية بدراسة علم الحيوان وسلوك الحيوانات في الغابات الشاسعة والحدائق المغلقة والمعامل التجريبية بتحليل تكوين الهيكل الاجتماعي لمملكة الحيوان ودراسة الدوافع البيولوجية للعنف مثل اشباع الغرائز وحب السيطرة واثبات الذات... الخ، ثم الدراسات التجريبية على عينات عشوائية من نماذج بشرية تمثل بعض المتطوعين لهذا الهدف أو بعض الفئات التي تخضع لظروف خاصة في المعتقلات من معتادى الاجرام ومدمني المخدرات وجرائم القتل البشعة... الخ.

نظريات متعددة :

لقد ثبت أن هنالك نظريات متعددة تفسر ظاهرة العدوان كنمط سلوكي وتدرس أساليب العنف كتعبير عن هذا السلوك وبما أن هذه النظريات متعددة الجوانب متداخلة الافتراضات وفي ذات الوقت بالغة الدقة والتعقيد

فان تبسيطها أصبح مغالاة في السطحية، كما أن تحليلها يصبح افراطا في الاسعاف (والعدوان) تجاه القارىء بصورة لا تتناسب وهدف (الواحة) وحتى نجمع بين اشباع ذوي الخبرة وامتاع رواد (الواحة) يكفي أن نذكر أن هناك أكثر من سبع نظريات حول هذا الموضوع ابرزها النظرية النفسية والنظرية التحليلية ونظرية الشخصية والنظرية الفسيولوجية وهي التي تؤكد على تحديد مناطق معينة في المجموعة العصبية للدماغ تتحكم في النزعات العدوانية ويمكن السيطرة عليها بواسطة العقاقير الطبية أو جراحة المخ واستئصال هذه المناطق وقد أثبتت نجاحا كبيرا وقطعت شوطا بعيدا في هذا المجال.

نظريات معاصرة :

قد تكون هذه النظريات من أهم الملاحظات القديمة التي خضعت حديثا للاختبار والتقنين داخل المختبرات في ظروف موضوعية خاضعة لمعيار الصدق والثبات وقد ساعد تطور وعي الانسان المعاصر عن طريق وسائل الاعلام الحديثة والتي نقلت مشكلة العنف الى كل مدينة في العالم وكل شارع في المدينة وكل غرفة في البيت... وأهم هذه النظريات هي (نظرية المحاكاة) خاصة عند الاطفال الذين يتعلمون عن تقليد الكبار وخاصة من الذين يمثلون مكانة خاصة كالابوين... والاقارب... والمعلمين... والطفل عندما يقلد يحاول اشباع رغبته في استرعاء انتباه من يحب أو القدوة.وبما أن معظم ابطال الشاشة يمثلون له القدوة فتقليدهم يشبع رغبته في تقمص شخصياتهم ولذلك نستطيع أن ندرك خطورة أثر مشاهد العنف في نفسية الطفل مع ملاحظة أن الصورة التي تمر في ثوان تبقى عالقة في ذهن الطفل لعدة شهور في حالات الكابوس والفزع الليلي مقارنة بما يشاهدونه في النهار. فتكاد تكون صورة طبق الاصل مع التحريفات اللازمة في حالات النوم، والنظرية الثانية هي أثر عامل الجماعة في العنف.. فاننا نلاحظ أن عقل الفرد يذوب في غوغائية الجماعة كظروف التجمعات الكبيرة والاضطرابات المنفعلة حيث يفقد الفرد التفكير المنطقيّ

وينساق بروح الايحاء من الجماعة فينتقل العنف كالعدوى من فرد لآخر والذي يشاهد مباريات كرة القدم في انحاء العالم يشهد بصدق القول بأن العنف الذي يبدأ بانفعال طارىء وموقف معين لا ينتهي بنهاية مسبباته وتتولد منه مضاعفات لا تمت بصلة لمصدر الاثارة الاول، وينتشر العنف كالحريق وسط الجماعة.

والنظرية الثالثة هي النظرية البيولوجية والتي تعتبر العنف احد السمات الغريزية في طبيعة الانسان... كالخير والشر... الحب والكراهية... أطراف البندول المتحرك في اتجاهين متعاكسين بقوة متوازية وأن الظروف البيئية تلعب دورا أساسيا في ترجيح كفة على أخرى وتبقى طبيعة العدوان كامنة وراء كثير من النوازع اللاشعورية نحو تدمير الذات كالادمان على المسكرات والمخدرات والانتحار وهو عدوان على الآخرين بمضاعفاته لا بمسبباته ويمثل العدوان على الآخرين كالعدوان التحولي، والذي يعني توجيه العنف نحو المصدر غير المباشر للاحباط ومن الامثلة العامة عقاب الأم للطفل كمحاولة لجذب الانتباه أو القسوة على الأب بطريق غير مباشر أو تحطيم الطفل للعبته كرد فعل لرفض طلباته الاخرى، ومن الطريف أن هذه النظرية تؤكد أن كثيرا من مشاعر العدوان تتحول الى قوة خلق أو طاقة ابداع في محاولات التفوق والارتقاء فوق مستوى الآخرين كنمط من السلوك العدواني المقبول اجتماعيا والتنفيس عن الشعور بصورة معافاة بطلاء خارجي.

كما تقرر أن كثير من النظم الاجتماعية والقوانين والوضعية هي محاولة مقبولة اجتماعيا للتعويض عن اتجاهات الانسان العدوانية على الآخرين فكثيرا ما يضع المجتمع من القوانين ما يحول به دون اعطاء كل ذي حق حقه كما يوجد قنوات لتمرير عطاء من لا يملك لمن لا يستحق، وقد يعمد الى الابطاء في انجاز معاملات مستوفية الشروط بقصد الحاق الضرر بالطرف الآخر في غياب المبرر القانوني الذي يخول له العدوان المباشر في شكل الرفض القاطع أو العدوان التحولي في شكل الهجوم المهذب، وتؤكد

النظرية أن كثيرا من نوازع الشر التي تتحرك داخل الفرد في اللحظة الواحدة تتخذ ألوانا شتى من الصراعات النفسية وعندما تواجه بالاحباط تتخذ صورة العدوان التحولي وهي أحد حيل النفس الدفاعية التي تحفظ للانسان ماء وجهه في مواجهة مواقف الانفعال.

وأخيرا ألم يكن مدح أبي الطيب المتنبي لسيف الدولة مباشرة نوعا من الدم (العدوان) غير المباشر على الآخرين حين قال :

اذا كان بعض الناس سيفا لدولة ففي الناس أبواق لها وطبول

ان العنف ظاهرة اجتماعية نفسية طبية تحتاج الى دراسات متخصصة ومستفيضة لانها ظاهرة متعددة الأطراف ويجب دراسة كل حالة على حدة.

وهناك فارق بين العنف والعدوان... فارق نوعي... وفارق موضوعي.

فالعنف نهاية الطريق في اتجاه السير في السلوك العدواني المستمر.

والعنف احد الوسائل للتعبير عن النزعات العدوانية.. وقد يتخذ عدة أنماط سلوكية أبرزها القوة.

القلق ... طاعون العصر الحديث

ان القلق مرض نفسي يتميز بالشعور بالتوتر الداخلي والخوف المستمر وتصاحبه اعراض عضوية في الجهاز الهضمي والتنفسي والعصبي والدوري والدموي والبولي والتناسلي الخ.

وهناك اعراض نفسية مثل سرعة الاثارة وصعوبة التركيز وكثرة النسيان والمخاوف المرضية وفقدان الشهية والارق والوهن الجسدي...

وهناك اعراض جسمية مثل مرض القرحة والقولون والذبحة الصدرية والسكر والاكزيما الخ.

والقلق ظاهرة طبيعية لدى الاسوياء من الناس حيث تصبح حافزا للعمل... وحاجزا ضد اللامبالاة والجمود في الاداء... ومحركا للطاقات المخزونة في الاتجاه الصحي... ولكن يصبح القلق ظاهرة غير طبيعية او حالة مرضية ويسمى القلق النفسي عندما يتجاوز الحد المعقول بحيث تطغى سلبياته المفرطة على ايجابياته المحدودة.

واخطر ما في القلق تطوره الى حلقة مفرغة يدور الفرد بين حالة القلق ـ الخوف وعندما يرتفع منسوب القلق فوق المعدل الطبيعي مثلما يرتفع منسوب ماء النهر فوق مستوى الضفاف يغرق الارض ويقتل الزرع... فينقلب شريان الحياة الى عاصفة دموية تقتلع الاجنة من رحم الارض وتقتل الحياة.

هذه مجرد صورة قلمية لوضع المعادلة الصعبة في متناول يد القاريء بلا رتوش فلسفية او خلفية ادبية او حتى نظارة طبية.

لقد كان القلق حتى عهد قريب ظاهرة صحية يتباهى بها الفرد في الاحساس المتعاظم بثقل المسئولية الملقاة على عاتقه وفي عصرنا الحديث عندما اصبحت الحياة صراعا من أجل البقاء... بين الخير والشر... والقوي والضعيف واضطراب الايقاع السوي لخطي الزمن اصبح القلق في اكثر صورة ظاهرة مرضية تمتد في عرض الصحراء وتغوص في عمق البحار بدأ بالخوف من فقدان التقدير الاجتماعي في ابسط صورة نهاية بالخوف من فقدان الايمان في اخطر عواقبه وبات الفرد في مهب الرياح يتنازعه ايمانه الفطري بالقضاء والقدر والرزق المحسوب والاجل المكتوب ويتنازعه الفزع الليلي والوسواس القهري من فوات الاوان في المطاردة وضياع الفرصة في المراهنة واصطياد الرزق بسنارة الآخرين والصعود فوق جماجم البشر اذن فالقلق طاقة ضرورية حتى لا تقف في وسط الطريق منهكين من طول المسيرة وصمام امان في اسطوانة الغاز الممتلئة بداخلنا حتى لا تنفجر غفلة في سباق التعبئة والتخزين الذي نمارسه في كل مجالات النشاط اليومي.

لقد عاصر بعضنا عصر الطاعون الذي قتل الناس بالآلاف... جثثنا في قارعة الطريق وتطور العلم ودخل الطاعون متحف التاريخ وافرز العلم التكنولوجيا التي قدمت لنا بديلا له في القلق النفسي وفتك بالآلاف بصورة مبطّئة في عبوات حديثة.

بعض الصور تتمثل في قوافل المخمورين المترنحين في الشوارع مثل شراع مركب قديم او المسنودين على جدران البيوت القديمة يجترون مأساتهم في صمت او المتحاملين على اقدامهم يحدثون انفسهم ويحاورون ذواتهم حول مشاغلهم الحياتية ونحن نرصد حركاتهم بعين الشفقة او ابتسامة السخرية او المحمولين على سيارات الاسعاف بعد ان سقطوا ضحايا معركة القلق من بناية عالية او تحت عجلات شاحنة ثقيلة او في

صدام سيارتين في وضح النهار في شارع كعرض البحر... لا المخطط ولا المحقق ولا الصحفي ولا رجل الشارع الذي اكتسب مناعة ضد صدمة المفاجآت يستطيع ان يوجد المبرر او يوضح التصور لامكانية حدوث ما حدث ومع ذلك يحدث هذا كل يوم وفي كل منعطف وامام لافتات في حجم البناية واخرى مثل ثقب الابرة.

والصورة الاخرى للطاعون الحديث هذه الكثرة الغالبة التي تتعارك مع ملاحظاتها التي تدونها بخط يدها في اوراقها او دفاتر الآخرين... فالقلق يصيب التركيز ويضعف التسجيل ويجهض الاختزان ويشوش الاسترجاع وبالتالي يضعف الذاكرة واكثر هذا حدوثا في الاحداث اليومية واشد ما يبدو في النهار عندما تتداخل الاحداث فالطالب يشكو ضعف التحصيل رغم التكرار والتاجر يشكو ضياع المفكرات بكل الاعذار والمحاسب ينعي اضمحلال قدرته على حفظ الارقام وينكفىء على الحاسب الالكتروني ليحفظ ماء وجهه والصحفي يتعلل بعدم قدرته على مجاراة مواعيد المقابلات الصحفية لان شريط تسجيل الذاكرة تآكل من ارتفاع منسوب القلق على موعد المقابلة وصدور الصحيفة.

وصورة اخرى تتمثل في الأم التي تعاني من القلق وشدة الأرق وتصحو متعبة وتتحرك في شبه غيبوبة بعد يوم طويل وتستقبل الصباح في انتظار قدوم الليل فأصوات الاطفال كالمطرقة في فروة الرأس... ووجه الاب كالمومياء المحنطة لا يحرك فيها شيئا والآخرون نماذج متكررة من الكآبة والسأم وتشكو من كثرة العمل حتى وان كان العمل مجرد تحضير الواجبات المنزلية اليومية.

واخطر اعراض الطاعون الحديث تصاعد ضحايا الذبحة او السكتة القلبية من الشباب الذي يدور في طاحونة القلق التي تطحنه ناعما وتعصره حتى يتوقف نبض القلب ان المعروف علميا ان القلق يزيد سرعة تجلط الدم كظاهرة فسيولوجية لاعداد الجسم للطوارىء كالهجوم او الهروب وسرعة التجلط تزيد من انسداد الشريان التاجي للقلب وحدوث السكتة ولعل هذا

يسلط قليلا من الضوء على ارتفاع نسبة السكتة القلبية الى جانب اسباب اخرى في هذا العصر... عصر الازمة المتقلبة... كثرة التدخين وتعاطي الكحول والافراط في الاكل وقلة الحركة وتعاطي المنبهات واذا اخذنا هذه المظاهر نفسها لوجدنا انها نوع من الترويج النفسي او التفريغ العقلي.

بقى لنا ان نتذكر ان الطاعون الذي فتك بالآلاف في الماضي واكتسب شهرته بلغة الارقام من الضحايا قبل الاكتشاف العلمي يقابله الطاعون الحديث الذي يكتسب خطورته من خوف الناس من الاعتراف به او جهلهم بأعراضه او عدم رغبتهم في الافصاح عنه لانه يمثل نوعا من ضعف النفس وكأنما قوة النفس تتمثل في مناطحة الصخر وكما ذكرنا ان الخوف من المرض النفسي في حد ذاته تعبير عن المرض النفسي مما يزيد الامر تعقيدا قدرة الانسان على ان يتبسم في اقسى لحظات حياته... وقناعتنا الفطرية بأن الذي يضحك من الخارج لا ينزف من الداخل وان المريض فقط هو الذي يحتل سريرا داخل المستشفى يحمل استمارة تشخيص وان الذي يرمي بنفسه من الطابق العاشر او يقفز بسيارته الى أعلى دوار في العاصمة او ينسى حقيبة المليون درهم في مقعد سيارة او يضرب طفله بعصا ويكسر جمجمته ليس مريضا وقد يكون مجرما واذا انتظرنا حتى يفوق عدد المجرمين نسبة المرضى النفسيين يكون القلق قد قضى على ثرواتنا البشرية وفرض الطاعون الحديث نفسه علينا بلغة الارقام التي دخل بها الطاعون القديم اكبر بوابات التاريخ البشري.

فحتى تنجح الصحافة في ازالة وصمة المرض النفسي من ذهن عامة الناس وحتى ينجح الطبيب النفسي في كسب ثقة المجتمع وحتى ينجح المجتمع بالارتقاء بأفراده الى درجة الوعي الذي يصبح فيه المرض النفسي احد هموم الاسرة اليومية الذي يأتي في أولوية قائمة اهتماماتها سيظل الطاعون الحديث يفتك بالآلاف وسيظل القلق النفسي ينخر في عظامنا ويهدم في بنيتنا الاجتماعية مثلما يفعل الصدأ في اجزاء السيارة التي تتوهج من الخارج وتتداعى من الداخل ولا نشعر بالمأساة الا عندما ندير المحرك.

حصاد العمر في الغربة

أحكي لكم قصتي... حكاية الكثيرين... بداية المأساة أو نهاية الحلم النائم تحت جفون الأقربين وصلة القربى لا تشترط علاقة الرحم والدم أو عنصر النسب والمصاهرة... وقد تتوطد العروة الوثقي بوشيجة الود... وروح المواطنة... وعاطفة الزمالة... وقد قيل (رب أخ لك لم تلده أمك).

وهي قصة أحد الأخوان الذين لم تلدهم أمي... ولكنهم خرجوا من رحم المأساة الذي حملهم سنوات قبل أن يجيئه المخاض فيولدون تحت جذع شجرة في مكان بعيد... ولادة الرحم المتورم في أحشاء الزمن العانس... فقد حبل بهم عند سن اليأس... وولدوا في مرحلة الخرف المبكر تحت كنف الأب الضرير الذي يحمل عصا موسى يشق بها بحر الظلمات... ونشأوا موزعي الولاء... في الشعور والانتماء... بين جيلين : الأول قضى نحبه والثاني ما زال ينتظر...

وتضحك الاقدار

قصة صديقي بدأت في المرحلة الثانوية... تلازمنا ملازمة الظل... في المدرسة والفصل... والقول والفعل... قول الحق ولو على أنفسنا وقوة الفعل في زمن سابق كان الفعل مشترطا بقوة الارادة... وقدرة الاداء...

وروح المصادمة... فكان أكثر مني جرأة وأقوى عودا وأشد انفجارا وامتدت بنا مسيرة الود حتى كلية الطب بالجامعة وظل يحمل مصباح علاء الدين في دهاليز الليل المظلم حتى غسل الصبح عباءة النهار... وتخرجنا وذهبنا للقصر الجمهوري لأداء قسم أبوقراط... القسم الذي حمله منذ تلك اللحظة مثل صخرة سيزيف... كلما ارتفع بها خطوات صاعدا جبل المسئولية سقطت وعاد يرفعها من جديد، هذا الجهد المتكرر في دوامة الأخذ والعطاء... فلم يسقط القسم ولم تقع الصخرة وسقط فداء لهما في مكان البديل مرددا (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا)، وبعد التخرج حاول اختصار الطريق الى الوصول فأنخرط في الطب الوقائي وقادة قدره المكتوب أن يكر البصر مرتين ليبدأ مسيرة المليون ميل بخطوة جديدة في اتجاه التخصص في طب الاطفال... والتقيت به في لندن مرة ثانية قائلا (وتقدرون... فتضحك الأقدار) فقال لي « لا تستغرب أن التقيت بك مرة ثالثة في تخصص آخر فقد أصبحنا مثل (ابن بطوطه) لا نلقى عصا الترحال الا ونشد الرحال ».

لكل أجل كتاب

تمر بنا السنوات حبلى بأصناف الاحداث واشتات المواقف المتناثرة كالرصاص... في قلب الوطن العربي... وصدر العالم الاوروبي... وجسد الوطن الأم واحشاء البلاد الاخرى... وفي كل لحظة يأتي مولود جديد. وكأنه في تخصصه في طب الأطفال مسئول عن ولادة كل حدث يحمل همومه في ضمير مظلوم وتفرقت بنا السبل وتشعبت بنا الغايات... وافترقنا قرابة العشر سنوات... ولم يبق بيننا من اتصال غير صورة التخرج في برواز كبير يحتل مساحة ضيقة في غرفة الاستقبال... وكلما طالعت الوجوه تذكرت الابعاد الخرافية التي تفصل البيادر حيث تعيش أسراب كل هذه الطيور المهاجرة... ومن منا لا يجلس في لحظة تداع حر...يجتر ذكريات الدراسة ويتأمل في الوجوه ويقارن بين التقاطيع التي تتفتح نضارة

والهياكل والتماثيل التي تترنح من الاعياء يصدق فيها قول أبي الطيب المتنبي :

يكفي نحولا أنني رجل   لولا مخاطبتي اياك لم ترني

وحقا لقد شوهت الايام اجمل المقاطع في كل الوجوه مثلما مسحت رياح الخماسين أبرز المعالم في خريطة العالم الثالث.

وفجأة على غير ميعاد... بعد عشر سنوات من الفراق تلاقينا وجها لوجه في أبو ظبي... هو نازح من قلب المحيط الاطلسي وأنا وافد من ناصية الخليج العربي... وشرقت حتى كاد الدمع يشق بي ولم أصدق وذهلت وفرحت وجزنت وتجمعت كل انفعالات الحياة في لحظة ميلاد جديد وقلت له :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما   يظنان كل الظّن أن لا تلاقيا

حديد المسئولية :

وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث في بيت الضيافة بوزارة الصحة قبل خميس سنوات من شرفة تطل على ساحة عريضة تهدر فيها الجرافات الثقيلة لتضيف مساحات جديدة لأطراف المدينة حيث قام حي النادي السياحي... وكان فراغا على مدى البصر نرى من خلاله السفن... المقبلة والمدبرة من ميناء زايد لا يفصل بيننا الا ذلك الزمن الذي انسلخ من عمرنا خلال سنوات... قامت احياء وارتفعت مآذن وولدت أجيال وتسلل الشيب الى رأس صديقي ووهن العظم ودب الوهن في قرارة نفسي وضعفت المقاومة... فقد أكل الاكتاف حديد المسئولية... وتركت مسئوليات العمل والأسرة في الغربة بصماتها واضحة على خريطة الاصرار في وجوهنا... ومواقع القرار في نفوسنا وأصبحنا رهينة في يد أخرى نتحرك بارادة نصف مشلولة وقرار شبه جاهز وعيون نصف مغلقة.

وتتوالى الاحداث علينا محشورين في زاوية ضيقة بين المطرقة والسندان وتتوالى الضربات في أعماق العمق... ونفترق داخل مدينة واحدة لا نلتقي الا في (موسم الهجرة الى السودان) في العطلات أمام بوابة الوزارة في انتظار انجاز معاملة نتصبب عرقا من الخارج وننزف دما من الداخل.

نقطة الانكسار

يقول علماء الفيزياء — ان لكل فعل رد فعل متساويا وعكسيا... ويقول علماء النفس... ان لكل فرد موقف انهيار مثلما لكل جسم صلب نقطة انكسار... نقطعه الضعف... وعندما تتوالى الضغوط يحدث هذا التراكم الكمي والكيفي أثره في نقطة معينة فيحدث الانكسار وقد ظل صديقي... بطل قصتي... ورمز مأساتي يعمل في موقعه مثل خلية النحل كاستشاري في طب الاطفال في المستشفى المركزي يستقبل أفواج المراجعين بحكمة الكاظمين الغيظ... العافين عن الناس... وظل يتحرك بعيدا عن مواقع الظل في هجير الاغتراب... يؤرقه حلم العودة وتشده حبال المسئولية... ويطحنه صراع الملاءمة بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون... صراع الاختيار بين أمرين كلاهما مر... وحتمية البقاء في المرض والسواء بين فكي الرحى... موقف الجمود في قضية الوجود... ان تكون كما ينبغي أو لا تكون... ان تتحرك في مكانك أو تبقى كالمسمار في قلب الجدار وكالرقم الضائع في قائمة الانتظار... انتظار لحظة الخروج من حلبة الصراع... فالداخل مفقود والخارج مولود وكالمستجير من الرمضاء بالنار دخل صديقي ساحة الاغتراب... تحت لافتة (ممنوع الانفجار) رغم كل الاخطار... وعندما وصل لحظة التحول الحتمي في تفاعل الضغوط وصل لحظة الانكسار... فتوقف قلبه احتجاجا عن العمل عندما رفض هو الوقوف عن الحركة... كرافعة الميناء تعمل ليل نهار... كالطبق الطائر عبر متاهات أسطورية بين زماننا وعهد سقراط وأبو قراط تحت سياط الضمير المتيقظ... المتوثب المتنقل بجراحات المسئولية المتنقل بأجنحة متكسرة من فرط التجوال... وكثرة الترحال.

غرفةالعناية المركزة

في هذه اللحظة يرقد صديقي في غرفة العناية المركزة رغم أنف الطب الذي علمنا أن أسباب امراض القلب والذبحة الصدرية (والجلطة) هي عامل السن... ونعمة التخمة... ومرض السمنة... وكثرة التدخين... وتعاطي الكحول الى آخر قائمة الامراض الاجتماعية... وبما أن صديقي من القلة النادرة من الرجال التي لا تتحلى بهذه الخصال فقد كانت الضغوط النفسية هي القشة التي قصمت ظهر البعير.

وما أشبه الليلة بالبارحة... فقبل عامين... كنت أدخل مكتبي وانحنيت لالتقط المفتاح فانشطر ظهري وتيبست كالتمثال وخرجت محمولا على الاكتاف الى سيارة الاسعاف وكان يرافقني في رحلة الموت الى المطار صديقي هذا ممسكا بأقدامي حتى لا ينزلق الغضروف الى النخاع.

والآن يرقد مسجي ... غافيا... تحت رعاية العناية الالهية تدخل وتخرج من جسده الاسلاك والأنابيب تحمل له أكسير الحياة من الماء والهواء... وقد كانت الأنابيب جسور العافية التي نسجها من أعصابه وعروقه لتربط بينه وبين مرضاه... فرقد على سريره علامة جديدة في طريق الألغام الذي تسير فيه قافلة المغتربين... وشاهد صدق على ظلم الانسان لاخيه الانسان وصدق من قال : ان الضغوط فوق طاقة الاحتمال تقصم ظهور أعتى الرجال.

وحتى كتابة هذه السطور فان الامل والرجاء يملأ قلوب الأهل والاصدقاء... فقلبه الكبير ما زال ينبض ــ مؤمنا بالقضاء والقدر ــ بقوة مستمدة من قدرة الهية مستجيبة لدعوات مسموعة... وأكف مرفوعة وضراعات مشفوعة للمولى عز وجل أن ينعم عليه بالشفاء العاجل... سبحانه الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي... وهو على كل شيء قدير...

ما لنا وما علينا

قطعا لن أضيف جديدا اذا قلت ان الحياة أخذ وعطاء وهذه مقولة مأثورة... ومن عيوب التعامل بالاقوال المأثورة انها تضعف في تأثيرها مثل الأحاديث المنقولة عبر الاجيال وتصبح كالعملة القديمة في سوق التداول لا يعرف الناس قيمتها الحقيقية من فرط ما أصبحت مألوفة... متناقلة بين شفاه الناس... فيصدق عليها الوصف (قديمة) و(مكررة)... ولا جديد تحت الشمس.

والواقع ان الجديد في الشي لا يكمن في رونقه وروعته وانما في معدنه وقيمته... فكثير من الاقوال والامثال والحكايا الشعبية والفلكلورية تحمل دلالة عملية وأدبية وثقافية عالية ولكننا نسقط في سطحية التعمق فيها لأنها أصبحت كاشارات المرور نعرف اشكالها ونتجاهل مضمونها... لأنها مألوفة ومكررة... ولو وقفنا لحظة فيما يمكن ان يحدث لو تجاوزنا هذه الاشارات لادركنا هول المضاعفات ووقفنا لحظات ولحظات.

وتعود الى الأخذ والعطاء... فالأخذ لنا... والعطاء علينا... وكثيرا ما ندرك ما لنا وغالبا ما ننسى ما علينا... وهي غريزة من الطفولة الى الشيخوخة... ومن علامات النضج النفسي ان يعي الانسان ما عليه قبل أن يفكر فيما له... ما عليه تجاه الأسرة... والاصدقاء... والاهل والوطن... ولأننا نقلب الآية... فنفكر فيما لنا... برأي يذكرنا بما علينا اعتداء... واجحافا وظلما وعدوانا، فتكون الاستجابة الأسراف في المطالبة بما لنا حتى مرحلة الصدام مع الاسرة... والمجتمع والدولة.

أليست الصراعات بين الجماعات والدول حول : ما لنا ... وما علينا.

آيبون... عائدون... تائبون

الكثيرون يحفظون بيت الشعر الشهير عن فوائد الاسفار المعدودة على اصابع اليد الواحدة (سافر فللاسفار خمس فوائد) ولو قدر للشاعر ان يعايش عصرنا هذا لاصابه الاعياء من تعداد فوائد السفر.

وانقطست انفاسه من لهاث العد التنازلي عن اضرار السفر قبل وصوله رقم الصفر... لحظة اقلاع الطائرة الى قارة... او انطلاق الصاروخ الى فضاء ساخرا من القائل :

سافر تجد عوضا عمن تفارقهم   وانصب فان لذيذ العيش في النصب

كان هذا لسان حال الشاعر في زمان سفر الطقوس الذي يعد له الزاد... وتشد له الراحلة وتؤمن له الصحبة الطيبة ويسدى فيه النصح (لا تطر قبل ان ترتاش) فكان السفر له قداسة الاجر الطيب والعمل المستحب وفي الحديث (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن... دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده) وما أحوج مسافر اليوم الى كل انواع الدعاء.

فالآن تغير الزاد وتنوعت الحافلة وتبدلت الصحبة واختلفت الطريق... وأمام متغيرات هذه الحياة تغيرات المفاهيم المأثورة في قاموس السفر... فانقلبت مشقة السفر الى متعه ولكن غلبت اضراره فوائده... بداية بالهجرة

عن الاهل تحت الوصف التعريفي (الاغتراب) نهاية بذوبان الكيانات الاجتماعية القائمة تحت مظلة المسمى الوظيفي (العمالة الوافدة).

وفي الحديث (السفر قطعة من العذاب يمنع احدكم طعامه وشرابه ونومه فاذا قضى احدكم نهمته من سفره فليعجل الى أهله) وتتعالى اصوات وكالات السياحة بالدعوة للسفر على متن اعظم طائرات الخطوط الجوية العالمية التي توفر لك الراحة التامة والخدمة السريعة الممتازة وينتقل بيتك على بساط الريح المزود بأجنحة (البوينج) ومحركات (الجامبو جيت) وعجائب (الكونكورد) والتي تشطب التوقيت الزمني من ذاكرة الانسان الا من خلال تناول الوجبات الثلاث في آسيا... وافريقيا... واوروبا بالتوالي ثم العودة لتقضي ليلتك في رحاب الخليج (والذي خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون) صدق الله العظيم.

عائدون ... عائدون

زرت مصر في عام ١٩٦٤م مع نخبة من طلبة جامعة الخرطوم بدعوة كريمة من (جمعية الصداقة العربية) بجامعة القاهرة الام.. وضيوفاً على قسم الوفود والمؤتمرات الذي طاف بنا قاهرة المعز وهي ترفل في عباءة أم العروبة القومية والتاريخية آنذاك بكل ابعادها الحقيقية من معالم أثريّة وازقة شعبية وكللت الدعوة بزيارة للارض المحتلة... فركبنا القطار الى (قطاع غزه) حيث استقبلنا الحاكم المصري وسافرنا داخل نفوسنا في رحلة ذهول عالقة بذهني كحيرة وجوه صبية (العريش) حتى وصلنا نقطة خط النار حيث يقف جندي العدو في مواجهة الجندي العربي على مسافة بضعة امتار يفصلها عازل خطوط التماس (نواطير) الامم المتحدة من الكتيبة الكندية وكان الجانبان يتبادلان اشارات السخرية والتحدي في صمت يهدد بالانفجار وتتحرك عيونهم مثل البوصلة التي ترصد اتجاه الرياح القادمة من شتى الاتجاهات.

وفي طريق العودة الى الداخل كانت جدران المدينة تسبح في فيضان الملصقات الجدارية (عائدون... عائدون) دعوة للعودة الى الداخل... حيث يعيش هؤلاء غربة نفسية في تراب الارض التي ولدوا فيها وبيارات البرتقال التي حرثوا أرضها... يحلمون بالعودة الى ذواتهم الى الوطن المخبأ في أعماقهم يعيشون فيه ويحتمون خلف زناد البندقية من شاحنات التهجير وهذا أقسى انواع الاغتراب... داخل وطنك وبين أهلك ومع ذاتك حيث لا تملك حرية الاختيار في الدخول والخروج وطوبى للغرباء.

موسم العودة

اذا كان ذلك نموذج العودة الى الداخل فان نماذج الهجرة الى الخارج تتعدد وتتكاثر وتتشكل وتتلون تحت شتى المسميات المحلية والاقليمية والدولية... فالهجرة المحلية من الريف الى الحضر داخل الوطن والعودة... والهجرة الاقليمية من بلد الى آخر والعودة... والهجرة الدولية من قارة الى أخرى والعودة... فاذا كانت تسمى (الهجرة) منذ عهد الصحابة الأولى تشريفا (للمهاجرين في سبيل الله) وتسمى (اغترابا) في الوقت الحاضر تعريفا (بالنازحين) من اجل الرزق) فان شدة تشابه الحقيقتين في الوسيلة وقلة تقارب السلوكين في الغاية مثار جدل طويل يحتاج الى اعادة نظر من الفرد... والمجتمع والدولة والمؤسسات العالمية مثل هيئة الصحة العالمية واليونسكو واليونسيف لتمييز معالم الفارق النوعي والموضوعي حتى نصل الى نتيجة علمية تضع الاطار الصحيح لضوابط الهجرة وقوانين الاغتراب فلا تطغى فوائد الاسفار على اضراره... ولا تفوق ارقام المغادرين نسبة العائدين... وحقيقة لم يخرج كل المهاجرين في سبيل الله فقط ولم ينزح كل (المغتربين) من اجل الرزق وحده... لان المصائب تجمع المصابينا.

ودعنا نتأمل ما يحدث هنا في مثل هذا الوقت من كل عام في موسم العودة الى البلد الثاني أو الوطن الأم حيث يحزم المسافرون حقائبهم من

شتى القبائل والجنسيات فاذا اصبحت فائدة الاسفار لا تحصى ولا تعد فان اضراره الواضحة والمستترة كثرت حتى اتسع الخرق على الراتق واصبح السفر متعة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب... فالمتعة في ملاقاة الاهل وصلة الرحم تقابلها الرغبة في شراء عشرات الحقائب الحبلى باصناف الهدايا شعورا بضرورة الوفاء بالتزامات تحفظ ماء الوجه وتبرر قرار الخروج من دائرة الوطن... بما يستوجب ان تكون محصلة العائد المادي الادبي تعويضا مجزيا للفقد الحسي والمعنوي لحضور الفرد في وجدان الاهل، وداخل هذه المتاهة يدور العائد المغترب باعصاب كالوتر المشدود تتأوه نبراته باكية :

دقات قلب المـــرء قائلة له ان الحيـــاة دقائـــق وثـــوان

ان معاناة عام كامل من الجهد المتواصل تتفجر مثل بالونات الاختبار أمام شباك البنوك ووكالات السفر والسياحة وردهات الاسواق المكتظة بالاوكازيونوهات الحقيقية والتنزيلات الوهمية التي تخطف الابصار المتعلقة بالنوافذ الزجاجية تطالعها من الداخل وجوه الشماتة (العين بصيرة واليد قصيرة).

وما كل ذي عينين بالفعل يبصر ولا كل ذي كفين يؤتى فيؤجر

وبعض العائدين يقنع بالاياب... وبعضهم يفضل معاناة البقاء على ذل العودة وبعضهم تأخذه العزة بالاثم فيصرف ما في الجيب انتظار لما في الغيب حتى لا يفوته قطار العودة وقلة نادرة تؤثر القول بالمعروف على الصدقة مع الاذى وتسافر مع المهللين المكبرين المرددين للحديث (اللهم انا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى وفي العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطوعنا بعده... اللهم انت الصاحب في السفر والخليفة في الاهل، اللهم اني اعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والاهل والولد، واذا عاد قالهن وزاد فيهن... آيبون... عائدون... تائبون... عابدون لربنا حامدون).

ويتكرر موسم العودة في كل عام... آيبون... عائدون... تائبون.. وكل عام وانتم بخير.

مغادرون، نعم... عائدون.. لا

لقد أصبح من المناظر المألوفة في صالات المغادرين او العائدين في مطاراتنا العربية مشاهدة اسرة كاملة متجمعة حول احد ابنائها الشبان دون العشرين في لحظة وداع تمتزج فيها دموع الفرح... ومشاعر الانفعال... شتى الاحاسيس المثيرة لفضول المراقب لهذا الموقف الضاحك الباكي... واذا قدر للمرء ان يكون في صالة العائدين يتكرر المنظر في الجانب الآخر بصورة في اطار يختلف باختلاف مشاعر الفرد في حالة الوداع والاستقبال.

واذا كنت احد الذين عاشوا التجربة طرفا فيها او شاهدوا الموقف تأثرا به يدفعهم فضول غريزي الى معرفة الحقيقة لوجدت ان الاسرة في الحالتين كانت تودع او تستقبل ابنها المسافر او العائد من الدراسة بالخارج... تشدك (بانوراما) انفعالات... الشعور بالزهو بالابن المسافر لطلب العلم... الشعور بالخوف من شبح المجهول الذي يطل على نضرة هذا العود الاخضر والشعور بالأمل المعقود على حصاد هذه الرحلة... وفي لحظة العودة كل مرة تتجدد نفس الانفعالات بصورة مغايرة... بالوجه الآخر لنفس العملة... لقد تجدد الشعور بالزهو... وتبدد الشعور بالخوف وتوقد الأمل في لحظة الحصاد... موسم العودة للوطن الأم.

الظاهرة الجديدة

ان هذا المنظر المألوف اصبح يشكل ظاهرة جديدة بدأت تتخذ ابعادا

مثيرة للقلق والدهشة في المجتمعات النامية عامة... ودول العالم الثالث خاصة... لقد كان في اغلب الأحيان بالماضي يسافر الطالب للدراسة فوق الجامعية وقد نضج غودة واشتد ساعده... وتبقى ذات المشاعر في لحظة الوداع والعودة اكثر نضجا واقل اثارة لاختلاف النموذجين من الهجرة...

أما الآن وانا اتحدث من واقع « ارشيف » الاحداث ومن احصائيات لا تفتقر الى سند الأرقام فان اعداد المسافرين للخارج من فئة الشباب دون العشرين للدراسة الجامعية او تحت الجامعية قد تجاوز الحد المعقول بكل المعايير على نطاق العالم العربي وحطم كل الارقام القياسية حتى بالمقارنة مع اعداد المسافرين من مجموعة الدول للدراسات فوق الجامعية. وحتى لو افترضنا ان الضرورات تبيح المحظورات وان طلب العلم فضيلة والعلم من المهد الى اللحد. فلا بد ان نتساءل لماذا تسافر كل هذه الاعداد الى الخارج للدراسة الجامعية وتحت الجامعية وهذا مصدر الأرق، هل يرجع لقلة المقاعد الدراسية في جامعاتنا، هل يرجع لتدني المستوى العلمي، هل تفرضه رغبة الأهل في التباهي بوجود ابنهم في الخارج للدراسات العليا، هل مصدره شخصية الطالب نفسه والذي منذ ان وطئت اقدامه ساحة الثانوية العامة يظل يحلم بساعة الصفر وانطلاق اول طائرة تحمله للدراسة بالخارج حتى وان كانت كل الظروف مواتية داخل مجتمعه.

انني ادرك سلفا ان كل هذه العوامل مجتمعه مسئولة عن تفسير ظاهرة الهجرة العشوائية للخارج الى جانب عوامل اخرى طرأت على البنية الأساسية لمجتمعاتنا فافرزت سلبيات كان من بينها الاغتراب من أجل العلم والاغتراب من اجل الاغتراب.

ظروف الهجرة

إن الظاهرة جديرة بالدراسة فقد اصبحت تطل برأسها على كل المجتمعات ولتكن اكثر موضوعية فنبدأ بالمجتمع العربي من المحيط الى الخليج ولنكن اكثر دقة في حصر ظاهرة الدراسة في المرحلة الجامعية وتحت

الجامعية بالخارج. ان التجربة في دول عربية كثيرة ولعقود خلت ومن بينها بلادي ومحيط علاقاتي اثبتت في البداية ان كثيرين من الذين يسافرون للخارج للدراسة الجامعية كانت لهم مبررات خاصة اكثرها الهبوط المفاجىء في معدلات الدخول للكلية المرغوبة او عدم توفر اي مقعد مناسب في الجامعة او وجود منحة دراسية على نفقة الدولة او محاولة سد العجز في التخصصات المطلوبة او رغبة قلة من الأسر المقتدرة في تخطي كل هذه الظروف... وكان العائد كبيرا لأن اكثر البعثات تدور داخل اطار الدول العربية ذاتها حيث تتشابه البيئة وتقل مشاكل التكيف وتمتد جسور العودة... ثم ماذا بعد، لقد اصبحت ظروف الهجرة لغير الأسباب المذكورة ولغير الدول المشار اليها ولهذا يستحق ان نؤرخ لهذه الظاهرة بالدراسات التتبعية لكل ابعادها ولفترة زمنية ممتدة.

وقد دلت تجارب نفس الدول ان كثيرا من المسافرين للخارج من هذه الفئة في الظروف الراهنة نماذج طلاب ينفقون اغلى سنوات العمر في الدراسة ويعودون وقد فقدوا وقودهم الذهني في استمرارية العطاء او يقنعون من الغنيمة بالاياب او يقضون بقية العمر في المهجر يتزوجون... وينجبون... ويتصلون... او تنقطع بهم السبل من كثرة الترحال وشد الرحال او يعودون بعد معاناة طويلة من امراض نفسية او جـ..بة الى الملجأ الأخير... احضان الوطن المنظر، او يرجعون بتخصصات لم تكن واردة في حساباتهم لحظة الاقلاع من مطارات بلادهم وعليهم ان يعيشوا تجربة تكيف جديدة مفروضة عليهم وعلى الآخرين... وأخيرا نجد القلة التي تتوفر لها الظروف المثالية فتعود بتجارب ثرة وخبرات نادرة في مجال رحابة العمل والممارسة ومعايشة انماط متعددة من واقع الحياة ولكن،،

أخطار الظاهرة

ان هذه الظاهرة في شموليتها حرب استنزاف بين الدول المتقدمة والدول النامية في مضمار الثروة البشرية وفي خصوصيتها عملية تفريغ للمؤسسات الاكاديمية من العقول المهاجرة وفي عموميتها مؤشر خطير

لوجود جو من عدم الاستقرار النفسي وسط هذه الفئة من الشباب ينتشر كالحريق ودليل تصعيد لحدة صراع الاستقلالية والاتكالية بين الأسرة والطالب وفرض واقع جديد في المجتمع يكرس مقولة ان التفوق الاكاديمي لا يتحقق الا في الجامعات الأجنبية هذا على الصعيد الداخلي وعلى الصعيد الخارجي فان غالبية الطلاب الذين يسافرون للدراسة الجامعية ودون الجامعية بحكم السن في طور المراهقة واكثر حاجة لرعاية الأسرة والتوجيه فاذا كانت هذه الضوابط صعبة في ظل الاسرة فهي بالضرورة شبه مستحيلة في المجتمعات الاوروبية التي تدفع بهم في اتجاه معاداة ومصادمة كل ما هو سلطوي حتى وان كان هدفه تحقيق نجاح الدراسة والتكيف والمستقبل وتأمين الحياة ذاتها للطالب.

مشاكل التكيف

ان اول مشاكل التكيف رغبة الطالب في الانعتاق من ضوابط المجتمع القديم والرغبة في تكوين شخصية مستقلة وعند ذوي الاستعداد الفطري للاضطرابات النفسية يسهل استغلال هذه الرغبة في أكثر الاتجاهات سلبية بداية بالانسلاخ من جلدة التقاليد ونخاع البيئة وروح الانتماء الى قيم المجتمع القديم نهاية بالانغماس في كل انواع المغريات... والشللية الضالة... والملاهي الليلية ومستنقع المخدرات... وهبوط المستوى العلمي ثم ترك الدراسة نهائيا... والانخراط في موجات العنف والتخريب وهي آخر مراحل صراع (الاقبال ــ الاحجام) الاقبال نحو المجتمعات المفتوحة بعوامل الشد والجذب المتعددة والاحجام بوازع الالتزام ببقايا قيم مجتمع الوطن وتقاليد الأمة التي ما تزال متأصلة داخل النفس... وحل هذه الصراعات يتطلب درجة من النضج العقلي وتماسك الشخصية وقوة الارادة بما لا يتوفر لكثيرين... ويأتي ذروة الصراع في الماديات فاما ان يكون الطالب ينبوعا ثرا للعطاء المادي وضحية ابتزاز الشلة بلا مقابل او بالمشاركة رغبة او رهبة او فقيرا معدما ينخرط في الشلة من اجل التكسب والعيش او يبحث عن عمل آخر ويترك الدراسة. يصبح (الصراع من أجل

البقاء) هو القانون الوحيد الذي يحكم حياة الطالب وفي مثل هذه السن يفقد الطالب روح الانتماء للاسرة والمجتمع... والدولة... والقومية وهذه بداية الهزيمة... ولو قدر لأحد ان يزور المجتمعات الأوروبية ويحصى اعداد الشباب العربي المحشور في زاوية النسيان في الأحياء المهجورة في خريطة المجتمع لا تصله وسائل الاعلام الا في حوادث الشغب... والتظاهرات المعادية وحصار السفارات او احتجاز الرهائن او اذا سألت عائدون، قالوا :

لا... فقد انقطعت جذورهم بتراب الأرض حتى القلة التي توفرت لها ظروف وصلت بها الى مواقع المسئولية خضعت لدراسات جادة ومعادلات دقيقة بين عوامل الدفع نحو الوطن الأم وعوامل الجذب نحو المجتمع الجديد... فتوفرت بها كل اسباب البقاء المريح هناك... والى ان نجد الصيغة المناسبة التي تحدد كل عناصر هذه الظاهرة الجديدة سنظل نجتر الموال الحزين :

مغادرون، نعم... عائدون، لا...،

خير الكلام

يقودني الحديث عن علاقة العمر بالنضج العقلي وحكمة التجربة الى اعرابي سأل سيدنا العباسي قائلا : « أأنت اكبر ام الرسول »، فأجاب العباس : « رسول الله اكبر مني وانا ولدت قبله. »

حقيقة الوجه الآخر

يحضرني في هذه المناسبة بيت شعر من قصيدة صوفية مطولة يقول :

ليس الغريب غريب الدار والوطن ان الغريب غريب اللحد والكفن

ربما انني لا أحفظ من الشعر الصوفي الا ما يبعث الطمأنينة في النفس ويدفع العقل الى التفكير ويبعد عن تبسيط روح العمل من خلال روحانية العبادة فقد استوقفتني كلمة (الغريب) في قول الشاعر :

فالغريب هنا... من جعل الدنيا مزرعة الآخرة... واعتبر الحياة عارية مستردة فلا الدار ولا الوطن ضالة الانسان... وانما جسر العبور الى حياة أخرى يصحبه فيها الاهل والمال والعمل فيعود الاهل والمال ويبقى العمل الرصيد المتبقى من حساب الحياة... والغربة هنا موقف فلسفي طرفه الاول كسب الدنيا والثاني حساب الآخرة والغريب صاحب الرسالة الذي ظل غريبا وسيعود غريبا وطوبى للغرباء واذا قدمنا عجز البيت على صدره بهذه الصورة :

ليس الغريب غريب اللحد والكفن ان الغريب غريب الدار والوطن

فالغريب هنا هو الذي يعاني حالة الوطّان (Nostalgia) أو الحنين الى الوطن حالة تجاوز الخوف من رهبة الموت ودهشة القبر الى رغبة العودة الى حضن الاهل ودفء القبيلة... وحب البقاء رغم كل المعاناة

ومشاعر الاحباط، فالغريب هنا يقف على قمة جبل ممسكا بحبل يشده الى الطرف الآخر من الوادي المقدس. واذا بدلنا صورة البيت الشعري كله...

ليس الغريب غريب الدار والسكن   ان الغريب غريب النفس في الوطن

فالغريب هنا... يقف على سطح الصفيح الساخن ممزقا بين مشاعر الحزن والمسرة مواقف الاقبال والاحجام... خيوط مأساة تتجمع في مغزل نسيج يصنع بساطا سحريا يحمل الفرد من ظل الى آخر... لا راحلا للخارج ولا مستوطنا بالداخل... فلا السيناريو الضاحك ولا التابلوهات الراقصة قادرة على صهره في بوتقة الجماعة... من نفس فصيلة الدم وخلايا الرحم وهذا احساس قاتل بالضياع في حياة الفرد... واذا وضعنا البيت لهذه الصورة :

ليس الغريب غريب النفس في الوطن   ان الغريب غريب الروح في البدن

فالغريب هنا يعيش في عزلة نفسية داخل ذاته... وهذا أقسى أنواع الغربة وقد تصل الى حالة مرضية يفتقد الفرد فيها متعة التوازن النفسي ولذة التوافق الاجتماعي فقط وانما تصل الى مرحلة الاضطراب السلوكي الانساني في المشاركة والمعايشة والتعبير وهي حالة أشبه بالدفن قبل الأوان.

الجاهلية الاولى :

قد يتذكر القارىء رائعة الشاعر (ادجار ألن بو) بعنوان (الدفن قبل الاوان) حيث جمعت في مواقف ذاتية مكثفة تعريفات (الغريب) المذكورة عندما فقد أمه في طفولته المبكرة وقد جسد شعوره الخاص في صراع أمه مع الموت... الحبيبة الراحلة... وحشة القبر... وغربة الجسد خارج الدار، وغربة النفس داخل الدار... وغربة الروح داخل البدن.

واذا نظرنا الى فلسفة الموت في قصيدة (ادجار ألن بو) وفلسفة الموت لدى الشاعر الصوفي فلا بد أن نذكر المواقف المأساوية في الجاهلية الاولى حيث كان وأد البنات خوف العار... من أكبر سمات

العصر الجاهلي... حتى نزلت الآية الكريمة (واذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت) وشهدت عصور الظلام قتل الاطفال الابرياء خشية الفاقة والجوع حتى نزلت الآية (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم...)... وما تزال صور الدفن قبل الاوان تتمثل في هذا العصر المتأزم بفعل قوة الضغوط الخارجية وضعف الارادة الداخلية لدى الانسان فأسهم الفرد بقسط وافر في تجسيد هذه الازمة وتدعيم ركائز الجاهلية الاولى بصورة مباشرة أو غير مباشرة... بوعي أو لا وعي... وما زالت صراعات البقاء بين الموت والحياة وجوها ذات أقنعة تختلف في الشكل وتتفق في المضمون... القتل... الانتحار... الادمان... الطلاق... الانفصال... بانوراما متحركة في الاضطرابات النفسية وهي من وجهة نظر الطب النفسي اخطر أزمات العصر... الحرمان العاطفي والتفكك الأسري... والضياع النفسي وليس الميت من ضم التراب عظامه لكنه في الاصل صورة ميت الأحياء وهي تمثل الوجه الآخر... للدفن قبل الاوان.

ولو استعرضنا حقيقة الوجه الآخر للدفن ــ مجازا ــ فقد يكون دفن الرأس في الرمال خوفا من مواجهة الحياة وقد يكون عزلة النفس عن المثيرات الخارجية والتي هي ضرورية لاستمرارية الحياة... وأساس الاستجابة الطبيعية للانسان السوي... فحرمان أو ضعف المثير وفقدان الاستجابة لدى الفرد في حالة المرض والسواء تمثل بداية النهاية لانه من غير الطبيعي للانسان ان يكون طبيعيا في ظروف غير طبيعية والعكس صحيح وكل نشاط انساني يتعارض مع هذه القاعدة النفسية يمثل الوجه الآخر لحقيقة الدفن قبل الاوان.

والدفن قد يكون اختياريا بفعل الانسان ذاته نتيجة نظرة خاطئة أو قناعة زائفة أو تجربة مريرة بين المطرقة والسندان... وقد يكون اجباريا بفعل ظروف خارجة عن ارادة الفرد متقاربة في القوة والتأثير... وفي كل الحالات تمثل العزلة الفكرية والبدنية والاجتماعية نوعا من توقف قاعدة المثير والاستجابة... وأحد صور الانسحاب من حلبة التفاعل مع ظروف

الحياة... وهو موقف اذا تجاوز درجة معينة أصبح حالة مرضية تنتشر تحت شتى الاعراض وتصل الى نفس النتيجة فالنشاط الدهني ينمي قدرة الابداع وأعظم الكتاب كتبوا روائعهم في مراحل متأخرة من العمر... والنشاط البدني يقاوم هزال المرض وخمول الفكر والنشاط الاجتماعي يحقق حالة التوازن النفسي والتوافق الاجتماعي وقد يستبدل الفرد نشاطاً بآخر ولكن يستحيل أن يستغني عن مجموعة هذه النشاطات الحيوية الا في حالة الدفن قبل الأوان.

والدفن قد يكون الانغماس في بدعة تصوف لا ترقي الى قدسية العبادة فتعزل الفرد عن العالم المتحرك المتفاعل بالأخذ والعطاء... وقد يكون موبقة الانزلاق في خطيئة شهوة تصبح عدوانا مدمرا للنفس أولا... واعتداء موجها للآخرين ثانيا، وقد يكون الابتعاد عن حب المطالعة وصحبة الكتاب وكف العقل عن حب الاثارة ورغبة الاستزادة من العلم... وقد يكون الانطواء تحت سقف مثقوب بروح المتردد لا قناعة المتشدد في مقولة (اتق شر من أحسنت اليه) وهذا طريق يقود الى اتجاه واحد... يصعب الرجوع منه ويستحيل السير فيه وهذا هو الوجه الآخر للدفن قبل الأوان.

رب زدني علما :

ان العلم زكاة... ومن تعلم ولم يعلم فقد قتل علمه... وآفة العمر علم لا ينفع وقلب لا يخشع وبطن لا تشبع وعين لا تدمع وأفضل الحسنات صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد يدعو لوالديه... والعلم ليس وقفا على أروقة الجامعات ولا حملة الشهادات وما أكثرهم... والعلماء ورثة الانبياء وما أقلهم وكم من قاريء في قرية نائية يسع صدره أضعاف ما ينوء به كاهل مثقف في قلب المدينة... ورب أمام مسجد في حارة من حواري أحد البلدان المنسية يطاول علمه ناطحات السحاب التي يعيش فيها علماء عواصم العالم... وكلما ارتفع بعلمه في صعود جبل المعرفة نزل بنفسه الى منزلة الناس البسطاء لا يتعالى عليهم ولا يصعِّر خده ولا يمشي في الارض

مرحا... وطلب العلم فضيلة وأم الفضائل أن تدرك أن فوق كل ذي علم عليم... ومن نعمة العلم على العقل أنه المصباح المضيء في قلب الدهليز... كلما تقدمت في الداخل اكتشفت انك ما زلت في باب المغارة وأن الدهليز ما زال عميقا وطويلا... ومن ظن انه وصل النهاية فلا بد أنه لم يحدد نقطة البداية (وأسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) فالعالم لا يرسل القول في غير موقعه ولا يضع الشيء في غير موضعه ولذلك وردت مخاطبة العقل في ختام كثير من الآيات (أفلا تعقلون) (أفلا تعلمون) (أفلا تبصرون)... فالعقل والعلم والبصيرة خميرة الحياة وخبز الاحياء... واجتهاد الفكر الانساني ليس له نهاية وبدايته كلمة (اقرأ) والذي يعلم انه لا يعلم فقد علم... والذي يقنع بعلمه فقد بدأ يجهل ومن قال لا أعلم فقد أفتى... وهذه حقيقة الوجه الآخر.

حوار حول هجرة العقول

الهجرة*

خطوة صحيحة في اتجاه خاطيء

هذه افتتاحية... بطاقة دعوة للحوار... وهي عندي وجهة نظر... أو قطرة في محيط النظريات التي شغلت كل المفكرين في العالم الثالث في المنعطف الاخير للقرن العشرين وما زالت تتصدر اهتمامات كل الدول النامية التي تفتقر الى الكوادر المؤهلة لقيادة العمل الوطني والفني في شتى ميادين التنمية.

وحتى لا يفقد القارىء صفاء الرؤية أود أن أحصر نفسي في زاوية واحدة وأترك أكثر من زاوية لأكثر من وجهة نظر آملا أن تكون هذه الملاحظات مجرد حجر أرمي به في لجة الماء... فتنداح دوائر ودوائر تتسع بحجم الاقلام التي تود المشاركة وكمية المداد الذي يغمر أعمدة الصحف.

وأنني عندما حاولت فتح هذا الحوار في الخرطوم عام ١٩٧٤ في جريدة (الايام) بعد عودتي من لندن قال لي صديق قديم احترم رأيه وأثق في سعة أفقه (لقد سبق السيف العزل) أنت الآن أحد أفراد المسرحية ولن يقبل منك الجمهور أن تقف في شرفة الزوار تعلق على طريقة الاداء...

* هذه المقالة نشرت في الملحق الثقافي في الصحافة السودانية في عام ١٩٧٧ وتوقف النشر بتوجيه سياسي.

والممثلون أنفسهم يفضلون ألف مرة لو نشرت مقالاتك في الخارج فنحن نعشق كل مستورد... حتى المقالات التي ترد من الخارج تجد أذنا صاغية وصفوة راقية من القراء... أما الان فالداخل مفقود والخارج مولود... وقد تفتح بابا يأتيك منه ريح غير طيب « والمتبلل يعوم » فأقتنعت بوجهة نظره ويشهد الله أنه كان وما يزال من أكثر المخلصين لقضايا وطنه وحتى عندما خرجت الى لندن للمرة الاخيرة كتب لي قائلا (أين مقالاتك) الان تستطيع أن تتكلم فلن يتهمك احد بالطموح غير المشروع وعندما تعود ستجني ثمار حوارك « وزادت قناعتي بأن من أكبر أعباء الامانة الوطنية والولاء للبلاد أن نفتح حوارا هادفا حول قضية تفرض نفسها على كل وطني عربي... بأقدار متفاوتة... وليس هناك بلد في الدول النامية لم يطرح مشكلة هجرة العقول الى الخارج على المستوى القومي بكل أبعادها وبلا حساسية، وكانت النتائج مذهلة اذ انها أثارت قضايا فرعية لم تكن واردة في حسابات الذين يعالجون المشكلة من زاوية واحدة...

لقد علمتنا التجارب أن اصدار القرارات في مثل هذه القضايا يجب أن يكون تقنينا لنتائج الحوار وليس بديلا عنه... والا فان تنفيذ القرارات سوف يكلفنا من الجهد المادي والنفسي أضعاف ما يكلفنا الحوار الهادىء تحت ظل شجرة في مباني وزارة أو ندوة في ساحة عامة أو مؤتمر في احدى قاعات الجامعة. ان الحوار يفتح آفاق المرء لمحاسبة نفسه بروح الربح والخسارة والقرار يدفع المرء للمغامرة بنفسه برد الفعل والاثارة... وهذه طبيعة الانسان وكفى.

ولعل علماء الاجتماع الذين يرصدون الظواهر الحضارية في تاريخ السودان تشغلهم ظاهرة الهجرة في السنوات الاخيرة... من حيث أنها ظاهرة حضارية مرحلية تمر بها كل المجتمعات الجديدة ومن حيث أنها ظاهرة صحية تدل على رغبة الانفتاح على العالم الكبير الذي تكسرت حواجزه الجغرافية بفضل وسائل النقل الحديث، ومن حيث أنها صدمة شعورية للأسرة السودانية التي لم تتعود أن يتغيب ابنها من المنزل بعد

نصف الليل في ارقى الاحياء... ومن حيث أنها مغامرة انتحارية يقدم عليها بعض المغامرون من أجل السفر بلا حقائب... والصرف بلا رصيد.

لقد كان السودان حتى الخمسينات غرفة واحدة وحوشا كبيرا له سور طويل تقف أمامه مصلحة الجوازات. ومن فرط ما تعود الناس على السكون داخل الغرفة لم يفكر أكثرهم في الخروج لمعرفة ماهية مصلحة الجوازات... وكان الخروج وقفا على قلة مستنيرة من أوائل السودانيين الذين سمحت لهم ظروفهم بالخروج من السودان للعلاج أو العلم ولا ثالث لهما...

وأكاد أتذكر الوجوه والاسماء التي تعرف الطريق الى مطار الخرطوم وترصدها « اجتماعيات » الرأي العام في عهد المرحوم عتباني حتى ازدادت القائمة طولا بأسماء الذين يذهبون (للعلاج والترفيه) وكانت هذه أول ظاهرة تفتح عيون الطب السوداني على ضرورة البعثات الخارجية الى المملكة المتحدة للتخصصات العليا... وكانت هذه هي الدائرة التي لا يخرج منها نشاط الجاليه السودانية في الخارج... بيت السودان.

ثم مضت فترة الخمسينات لتلحق بأعقابها الستينات فتجد الاسرة السودانية ان الغرفة الواحدة لم تعد كافية لافراد الأسرة... فالبنت والولد أصبحت لهما طموحات مشروعة في نوع من الاستقلال داخل جدران البيت فتعددت الغرف وضاق الحوش ووصل تلقائيا الى مشارف السور وقادهم فضولهم الفطري الى معرفة هوية البناية التي تسمى مصلحة الجوازات... ودخل التلفزيون البيت السوداني واتسعت خطوط سفريات « الشمس المشرقة » ولاوّل مرة دخلت اعلانات الصحف المحلية وقامت وكالات السياحة... وكالة السفر... أبو عفان الخ... ووجد الجيل الجديد الذي حصل على قدر من الحرية الشخصية تطلعات جديدة في الخروج من بلاده للخارج للدراسة والعلاج والترفيه الخ... وفي هذه الفترة افتتحت المدارس الثانوية الجديدة بعد أن سيطر (الثالوث الكاسح) وادي سيدنا حنتوت ــ خورطقت على كل مداخل العلم وأحكم الخناق على جامعة

الخرطوم ــ الطريق الوحيد المؤدي الى تخصصات عليا تحت اشراف ونفقة الدولة.

وبدأت الاسرة المقتدرة في ارسال ابنائها للخارج حتى تختصر الطريق ــ طريق الاعادة بعامل الزمن وبدأ الطوفان... طوفان الهجرة من أجل العلم... لندن... اميركا... أوروبا الشرقية.

وفي نهاية الستينات بدأت هذه الهجرة المشروعة تعطي ثمارها الطيبة والخبيثة... كثر عدد الخريجين وامتلأ ارشيف التخصصات وفاضت حاجة البلاد من بعض المؤهلات الاكاديمية خاصة وكانت جامعة القاهرة الفرع قد بدأت في تلقيح الدوائر الحكومية بخريجيها فامتصت عائد الشواغر في بعض دواوين الحكومة... وكانت تجربة أثرت الحياة السودانية، ولكنها أسهمت في تصعيد ازمة الهجرة بطريق غير مباشر حيث اكتظت ساحة العمل الوظيفي بخريجي جامعة الخرطوم وجامعات شرق وغرب أوروبا وجامعة القاهرة الفرع والام... ووصلت درجة الغليان.

ولأول مرة في تاريخ البلاد تخصص في ميزانية الدولة (بند العطالة) وان كانت مقنعة أو مكشوفة فقد دخلت تاريخ التوظيف الحكومي... واصبح التمييز داخل المكاتب بين (بند العطالة) و(بند الكفاءة) أمرا عسيرا... ان لم يكن مستحيلا وكان في أكثر الحالات مصيدة كبيرة لأكبر الوزراء وكبار المسئولين.

وكانت فترة مشهودة عن التيه والضياع... ولأول مرة ترتفع اصوات تنادي بامتحانات المعادلة... او انشاء لجان تقييم الشهادات... وكالعادة في السودان (اذا أردت أن تقتل أمرا فكوّن له لجنة) فكل المسائل التي كونت لها لجان ماتت في مهدها بدس السم في الدسم... وأصبحت البلاد تدور في حلقات مفرغة... وبدأ صراع جديد حول الوظائف الحكومية لعبت فيه المحسوبية لعبة لا يعرف قانونها الّا من وهبه الله فن التقرب والزلفى الى قادة الطوائف والاحزاب وانعكس الصراع في نفسية الخريجين... الصراع غير المتكافيء احيانا وغير الشريف في أكثر

الاحيان... وقامت معسكرات خريجي جامعات المحور الاول ضد المحور الثاني الخ...

وانعكست آثاره على العمل الوطني في ثورة اكتوبر وجبهة الهيئات الخ... حتى أصبح أشبه بالالتزام بروح القبيلة منه بروح الانتماء الى حرم الجامعة.

وكان من آثاره ان وجدت القلة المبدعة المتمركزة في الوظائف العليا نفسها محاصرة من الوافدين في كل الاتجاهات فاقتحموا المكاتب واعتلوا المناصب وبدأ الصراع حول مراكز القوى وكان الشعور بالخوف على الوظيفة يطغى، على الرغبة في أداء الواجب فأصبح المناخ الصحي القديم بؤرة للصراع الشخصي الجديد، وتمزقت نفسيات المؤهلين بين ضغط الوساطة من أعلى... وعين الرقابة من أسفل.

وتأنيب الضمير في الداخل فخرج بعضهم بحجة العمل الخاص... وبعضهم للحصول على مؤهلات عليا بالخارج ولسان حالهم يقول.

ولم أقضى حق العلم ان كان كلما	بدا طمع صيرتـه لي سلمـا
ولم أقض حق العلم ان كان كلما	لاخدم من لاقيت لكن لا خدما
أأشقـى به غرسا وأجنيـه ذلـة ؟	اذن فابتياع الجهل قد كان احزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم	ولو عظموه في النفوس تعظمـا

ومن هنا بدأت هجرة العقول ؟

وعلى الرغم من عدم قناعتي بصحة التعبير الا أني استعمله تمشيا مع الاصطلاح المتداول بين الناس وأعني بالعقول ـــ فئة المتعلمين الذين حصلوا على مؤهلات أكاديمية عليا تضعهم في صدر قائمة احتياجات بلادهم اليهم في قضية التنمية.

وبهذا التعريف يكونون ثروة قومية لا تقل أهمية عن خصوبة الأرض ولا عائد النفط ولا العملة الصعبة التي نتصيدها بشباك في مساحة المحيط لأنهم عنصر الانسان... أكبر رأسمال في مجال التنميه.

وأنا أتحدث عن العقول من الناحية العلمية لا من وجهة النظر الاجتماعية فقد يرى البعض أن تعريف العقول مسألة نسبية خاضعة للتقييم الفردي ويقولون كما قال أبو تمام :

ينال الفتى من دهره وهو جاهل ويكدي الفتى في دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تأتي على الحجا اذن هلكت من جهلهن البهائم

وفي تقرير لهيئة الصحة العالمية ان بعض الدول النامية أصبحت تكتفي بكوادر تفتقر الى مؤهلات أساسية في تنفيذ مشاريع التنمية مما جعل التخطيط العشوائي يأتي بنتائج عكسية ويفرض على الهيئة مراجعة موقفها من تمويل هذه المشاريع بغير العنصر البشري القادر على التنفيذ.

فأصبح العقل المهاجر الذي اكتسب خبرات نادرة في مجال تخصصه غير قادر على استثمارها في وطنه الاصلي فتصبح تراكمات على التراكمات الموجودة بوفرة بصورة انخفض بموجبها معدل العطاء المادي والأدبي وتحولت حياة المكتبات والمراجع العلمية والبحوث والمؤتمرات في الخارج الى ركض وراء مقومات الحياة الاساسية بالداخل فيقف المهاجر أمام الاختيار بين طريقين — طريق العودة الى الخارج بكل المغريات الموجودة المتجسدة في شكل رواتب وحوافز وأدوات بحث أو البقاء في الوطن الام كخبير اجنبي يقدم خبراته في نطاق محدود ويتحرق شوقا الى الخروج والانطلاق.

اذن فهجرة العقول... خطوة صحيحة ولكنها سارت في اتجاه خاطيء ... لماذا ؟ وكيف نصحح مسار التجربة بالوسائل العلمية ذات العائد المضمون لا الاحكام التقريرية ذات الأثر المؤقت هذا دلوي الذي سأدلي به بعد تحريك الاقلام بالداخل، الاقلام التي تعيش تجربة الاستنزاف وتقيس بمعايير دقيقة أثرها على مشاكل البلاد فبعضها قد يرى أن لا حاجة للوطن بالعقول المهاجرة ما دامت اختارت لنفسها هذا الطريق. وبعضها قد يرى عودة العقول اضعافا لمركزه وبعضها قد يرى أكثر من رؤية جديدة بالدراسة.

واذا كانت بريطانيا... مهد الحضارات قد بدأت بكل شجاعة تناقش الآن نزوح العقول أو استنزاف العقول (برين درين) في أغسطس الماضي في جريدة (الديلي اكسبرس) وتتحدث عن دوافع الهجرة لنيوزيلنده واستراليا وكندا... أليس تواضعا أن نبدأ نحن في السودان... حوارا... وندوات ومؤتمرات على أعلى المستويات حول هجرة العقول أسبابها وعلاجها. أما اصدار القرارات ووضع القضية في اطر جامدة يصبح حرب استنزاف جديدة لن نقوى على مواجهتها بعامل الزمن الذي يسير في غير مصلحتنا ونحن في البداية...

ان قضية هجرة العقول تشبه قضية الجنوب... القضيتان متشابهتان تنحدران من منابع مختلفة ولكنهما تصبان في نهر واحد... نهر الدم الذي تصب فيه جراحات الأمة التي تعوق قدرتها على الوقوف على قدميها... مثلما كانت قضية الجنوب حرب استنزاف من نوع آخر لأكبر رأسمال للتنمية... عنصر الانسان.

الى هنا أقف... وحتى أتجرد من رذيلة الغرض وأتحلى بفضيلة العلم أنتظر آراء ومقترحات زملاء من عهد الدراسة يحتلون الآن مراكز قيادية ويحملون أفكارا بناءة وثقافة وطنية واعية ولكنهم يحجمون عن التصدي لمثل هذه القضايا، أما لتأثيرهم على الزملاء المهاجرين ولحساسيتها على شعور المسئولين... ولكنني لا أتصور رجلا في موقع المسئولية في السودان بعد الآن يتكيء على مقعده ولا يتحرك ليتوقف النزيف مهما كانت حساسية العضو النازف في جسد الأمة.

فالشجاع يموت مرة والجبان يموت ألف مرة... وعندما يطغي شعور الولاء للوطن على غريزة حب البقاء الذاتي وفتح الحوار في كل الجهات وتناول قضايا المجتمع بالحواس الخمس تتحرك الحياة في الاتجاه الصحيح.

وبدون ذلك نفرغ الفكر البشري من كل محتوى وتصبح أي دعوة للمثقفين للمشاركة والمناقشة قولة حق أريد بها باطل... وفي النهاية سأقول رأيي في القضية...

سأقول بكل الصدق والاصالة لماذا ؟

أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك ان يكون له ضرام

واذا قدر لي أن أتابع المناقشة من خلال الصحف التي يتكرم بها أعضاء السفارة مشكورين لربط وشائجنا بما يجري في بلادنا فسنظل للعهد أوفياء... قولا... وفعلا وستكون لهم الحسنة بعشرة أمثالها ولنا عودة...

الارتباط بين ظاهرتين « هجرة العقول » و« نزيف العقول، ارتباط مجازي ينبعث من التشابه في نتائج الهجرة الخارجية الضارة وبين نزيف العقول الجارف رغم أن الاولى ظاهرة اجتماعية واقتصادية والثانية ظاهرة بايلوجية، ومغزى الارتباط ومنطقه يقومان على دلالة الناتج التي تترتب لمفعولاتها وبعد حد معين وبالرغم من أن للهجرة بواعثها ودواعيها وللنزيف أسبابه ومسبباته والتباين بين بواعث الهجرة ومسببات النزيف جوهري ومعنوي الاّ ان لكليهما دلالة تشير لحالة الاختلال والزلزلة، والردود الفعلية على الوظيفة البايولوجية بالنسبة للحالة الاولى وعلى التكوين والتركيب السكاني ومن ثم القوى العاملة في الحالة الثانية يكون سالبا ومعوقا، ومن هنا تأتي منطقية الارتباط المعنوي بين هجرة العقول وخاصة في اقتصاد مواجه بقصور الكفاءات وندرتها وبين أعياء العقول ونزيفها.

وهجرة العقول نعني بها نزوح الافراد ذوي المؤهلات والكفاءات التي اكتسبوها في بلادهم وبمواردها أما عن طريق التعليم والتدريب أو بواسطة الخبرة والممارسة الوظيفية الى أماكن خارج حدود بلادهم ذات الخصائص الاقتصادية والاجتماعية والثقافية متغايرة عن تلك التي تسود في البيئات الخارجية... وهي ما تعرف في قواميس الاكاديميين بالهجرة الخارجية، وهذا النوع من الهجرة له مقومات وسمات ودوافع خاصة تختلف عن تلك التي تتصف بها الهجرة الداخلية أي في داخل المجتمع الواحد، ومثلا انتقال الافراد والجماعات في داخل وبين مناطق وأقاليم السودان لا يترك تأثيرا معينا على التركيب السكاني وتكوينه حسب الخصائص المختلفة

ومعدلات نموه في مستوى القطر رغم أنه يغير صورة التوزيع السكاني وايكولوجيته وعلاقاته البيئية بين الشرائح الجغرافية المتعددة ولكن الهجرة الخارجية وخاصة اذا كان تيارها قويا فانها تحدث تغييرا كميا ونوعيا في التركيب والتوزيع للسكان ونموه، وهي عملية ديناميكية تخضع لمؤثرات معينة منها التغييرات المستمرة لاعداد المهاجرين هجرات خارجية والدول المهاجر منها والمستويات الثقافية والحالة الاقتصادية والبواعث الدافعة للهجرة، وهذه المؤثرات ذوات أهمية كبيرة لأنها تفصح عن خصائص المهاجرين ويعتمد تعميم وتقرير الهجرة على متغيرين يعتمدان بعضهما على بعض، المتغير الاول هو الظروف السائدة في دولة الاصل والمتغير الثاني هو الظروف السائدة في دولة المقصد، فلو كان للعامل الثاني أفضلية على العامل الاول فالهجرة تكون متوقعة ــ ورغم أن الهجرة الخارجية مخاطرة فردية أو جماعية واغتراب عن الاصل والفرع وانفكاك عن دائرة الاحتكاك اليومي لأولي القربي والعشيرة وابتعاد عن الوطن وترابه الّا أن قوى الجذب والطرد بين المجتمعات وتبايناتها المختلفة والمتنوعة هي التي تدفع الناس للحركة عبر الحدود.

ان هجرة السودانيين ليست ظاهرة خاصة بنا كما أنها ليست ظاهرة حديثة وطارئة فالسودانيون وخاصة أهل المديريات الشمالية كانوا يهاجرون لمصر والبلاد العربية منذ أقدم العصور طلبا للعمل والتجارة ــ وقد حملوا معهم اسم السودان وقيمه وعاداته ليبرزوا وجه السودان الحقيقي للعالم الخارجي كما كانوا يرجعون اليه بألفهم الجديد والعلم والاسلوب الحديث للحياة ليبثوه وسط المقيمين في وطنهم، ان الشيء الذي جد في ظاهرة الهجرة الخارجية هو درجة قوتها في مستواها ومحتواها الى حد الخطورة على الاقتصاد القومي مما يستدعي الوقوف عندها دراسة وتحليلا ثم اتخاذ سياسة مناسبة تضع في الاعتبار احتياجات المصلحة العليا وضرورات المرحلة ورغم شح البيانات والاحصاءات في مجال الهجرة الخارجية الا أن المشاهد يستخلص على ان مستويات الهجرة وخاصة بعد انسياب المال وفيضه في دول البترول العربية قد بلغت مرحلة الخطورة على تركيب

القوى البشرية المنتجة في داخل الاقتصاد السوداني، والتوسع المقبل في برامج الاستخدام والتنمية في ظل الخطة الستية المقبلة وما يتطلبه هذا التوسع من زيادة مذهلة في ذوي النشاط الاقتصادي الفعال حسب القطاعات المختلفة وقد يلزمنا بالبحث عن سبل ترشيد الهجرة وتحديدها وربما ايقافها في بعض الحالات والمهن، ولا بد ونحن نتحدث عن الهجرة الخارجية وتأثيرها على الحركة المستهدفة للتنمية أن نشير الى أهمية السياسة المتحيزة نحو الحد والتشجيع للهجرة الخارجية حسب المهن في ظل معادلات العرض والطلب في كل واحدة منها وتعميم معادلة العرض والطلب لذوي النشاط الاقتصادي حسب المهن هو من صميم عمل المخطط والذي يجري عمليات حسابية لتقدير الاحتياجات الكلية لكل الافراد في المهنة ومقارنتها مع القوى البشرية العاملة كما ونوعا في نفس الشريحة المهنية، ان الفائض في العرض أو الطلب هو الذي يسبب تواجد الاختلال في ثبوت المعادلة والاختلال نفسه هو الأساس في رسم السياسة المناسبة الداعية لتنشيط أو الحد من الهجرة في كل حالة على حدة وللايضاح يمكن أن نقول اذا كان الاحتياج لعدد المدرسين للمستويات التعليمية الوسطى وعلى حسب الاستنباط لحجم الطلب عليهم خلال فترة الخطة المقبلة ــ أقل من العرض المقدر لاعدادهم خلال نفس الفترة فالحكمة تستدعي تسهيل الهجرة لمثل هؤلاء خارج البلاد وايجاد الفرص الملائمة لهم وبمثل هذه السياسة يمكننا حل مشاكل ناجمة عن عدم حلها وتختلف في طبيعتها باختلاف المهن، وبمثل هذه السياسة قد نوفر لأنفسنا الفوائد الآتية :

أولا : ــ القضاء على ظاهرة الفائض في القوى البشرية في مهنة التدريس حسب صحة الافتراض السابق والفائض البشري في أي موقع دليل على وجود وفرة العمالة المتفوقة عن الاستخدام ومثل هذه الحالة ــ في رأيي تنطبق على مهن كثيرة وفي قطاعات اقتصادية عديدة الا أن الحلول لها تتسم بالسمة الاخلاقية والسياسية وبالتالي تكون آلية أو تلقائية، أي بمعنى أن تخلق بنود وظيفية في نفس المهنة مما تؤدي لتواجد العطالة

المستترة ونتائجها غير المرضية اقتصاديا وانسانيا أو أن تحول وفرة العمالة لمهن أخرى وبالتالي سوء الاستخدام وانفصال بين حقائق الذات والموضوع (المناسب واللامناسب) هذان علاجان كلاهما مر، واستخدام المنهج السليم للهجرة الخارجية هو وسيلة من وسائل الحل السليمة.

ثانياً : ــ استغلال ظاهرة الهجرة الخارجية بين الفائضين في المهنة لخلق زيادة مضطردة في عملاتنا الصعبة وميزان مدفوعاتنا عن طريق تسهيل التحويلات والحوافز وتكثيف الصلات مع السودانيين بالخارج وسن قانون (الضريبة الوطنية) على كل عامل منتج خارج بلاده واذا ما دفعنا بالفائضين للعمل خارج بلادهم فلا بد من اتباع سياسة التوجيه لهم نحو المشاركة بامكاناتهم المادية في استثمارات وادخارات تعود عليهم وعلى بلدهم بالعائد الوفير، وفي هذه المناسبة لا بد من الاشارة لمخاطر الاتجاه الاستهلاكي التفاخري الذي يتجه اليه المغتربون والناتج اساسا من تأثير البيئات التي يعملون فيها وأما في حالة الافتراض المعاكس أو في حالة وجود عجز محتمل في القوى البشرية العاملة في مهنة معينة خلال فترة الخطة المقبلة أمام الطلب الكلي في نفس المهنة فان الضرورة تتطلب رسم سياسة قاطعة لتحديد وربما ايقاف تيار الهجرة للخارج، ان التسيب وجعل الامور تأخذ المجرى التلقائي من غير التفات للعواقب الوخيمة التي قد تترتب على تأثير الهجرة الخارجية على كم ونوع القوى العاملة حسب القطاعات والمهن التي بها عجز متوقع يعني أن الاقتصاد السوداني ونموه معرضان لمخاطر كارثية، ان دول مثل كندا واستراليا قد واجهت مشكلات العجز في الايدي العاملة ذات الخبرات الفنية وتحل تلك المشاكل عن طريق فتح الهجرة اليها للتعويض عن النقص الناجم من اختلال التوازن بين الموارد الاقتصادية والطبيعية والموارد البشرية، ولكننا ورغم وجود التشابه بين السودان وتلك الدول في ظهور الاختلال بين الموارد الطبيعية والقوى البشرية المدربة وحتى غير المدربة الّا أننا لا نستطيع أن نحذو حذوهم لان الاختلاف بيننا وبينهم نوعي، فهم قد تخطوا مرحلة الانطلاق الاقتصادي

ونحن نسعى لبلوغها كما أنهم حققوا قدرا كبيرا في مجال التصنيع وتغيير نمط الانتاج والاستهلاك ونحن ما زلنا في بداية الطريق نحوه.

واذا كنا لا نتعامل بأسلوب التعميم في قضية الهجرة الخارجية فلا بد من بعض التفصيل حتى نرى الصورة بشيء من الدقة. ورغم أن الاحصاءات والبيانات المتعلقة بمستوى وحجم الهجرة الخارجية المصنفة لم تكن متوفرة الّا أن حديثنا قد يعتمد على المشاهدات والاستقصاءات.

أولا : هجرة العمال المهرة :

ان الشواهد تظهر لنا أن اعدادا متزايدة من العمال المهرة والفنيين يغادرون البلاد للبحث عن شروط أحسن للاستخدام وخاصة في البلاد العربية وهذه الفئة متنوعة وغير متناسقة حسب المهن وحسب الكفاءات وتتضمن عمال البناء والميكانيكيين والسواقين والممرضين الخ... ان الطلب عليهم وفي ظل مشاريع التنمية متزايدة باضطراد ويبدو لي ان بعض الجهات مثل مشروع الرهد وقطاع المواصلات وحجر عسلاية مواجهة بنقص نوعي وكمي في العمال الفنيين بخصائصهم المختلفة. ان اتباع سياسة تحريم الهجرة بواسطة القوانين قد لا يوقف هجرتهم وانما تحسين الاوضاع المادية لهم وتلبية احتياجاتهم الاقتصادية قد يكون أجدى وفعالا.

ثانياً : المدرسون والمهنيون :

في هذا القطاع نلاحظ اعداد متزايدة عن الاحتياج وسط خريجي المدارس الثانوية العليا وخريجي المعاهد والكليات النظرية. وفي مثل هذه الحالات نرى من الاجدى أن تتبع الدولة سياسة تشجيع الهجرة الخارجية للحد من الضغوط على الدولة لخلق وظائف غير منتجة وللحد من تبديد الموارد وتكثيف حدة البطالة الظاهرة والمقنعة. كما نؤيد في هذا الشأن سياسة الحد من التعليم النظري لمصلحة التعليم الفني.

ثالثاً : أصحاب المهن الفنية والعلمية :

وهؤلاء هم الذين نشير اليهم في عنوان المقال بهجرة العقول، ويتميز هذا القطاع بصغر حجمه وندرته وتكلفته العالية التي يتحملها الاقتصاد في فترتي التأهيل والتوظيف، كما أن لهذا القطاع خاصية أخرى وهي الطلب العالي والفعال في كل الانشطة الاقتصادية والحيوية في بلادنا... وهجرة (العقول) ظاهرة عامة يعاني منها معظم الدول النامية وان كانت درجة مخاطرها تتفاوت من واحدة لأخرى. وموجة الهجرة في أوساط هؤلاء قد تكون دوافعها اما مادية ويكون الهدف منها تحسين أوضاعهم الاقتصادية أو نفسية نابعة من الأحساس بالظلم أو عدم الاعتراف بدوره ومقدراته... ولا بد من بحث الوسائل الناجعة والمرضية لوقف هجرة الكفاءات النادرة والّا سنواجه مخاطر جسيمة.

وفي بداية نهاية الحديث لا بد ان نشير الى ضرورة عمل دراسة علمية عن الهجرة الخارجية بأنواعها ومستوياتها واتجاهاتها وموازناتها ومؤثراتها يقوم بها المجلس القومي للبحوث مع مصلحة الاحصاء لتكون الصورة واضحة جلية للذين يرسمون السياسات من أجل المصلحة العليا ولخير الوطن ولا بد من تجميع بيانات واحصاءات عن المهاجرين وخصائصهم وسماتهم من سفاراتنا بالخارج ليتم منهج الدراسة على العمل الميداني.

هجرة العقول*

طريق العودة

ان تجمعاتنا تعاني من ظروف اجتماعية واقتصادية تعوّق الاستفادة من العقول العربية المهاجرة بالخارج ولكننا في واقع الأمر نمر الآن بفترة انتقال فكرية ولدينا الكثير من المشاكل التي تعكس هذا الواقع وهذه الفترة تحتاج منا الى عنصر هام وهو عنصر الانسان والسؤال المطروح الآن بعد أن سردنا بعض عوامل الدفع والجذب في جذور مشكلة الهجرة على الصعيدين الداخلي والخارجي وفي المجال الخارجي على صعيد دول النفط بصفة خاصة يجب أن نتجه بأبصارنا الى الخبرات الموجودة في الدول الغربية بصفة خاصة ورغم اختلاف ظروف الهجرة من منظور قومي ووطني الّا أن هناك عوامل مشتركة في الدفع الى الهجرة ومجالات الاختلاف تنحصر في بعض الاهداف الخاصة بالفرد وحل المعادلة الصعبة بين البقاء في الخارج أو العودة الى الوطن... وقد حان الأوان لكي نفكر جديا في كيفية تعبئة هذا الانسان وتوجيه الطاقات البشرية العربية في عطائها ونتاجها لبناء المجتمع الجديد.

ويجب أن نعترف بوجود العديد من المشاكل التي تعوق استعادة هذه العقول والتي يمكن أن نوجزها في النقاط التالية حتى نستطيع أن نصحح

---

* اعتذر محرر الملحق الثقافي آنذاك عن نشر هذا الجزء من المقالة رغم انها ارسلت بالحقيبة الدبلوماسية كما اعتذر عن مواصلة نشر بقية البحث في الموضوع من حرس الصحافة.

الأخطاء في مسيرة الهجرة نحو الاتجاه الصحيح بدل السير في الاتجاه الخاطيء الذي كان بداية هذه المشكلة الخطيرة وهذه العوامل هي :

(١) الحرية :

ان الحرية التي تلتزم باهداف المجتمع وتكون اساس الانطلاق للعقل العربي تعاني من قيود اذا لم تكن قابلة لهذه الحرية، فهي في أحسن الحالات مقيدة لها بشكل يلغي وجودها القادر على دفع انتاجية العقول العربية المهاجرة... والحرية أساس الفكر... وبلا حرية لا يوجد فكر وبلا فكر لا يتحقق انتاج وبلا انتاج لا تتحقق انسانية العقل البشري.

(٢) حقوق الانسان :

حقوق الانسان واحترامه ومعاملته كانسان... انها من القضايا الهامة جدا فالعلاقة بين المثقف والحاكم دائما تشوبها استفسارات عديدة في وطننا العربي... هل يقتصر دور المثقف على ارضاء الحاكم... أم أن دوره هو توضيح الحقائق انه معطيات الواقع العربي تدل على أن المثقف لا يستطيع أن يتحرك بحرية أو يتحدث بصراحة في أموره العلمية الخاصة به ناهيك عن الاهداف الاجتماعية التي يلتزم البحث فيها.

(٣) عدم الاستقرار السياسي :

لقد مرت بعض الدول العربية بكثير من القلاقل والمشاكل السياسية والتي أثرت سلبيا على نفسية المثقفين خاصة في الخمسينات مما دعا هذه العقول المثقفة أن تهاجر الى الخارج ربما مارست قدرا كبيرا من الحرية والاستقرار النفسي في الخارج فما زال الدافع النفسي في الداخل يبعث على كثير من عدم الرضا والارتياح.

(٤) البيروقراطية :

ان للبيروقراطية في وطننا العربي جذورا ترجع للعصر العثماني وهذه البيروقراطية ظاهرة في بعض الاقطار العربية وتصدر منها الى بقية الاقطار بصورة مخططة ومنظمة مما يؤثر كثيرا في حرية الانسان وانطلاقة العمل.

(٥) العوامل الثقافية والاجتماعية :

ان المهاجر العربي المثقف يعاني من أزمة الهوية وأزمة الفكر وكثيرا ما يتساءل الانسان العربي العادي هل نحن جزء من المجتمع المحافظ التقليدي أو المجتمع المنطلق المتحضر ؟ ما هي هويتنا بالنسبة لذلك التحضر ؟ ما هي علاقة الفكر المتطور مع جذورنا التاريخية والاجتماعية.

الى أي حد يستطيع المثقف أن يقف في وجه ذلك التيار أو يساعد في تقويمه دون أن يدخل في معارك جانبية مع السلطة أو نفسه، ان المثقف الملتزم هو من يلتزم ويتفهم مشاكل العامة ويسعى لحلها بأن يصبح جزءا منها ويتفاعل معها فكيف يستطيع أن يقوم بهذا الدور في ظل الظروف الثقافية والاجتماعية والتي تفرض نمطا سلوكيا معينا في الحياة.

(٦) نوعية التعليم والمؤسسات العلمية :

ان المثقف العربي يتساءل في الواقع عن حقيقة جدوى كثير من المدارس والمعاهد والاكاديميات في عالمنا العربي وهل هي تعبر فعلا عن احتياجات مجتمعنا خصوصا تلك المعاهد والاكاديميات الغربية الموجودة في مجتمعنا العربي والتزامها بأهداف تنمية هذا المجتمع خاصة وان الانسان العربي والعقل البشري هما أساس النهضة الشاملة في أي مجتمع، أن في الخليج العربي بوادر نهضة شاملة تبشر بالنمو والازدهار وتستقطب عقولا عربية تسهم في قضايا التنمية ولكن كيف يمكن ان نستعيد العقول العربية في الخارج ونمكنها من العودة ؟ وقبل الاجابة على السؤال نتساءل ماذا نريد من هذه الكفاءات العربية الموجودة في الخارج ؟ هل نريد منها

أن تتابع التخصص العلمي الذي تمارسه في الخارج ؟ أم ان تمارس عملا مختلفا ؟ هل نريد من شخص متخصص في الالكترونيات أو الفيزيائيات أو الكيميائيات أو صناعة الطائرات أن يواصل تخصصه وعمله بنفس الأسلوب صعب لعدم توفر الامكانيات وفي مجالات العلوم ؟

ومن التناقضات التي تطل برأسها في كل مناقشات أزمة الهجرة لنقول أننا نريد العقول المهاجرة أن تعود ولكن لا نعرف لماذا نريد لها العودة ؟ هل يعقل أن يعمل المتخصص في مجال الفيزياء أن يعمل في مجال الادارة ؟ بالطبع أنها تناقضات ولكنها موجودة بشكل أو بآخر في وطننا العربي ويعاني منها الخريجون وهناك أمور هامة تواجه العربي في حالة تودته وهي بدون مغالاة :

(١) السكرتارية :

الجيدة وعدم توفرها بالشكل المطلوب خاصة وان عصرنا الحاضر لا يمكنه أن يتجاهل دور السكرتارية في العلوم والتكنولوجيا واختزال الزمن.

(٢) الاتصالات :

ان معظم اللاسلكيات في وطننا العربي غير متوفرة بدرجة مناسبة وفي حالة توفرها فهي غير جيدة بالشكل المطلوب الذي يساعد في سرعة الانجاز مما لا يساهم في رقي العلوم وتطورها.

(٣) الانتقال :

ان وسائل الانتقال في معظم أرجاء الوطن العربي غير متلائمة مع التطور العلمي فهي لا تحسب حسابا للوقت حيث أن الوقت أصبح أحد عناصر التقدم العلمي.

(٤) الصيانة :

لا شك أن في وطننا العربي أجهزة علمية متطورة في شتى مجالات الحياة ولكن ما أن يتعطل هذا الجهاز حتى تتجمد فعاليته ويتم تخزينه أما لعدم وجود قطع الغيار أو ندرة المتخصصين في صيانته أو عدم وجودهم اطلاقا.

(٥) الوقت :

لا يتمتع (الوقت) بالدرجة اللائقة من الاحترام والتقدير أو الاهتمام خاصة في وجود البيروقراطية الحضور المستمر لتعقيدات الروتين الوظيفي الذي يستنفذ طاقة الوقت ويضيع الاستثمار.

(٦) مشكلة الدقة في القول والمعاملة :

ان درجة من التسيب تجتاح أجهزة الدولة في وطننا العربي مما يجعل الدقة في القول والمعاملة أمورا في غاية الخطورة في حياة الفرد العامل.

(٧) ضعف الحوافز :

اذا افترضنا جدلا ان هذه المشاكل غير موجودة أو أن بعض وظيفة الفرد المثقف ايجاد الحل لبعض هذه القضايا فان عدم وجود الحافز المادي والمعنوي وضعف امكانيات التطور وعدم استيعاب العقل البيروقراطي لطبيعة مشكلته ونظرته للأمور وعدم قدرته على المحافظة على خبرته التي اكتسبها في الخارج تشكل مشكلة حقيقية تجعله يفكر في العودة أو الهجرة مرة أخرى وهذا يحدث بالفعل وتأثر سلبي واضح خوفا من زوال خبرته أو تحولها الى تراكمات موجودة بكثرة في عالمنا العربي لا مكتبات... لا مراجع علمية لا مؤتمرات اكاديمية... لا بحوث لا تشجيع أدبي وعلمي لا قدره على السفر الى الخارج أما لتعقيدات ادارية أو مالية الى آخر... وهذه كلها أسباب من شأنها عرقلة عودة العقول العربية

الفصل الثاني

* النفس والجسم

١ ــ المريض والمتمارض وبينهما حاجز

٢ ــ تحت مطرقة الغضب

٣ ــ الوجه مرآة العقل

المريض... والمتمارض... وبينهما حاجز

يسوقني الحديث في هذه الحلقة عن بعض قضايا الطفل... القاصر الذي لا يملك حقه في الأمور العامة ـــ بحكم سنه ويقع أمر مسؤوليته على الأسرة والمدرسة والمجتمع.

ومن المواقف النادرة أن الذي يعاني من مرض نفسي مهما كانت درجته يجد نفسه يعامل معاملة القاصر... فهو المريض الوحيد الذي يفقد حقه في توجيه وتدبير مواقفه لحظة اعلانه أنه يعاني من حالة نفسية ولا يستطيع التفكير وهذه مأساة.

أتساءل : الا نجد أنفسنا كثيرا في لحظات من الوهن النفسي أو الارهاق الجسدي غير قادرين على التفكير السليم أو الرؤية الصحيحة للأشياء... ولكن ساعة أن نسلم بأننا نعاني من مرض نفسي أو عصبي يفترض الآخرون سلفا أننا وصلنا مرحلة العجز عن مواجهة الأحداث ولعب الدور الذي تفرضه علينا مواقفنا فتتعدد حلقة الأوصياء من ناصح أو مجرب متطوع أو صديق متسرع وهذا ما يهمنا في هذه المقالة.

كثيرا ما يقرر المرء العاقل المثقف أو الواعي المتعقل أن يستشير طبيبا نفسيا في مشكلة، فيتصدى له هؤلاء وأولئك ناصحين متسائلين عن السبب وهل كان صاحبكم يدري والا ما معنى الاستشارة اذا كانت معرفة السبب في متناول يده، ويعيد الكرة مرتين قائلا في نفسه ياليت قومي يعلمون،

ويسوق الآية الكريمة من سورة التكوير « انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون » صدق الله العظيم.

وبعد نقاش طويل يقترح أحدهم حلا وسطا بأن لا مانع من الذهاب للطبيب العام واذا كانت هناك حاجة فليكن آخر المطاف أن نطرق الباب الأخير في الحي المهجور في المدينة المظلمة... مدينة الطب النفسي... ويذهب ليقف في الصف الطويل في أحد أقسام المستشفى المجنى عليه الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه أمام هجوم المرضى والمتمارضين لأن العلاج حق معلوم للسائل والمحروم.

وقد قرأت تحقيقا صحفيا في هذه الجريدة قبل أسبوع عن قسم الحوادث في المستشفى حيث تقول الاحصائيات أن ٩٠٪ (تسعين بالمائة) من مشاكل القسم سببها المتمارضون والمرافقون للمرضى (الأوصياء والأصدقاء والمتطوعون) وهذا راجع الى عدم الوعي الكامل لدى الناس... هذا ما يقوله أطباء القسم... ويضيفون : ان مهمتنا انسانية ولا يمكن منع العلاج عن أي مريض... انتهى التحقيق.

ولنا وقفات في هذا المنعطف... الأول تعريف كلمة (متمارض) وهي في قاموس عامة الناس الشخص الذي يدعي المرض دون الوجود الفعلي له ولكن هل يفعل هذا شعوريا أو لا شعوريا، فهناك فارق بين الاثنين في قاموس الطب النفسي... الأول (تصنع) مدرك لطبيعة الفعل ونتائجه وفوائده ومسبباته والثاني غير مدرك عن وعي الدافع اللاشعوري للأعراض وسلوكه كالمريض تماما يصعب التمييز الا بقدر كبير من الجهد والممارسة والتحاليل اليس كل ذلك مرضا نفسيا، هل من طبيعة الانسان السوي أن يستبدل العافية بالمرض ثم وقفة ثانية في الاحصائية لقد ثبتت من أبحاث المجلس الطبي للبحوث في انجلترا في دراسات حديثة أن ٣٥٪ من المترددين على العيادات الخارجية يعانون من أمراض نفسية ذات أعراض عضوية تستنزف طاقة المستشفيات ومن منا لا يعرف الوجوه (المدمنة)

لزيارة المستشفيات والتردد على العيادات... والصيدليات الوجوه التي تعرف أسماء العقاقير أكثر من بعض الأطباء ولم تترك بابا الا وطرقته حتى أنواع الجراحات أخضعت نفسها لها وأنواع التحاليل جربت مفعولها.

ان انسانية المهنة تعني أن نتعامل مع انسانية البشر لا مادية الأثر... فقد يكون الأثر غير واضح ولكن المعاناة من الداخل... وهل يعرف الشوق الا من يكابده.

وقد يكون من مواطن الضعف في الطب النفسي المرونة المفرطة في التعامل مع الناس... والزمن الطويل الذي يستغرقه العلاج وقدرة بعض المرضى على تقليد اعراض مرضية يصعب عليك كثيرا أن تصرف النظر عنها حتى لو أكدت لك خبرة عشرات السنين أن هذا المرض تمارضي... فخير ألف مرة أن نكتشف حالة عضوية واحدة بين مائة حالة نفسية من أن تعالج مائة حالة وتفقد واحدة نتيجة ترك حساباتك للتقدير غير الموضوعي وحتى لو كان هناك أضعف الاحتمالات في صحة تحليل واحد بين عشرات التحليلات المختبرية.

أليست هذه حرب استنزاف طويلة المدى بين المرضى والدولة، بين المريض والمتمارض وبينهما حاجز... الجانب الانساني الذي يقف عليه الطبيب ومن جرب الوقوف على الحواجز للتمييز بين الناس يقدر حجم المعاناة في محاولات تصنيف الناس بالشكل أو اللون أو البطاقة أو اللبس محاولة شاقة وأكثر منها مشقة محاولة تمييز الناس بالدوافع اللاشعورية والفطرية تجعلهم يسلكون سلوكا معينا... فالمظهر العام قد لا يعطي أي دلالة للسلوك الفردي الخاص الذي يجعل من الأول مريضا يحتاج الى أولوية العلاج والثاني متمارضا يحتاج الى ديناميكية المعاملة.

والمؤلم حقا أن المرضى النفسيين أصحاب الحق في المعالجة يرفضون دخول المستشفى الا بعد أن تصل حدا يصبح فيها الاختيار بين الحياة والموت قرارا ومسؤولية في يد الآخرين وعند دخوله تصبح محاولة علاجه تطويقا للمضاعفات... لا علاجا للمسببات... فلذلك يطول العلاج...

وتكثر الانتكاسات بصورة تفرض على الأهل والطبيب اختيار الحلول الجزئية لأن المشكلة أكبر من أن تعالج في اطار واحد وعندما يفوت الاوان يقولون « واذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت » صدق الله العظيم.

ان قدرة الطبيب العام على الوقوف على الحاجز الذي يفصل بين المريض والمتمارض تحدها قدرته على دقة التمييز بين الأعراض العضوية والأعراض الجسدية والأعراض النفسية — جسدية وهذه مصيدة كبيرة يستعمل فيها كل أدوات الطب الحديث من ميزان الحرارة وجهاز ضغط الدم والمنظار... الخ ولكن عندما يواجهك حالة يشكو صاحبها من عدم القدرة على التنفس وشعور بالاختناق وازدياد في ضربات القلب وتقول لك كل هذه الأجهزة غير ذلك... ماذا تفعل،

هل تقول للمريض أنك تدعي المرض فاتجه الى الباب الخارجي أم تحاول أن تبحث عن وسائل أخرى تقنع صاحب الشكوى أن المعدات الطبية الحديثة أثبتت أنه سليم وتتقدم له بالتهنئة، انها أقسى المواقف، وهل الوسائل الأخرى التي تلجأ اليها لاستخدامها هل هي قناعة لاثبات شيء تريد التحقيق منه أم محاولة ببراءة الذمة من تهمة تخاف أن تعلق بك... هذا موقف الطبيب الذي يقف فوق الحاجز بين المريض والمتمارض معاناة بكل أشكالها حرب استنزاف تهدر الثروة القومية التي تنفق في قيام هذه المؤسسات وتفتك بالقوى البشرية التي تتعامل في هذه المؤسسات وبتلك الآلات أن الطبيب هو الذي يتولى الحديث بلسان الآلات التي ترصد نبضات القلب وحركات الجنين وذبذبات المخ الكهربائية... وكثيرا ما يصدق الناس الآلة ويتشككون في الطبيب وهذه أزمة نفسية أخرى علاجها من أكبر تحديات العصر.

والحق أقول لكم... مهما اتسعت المباني... ومهما كثر عدد الأطباء فان الماء العذب يصب في البحر المالح.

ويكتفي أن نعلم أن عيادة الطب النفسي التي تحولت الى قسم كامل

وتكثر الانتكاسات بصورة تفرض على الأهل والطبيب اختيار الحلول الجزئية لأن المشكلة أكبر من أن تعالج في اطار واحد وعندما يفوت الاوان يقولون « واذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت » صدق الله العظيم.

ان قدرة الطبيب العام على الوقوف على الحاجز الذي يفصل بين المريض والمتمارض تحدها قدرته على دقة التمييز بين الأعراض العضوية والأعراض الجسدية والأعراض النفسية ــ جسدية وهذه مصيدة كبيرة يستعمل فيها كل أدوات الطب الحديث من ميزان الحرارة وجهاز ضغط الدم والمنظار... الخ ولكن عندما يواجهك حالة يشكو صاحبها من عدم القدرة على التنفس وشعور بالاختناق وازدياد في ضربات القلب وتقول لك كل هذه الأجهزة غير ذلك... ماذا تفعل،

هل تقول للمريض أنك تدعي المرض فاتجه الى الباب الخارجي أم تحاول أن تبحث عن وسائل أخرى تقنع صاحب الشكوى أن المعدات الطبية الحديثة أثبتت أنه سليم وتتقدم له بالتهنئة، انها أقسى المواقف، وهل الوسائل الأخرى التي تلجأ اليها لاستخدامها هل هي قناعة لاثبات شيء تريد التحقيق منه أم محاولة ببراءة الذمة من تهمة تخاف أن تعلق بك... هذا موقف الطبيب الذي يقف فوق الحاجز بين المريض والمتمارض معاناة بكل أشكالها حرب استنزاف تهدر الثروة القومية التي تنفق في قيام هذه المؤسسات وتفتك بالقوى البشرية التي تتعامل في هذه المؤسسات وبتلك الآلات أن الطبيب هو الذي يتولى الحديث بلسان الآلات التي ترصد نبضات القلب وحركات الجنين وذبذبات المخ الكهربائية... وكثيرا ما يصدق الناس الآلة ويتشككون في الطبيب وهذه أزمة نفسية أخرى علاجها من أكبر تحديات العصر.

والحق أقول لكم... مهما اتسعت المباني... ومهما كثر عدد الأطباء فان الماء العذب يصب في البحر المالح.

ويكتفي أن نعلم أن عيادة الطب النفسي التي تحولت الى قسم كامل

امتلأت حتى غصت الساحة بالمراجعين ويقيني وقناعتي أن المستشفى الجديد الذي بشر به سعادة الوكيل قد امتلأت قائمة المنتظرين للدخول اليه ويصدق على المستشفى القديم قول أبي الطيب المتنبي :

فان يكن الفعل الذي ساء واحدا   فأفعالـه اللائـي سررن ألــوف

تحت مطرقة الغضب

ان من سمات الوجدان الانساني حالات الانفعال وامتزاج العواطف. والعواطف متعددة المظاهر في السلوك البشري... والانفعالات متداخلة الأثر وان كانت مختلفة الأسباب. والانفعال من طبيعة النفس البشرية وهو غريزة تولد بالفطرة، اننا لا نتعلم عاطفة الخوف أو الضحك أو البكاء فهي موجودة فينا ولكننا نتعلم كيف نخاف، مم نخاف، لماذا نخاف، ومتى نعبر عن الخوف، وكيف نسيطر عليه.

ان الانفعالات موجودة في الأفراد والجماعات والشعوب في كل العالم، مما يؤكد أن التكوين الفسيولوجي للانسان واحد ولكن الخلاف حول متى وكيف نعبر عن هذا العواطف، وأكثر الانفعالات شيوعا لدى الانسان عاطفة الخوف والبكاء والضحك والغضب... فالضحك في الانفعالات التي تحركها مواقف اجتماعية ويثيرها عنصر الدهشة... فالطفل يضحك عندما ندغدغه لا عندما يدغدغ نفسه (وشر البلية ما يضحك) والبكاء من الانفعالات التي تثيرها عواطف مزدوجة وعناصر متعددة. وعلى الرغم من أننا نقرن الفرح بالضحك والحزن بالدموع فهناك الفرح الجزين والحزن الضاحك. والبكاء قد يرتبط بعناصر متناقضة كالبكاء في قمة (النشوة) لحظة الاستماع الى قطعة موسيقية مؤثرة... أو رؤية طفل عليل يبتسم في براءة أو البكاء في موقف (حداد) وحالة فجيعة وشعور بالانقباض أو البكاء في لحظة (ترويح) عن النفس عند لقاء أم حنون لولدها العائد من

سفر طويل يجرفها طوفان الفرح وأمواج الدموع وكأنها تقول : ما كان ينبغي مني أن أفعل ذلك، أو البكاء في لحظة (تعاطف) ومشاركة وجدانية للآخرين في الأفراح والأتراح تسكب الدموع تفاعلا مع مشاعر الجماعة.. أما الغضب فهو من الانفعالات الشديدة التي تسبب حالة اضطراب مؤقتة ذات آثار بعيدة المدى.

وقد وجد علماء النفس صعوبة في التمييز بين حالات الغضب والخوف حسب الآثار الجسدية المترتبة في الحالتين على جسم الانسان وقد تكون الآثار الجسمانية في الحالتين متشابهة على الرغم من اختلاف نوعية الانفعال كما توجد هنالك مظاهر مشتركة للانفعال مثل شحوب الوجه وخفقان القلب ورعشة الأطراف وسرعة التنفس. ولذلك نجد أن محاولة استبطان الفوارق بين هذه الانفعالات يتأثر بعوامل خارجية أخرى منها معرفتنا لظروف الفرد وطبيعة المثير ونوع الاستجابة.

العقل والقلب

في حالات الخوف تزداد سرعة التنفس وتورد الخدود وكثرة العرق وقشعريرة الجسم، بينما في حالة الغضب تتوتر عضلات الجسم ويرتفع ضغط الدم وتزيد رعشة الأطراف ويجف اللعاب... مجرد خيط رفيع يوضح سر العلاقة بين العقل والجسم... وسيكلوجية الغضب تدور حول أيهما يتأثر أولا، هل يتأثر الجسم ثم يتفاعل العقل أم العكس صحيح، وحركة العقل هي التي تعلمنا كيف نسيطر على الغضب... فاننا نحب ونكره لا بقلوبنا ولكن بعقولنا... بقشرة المخ (اللحاء) والتي نعزي اليها التمييز العظيم بين الانسان والحيوان في الذكاء والملكات العقلية والسلوك الراقي، وسمي العقل عقلا لأنه يعقل الانسان عن التورط في المهالك ومنها (أعقل شاتك) وهذا مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة وقال عز وجل (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور).. صدق الله

العظيم سورة الحج آية ٤٦ فالغضب يمثل أحد الانفعالات غير السارة المصاحبة للسلوك الانساني وأول مسبباته أحباط النشاط الذاتي الهادف الى تحقيق غاية للانسان وكثيرا ما يحدث الغضب كاثار جانبية نتيجة قطع مسلسل الأحداث المؤدية الى هدف معين بصرف النظر عن محتوى الهدف. وبما أن الغضب بعد لحظة بدايته قد تتكون له دوافع جديدة غير الرغبة في الانتقام أو الثأر من مصدر الاحباط فقد يبدأ الغضب كأثر عاطفي لدوافع أخرى وقد يتحول الى الداخل لتدمير الذات كالادمان على المسكرات أو الانتحار أو مجرد الامتناع عن الملذات الحسية حتى الموت.

وسائل التعبير

ان وسيلة التعبير عن الانفعالات تكتسب بالتعلم وتميز الفرد والجماعة والأمة والشعوب عن بعضها البعض... فالقدرة على معرفة العاطفة من تعابير الوجه أو الايماءة أو الصوت تعتمد كثيرا على تقاليد البيئة التي ينشأ فيها الانسان وقد دلت دراسات تعابير الانفعال في الثقافات المختلفة على أن التعبير عن العواطف يأتي عن طريق التعلم... حتى يتكون ما يسمى « بلغة العواطف » (Emotional Language) في البيئة المعينة... فصك الاسنان أو اطباق قبضة اليد تعبر عن الغضب وانقباض عضلات الوجه قد يعبر عن الحزن ورفع حواجب العيون قد يعبر عن الشك أو عدم الرضا وهز الأكتاف يعبر عن الدهشة أو اللامبالاة ولذلك يبدأ الانسان منذ الصغر يتعلم التعبير عن مشاعره من واقع بيئته. والانسان قد يعبر عن العاطفة الواحدة بعدة وسائل... في حالة الخوف قد يتجمد في مكانة أو يفر هاربا من الخطر. وفي حالة الغضب قد يعض شفاهة في صمت أو يفرك أصابعه في عصبية أو يعتدي على الشخص الذي أثاره... وحتى (اسم) الحالة الانفعالية... الخوف... الغضب... البكاء... الفرح يعتمد كثيرا على معلومات اضافية مثل معرفتنا للشخص ودوافع الاثارة والهدف الذي يسعى اليه وقد تسمي رد الفعل الانفعالي لرؤية حيوان خطر حالة (خوف) اذا

حاول الانسان الهرب... وقد نسمي رد الفعل الانفعالي للاساءة حالة (غضب) اذا حاول الفرد الثأر من المسيء...

حقيقة أن بيئتنا تشكل الواننا وأفراحنا تلون أحزاننا... وللاستدلال على أثر البيئة في التعبير عن العواطف لوحظ أن الرجل الأمريكي يندر أن يبكي في مأتم أو فرح أو فشل مهمة بينما نجد المرأة الأمريكية أكثر استعدادا للبكاء... كما نجد الرجل الفرنسي سريع البكاء وقد تبكي الأسرة كلها ساعة وداع فرد مسافر بينما نجد الرجل الانجليزي صارم الوجه هادىء الانفعال والرجل الايطالي كثير الجدل سريع الاثارة والزنجي الامريكي حاد الطبع عاشق للطرب والرقص والموسيقى... اذن نحن لا نتعلم غريزة الانفعال المولود معنا ولكن وسيلة التعبير هي مادة التعلم...

مطرقة الغضب

لقد أجرى العالم الامريكي وليام قيتنر في كتابه (ملاحظات نقدية عن الغضب) تجربة على مجموعة من النساء الامريكيات لملاحظة مسببات الغضب وردود الفعل... فذكر بعض المسببات مثل الاتهامات الظالمة والاساءة الجارحة، والخلافات الحادة، والتصرفات الخاطئة ووجد أن ردود الفعل تتراوح بين الردود الشفهية والاعتداء على الجاني بالضرب أو الاساءة أو القتل وبين تحويل الانفعال نحو تحطيم أثاث المنزل أو الخروج من المكان أو الصراخ أو السباب.

وهذا يؤكد أن الانسان في حالة الغضب يقع بين المطرقة والسندان وان هذه المطرقة عندما تهوي على جسم الانسان تصعد تيارات الى المخ... الى العقل الذي يرسل اشارة التحكم الى أجزاء الجسم لتحديد نوع ودرجة الاستجابة... باليد أو اللسان أو القلب وعلميا فان القلب يخضع لتوترات عصبية شديدة في حالة الغضب فتزداد ضرباته نتيجة افراز هورمونات الغدد الصماء التي تزيد من نشاط كل أعضاء الجسم استعدادا للدفاع أو الهجوم.

وان تواتر هذه المطرقة على القلب المطروح على السندان يؤثر في

قدرته على ضبط نشاطاته في تنظيم دورته الدموية ويزيد حجم العمل الذي يقوم به بصورة تؤدي الى الارهاق العصبي وان القلوب اذا كلت عميت.. وعمي القلوب يعني فقدان البصيرة.. وفقدان البصيرة يؤدي الى فقدان سيادة العقل وقدرته على غسل النفس من الخطايا النفسية... كالحقد.. والحسد والكراهية وتقليل حدوث الأمراض الجسدية كقرحة المعدة والتهاب القولون والذبحة الصدرية والسكتة القلبية التي يسببها أو يزيدها أو يضاعفها الغضب. وفي الحديث (أن رجلا قال للنبي ﷺ : أوصني، قال (لا تغضب) فردد مرارا قوله: لا تغضب).

وغاية الشقاء عند الانسان لحظة الوقوع بين المطرقة والسندان عند الغضب... وصدق القائل: (ومن الحزن ما قتل).

الوجه مرآة العقل

يقال أن الوجه مرآة العقل باعتبار أن التعابير التي يعكسها الوجه في أي لحظة من اللحظات هي انعكاس للحالة النفسية التي يحس بها الانسان، وبما أن الحركات التعبيرية للوجه لا تتم بنفس السرعة التي تعكسها المرآة بحكم أنها تخضع لقانون المثير والاستجابة والفعل ورد الفعل، فان هذه المقولة تصبح أقل دقة بهذا المعيار المعروف لأن كثيرا من التعابير تظل باقية في الوجه كاستجابة لمثير انتهى حدوثه، أو تكون استجابة لعدة مثيرات متناقضة أحدثت تغيرات حركية في الوجه انتهت بسرعة نتيجة حدوث مثيرات جديدة رغم أن السبب الأول ما زال باقيا... اذن يصبح ايحاء التعبير من خلال المرآة كآلة عاكسة لا يحمل نفس الدلالة التي تحدث داخل العقل.

كما أننا اذا أردنا أن نكون أكثر دقة فلا بد أن نلاحظ أن العقل ليس مرادفا للقلب وليس صورة طبق الأصل للنفس. فكل كلمة لها مدلول ووظائف معينة ومن غير الدخول في متاهات تفسير مفهوم القلب والعقل والنفس نقول أن الامريكيون أقرب الى الحقيقة لو تحدثنا عن الوجه كمرأة للنفس. لأن النفس هي مجموعة وظائف فسيولوجية ينطبق عليها الى حد كبير قانون المثير والاستجابة والفعل ورد الفعل بينما نجد أن العقل هو الذي « يعقل » العواطف ويكبت الانفعالات ويشكلها بما يتناسب والموقف. فلذلك نجد أن المرآة لا تعكس حقا ما يدور في العقل وان كانت تعبر عما يدور في النفس لأنه اذا كان دور النفس التلميح والتصريح

فان مهمة العقل هي التنقيح والتصحيح... تنقيح المثيرات وتصحيح ردود الفعل بينما يقتصر دور النفس في أغلب الأحيان على التلميح في حالة الاستيطان والتصريح في حالة الانفعال والغليان. والفارق بين الحالتين نوعي وموضوعي. لذلك كثيرا ما نصف النفس بالامارة بالسوء واللوامة أو المطمئنة، بينما يتسم وصفنا للعقل دائما بالرجاحة وكبح الجماح ولا يمكن الا أن يكون كذلك والا فقد وظيفته الأساسية وفقد الانسان قيمته الحقيقية. ولقد ورد ذكر العقل في محكم التنزيل في أكثر من موضوع باشارة « أفلا تعقلون »... « أفلا تفكرون »... « أفلا تعلمون » أفلا تنظرون... فالفكر والعلم والنظر من صفات العقل بينما الشهوات والهفوات والخطايا من صفات النفس.

الأمثال العامية

اذا نظرنا الى الأمثال العامية نجد أن كثيرا من الأمثال العامة تحاول الربط بين معالم الوجه وخلجات النفس بحثا عن صحة المقولة « الوجه مرآة العقل » ونجد أنها تميل الى التدقيق في انطباعات الوجه وربطها بالحالة النفسية للرد. فقد تربط بين تقاطيب الوجه والكآبة... بين انفراج الأسارير والفرح وبين الحزن الضاحك والفرح الحزين... وبين الابتسامة الصفراء واصفرار الوجه الغاضب كما تذهب شتى المذاهب في تفسير العلاقة بين تعابير الوجه والمواقف المعنية، فانشراح الوجه تعبير عن الابتهاج والمسرة وقد تكون حقيقة أو مفتعلة ومط الشفتين قد يكون تعبيرا عن الاستياء أو شدة الانفعال أو عمق التفكير.. لقد حاولت شخصيا لفترة طويلة دراسة « الدلالة النفسية للأمثال العامية » فوجدت علاقة فلسفية على قدر كبير من الفراسة والحكمة والتحليل المنطقي بين المفهوم الاجتماعي للمثل الشعبي والدلالة العلمية من الناحية الفسيولوجية والعصبية غير أننا يجب أن لا نغالي في هذا الاتجاه لأن دور العقل يقف خلف كل هذه التحليلات والتفسيرات حيث أن للعقل « وقفة خاصة » مع كل حدث في حياة الانسان... تبدأ بتقديم الحدث... ومقارنة النضج العقلي والانفعالي

وربط الظروف البيئية المحيطة بالفرد ثم محاولة استقراء النتائج التي قد تترتب على رد الفعل في سلسلة متصلة من البحث والرصد والاستقرار.

انعكاسات خاطئة

من كل ما ورد يتضح لنا أنه بقدر ما يحدث أن يكون الوجه مرآة للنفس أو العقل في مفهوم عامة الناس بقدر ما قد يخطىء هذا الانعكاس وتسبب كثيرا من المشاكل في حياة الفرد والمجتمع ولعل من نافلة القول أن نذكر أن كثيرا من الوجوه قد تحمل من التعابير ما يخالف خلجات النفس الداخلية... فنطلق على الشخص وصفا معينا مستمدا من تعابير وجهة هو في الواقع بعيدا كثيرا عن مكنون ضميره اذا أتيحت لنا فرصة معرفته... وقد لا تتوفر لنا الفرصة لمعرفة هذه الظروف فقد يظل الانطباع الخاطىء عالقا بأذهاننا كرسم كاريكاتيري للشخص يجعلنا نتخذ مواقف غير سليمة تبنى عليها قناعات خاطئة وعلاقات خاصة أو عامة متميزة ذات انطباع معين قد لا تتغير حتى في حالة حدوث ظروف ايجابية تقتضي التغيير والعكس صحيح... فكثير من الناس كانوا ضحايا تعابير وجوههم في مرآة الآخرين. وبالمقابل كثيرون كانوا سعداء بالايحاءات الطيبة ذات الانطباع المريح التي تركتها تعابير وجوهم لا نفوس معارفهم في كل لحظة فكانت الاشارة أو الحركة أو الايماءة خلال فرح تحمل الدفء والمسرة وتبعث الراحة والتفاؤل في قلوب الآخرين... وقد استمتعوا بهذه الهبة الربانية الى أن حدث ما دفع بالباطن الى السطح فاختلفت النظرة الحقيقية عن الرؤية المتوقعة فأدى ذلك الى محاولة قلب المرآة لتصحيح وضع الصورة... وبما أن المرآة مجرد جسم عاكس لاشعة الضوء في كل الاتجاهات بحكم قانون ثابت فلن يحدث التغيير الا من خلال تغيير الصورة الأصل التي انطبعت في ذهن الرائي بكل ما يترتب على هذا التغيير من مشقة ومسلسل أخطاء جديدة لتصحيح انعكاس خاطىء واحد.

سلبيات وايجابيات

اذا تركنا الحديث عن سلبيات قدرة المرآة على عكس تعابير الوجه بما

يعبر عن دخيلة الانسان أي عن الموقف الذي لا يكون للانسان فيه دور ايجابي في تشكيل تعابير الوجه لتحمل الى انطباع معين... فهناك الجانب المتمثل في المحاولة المقصودة والجهد الشخصي المسبق لاستغلال الوجه في عمل انطباعات معينة في مواقف معينة أو نقل موقف خاص الى موقف عام ومثال ذلك أن يلجأ الانسان الى القيام بحركات تعبيرية معينة هي أشبه بالقناعات التنكرية أو الوجوه المستعارة لنقل ايحاء معين الى نفس الناظر فيكون دور المرآة هنا « والذي هو بطبيعته سلبي » قد اتخذ موقفا شبه ايجابي حيث شارك في نقل موقف مفتعل أو تعابير غير طبيعية لتحمل انطباعا مغايرا للموقف الحقيقي بصورة أو أخرى.

فاذا كانت للضرورة أحكام كما يقولون فان للمواقف ضوابط والطبع يغلب التطبع فاذا استطاع الانسان أن يلبس قناعا معينا يعبر عن الهيبة والوقار أو آخر يعبر عن البساطة والانطلاق فان « تزييف القناعين » هو محاولة مفتعلة وتظهر سلبيا في عدم القدرة على استمراريتها لأن الانسان لا يستطيع أن يفتعل الفرح بأكثر مما يتطلبه الموقف كما لا يستطيع أن يستمر في افتعال أو تمثيل دور الكآبة في أحسن حالات الانبساط دون الاخلال بتوازنه النفسي وانفعاله الشخصي.

جاذبية الوجه

هذا عنوان لدراسة مطولة قام بها بعض العلماء لدراسة العلاقة بين تعابير الوجه وشخصية الانسان ودراسة العلاقة بين نوعية تعابير الوجه وعمر الانسان. وقد دلت الدراسة الأولى على أن تعابير الوجه تلعب دورا هاما في تحديد معالم شخصية الفرد...

وجاذبية الوجه انعكاس في مرضاة نفوسنا لتعابير الوجه الذي تتحدث عنه والتي تحمل خلجات نفسه وسمات شخصيته تلك الأشياء التي تخرج عن لمسة أصابعنا في محاولة القياس وتطبيق المعايير مثل « علم الجمال » الذي ندركه ونجهل لماذا هو كذلك وقد صدق ايليا أبو ماضي حين قال :

أيها المشتكي وما بك داء
كن جميلا تر الوجود جميلا

الا يصدق هذا على القول القائل :

الوجه مرآة العقل، أقول : ربما.

الفصل الثالث

* العصر الذهبي للأزمات

١ ــ حجر في لجة الماء

٢ ــ مَن يحرسنا ممَّن؟

٣ ــ انهم يحرثون في البحر

٤ ــ مزيداً من الخيام يا كرام

٥ ــ بيروت.. لن تموت

حجر.. في لجّة الماء

يُروى عن الشاعر العربي المعروف «ابن الرومي» انه مرّ على خبّاز ووجده ممسكاً بالعجينة في يده.. يبسطها ويطويها.. ويعيد تكويرها وتدويرها حتى تستوي في استدارة القمر ثم يلقي بها في النار.. وكان «ابن الرومي» مشهوراً بدقّة الوصف الفوتوغرافي المتحرّك الذي يجعلك تعيش معه الأحداث كاللقطات السينمائية وأنت تقرأ وصفه للأشياء التي يتناولها بالوصف الشعري فقال:

أن أنسى ما أنسى خبّازاً مررت به يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفّة كرةٌ وبين رؤيتها حوراء كالقمر
إلّا بمقدار ما تنداح دائره في لجّة الماء يلقي فيه بالحجر

ولا أستطيع أن أتصوّر وصفاً أكثر دقّة لعملية (خبز العجين) من هذه اللوحة الشعرية الرائعة ولا أعتقد ان أحداً منا لم يعش هذه التجربة.. وليس بالخبز وحده يحيا الانسان.

موت الكلمة

تذكّرت هذه الأبيات المأثورة عندما بدأت أقرأ في الصحف.. وأتفرّس في وجه الكلمات كأي مواطن عربي يصعب عليه أن يغضّ طرفه عن رؤية الخبّاز والعجين في وضح الضحى ولا يستطيع اماطة الأذى عن الطريق لأن

الخباز من نوع جديد والعجينة من طراز فريد. وكأي بشر له حواس خمس تتفاعل ويعيش مع مجتمعه في هذه البقعة من العالم كانت تنتابني الهواجس والوساوس منذ فترة طويلة كوخز الأبر.. وكي المراويد وأنا أسمع وأرى وألمس وأتذوّق وأشمّ رائحة (الطبخة) التي تدفع للغثيان أحياناً.. وللشعور بالانقباض والكآبة أحياناً أخرى.. وأقول لنفسي (لن يغير الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم) ومن نعم الله علينا أن أهدانا من الثمرات ما نتعاطاه في مثل هذه الأزمات.. كالمصل الواقي ضد شلل الارادة.. فتتحرّك الأطراف الميتة كلما حاولت الاسترخاء بعيداً تحت تخدير النفس الأمّارة بالسوء.. وتستيقظ في الداخل النفس اللوّامة.. وتتساءل: هل كنت حقاً تنام قرير العين هانئاً أم كنت تهرب عن حقيقة ما يدور وما جرى، وعندما لا أعرف الاجابة.. أو أخجل من ردّ السؤال تؤكّد لي قائلة:

واذا لم يكن من الموت بدّ فمن العار أن تموت جبانا

وبعد أن حاولت أن أتناسى كل ما يسبّب لي الألم بفعل لاشعوري هارباً الى كتابة مقالة هامشية يتسرّب الى دخيلتي شعور بالذنب.. كالذي يشهد بالزور أو يهرب من صرخة مستنجد غارق في لجّة الماء.. أو سابح في بحر من دماء أو ساقط في كومة من النار واللهيب.. فأخلع عن جلدي بذّة (التناسي الهستيري) مستوثقاً ان (مَن لم يمت بالسيف مات بغيره) ويكفي حباً ان الشجاع يموت مرة والجبان يموت ألف مرة ونحن هنا نموت مليون مرة في اليوم الواحد.. بالكلمة.. بالخبر.. بالصورة.. باللقطة المشتركة.. وموت الكلمة في ضمائرنا جريمة قتل جماعية نشترك فيها ونشارك بها في كل لحظة استرخاء.. وكل ساعة متعة.. وكل فرحة لقاء في البيت والعمل.

خباز لبنان

أعود الى صورة خباز (ابن الرومي) وتشبيه شكل العجينة بالدوائر التي تنداح من وسط الماء حين يلقى فيه بالحجر.. وكيف تتحرّك هذه الدوائر

من وسط الماء حتى يلقى فيه بالحجر.. وتتّسع الحلقات من نقطة سقوط الحجر الى ما لانهاية... وتتحرّك هذه الدوائر حتى تصطدم بجسم صلب مثل كاسر الأمواج فتتفكّك هذه الدوائر المفرغة. وينتهي ردّ الفعل لأثر الفعل الأول لحظة سقوط الحجر..

أسوق هذا التشبيه بما فعله وزير حرب العدو (أريل شارون) حين تصوّر أو هيّأ العالم ليتصوّر ان غزو لبنان مجرد عملية هجوم وقائي لاستئصال شأفة الوجود الفلسطيني في جنوب لبنان حيث أصبح يهدّد أمن بلاده بهجمات الفدائيين المتواصلة تارة بالعمليات الانتحارية عبوراً بالقوارب المطّاطية أو هبوطاً بالمنطاد أو دخولاً على الأقدام وسط حقل الألغام بأحزمة التفجير والعبوات الناسفة.

ومن فرط تكرار هذه المقولة صدّق أكثر الناس أن عملية محدودة في هذا النطاق قد تجلب الأمن الى قلب اسرائيل فتهدأ ثورة الكنيست وتروي ظمأ شارون للدم العربي، وكثرة التكرار تحت مختلف أساليب التأثير كالاغراء بالسلام.. والتلويح بالمصالحة.. والتهديد بالاحتلال والتبشير بالاستقرار يفعل فعل (غسيل المخ) في عقول المشتغلين في مخبز السياسة، وتحقّقت نبؤة شارون. وفي لحظة تداع حرّ. وانفصال بين العقل والعاطفة قرّر شارون أن يلقي (حجره) في لجّة الماء في عمق الجنوب اللبناني.. فاذا بالحجر الصغير يحدث دوائر تنداح في حلقات متفرّغة في شتّى الاتجاهات بصورة تسرّ الناظرين اليها.. بمنظور اسرائيل وتدمي قلوب المفجوعين فيها من ذوي صلة الرحم والدم والدين واللغة والتراث والتاريخ والمصير.

الحبل والقارب

لقد أفلت الزمام من يد الحكام في اسرائيل والذين غلبت عليهم طبيعة النفس البشرية التي ما قضت حاجتها إلّا وتتوق الى أخرى وما بلغت غايتها إلّا وتتشوّق الى ثانية وثالثة وتتّسع الدائرة من جنوب لبنان الى بعد كيلومترات

من بيروت.. ومن قلعة الشقيف الى مقرّ وزارة الدفاع وترك (هيج) الحبل على القارب.. وفقد طوق النجاة فغرقت اسرائيل في بحار الدم العربي وظنّت ان الحلم الأبدي سوف يتحقّق في لمح البصر وتنتهي أسطورة الارهاب وطنين الذباب الذي يقض مضاجع سكان المستوطنات اليهودية بداية بحناجر الاذاعات العربية المسعورة نهاية بقصف المدافع الفلسطينية المقهورة وبنادق الأصدقاء المصوّبة من حيث تدوي ولا تدري، وتورّط قارب شارون حتى وصل قلب بيروت قبل أن يصل عند شط الليطاني.

وسقط (هيغ) كبش فداء في أول عملية استرضاء للمتواطئين داخل وخارج البيت الأبيض والذين عقدت ألسنتهم الدهشة لحجم «العملية المحدودة» التي تجاوزت حدود الحروب المعهودة متساءلين (فاذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت) أجابت بيروت: «قتلها حجر شارون الذي ألقاه في الجنوب وترك للعالم مهمة البحث له عن كاسر أمواج ليوقف زحف الدوائر المتحرّكة على دمشق والأردن والعراق.. والبقية تأتي.. قائلاً:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

مَن يحرسنا.. ممَّن؟

كانت القافلة عائدة من «جبل عرفات» قبل وقت الغروب متجهة الى «المزدلفة» لالتقاط الحمرات.. وكان أمير الركب ينادي بمكبّر الصوت (العين.. العين) كلمة السرّ وصوت البشير الذي اتفقت عليه بعثة جامعة الامارات العربية المتحدة طوال رحلة الحج حتى لا يتفرّق شملنا وينفرط عقدنا وسط الأمواج البشرية الهادرة في موكب النور.

ونزلنا عن «المزدلفة» (وقال لي صاحبي: أنظر وراءك سبحان جامع القلوب ومولف الأفئدة في غمضة عين وانتباهتها ما بين القيلولة والمغيب كانت «عرفات» عراء ثم صارت خلية نحل والآن تعود سيرتها الاولى عراء من جديد تأمل في القوى الخارقة التي تتحكّم في هذا «العالم المتحرك» المنحدر من كل حدب وصوب.

صور من الجهاد

تركنا المزدلفة قبيل الفجر لرمي الجمرات وتصوّرت عدد حبات الحصى التي يحملها هذا الطوفان البشري لرجم الشيطان وهناك شاهدت ملحمة من الجهاد النفسي لن يتصوّرها إلّا مَن عاش متعة ورهبة التجربة حيث تنصهر ويتلاشى كل عنفوان الشباب ووهن الشيخوخة في بوتقة الايمان فيسقط القوي وينهض الضعيف بقوة الوهج المنبعث من داخل النفس ثم شاهدت

عجوزاً اندونيسياً تجاوز الثمانين تكاد ضلوعه تخرج من القفص الصدري يشق طريقه في ثبات للوصول الى موقع الشيطان الأكبر في جمرة العقبة ليرجم عدو الله وعدوه وقبل وصوله سقط وسط الجحافل واستشهد في سبيل الله واستمرّت المسيرة، وبعدها يمّمنا وجوهنا شطر البيت الحرام لأداء طواف الافاضة وظننت ان فارق السن بيني والعجوز الأندونيسي قد يؤتى ثماره في ذلك الزحام فحملتني الأمواج طوال الأشواط السبعة بأنفاس متقطّعة لم أستردّها إلّا حيث قذفتني كالنواة بين جمهرة المهرولين بين الصفا والمروة ومَن هناك أمكنني مشاهدة الزحف الذي كنت فيه وأنا أتأمّل منظر أفواج الطائفين حول الكعبة مردّداً: حقاً «ان للبيت ربًّا يحميه» وبعدها عدنا الى «منى» متحلّلين، فالتقينا صدفة في الطريق ببعض الاخوة من الحجّاج السودانيين مع ضيوف الرحمن من بلاد أخرى وجلسنا داخل الخيمة لتناول الطعام قال لي أحدهم: كنت خائفاً على والدتي (الحاجة) من زحام الجمرات وسألتها أن أنوب عنها ورفضت مؤكّدة انها تفضّل أن تموت (وتجاور) قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فرمت الجمرات وعادت بسلام واستطرد يسألني: هل شهدت معركة الحجاج في رجم الشيطان، لو ان كل مسلم في العالم قذف بهذا العدد من الحجارة على اسرائيل لما بقي شيطان واحد فهناك قرابة السبعمائة مليون مسلم فكم يكون عدد الأصفار وحجم الدمار، ولو كانت هذه بنادق فمَن سيمتلك حق المبادرة وصنع القرار، وخشيت أن يتطوّر الحديث الى نقاش سياسي بحمية السودانيين في نضج الحس المبكر وجدال الفكر المؤثر في المواقف والأحداث فقلت له تذكر «لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج» فصمت وخرجنا الى الصلاة.

والآن أتذكر قول ذلك الرجل أتذكر كل ما قيل ودار وأستيعد شريط الأحداث الى «خيمة منى» وأسترجع صورة الاجتماع والافتراق في عرفات وتلك الادارة وصورة التقاط الحصى في المزدلفة وذلك التصميم ولحظة رمي الجمرات ونشوة الجهاد واستشهاد الأندونيسي وقوة الايمان وقصة الحاجة السودانية الآتية بنية الحجّ تطلب الموت في جوار الرسول فكتبت لها الحياة مع العائدين.

دروس وعبر

كان الدرس الأول من هذه الرحلة تأكيد حقيقة الوجود ــ الحركة والسكون بيد الله وان اجماع الأمّة على شيء لا يفت في عضدة جبروت طاغية ولا خذلات داعية، فالذي جمع الشتات في قمّة عرفات ما بين الظهيرة والغروب هو الذي يحيي ويميت، ينصر ويهزم، وان آلامه المؤمنة قادرة على صنع المعجزات في سجل البطولات والدرس الثاني يتمثّل في ثبات القول ان الحذر لا ينجّي من القدر وحكمة الموت والحياة بيد الله ولكن ذل الهوان والمسكنة بيد الانسان كما قال المتنبي:

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على الناس أهوانا

أمّا العبرة الكبرى فهي جملة هذه المواقف التي ترتفع في كل منبر تنادي مَن حذّرك كمَن بشّرك، فاننا لم نقدّر أنفسنا حق قدرها لا كأمّة اسلامية تملك من القوة العقائدية والحضارة التاريخية والامكانيات البشرية ما يزلزل الأرض زلزالاً ولا كأمّة عربية تملك من الثروات الماديّة والقدرات العسكرية ما يجعلها قادرة على حماية مقدّساتها وصيانة حرماتها وترك بصماتها واضحة على خريطة العالم ووجه التاريخ المعاصر.. تزيّننا صفات خصّنا الله بها في قوله تعالى «كنتم خير أمّة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» (سورة آل عمران)، فمتى نسأله التبديل في الحال فيكفينا ذلّ السؤال وقهر الرجال.

مَن يحرس مَن

مَن يستطيع أن يستوعب ما وصل اليه حالنا من قبول الوصاية وشروط الأوصياء حتى صرنا مستضعفين في الأرض تحرسنا قوات أجنبية متعدّدة الجنسيات في عقر دارنا كالأيتام تحت رعاية الأمم المتحد التي ما اتّحدت إلّا على ظلم المعذبين في الأرض.. والتاريخ الحديث يذكّرنا أن أحد أكبر عوامل هزيمة حزيران كان طلب الزعيم الراحل جمال عبد الناصر سحب قوات الطوارىء الدولية من سيناء. القرار الذي عجّل بالضربة الاسرائيلية

القاضية على قدرة الطيران المصري ورغم أن الهزيمة دائماً لقيطة والنصر له ألف أب فما زال هؤلاء يتساءلون مَن كان يحرس مَن، هل كانت القوات تحرس اسرائيل فعجلت الاخيرة بالضربة حين انسحب الحارس وكشف الغطاء؟ أم كانت تحرس مصر فانهزمت مصر حين مارست سيادتها ورفعت الحراسة؟ لقد كانت قيداً علينا من صنع أيدينا فكسرناه وانكسرنا.

ونحاول الرجوع اليه مرة أخرى من فرط ما أدارت رؤوسنا صدمة الانكسار.. والآن نغير المواقع ونتبادل الأدوار في فك الحصار ويطول بنا الانتظار ولا ندري مَن يحرس الحارس الذي سوف يبقى طليقاً يتجوّل في عرض سيناء وينتشر في لبنان وسوريا ويتمركز بين العراق وايران، وكلها دول عربية واسلامية يأمرها الله تعالى «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً»، فإن كنا حقاً نهتدي بالقرآن دستوراً لكل زمان ومكان يصون حق عبادة ويحمي كرامة الانسان وفي شهر رمضان، فكيف نرفض حراسة بعضنا بعضاً ذوي الجنسية والديانة الواحدة والهدف المشترك في استرداد المقدّسات الاسلامية والحقوق العربية وتقبل عن طواعية حراسة غيرنا من القوات المتعددة الديانة والجنسيات ذات الأهداف المغلوطة والأغراض المشروطة، وكيف نضمن رحيلها لو طاب لها البقاء، وكيف نفرض بقاءها لو قرّرت الرحيل، وكيف نستبدل الاحتلال بأبغض الحلال الى نفوسنا برؤية قوى خارجية تجوب شوارعنا تحرسنا من بعضنا البعض انها لن تحرسنا من العدو الذي بارك اختيارها ولا من حليفه الذي عزّز انتشارها إلّا اذا أصبحنا أمّة فقدت خيارها فلم تقطع مشوارها ويئست من رحمة الله وهو عين الكفر والعياذ بالله الخالق الذي يقول «ولكل أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» صدق الله العظيم.. صورة الاعراف.

اذن دعونا نتساءل.. مَن.. يحرسنا.. ممَّن؟.

مزيداً من الخيام.. يا كرام

قال القائد «رستم» لرسول سعد بن أبي وقّاص في احدى المعارك الحربية في جاهلية العرب الأولى قبل انتشار الاسلام «لم يكن في الأرض أمة أصغر قدراً عندنا منكم لأنكم أهل قلة وذلة وأرض جدبة ومعيشة ضنك فما حملكم على تخطّيكم الى بلادنا»، وتوالت الهزائم حتى ضحّى الاسلام بعد أن حفظ العرب عن ظهر قلب معنى الآية الكريمة «ومَن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين»، وأدركوا حقيقة «اذا دعتك قدرتك الى ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك»، وبعد معركة النصر ردّ خليفة رستم «ما كنت أحسب أن الاسلام يخلع عن العرب أردية الجاهلية وألبسة العصبية والقبلية ويقيم فيهم انسانية شفّاقة تهدف تعميم الخير للبشر جميعاً وارتفع شعار «رب قلة مؤمنة خير من كثرة ضالة» وسقطت خيمة الهوان على جثة الزمان.

الحرب النفسية

لقد كان الحوار السابق نموذجاً بدائياً وساذجاً لما يسمّى بالحرب النفسية في عصر الجاهلية الحديثة.. عصر المسمّيات التكنوقراطية كالحرب الباردة.. والحرب الكيميائية.. والحرب الاقتصادية الى آخر كلمة في قاموس الحرب.. فالحرب النفسية كانت مجرّد لغة استدراج حتى أصبحت دراسة متخصّصة لها قواعد وأصول وسيكولوجية اعلام.. لقد عشت هذه التجربة في بريطانيا

في حرب اكتوبر ٧٣ تحت تأثير أسلوب العدو المبتكر فقد كانت قنوات التلفزيون لا تعرض صور الأطفال المشوّهين والقتلى حتى لا تغرس الرعب في جيل المستقبل الواعد بتقرير المصير والمعقود على نفسيته بلورة عقيدة (اسطورة الجيش الذي لا يقهر) ولا كانت تعرض صور المستوطنات المهجورة لتدفع الصامدين الى طلبْ النجاة ولا دموع النائحاتْ الجاريات وراء مسيرة نعش الشهداء.. بل كانت تعرض لقطات عن أطفال دون الخامسة في هجير الصحراء يحملون في أكفّهم غيظ الرمال في جرار أمهاتهم لملء أكياس التحصينات دفاعاً عن البقاء في (صورة أطفال يخوضون معركة وجود) والحق يُقال على الرغم من سيطرة الفكر الصهيوني على أجهزة الاعلام فقد ارتفعت أصوات كثيرة ضد الحرب والاحتلال في شتّى المظاهرات.

لقد كانت لحظة العبور صدمة نفسية قاسية فتّتت تركيبة هيكل البناء العسكري الاسرائيلي.. فعرض التلفزيون الجسر الجوّي الذي أقامته أمريكا لانقاذ اسرائيل بصورة أدخلت الرعب في نفوسنا ونحن نجلس على مقاعدنا ولا أدري كيف كانت نفسية الصامدين في جبهات القتال في قلب التجربة.

لقد كنّا مجموعة من الطلاب العرب في قسم الدراسات النفسية في جامعة لندن من الشرق ومصر واليمن والسودان، وكنا بفضولنا الموروث وثرثرتنا المكتسبة من لسان أمة تجيد فن الكلام نتعاطى أخبار الحرب مع وجبات الطعام وكلما سألنا زميلاً أجنبياً أو أستاذاً جامعياً ردّ (لا أفهم في السياسة والواقع انه كان يعلم أكثر ممّا -كنا نتوهّم اننا نعلم ولكنه لا يريدنا أن نعلم لأننا لم نتعلم في الماضي.. فقد كانت تتغير جداول المحاضرات لأن معظم الأساتذة وأكثرهم يهود قد سافروا للاشتراك في تنشيط دور الحرب النفسية في رفع معنويات الشعب الاسرائيلي الذي أوشك على الانقسام وبعضهم فكّر في الهجرة المضادة لأمريكا وأوروبا وأكثرهم طالب باقالة الحكومة وحتى يكتمل سيناريو الحرب النفسية وقفت رئيسة الوزراء آنذاك (جولدا مايير) في الكنيست الاسرائيلي قائلة «أحب أن أؤكد لكم أن لدينا (فرقة

عمل) في هذه اللحظة في الجانب الآخر من قناة السويس ولن أزيد على ذلك». وكان واضحاً انها تشير الى (ثغرة الدفرسوارة) التي صنعها (شارون) مدير حملات الابادة في لبنان اليوم.. وفي ذات الوقت كانت أجهزة الاعلام تعرض صورة سكان القرى العربية يتفرّجون على مدرّعات العدو تقتحم المدن الواحدة بعد الأخرى ويصوّرون الجيش الاسرائيلي على بعد بضعة كيلومترات من القاهرة وعلى أبواب دمشق.. ولا يذكرون معركة الكرامة حيث تكبّدوا خسائر جعلت بعض المؤلفة قلوبهم يحجمون عن دخول المدينة وعندما عرضت قناة (ال بي بي سي) صورة جنود العدو الاسرائيلي المستسلمين في سيناء قال المعلق «في حرب حزيران هرب المصريون وتركوا أحذيتهم في سيناء، وفي هذه الحرب يقوم الاسرائيليون بتمثيل نفس الدور فى نفس المكان» وهاجمت صحافة اللوبي الصهيوني التلفزيون البريطاني بصورة لم يسبق لها مثيل وخلاصة القول ان الحرب النفسية أصبحت أشدّ خطراً وأقل تكلفة من الحرب التقليدية.. لأن نفسية جندي واحد ممتلىء بالثقة خلف كومة رمال يستطيع تدمير لواء كامل قبل لحظة الشهادة.. فقد اكتسبت الحرب النفسية أهميتها الجديدة ودخلت قاموس الحرب العنصرية حين سقطت القيم الانسانية أمام (ديناصور) عصر الماديات بصورة دفعت لاختراع الحرب الكيمائية التي تشلّ الفرد ولا تمسّ المدن.. ثم (قنبلة النيترون) التي تقتل الناس والحيوانات ولا تشوّه المنشآت حتى يدخل العدو البلاد على الطرق المعبّدة والمباني الجاهزة والمزوّدة بالماء والكهرباء.. ميزة اقتصادية في تعويضات بند الخسارة في ميزانية الحرب.. وميزة ميكيافيللية حيث يصبح الفرد المحطّم نفسياً سهل الانقياد وأداة طيّعة في خدمة أغراض الغزو اما سلباً بشل المقاومة وذلّ الطاعة وسخرة العمالة الرخيصة أو ايجاباً بالعمل ضد أمته وأشقّائه وأبناء بلدته في خدمة الغزاة الجدد.

الندوة الأسبوعية

كان التلفزيون البريطاني يبثّ في القناة الاولى برنامجاً اسبوعياً يُسمّى (ميدويك) يقدّمه المعلق المشهور (لودفك كينيدي) وبدأ منذ بداية حرب

اكتوبر يقدم سلسلة لقاءات مع مجموعة من أصحاب الفكر في قضايا الساعة من شتّى الجنسيات حول شتّى الموضوعات وقبيل نهاية الحرب جلسنا نفس المجموعة من الاخوة العرب أمام التلفزيون نشاهد حلقة الأسبوع وكان ضيوف الحلقة: السياسي (ديفيد استيل) خليفة (جرمي ثورب) آنذاك ورئيس حزب الأحرار البريطاني حالياً والذي زار الامارات قبل أسابيع والنائب البرلماني العمالي (استيف فريزر) والنائب البرلماني المحافظ الذي نسيته والمعلق الحربي المعروف (بيتر منو) والمراسل الصحفي (مايكل نكلسون) والذي يغطي حالياً حرب بريطانيا ضد الارجنتين في جزر الفولكلاند. ودار حوار فكري سياسي عسكري تاريخي على مستوى من الموضوعية وتكافؤ الفرص.. وحرية الرأي.. والتفتّح الذهني المتجرّد من الخطابة والانفعال والمهاترات المألوفة في هذا الجزء من العالم وهذا ما جعل الندوة ترسخ في ذهني كحديث البارحة بهذه التفاصيل: قال (ديفيد استيل): ان خطأ اسرائيل في شعورها بأن حرب حزيران كانت نهاية العرب ولم تدرك ان الحرب قائمة بصورة غير معلنة.. فترة هدنة والعبور كان مجرد خرق لبنود الهدنة وما كان ينبغي أن يكون مفاجأة لدولة تعيش حالة حرب.. والحل في يد الفلسطينيين أنفسهم والصراع سيكون قضية وجودهم في الأصل وأكثر العرب مجرد قفاز يد الفلسطينيين سوف يتمزّق اذا أساؤوا استعماله.. وقال النائب العمالي (وكان حزب العمال الحاكم آنذاك من أكبر المتعاطفين والمناصرين لاسرائيل في تلك الحرب). قال: ان اسرائيل لا تريد السلام وعندما تطالب بحدود آمنة وفي كل مرة تشنّ حرباً جديدة تضيف اليها حدوداً جديدة أقل أمناً، فاذا كانت تريد البقاء في حدودها الحالية لماذا تتوسّع في أرض جديدة، قال (مايكل نكلسون): لقد قدّم العرب (عرضاً جيداً) في هذه الحرب قياساً بقدراتهم العسكرية في حرب ٦٧، واذا استمرّوا في تأهيل كوادر عسكرية في مستوى (الشاذلي) فانهم سيمثلون خطراً حقيقياً على وجود اسرائيل في عقد الثمانينات، «وما أشبه الليلة بالبارحة»، وقال (بيتر اسنو): ان نجاح اسرائيل في الحرب الخاطفة لأن عامل الزمن ضد طاقاتها.. واذا رفض العرب وقف اطلاق النار فلن تستطيع اسرائيل الصمود

بضعة شهور في العدد والعتاد بلا مساعدات خارجية لأنها أشركت حتى الأطفال في الأسابيع الاولى وقد أثبتت معركة الكرامة ان قدرة العربي على حرب الشوارع أكثر فعالية من قدرته على الحرب التقليدية، وهذا ما يجب أن تضعه اسرائيل في الحسبان... وظل نائب حزب المحافظين صامتاً حتى آخر لحظة فقال: ان اسرائيل وُجدت لتبقى وعلى الفلسطينيين العيش معها أو الرحيل عنها وعلى أي حال فان كل المدن العربية على مدى مرمى النيران الاسرائيلية وعلى «العالم الحرّ» أن يقدّر اسرائيل تحتاج للرجال والسلاح لأنهم قلة والعرب يحتاجون للطعام والخيام لأنهم كثرة.. وانني أناشد وكالة غوث اللاجئين والصليب الأحمر لتوطين اللاجئين الجدد خارج اسرائيل.. فقلت لنفسي: اذا كانت هذه المؤسسات قد أنشئت أصلاً لأداء هذا الواجب الانساني لأسباب غير انسانية في مناطق معينة في الكرة الأرضية لماذا نسى أن يناشد (ضمير العالم الحرّ) الغائب في اجازة مدفوعة الأجّر مطالباً: مزيداً من الخيام.. يا كرام.

انهم يحرثون في البحر

لو استقرأنا أحداث التاريخ العربي القديم والحديث نجد ان التاريخ لا يعيد نفسه بالتحديد المطلق، قطعاً يكرّر أحداثه ويؤكّد ذاته بصورة تسترجع البصر كرتين، وتستوجب اعادة النظر مرتين، في الماضي والحاضر والمستقبل، لعل الذكرى تنفع المؤمنين.

واعادة النظر وترتيب الفكر لا تعني الرصد السلبي الذي يجمع المعلومات من ذاكرة الأرشيف وانما تحض على الجهد الايجابي الذي يزن الأمور بمعيار الذهب ويتصيّد الأخطاء بملقاط الحاجب حتى لا تتكرّر مأساة الماضي ولا تستفحل فجيعة الحاضر ولا تتعثّر خطوات المستقبل.. فنرى ولا نبصر. ونسمع ولا نستحضر ونشتم ولا نستعطر ونخطىء ولا نستغفر ونعلم ولا نقدر ويصدق علينا قول فيلسوف المعرة رهين المحبسين ــ البيت والعمى ــ في حال أشبه بحالة حين قال:

تعد ذنوبي عند قومي كثيرة ولا ذنب لي إلّا العلا والفضائل
فلما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت حتى قيل اني جاهل

واذا أردنا أن نتبين وجه الشبه بين الحال والمقال في مقام أبي العلاء المعري فخير المراجع كتاب (أبي العلاء في سجنه) لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين واذا أردنا مجرّد سياحة في التاريخ فلنبدأ جولة سريعة في تاريخ الحروب العربية من وجهة نظر قارىء نقي السريرة لا ناقد متمرّس نافذ البصيرة وهذا جهد المقل.

تاريخ الحروب

عود على بدء.. اذا رجعنا الى بداية بطولات صلاح الدين وخالد بن الوليد مروراً بحرب فلسطين وحرب السويس وحرب حزيران وحرب رمضان عبوراً بحرب بيروت الاخيرة قبل الوصول الى الحرب القادمة نجد ان تغييراً جذرياً على نوعية. الحروب ونفسية المتحاربين فمن حرب (الملاقاة) في غبار الساحات الى حرب (المناجاة) في قاعة المفاوضات فالأولى يصدق فيها قول الشاعر:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوت كواكبه

وهذه أحد الصور الرائعة لنماذج (الملاقاة) خالد بن الوليد في (غزو مؤتة) وعبوره صحراء بادية السماوة تحت امرة أبي بكر الصديق حين بعثه لنجدة المسلمين في الشام، فحقّق أروع مواقف البطولة في الحروب العربية حتى عندما مات في فراشه قال: ليس في جسدي موضع إلّا رمته ضربة سيف أو طعنة رمح، وها أنا أموت في فراشي ميتة البعير فلا نامت أعين الجبناء.

وليته عاش ليرى كيف تنام العيون التي في طرفها حور في عهد حرب (المناجاة) وبداية زمان الهزيمة منذ (نكبة دمشق) التي رثاها أمير الشعراء شوقي في بكائيته:

سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافي جلال الرزء عن وصف يدق

وذرف عليها الدمع محترقاً الشاعر السوداني الكبير أحمد محمد صالح في قصيدته:

صبراً دمشق فكل طرف باك وغدا يلوح مع النجوم سناك

وتوالت الهزائم في الحروب اللاحقة وأصبحت قيثارة الهزيمة وتراً تعزف عليه كل أغاني الحماسة المحبوسة في صدور الجماهير العربية وتغيّرت

أرضية المعركة وأسلحة القتال وعقلية الرجال ونوعية الحروب بعد نهاية عهد قيل فيه نثراً وشعراً:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حدّة الحدين الجد واللعب

فأصبح السيف آخر أدوات المعركة.. نائماً في غمده.. ميتاً في لحده.. عابثاً في جدّه.. مدفوناً في مستنقع حروب جديدة مهزومة تصعق الايمان مسلوبة من صدق العقيدة مدموغة كالمعلبات الفاسدة مختومة بملصقات تحمل شتّى الأسماء.. حرب (المتاريس) وحرب (الكواليس) وحرب (النواقيس) وحرب (الكواليس) وحرب (الأباليس) وحروب أخرى لم تكتشف بعد.

أنواع الحروب

ان حرب (المتاريس) هي آخر صور الحرب التقليدية ونهاية حرب (الملاقاة) وجهاً لوجه وبداية حرب العصابات (اضرب.. واهرب) خلف متاريس من سور بناية أو أكياس رمل، وهي أروع بقايا البطولة الفردية والجماعية والتي تمارسها فصائل المتحاربين الصامدين أمام حاصدات النابالم وحاملات القنابل العنقودية والقذائف الانشطارية، وحرب (الكواليس) هي محاولة التغليف وشرف التكليف في اللقاءات العلنية والمستترة والمناقشات الهادئة والمستعرة بين الأعداء الأصدقاء في وجبة عمل أو فسحة أمل مع الأعداء الذين يطلبون نصرة عدوّهم وهزيمة أصدقائهم، والأصدقاء الذين يهجرون خندق الحق ويدخلون سرادب الباطل في هدوء وسكون.

وحرب (النواقيس) هي معاقرة الكلام وبيانات الاتهام وحرب الاعلام الذي لا يعرف لمَن تدق الأجراس، فهي طبول الحرب في وقت السلام وأنغام السلم في زمان الحروب فيها حلاوة التنغيم وخدر التنويم وخطر التعتيم، وخلط الأوراق بين الجديد والقديم وحرب (الكواليس) هي الحرب النفسية التي تجعل الصفوف الأمامية في جبهات القتال تنهار باحساس الظهر

المكشوف وحاجز العزلة بين المدفع والذخيرة وتجعل الصفوف الخلفية تتقهقر من أعلى درجات المدّ الثوري الى أدنى حالات الجزر الانهزامي بالمنشورات التي تمطر الهزيمة وتشلّ الفكر.

وحرب (الأباليس) هي وسيلة الارتزاق ووثيقة النفاق ونقض الميثاق مع الله ورسوله من صلب فعل الشيطان.. فعل المستأسدين أمام الضعفاء.. الهاربين في وجه الأقوياء قلوبهم مع علي وسيوفهم مع معاوية شأن المحاصرين ندواتهم بمال لا يشفع وعلم لا ينفع وقلب لا يخشع يقولون ما لا يفعلون يطففون الكيل ويخسرون الميزان. أعداء الله والوطن وأعوان الشرك والشيطان مصدر الوسواس القهري الذي يركب الفرد الصعب وهو عالم بركوبه.

الى متى يحرثون

يؤكّد التاريخ ان كل العواصم العربية في تاريخنا الطويل لم تحاصر للمرة الاولى بل سقطت عشرات المرات في أيدي الغزاة عبر قرون طويلة وكانت نتيجة كل حصار ميلاد جيل جديد وبعث أمّة صامدة تقف على أقدام من الجرانيت وعلى أكتاف أطفال تولد من بطن التوابيت كحديقة أزهار تتفتّح في كل المواقيت وكلما سقطت بناية ارتفعت أخرى أعلى عشرات الأمتار رغم سنوات الحصار والدمار.

وتغيرت لغة الحرب حتى نضب قاموس السياسة وبدأت مرحلة حرب القواميس تنقب في صفحاته عن كلمات جديدة تعبّر عن واقع اللامعقول مثل حرب النكسة وحرب العبور ومبادرة الصلح وأرقام القرارات الدولية وفك الاشتباك وقوات الردع وتمشيط المدن والانذار المبكّر وأجهزة التنصّت، والسؤال: ثم ماذا بعد، بعد أن دخلت اسرائيل نزهة (اجتياح) قدّر لها بضع ساعات وقعت في جهنم سلاح وكمين جراح فاق كل حسابات الخسارة والأرباح، ودول العالم النامي (والسامي) والتي راهنت في بورصة التصفية وابتدعت مقولة (اللاسلم واللاحرب) كانت أول ضحايا المصيدة،

فاسرائيل لم تكسب الحرب ولم تحقّق السلام.. فالتقدّم مصيدة.. والانسحاب هزيمة والاحتلال حرب استنزاف وبقي المحاصرون بالداخل أكثر المستفيدين من عامل الزمن وطول الحصار والذي قطعاً سينتهي من خلف المتاريس أو خلف الكواليس سواء بقيت بيروت الأرض أم بيروت الشعب أم بيروت الثورة.

وسوف ينتصر المقاتلون سواء الذين يحملون البندقية أو الذين يولدون تحت الأنقاض ويسلّمون الراية يكرّرون فصول الرواية لأن الفكرة لا تموت مع أصحابها، حتى لو تناسى الحلفاء قولة أبي بكر الصديق المأثورة رضي الله عنه:

« يا أيها الناس ان مَن كان يعبد منكم محمداً فان محمدا قد مات، ومَن كان يعبد الله فان الله لا يموت ».

ولأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله والله متم نوره ولو كره الكافرون، ولأن روح الثأر في حياة القبيلة في التاريخ العربي ملحمة نضال طويلة منذ حرب داحس والغبراء.

فالى متى يحرثون في البحر.

بيروت لن تموت

قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون).. صدق الله العظيم تحضرني هذه الآية الكريمة كلما شاهدت في شاشة التلفاز أشلاء الضحايا وجماجم الشهداء تتناثر كالأطباق الطائرة في سماء بيروت.. وأقول: البقاء لله وحده.. والايمان بالموت حق ولكن الايمان بالحياة شعبة من الايمان بالله.. فبيروت رمز حياة سابقة وعلامة شهادة لاحقة للذين قتلوا في سبيل الله وما بدلوا تبديلاً.

ما زالت بيروت بعد كل سنوات التدمير والتهجير والترهيب والتخريب تقف شاهد صدق على ظلم الانسان لأخيه الانسان. وتمثال بطولة يمجّد كرامة الذين يطلبون الموت كي تُكتب لهم الحياة.. لقد فشلت في مقاومة رغبة الكتابة وأنا أرى في ذهول وأشاهد في غثيان المجازر البشرية التي ترتعد لها فرائص الأطفال وهم يشاهدون بالتلفزيون قصف المدن وتهديم البنايات مثل (أفلام الكرتون) والفارق الوحيد ان الأطفال الذين يعشقون أفلام الكرتون ويحلّلون ألغازها يغمضون عيونهم ويشيحون بوجوههم عن رؤية الدم الجاري في شوارع لبنان مثل صنابير المياه، ويسألون في براءة: هل انتهى المنظر يا أبي؟ ونقول في حزن: نعم. ولا ينقطع مشهد إلّا ريلحق به آخر أكثر دموية.

وهكذا تذكرت بيروت.. مدينة الأحياء.. رغم كابوس الموت الجاثم

فوق صدرها عدة سنوات.. وأتساءل: أين كانت هذه المباني التي تجابه القصف؟ وأين ظل هؤلاء الصامدون الذين يواجهون الموت ويلوّحون باشارة النصر رغم قذائف الهزيمة؟ وأتذكر قوله تعالى (أن ينصركم الله فلا غالب لكم) وأقول بيروت لن تموت... ويصدق ظني هذا في ثلاثة مواقف.

الموقف الأول

زرت بيروت في عام ١٩٦٨ بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ولم أشهد وجه الهزيمة الكالح لا في الشوارع ولا الفنادق أو المسارح أو دور الطباعة أو قوافل السياحة التي لا تنقطع.. كانت جولة واحدة في شوارع بيروت الكبيرة تلخّص كل القضايا العربية في لحظات.. من ملصقات جدارية.. وكتيبات سياسية وشعارات عقائدية وقصاصات دعائية، كانت أحداث العالم تدور في ساعة بيروت مع عقارب الثانية ولا ينتقص من قدرها القومي عنصرية عبارات بعض أصحاب سيارات الأجرة (ان بيروت سويسرا الشرق) حقيقة لقد كانت بيروت البحيرة التي تصب فيها دماء الحياة من كل أرجاء العالم.. ولكنها كانت نبض العالم العربي الذي يدق قلبه في القاهرة وتتحرّك شرايينه في أطراف الوطن العربي.. وتستطيع أن تشخص حالة جسد الأمة العربية من نبض بيروت.. جئت أحمل ديواني الأول (الضياء والحريق) للطباعة ورأيت بعيني كيف تجتمع كل الأنماط البشرية وتفترق في أحضان بيروت، من عشاق الروشة (أو صخرة الانتحار) ورواد الملاهي وحانات الليل. ورجال الفكر.. ورفاق السلاح ذوي الوجوه الملثّمة والهوية المفقودة يحملون على أكتافهم مدافع الكلاشينكوف.

نزلت في شارع الحمراء مع نخبة من السودانيين يندر أن ألتقي بهم في الخرطوم يختلفون في كل شيء ولا يجمع بينهم إلّا شعور المواطنة.. سياسياً وفكرياً وعقائدياً.. أذكرهم هنا لتأكيد حقيقة غابت عن دائرة الضوء وملأت فراغها جحافل الظلام.. أمثال استاذي الكاتب حسن نجيلة مع كتابه للطباعة والأستاذ المرحوم فوراوي وكيل وزارة الاعلام لطباعة مذكراته،

والمرحوم الشريف حسين الهندي وزير المالية آنذاك، وأسرة الفريق ابراهيم عبود رئيس حكومة انقلاب ١٩٥٨ م وصديقي الأستاذ حسين السمحوني قاضي محكمة الاستئناف بأبو ظبي حالياً، اجتمعوا رغم اختلافهم على فنجان قهوة في كافتيريا فندق (بلازا) وأعدّ لنا الشاعر السوداني ـــ السر دوليب أمسية شعرية في الجامعة الامريكية في بيروت جمعت شعراء المقاومة وأبطال المساومة ودفعت بديواني الى دار الثقافة ببيروت في ساحة (رياض الصلح) وتركتها قائلاً بيروت لن تموت.

الموقف الثاني

تشاء الأقدار أن أهبط مطار بيروت في يوم الثالث عشر من نيسان ١٩٧٥ م صبيحة اندلاع شرارة الحرب الأهلية في حادث عير الرمانة والشياح ولم أكترث لكثرة الجنود وحدّثني السائق عن الاضطرابات في المدينة حتى وصلت فندق الكونكورد حاملاً ديوان (قصائد من بريطانيا) الى دار الثقافة. اتصلت بالدار من الفندق وعلمت انها مغلقة نتيجة الوضع المتوتّر وأن مدير الدار في منطقة الجبل.. واتصلت به في المنزل فنصحني بالعودة لأن الطريق غير سالكة وهناك خطورة واستحالة في لقائنا، وطلب مني أن أترك الديوان في عهدة مدير الفندق وأن أسافر حتى تنفرج الأزمة فيأتي لاستلامه وودّعني بالهاتف وأفقت على صوت المذياع يطلب من كل الذين ليست لهم مصلحة في بيروت مغادرة البلاد لظروف أمنية فخرجنا على طريق البحر الى المطار وتركت الديوان ونسيت معطفي بعد قضاء ست ساعات فقط في بيروت عائداً الى لندن وتابعت الحرب من قنوات (ال بي بي سي) واعتقدت ان الديوان قد مات مع شهداء بيروت ولكنه عاد مطبوعاً في نهاية عام ١٩٧٥ م وقلت سبحان الذي يخرج الحي من الميت.. وبيروت لن تموت.

الموقف الاخير

في عام ١٩٧٩ م أرسلت مع أحد زملائي أطباء القوات المسلحة في

أبو ظبي مسودة ديوان (نقوش على البحر) وكان متوجهاً مع كتيبة دولة الامارات العربية المتحدة المشاركة مع قوات الردع العربية في لبنان فكتب لي قائلاً:

«لم أجد دار الثقافة ولا ساحة رياض الصلح.. فقد نسفت كل البنايات والساحات والتماثيل.. ورغم ذلك كانت تدور الماكينات وينبض شريان الحياة في قلب بيروت فجاء ديواني مطبوعاً من دار الثقافة مع الطبيب العائد مع قوات ابو ظبي.. وقلت بيروت لن تموت.. الشيء الوحيد الذي ذهب ولم يعد كتاب (دراسات نفسية حول الطفل) لقد احترق في بيروت وكان عزائي ان الذي يرى الأطفال أنفسهم يحترقون في لهب بيروت المشتعلة عدة أعوام لن يؤلمه ضياع رسالة اليهم. وفقدت الرغبة في تجميعه مثلما فشلت قوات الانقاذ في تجميع أشلاء الضحايا الأطفال من تحت الأنقاض.. فعندما يغتال الأطفال.. لماذا تُطبع الكتب، ولماذا تُقرع الأجراس؟ وأقول للأطفال الذين ماتوا مع الأوراق المحترقة: بيروت لن تموت فاذكروا قوله تعالى (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متّم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ولئن متّم أو قتلتم لالى الله تُحشرون) صدق الله العظيم».

الفصل الرابع

* لحظات تأمل

١ ــ مظلة في الهجير

٢ ــ قضاء حوائج الناس

٣ ــ شيء من الفرح

٤ ــ دعوة للمدينة الفاضلة

٥ ــ أسئلة بلا أجوبة

٦ ــ مرحباً أيها الحزن

مظلة في الهجير

لا بدّ للذي عاش تجربة السير تحت هجير التخطيط العشوائي وعانى من مرارة التفكير العفوي أن يبحث عن العزاء في قول الشاعر: لا يعرف الشوق إلّا مَن يكابده.. ولا الصبابة إلّا مَن يعانيها. ولعل مأساة المعاناة لا تقتصر فقط على الأفراد الذين يقعون بين المطرقة والسندان وانما الأسر والمجتمعات والدول والشعوب بشكل أكثر مأساوية.

لقد عشنا منذ نعومة أظفارنا تحت ضغط الاحباط النفسي الذي زرع في أعماقنا قناعة ثابتة بأن كلمة «بحث» تعني لباس حذاء أكبر من أقدامنا.. إن لم يجعلنا نتعثّر في خطانا فسوف يجعلنا أضحوكة أمام سوانا لأن تطلّعاتنا تفوق كل حساباتنا فأصبحنا نربط كلمة «البحث» بالاستاذية والاكاديمية والعلمانية وكل الأبراج العاجية ذات الصفات العبقرية التي قرأناها في قاموس اللغة خلال فترة الدراسة والتربية الاولى.. فأصبحت مثل «نظرة» العين التي تحاول أن تعلو على الحاجب.

أصل القضية

ان عالم اليوم يقف على قدمين مصنوعتين من عجينة البحث العلمي ويسير تحت مظلة منسوجة من خيوط البحث العلمي ويقف على أرضية مصنوعة من مادة البحث العلمي، وبغير هذه المظلة والأرضية تقتلعنا رياح التغيير

من الجذور ويجرفنا تيار المدّ الحضاري موجّه بعد موجة وأزمة في قلب أزمة.. ومحنة في اثر محنة حتى أصبحنا ضحايا «الموجة» وأسرى الأزمة ورهائن المحنة لأننا نعيش عصر أزمات متلاحقة.. أزمات حقيقية ومفتعلة.. حقيقية لأنها نبعت من شعورنا الداخلي القانع باننا قاصرون بطبعنا وفطرتنا عن مجاراة روح البحث العلمي.. ومفتعلة لأن غيرنا استطاع أن يفهم عقلياتنا ويحلّل نفسياتنا بحيث يستطيع أن يفصل لنا الأزمة التي تناسبنا بالحجم المناسب وفي الوقت المناسب الذي يجعلنا غير قادرين على الحركة وبالضرورة مضطرّين للانقياد.

نوعية الأزمات

في أي اتجاه تحدّده بوصلة اليد التي تمسك بدفة المركب في بحر أزمات عالمنا المعاصر. ان ابتعادنا القهري وغير الموضوعي عن مجال روح البحث العلمي جعلنا فريسة الوقوع في مصيدة أزمات متلاحقة محكمة الحلقات في دائرة مفرغة تبدأ وتنتهي في ذات النقطة، فبداية الأزمة النفسية هي السبب والنتيجة في الأزمة الأخلاقية التي هي المنبع والمصب في بؤرة الأزمة الاقتصادية والاخيرة تمثل المحور الأساسي الذي تدور حوله الأزمة السياسية.. ومن خلال هذه الدائرة وداخل قطرها الذي بدأ يضيق يوماً بعد يوم يجد الفرد والمجتمع والأمة أنفسهم جميعاً داخل دهاليز كلما أوغلوا بداخله وصلوا الى عنق الزجاجة فتصبح نافذة الخروج مثل ثقب الابرة مقارنة ببداية الدخول التي كانت أشبه بقاعة الاستقبال.. استقبال رياح الأزمة التي تهب في كل صوب.. نتيجة فقدان التخطيط وغياب البحث رغم امكانية وجود كل هذه العناصر.

اننا عندما حبسنا روح البحث العلمي، في أبراج الاكاديميات وحجبنا الرؤية عن الفرد العادي في حياته الخاصة ومؤسسة العمل اتسعت الوجوه بين الباحث المخطّط والاداري المنفذ في حقل الحياة، وحدث انفصام بين وحدة الفكر وحركة الفعل.. وحدثت ازدواجية تتمثّل في التخطيط القطاعي من جهات عدة تعمل في مجال واحد.. وبالضرورة عندما تختلف زاوية

الرؤية تتناقض حصيلة النتائج، وهذا ما يحدث في كثير من مجتمعاتنا التي يكون فيها رصيد ميزانية البحث العلمي أقل من رصيد ميزانية فريق كرة قدم نشأ بالجهد الذاتي في أحد أحياء المدينة ويصبح البحث العلمي محصوراً في تحرّكاته وتفاعلاته ويكون نتاجه منفصلاً عن بديهياته وايجابياته ويظل مهيض الجناح مجرّد حوار بين الصفوة داخل صالونات هواة التنظير وبيروقراطية التفكير الذين لا ينزلون بالتجربة الى أرض الواقع.

لعبة الخيارات

ان حق الخيار يعني حرية الاختيار.. وديناميكية القدرة على اختيار الاتجاه المناسب للحركة وايجابية المناظرة حول كيف، ولماذا، ومتى، وتلقائية اختيار الطريق المؤدّي الى الوصول الى النتيجة المنطقية من خلال هذه الاجابات هي لعبة الخيارات التي نمارسها في حدود ضيقة لا نستطيع معها أن نتطلّع الى اجازات هي في متناول يدنا وفي صلب قدرتنا اذا ما دقّقنا النظر في قدراتنا وأعدنا ترتيب أولوياتنا في البحث العلمي الذي أصبح من ايجابيات لعبة الخيارات المفروضة علينا حرباً أم سلماً.

١ ــ خياراتنا أصبحت محدودة لدرجة تفرض علينا الحركة في أضيق نطاق لأننا تعوّدنا بطء الحركة تجاه البحث وعوّدنا عقليتنا قبول الهزيمة في مباراة المبادرة التي نلعبها في ميداننا ونخسرها وسط جماهيرنا التي ذاقت مرارة الهزيمة من تكرار فشل التجربة، تجربة البحث المجهض يشحّ الامكانيات وضعف القناعات في شتى المجالات.

٢ ــ حضارة الأمم لا تُقاس إلّا بمعيار القدرة على اجتياز حواجز الدخول في ميدان البحث العلمي والخروج من الأزمة بسلامة التخطيط والحركة المنضبطة دون عشوائية في التفكير أو غوغائية في المنطق. ولذلك أصبح ما يميّز أمة عن أخرى هو اتساع رقعة البحث العلمي الذي يجمع شتات الأفكار الخاضعة لعامل الصدفة ومحاولة رصدها بالقياس والتقويم في

حياة الفرد والأمة، بينما نجد ان حياتنا في كثير من مجالاتها تسير في عفوية تخضع للجهد الشخصي والصدفة الجماعية دون مراعاة للأصول العلمية التي يجب أن يدور في اطارها البحث عن حقيقة النجاح وكيف حدث وأسباب الفشل ولماذا كان، ولعل من باب القول المُعاد أن نكرّر اننا في مسيرتنا الزئبقية اذا لم نترسّم خطوات جديدة في مجال البحث فسوف تتكرّر الأزمات رغم توفّر الخيارات.. حتى تنتهي لعبة الخيارات ولا ساعة مندم.

فاتورة التكنولوجيا

شهدت البلاد في الأسابيع الماضية معرضاً علمياً اشتركت فيه عدة دول متقدمة عرضت فيه شتّى الأدوات الطبيّة والاكتشافات الجديدة للدراسات الطبية العليا والاستخدامات المؤثرة للعقول الالكترونية في الرعاية الصحية ووحدات الرعاية الطبية المركّزة.. وقد جاء في بعض التعليقات انه فرصة طيبة للعاملين في مجال التجارة بالأدوات الطبية والأجهزة والمعدات الى جانب الاطلاع على الجديد في المجال الطبي في العالم. وقد كانت هذه الحقائق مؤشراً حقيقياً للحاجة الملحّة للبحث العلمي، ولكن هل صحيح ما قيل انه قد اختفى من العالم الآن أو كاد يختفي ذلك الطبيب الذي يعتمد على فراسته وخبرته في تشخيص المرض لأنه معرض للخطأ لو اعتمد على الأسلوب القديم في التشخيص الذي ينبع من التكهّنات والاستنتاجات.

انني لا أتمنى أن أرى الزمن الذي يختفي فيه هذا النوع من الأطباء الذي يصنع الأرضية التي تقوم عليها أعمدة البحث العلمي، فاذا كانت الآلة قد حلّت محل الانسان في كثير من مجالات العمل فان ما من أحد يريد أو يستطيع أن يتصوّر الزمن الذي يمكن أن يختفي فيه ذلك الطبيب أو النطاسي اسماً على مسمى حيث يستطيع بفراسته وخبرته وممارسته وتفاعله العقلي والروحي مع المريض أن يختفي ليحلّ محله «الطبيب ــ الآلة»، ان الآلة الالكترونية أو الانسان الآلة «الروبات» ستظل في غاية الأهمية كعامل مساعد في انارة الطريق للطبيب للوصول الى الحقيقة، ولكن هذه الآلة ستكون أداة فاشلة في يد جاهلة بأسرار المهنة غافلة عن أسباب الحرفة معتمدة على

قراءة أرقام الآلة. الآلة وسيلة مكمّلة للجهد الانساني والعقل البشري وليست أداة بديلة للطبيب أو ميكانيكية من يقوم مقامه.

ان الذين يعرضون هذه المعدات من شتّى الدول المتقدمة يفرغون شحنة ذهنية ناجحة اكتملت من خلال البحث العلمي المثمر لسنوات بمعجزات علمية تمتّعوا بممارستها وتعلموا من أخطائها.. ولكنني لا أستطيع أن أتصوّر طبيباً يقتني جهازاً علمياً الكترونياً ليؤدّي له دور «المناوبة» لأنه يمتلك القدرة على شرائه.. انه لا يفقد فقط القدرة الفنية والمهنية والمثل الاخلاقية والموهبة العلمية في الفحص والتشخيص والعلاج بل كل هذا مجتمعاً.. ان خطأ الآلة والطبيب وارد.. وخطأ الطبيب يقوم بتكرار المحاولة وحق المساءلة، ومَن لا يعمل لا يخطىء وخطأ الآلة لا يقع إلّا في نطاق القضاء والقدر وهذه جناية على الانسان.. ونكاية في قوة الايمان.. حيث لا ينبغي على المريض أن يدفع حياته ثمناً لتسديد فاتورة تكنولوجيا الطب. ان أكبر أزمات البحث العلمي التي أفرزت الممارسات الخاطئة في حياتنا على سبيل المثال لا الحصر آفة الحاسب الالكتروني الذي يستعمله طلاب المدارس في العمليات الحسابية. لقد كانت ايجابيات هذه الآلة العلمية الحديثة رفع كفاءة أداء الطالب في الامتحانات، ومن سلبياتها انها ألغت فكر الطالب وأضعفت ذاكرته في مرحلة النضج العقلي وقلّلت من مهارته وقدراته الذهنية ويستطيع كل أب أن يجرّب هذه الحقيقة داخل أسرته ومؤسسته واختزلت المسافة الزمنية بين رجل الأعمال في الخمسينات وطالب المدرسة في مرحلة التعليم الاولى، واختصرت الجهد الذاتي في الممارسة والتدريب والتعليم وبذلك أصبح البحث العلمي سلعة استهلاكية يمكن أن تُشترى ونسدّد فاتورتها بالتقسيط المريح على حساب الجهد المثمر الطويل المدى ولكن عندما نخرج الى هجير الحياة العلمية سوف نحسّ بالحاجة الى مظلة البحث العلمي.. فقد لا نمتلك القدرة على سداد كل الفواتير المتبقيّة.. والله أعلم.

قضاء حوائج الناس

يقولون ان من آفات العصر كثرة المساءلة ولعنة المماطلة وسوء المجاملة، وهذه أقصر أضلاع المثلث الذي تدور داخله حاجات الناس.. فامّا سائل يطلب حاجة أو مماطل يؤجّل الاستجابة أو مجامل يحاول الجمع بين أجر الحسنتين في قضاء الحاجة أو درء السيّئتين في ردّ السؤال. وهذا ما جعل أفضل الدعاء (اللهم اني أعوذ بك من ذل السؤال).

وقد تكون المساءلة فعلاً مشروعاً يحقّق الهدف وقد تكون رغبة اثارة وخميرة عكننة، وقد تكون المماطلة التقاط أنفاس في مسيرة فعل الخير.. تكتيكاً لا استراتيجية.. وقد تكون مراوغة ومحاولة هروب مقنّع أو رفض مبطّن فلا (نعم) هنيئة ولا «لا» مريحة.. والمجاملة قد تكون حفظ ماء وجه وجبر خاطر وذرّ الرماد في العيون أو تكون استلاب حق فرد مغلوب استرضاء لصديق محبوب.. وهذه هي خلاصة آفات العصر.

مظاهر الأزمة

هذه خلفية ذهنية هامة لتحليل سلوك الناس في التعامل ورسم صورة مصغّرة للمعاملات على كل المستويات خاصة اذا لاحظنا ان من أكثر أسباب التوتّر النفسي والشعور بالاحباط لدى الفرد والجماعة والدول ينطوي على فقدان القدرة على قضاء الحوائج ــ وهي من أهم الدوافع الأولية في حياة

الانسان ـــ وهذا يقود الى الاحباط والتعبير عنه بالعدوان الواضح والمستتر في اطار هذه الحلقة المفرغة المليئة بالحواجز النفسية التي تفوق تحمّل الفرد وطاقة الجماعة ورغبة الأمم في الوصول الى صيغة معقولة لحل الصراعات المحلية والاقليمية والدولية.

ومن مظاهر الأزمة وجود صراع داخل الانسان ذاته. بين العقل والقلب (الا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله، واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب) وعلمياً فالقلب يؤدّي دوراً فيزيولوجياً نفسياً هامًّا يؤثر بشكل مباشر في أداء العقل. مركز الثقل في الحركة والأداء عند الانسان ويمثّل أحد عناصر (النفس).. مجموعة العناصر والوظائف الفيزيولوجية للجسم ـــ غير عنصر (الروح) (قل الروح من أمر ربي)، وهذه متاهة الخلط الدائرة في فهم النفس والروح بين العلماء والباحثين، وهذه بعض مظاهر الأزمة.

وقد أفرغت الحياة العصرية نفوس الناس من كثير من الوظائف الحيوية الأساسية في مفهوم (العقل السليم في الجسم السليم) فأصبح الجسم أشبه بالهياكل والعقل مجرد توصيلات عصبية تعمل وتعامل على هذا الادراك القاصر لطبيعة المشكلة، وهذه بعض مظاهر الأزمة.

ومن مكارم أخلاق المرء قضاء حوائج الناس لأن الانسان مجموعة رغبات وطموحات بالداخل ومحصلة قيم اجتماعية اخلاقية بالخارج ويستقيم ويعوجّ خط سيره بمدى قدرته على تلبية حاجاته الداخلية في اطار مجتمعه الخارجي وفقدان هذا التوافق الاجتماعي أخطر مظاهر الأزمة.

القول والفعل

دعونا نتأمل هذه القضية الخاصة التي تعطي صورة عامة للمواقف المثيرة للاحباط والتوتّر والتي تجعل حياة الكثيرين فراغاً نفسياً يمتدّ الى آفاق لامتناهية وحياة البعض ترفاً ذهنياً أوتوقراطياً يقفز فوق حاجز الحقوق ويقع قبل عتبة الواجبات.

حدّثني أحد الاخوان بانفعال مؤثر: دخلت مكتب دائرة حكومية كأحد المراجعين.. وبدأت القفز فوق مسلسل الحواجز مروراً بلافتات ممنوع الدخول.. المراجعة بعد الحادية عشرة ظهراً.. ممنوع الزيارات الخاصة.. المسؤول في اجتماع.. حتى وصلت صالة الانتظار حيث تنصب لوحة تقول «اذا كانت لديك حاجة فأوجز في قضائها حفاظاً على وقت الآخرين»، فأدركت على الفور ان بقائي لن يطول واجتاحني شعور بالفرح المشبوه عللته قائلاً «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وقد داهمتني داخل المكتب لوحة أخرى في وضوح الأضواء الكاشفة كُتب عليها الحديث «ان لله عباداً أختصهم بقضاء حوائج الناس فحبّبهم للخير وحبّب الخير اليهم، انهم الآمنون من عذاب يوم القيامة». وعندها شعرت بالطمأنينة وثبت قلبي وأدركت ان قضاء حاجتي أصبح قاب قوسين أو أدنى.. وقبل أن أبدأ الحديث قاطعني المسؤول بأن وقت المراجعة قد انتهى وينبغي أن أحضر في اليوم التالي وفي موعد مبكر وبادرته: اذا ضمنت حياتي حتى اليوم التالي فكيف أضمن وجودك غداً في الوقت المبكّر وفي لحظة بين ما قلت وما سمعت أدركت انني خسرت المعركة، وقبل أن أجمع شتات نفسي تجاه باب الخروج دخل رجل لاستلام معاملة مضى عليها أسبوع وقد تخطّت كل العقبات الحقيقية والمفتعلة فكان نصيبه ما أصابني من حكمة «صاحب الحاجة أرعن» وخرجت أقول لنفسي «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»، صدق الرسول الكريم.

وبما أن الزهد في الدنيا في زماننا يستوجب قدراً من الايمان يعتبره الآخرون افراطاً في الاتكالية ونهجاً من بدعة صوفية داعية الى الهرب من مواجهة الحياة.. وتتطلّب روحاً من التضحية لا يتحلى بها غير الملائكة وبما ان الزهد فيما عند الناس يفرض التفريط في الحقوق رغم الالتزام بالواجبات.. الساكت عن الحق شيطان أخرس.. فقد استطعت أن أقنع صديقي بالملاحقة رغم ألم المعاناة حتى يقضي حاجته بقناعة «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضي».

نماذج من الناس

خلاصة القصة ان بعض الناس يقضون حوائج الناس شعوراً بالواجب وابتغاء مرضاة الله (فافعلوا الخير لعلكم تفلحون)، والبعض يستشعر لذّة خاصة في تعطيل مصالح الناس.. يجامل في المخاطبة.. ويماطل في الموافقة ويتأخر في التوقيع ويعقد الاجراء.. افتراء على القانون وينعكس هذا على أداء المعلم داخل المدرسة مع زملائه ورؤسائه وطلابه انعكاساً سلبياً يتعدّى حدود ردود الفعل المشروعة ويتأثر به عطاء الطبيب داخل المستشفى في معاملة زملائه وبث الطمأنينة في نفوس مرضاه وبشاشة لقاء الأقارب والمعاودين داخل قاعة الانتظار لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وتتأثّر به نفسية العامل في أداء واجبه.. وبعض الناس يتعامل بمنطق المزاج.. فقد يبيح المحظور في لحظة صفاء.. ويحظر المُباح في ثورة غضب.. ويجعل ان قضاء حوائج الناس أمانة في أعناق الموجودين في مواقع المسؤولية وأداء الأمانة يتطلّب قدراً عالياً من الايمان والثقة بالنفس (انّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً).

ولقد صدقت نوايا الناس في أداء الامانة وقضاء حوائج الآخرين لما تكرّرت المواقف المأساوية داخل المنازل والمكاتب ودور العمل والأماكن العامة لأن معظم النار من مستصغر الشرر حتى اذا أخذنا في الاعتبار كل المذاهب الفلسفية والنظريات العقائدية التي تحكم حركة الفرد.. وتتحكّم في تركيبة المجتمع.. وما فسدت نفسيات الأفراد والجماعة إلّا لحظة قناعتهم بأن أقدارهم بيد الآخرين. فامّا استسلموا لليأس وامّا لجأوا إلى العنف وليتهم يعلمون «ان الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك... وان اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك بشيء إلّا كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفّت الصحف».

وعندما تُرفع الأقلام وتجف الصحف يبقى قول الحق تعالى «فمَن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومَن يعمل مثقال ذرة شرا يره» صدق الله العظيم.

شيء من الفرح

عاطفة الفرح غريزة انسانية موروثة في تركيب شخصية الانسان ولا أعتقد ان أحداً يستطيع أن يجزم بأنه لا يملك القدرة على الانشراح حتى في أشد حالات ظلام اليأس، ولكن ما يستطيع أن يستوثق منه احساسه يفقدان الرغبة في المحاولة، أمّا في غياب الخيار أو ضغط الاجبار.. وفي كثير من الحالات تكون الحياة جميلة بقدرما نصنّفها.. قبيحة بقدر ما نحملها، والعكس صحيح.

والمقدرة على (صناعة) الفرح موهبة.. والقدرة على الاستمتاع بهذه الصنعة نعمة، والاقتدار في ممارسة النعمة خاصية لا تتوفّر لكثرة من البشر.. والفرح قد يكون في داخلنا ولكن الظروف الخارجية التي نعيشها تحول دون احساسنا به كالظل غشى عليه ولا تفتقده إلّا ساعة ملامسة جباهنا هجير الشمس، والفرح قد يكون بالخارج ولكن مشاعرنا الداخلية تسدل عليه حاجزاً نفسياً عازلاً لأهازيج الفرح.. فيتلاشى الصدى بالداخل في دهاليز الفراغ النفسي الذي يسيطر على منافذ الدخول والخروج فنُصاب بحالة من التشويش الفضولي الذي يجعلنا نحرّك أطرافنا داخل قوقعة ونعد أعناقنا من خلال كوّة صغيرة لنرى ما يدور بالخارج، وهكذا نظل في حال مدّ وجزر مستمرّ.

من أين يأتي؟

يتساءل بعض المفرطين في التشاؤم: من أين يأتينا الفرح؟ وأكثرهم على حق اذا اعتبرنا ان التشاؤم والحذر خير من التفاؤل المفرط.. فان واقع حياة اليوم في شتى صوره لا تنبعث منه رائحة المسرّة وسحابات الأسى التي تظلّل سماء العالم المعاصر لا تمطر فرحاً ولا غبطة، وما زالت تقذف حمماً وشظايا ولكن ألا يوجد داخل ركام هذا الواقع ما يمكن أن نصنع منه مادة للفرح؟ ان الميل يبدأ بخطوة.. ويسبح شراع مركب للنجاة يتألف من ملاقاة بضعة خيوط والبداية في الحالتين واحدة.. الشعور بالرغبة في امتلاك شيء نعرف سلفاً أنه يحتاج منا الى جهد وعناء.. وأكبر راحة نفسية يجدها الفرد هي لحظة الهبوط من جبل المعاناة.. وما أكثر هذه الجبال التي تمضي أيامنا وشهورنا وسنواتنا صعوداً عليها وهبوطاً منها.. والشقي مَن يسقط وأكثر منه شقاء مَن يظل خائفاً من شبح السقوط فلا يسقط ويستريح ولا يستمتع بممارسة الهواية ولا ينعم بفرحة الوصول.

فالفرح لا يأتي ليطرق أبوابنا في منتصف الليل إلّا اذا دعوناه الينا. وكنا حقاً ننتظره وعلى موعد معه.. والفرح لا يُباع ويُشترى من البقالات الحديثة والحوانيت القديمة وإلّا كان قد نفذ من الأسواق حيث يمتلكه المقتدرون على فن المضاربة.. وبات المجتمع مشطوراً بين مواسم الفرح عند الباعة ومأتم الحزن عند المشترين، ولكن الحياة لا تسير على هذا النمط الاستعطافي بل قد تسير في الاتجاه المضاد في بعض المواقف والشواهد تؤكد ان الأغنياء يموتون من كثرة الأوجاع والأحزان أكثر مما تفتك بهم الأمراض السارية والأوبئة المستوطنة والفقراء يعمرون حقباً من الزمان ينعمون بدفء العافية المنبعث من حرارة طبول الرقص من الفرح في أكثر الصور بدائية، وهو الترياق الوحيد من شبح الفاقة والعوز وشظف العيش: اذن الفرح لا يأتي طواعية إلّا لمَن يسعى اليه.. ولا يتحقّق إلّا من خلال الآخرين.. لأننا في أغلب الأحيان لا نعرف ذواتنا إلّا من خلال منظار الآخرين ولذلك لا نستطيع أن نتصوّر فرحة فردية ذات همهمات وأصداء ورؤى ذاتية وإلّا أصبحت

هوساً عقلياً يشدّ المرء خارج دائرة البشر الأسوياء. ولكن الفرح يتمّ من خلال المشاركة والتفاعل.. قد يكون دور الآخرين كالصلصال الذي نصنع منه الأشكال التي نحلم بها وقد يكون وجودهم الأصل في اثارة رغبة البحث عن الفرح فينا وخارج ذواتنا، وفي كل الحالات لا توجد حالة فرح حقيقية لا تتحقّق من خلال الآخرين، وبقدر ادراكنا لهذه الحقيقة يكون سبب سعادتنا أو مصدر شقائنا.

ألوان الفرح

ان الفرح حالة وجدانية مزدوجة أشبه بقوس قزح فيها كل الألوان ولا يهمّ كثيراً كيف يكون ترتيب شكل الألوان أو تركيب أوشاج الطيف لأن الاختلاف في التنوّع في حدّ ذاته أحد مقومات حالات الفرح الطبيعي.. فالفرح الحزين والضاحك والفرح الهادىء والثائر والفرح المتواصل والمتقطّع يعبر عن شفافية النفس التي لا تمثّل شكل العملة ذات الوجهين فقط أو الشكل ذي اللونين الأبيض والأسود وانما مزيج الانفعالات وبانوراما العواطف المتداخلة والمتفاعلة، ومن هذا الانصهار تستمد حرارة الشعور بصدق العاطفة واستمرارية الفرح.. ان الفرح الطارىء أشبه بالنزوة الجارفة تزول لحظة زوال المثير والاستجابة، ولكن الفرح المستمر وليد معاناة مع الشقاء المستمر، مروراً بآلام المخاض حتى نشوة الولادة وهي رحلة العذاب مع مرض الكآبة حتى شط العافية النفسية، وكما قيل فالصحة تاج على رؤوس الأصحّاء لا يراه إلّا المرضى والمريض ليس بالضرورة ذلك المشتكي من الآلام العضوية كما قال ايليا أبو ماضي:

أيها المشتكي وما بك داء
كن جميلا تر الوجود جميلا

من خلال هذه الخواطر المتناثرة أحاول أن أستجمع باقة زهر في يد واحدة.. وأستخلص بضعة حقائق في سطر واحد.. وهذا في ظني ضرب من (الادّعاء) يفتقد روح البحث والاستقراء، وهذه مخاطر الخاطرة وعيوب

المقالة لأنه لا توجد (وصفة جاهزة) لشراء الفرح ولا طريق واحد يؤدّي الى (مدينة المسرة)، ولعل كتّاب الواقعية في الأدب أبدعوا كثيراً عندما استقطبوا حالات الحزن ومواقف الاحباط لتصحيح الواقع ولكنهم أخطأوا كثيراً عندما اعتقدوا ان التصوير الفوتوغرافي لواقع الحزن والدعوة الى تغييره بكل الوسائل دون الحث على ايجاد نشاطات فكرية بديلة وسلوك انساني مغاير ينتشل الفرح من أعماق ذلك الواقع الحزين قد شلّ حركة الواقعية في الأدب، فاستحال تغيير الواقع بصورة جذرية سليمة، أو دموية تغطي كل مساحات اللون الأبيض في شاشة التلفاز خلال سنوات دون الاستمتاع بالحياة بصورة طبيعية كناطح صخرة أو نافخ كير، لعلّنا اذا حاولنا النظر الى مَن هم دوننا مالاً ورزقاً وعافية لكفينا نفوسنا آلام الدوران في حلقة الحزن وشعرنا بلذّة الانعتاق من قيود دائرة النظرة الى مَن هم أعلى منا دون التوقف عن السعي الى الأفضل في المال والرزق والعافية.. ولأدركنا أن كثيراً من الأغنياء يحسدون الفقراء سعادتهم النفسية مثلما يحسدهم الفقراء على ثروتهم المادية رغم صعوبة المعادلة.. وبين النقيضين في الرؤية والموقف يظل مسروراً ذلك الذي يصنع شيئاً من الفرح في حياته ولسان حاله يقول:

ولدتـك أمـك يـا ابـن آدم باكيـا
والنـاس حولـك يضحكـون سـرورا
فاحرص على عمـل تكـون بـه إذ
يبكـون حولـك ضاحكـا مسـرورا

أسئلة بلا أجوبة

يقولون «اذا كان الكلام من فضة فان السكوت من ذهب»، واذا كانت هذه الحكمة قد ثبتت مصداقيتها في بعض المواقف فقد فقدت فعاليتها عندما أصبحت كلمة حق يُراد بها باطل فان ميزان الكلام في قول الحق يتجاوز معيار الذهب والفضة الى ساحة الموت والحياة.. لأن في المقابل يقولون « السّاكت عن الحق شيطان أخرس »، وهي حكمة أخرى لا تتعارض ولا تتنافى بل تتكامل مع الأولى عندما يكون لكل مقام مقال.. فقول الحق يستوجب عدم السكوت على الباطل وهذا مدخل صدق.. والصمت الصادق خير من الكلام الكاذب وهذا مخرج صدق.

جذور الأزمة

ان جذور كل الأزمات التي يعيشها الانسان المعاصر في كل مجالات حياته تدور حول ما يشهده ويسمعه ويراه من تناقض بين القول والفعل.. بصورة تتجاوز الشكل الى المضمون.. وتتعدّى التفاصيل الى الأصول.. وتنفذ الى الجزئيات من الكل.. حيث أصبحت المبادىء مثل الزئبق في كفة اليد لا تستطيع الحفاظ عليها إلّا بجهد يهدر الطاقة ويستنفذ الصبر ويسحق آدمية الفرد.. مطلوب من الانسان أن يضع عصابة على عينه ويسمع فقط ويضع أطناناً من القطن في أذنيه ويرى فقط بحيث لا تُتاح له فرصة

السمع والرؤية في وقت واحد أي مطلوب منه تعطيل الحواس لادراك حقيقة الواقع.. والادراك عملية عقلية تتطلّب سلامة الحواس في القدرة على تحليل الظواهر.. والظواهر التي نراها في مسرح أحداث عالم اليوم تستوجب تعطيل حواس الفرد.. أو تفريغ عقله حتى يستوعب الشواذ في حكم القاعدة والطارىء في اطار الثابت واللامعقول في قناعة المعقول، واذا جاز لنا القول ان من غير الطبيعي أن يكون الانسان طبيعياً في ظروف غير طبيعية.

ان أول جذور الأزمة تكمن في الاجابة على السؤال: ما هو الطبيعي في الفرد والواقع حتى نعرف ما هو غير الطبيعي في ظروف الفرد الشخصية وردود فعله الواقعية، واذا كانت ظروف الفرد غير طبيعية فهل يكون طبيعياً مَن يتجاوب بصورة طبيعية في ظروف غير طبيعية، سؤال بلا اجابة.

حقوق الانسان

في وقت الأزمات تكثر المغالطات الفكرية والتجاوزات العقلانية التي تمثل تحدياً فكرياً لعقل الانسان.. السياسي والصحفي والكاتب وكل مَن يحمل في جمجمته هموم الحياة ويتفاعل معها..

وهذا ما يميّز الانسان عن الحيوان.. هذا الفكر الاستبصاري المجرّد الذي يستقرىء الأحداث ويستشرف آفاق المستقبل في قراءة متانية وتصوّر متكامل لمسلسل الحياة، فإن كان من أبسط حقوق الانسان الحياة الكريمة بكرامة عقله المفكّر وآدميته المميزة وحريته الشخصية فان الانسان يجرّد نفسه من هذه الفضائل عندما يتقوقع في محارة صدفية من أجل البقاء وضمان الحياة بأي صورة بهيمية تؤمن الأكل والماء والهواء.

وقد بادر الانسان بصنع مؤسسات تدافع عن هذه الحقوق «حقوق الانسان» وخرجت المؤسسات من فكر الفرد.. الى حسّ المجتمع.. الى وجدان الأمة.. الى ضمير العالم تحت شتّى المسميات ومختلف الشعارات مثل جمعية الدفاع عن حقوق الانسان، ومنظّمة العفو الدولية الى آخر قائمة المؤسسات التي تحمل هذه اللافتات.

ظلّت هذه الحقائق تؤرّق ذهني طيلة الأسابيع الماضية منذ اندلاع «ثورة الحجارة» في الأرض المحتلة حتى «حرب الابادة» في لبنان.. تذكر منظمة الدفاع عن حقوق الانسان عندما قام العالم ولم يقعد مستصرخاً الضمير العالمي مناشدة أمريكا عدم تسليم المناضل الفلسطيني (أبو عين) الى اسرائيل وتمّ التسليم وجرت المحاكمة وبالمقابل قفز الى ذهني حادث الأستاذ الانجليزي الذي اعتقل في أوغندا بتهمة الخيانة ضد الدولة وتحرّكت بريطانيا من أصغر صاحب بقالة في مرتفعات اسكتلندة الى «دواننج استريت» الى ساحة البلاط الملكي مطالبة باطلاق سراح المعتقل واعادته الى بريطانيا.. وكالعادة اشتط المارشال في فن الاذلال وطالب بحضور وزير الخارجية «جورج كالاهان» مع رسالة خطية من رئيس الوزراء «هارولد ويلسون» واستقبله في كوخ صغير يستدعي الدخول فيه الانحناء حتى الركبة ولكنها كانت القضية التي قصمت ظهر البعير بسقوط حكم المارشال، ماذا فعلت المنظمات في الحادثة الاولى والثانية ولماذا؟ سؤال بلا اجابة.

دور المنظمات الدولية

اذا كان ذلك حادثاً سياسياً له خلفية تاريخية مرتبطة بعلاقة الامبراطورية القديمة بأحد دول الكمنولث فاذكر هنا حادث راقص الباليه الروسي الذي هرب من غرفته الى امريكا ورفضت روسيا السماح لزوجته بالخروج من البلاد فتحرّكت نفس الهيئات تطالب بتأشيرة خروج حتى يتمّ جمع شمل الزوجين وتمّ بالفعل، وبالمقابل افتقدت صوت هذه المنظمة في الأسابيع الماضية وهي تسمع وترى وتلمس بالأصابع العشرة حجم المأساة.. وأصوات الاستغاثة المنبعثة من تحت أنقاض دولة كاملة تتهدّم تحت نيران القصف الجوّي والبحري والبرّي في مجازر بشرية يندي لها جبين التاريخ.. نشاهد بالصورة والصوت أكبر الأدلة وأعظم الشواهد التي تضع أمة كاملة، رجالاً ونساء شيوخاً وأطفالاً في كفة وراقصة باليه في كفة أخرى، لماذا رجحت كفة على أخرى في ميزان عدالة هذه المنظمات؟ سؤال بلا اجابة.

وتذكّرت مقتل الصحفي الامريكي الذي كان يغطي حرب التحرير في نيكاراجوا حيث أطلق عليه جنود سوموزا النار على رأسه بعد أن بطحوه أرضاً في شاشة التلفزيون، وكانت اشارة الضوء الأخضر لسقوط الطاغية وبالمقابل أتذكّر مذكرات الاحتجاج التي قدمها لبنان الى مجلس الأمن مطالباً انسحاب اسرائيل وتستعمل امريكا (الفيتو) وتعطي الضوء الأخضر لاسرائيل لتصل الى مقرّ رئاسة الحكومة في دولة ذات سيادة. لماذا تخلّت امريكا عن سوموزا تجاوباً مع الشعور الشعبي في حادث اغتيال الصحفي الامريكي وتمسّكت باسرائيل. تحدّياً للشعور العالمي في حادث غزو لبنان، والسؤال الكبير الى أي حد تتفق أو تختلف القوّتان الأعظم حول ما يدور في الساحة العربية والى متى ولمصلحة مَن، والسؤال الاخير الى متى تظل هيئة الأمم تتخذ القرارات وتفقد الفعاليات والى متى يظل (الفيتو) سلاحاً في يد الخصم والحكم، وما جدوى هذه المنظمات بعد زرع كل هذه المؤامرات.

كلما قدحت ذهني ولامست أصابعي مفتاح الحل ولغز الاجابة جاءني هاجس يذكرني بقوله تعالى: «يا أيها الذين أمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسوءكم» سورة المائدة.

دعـوة.. للمدينـة الفاضلـة

أستأذن القارىء.. أن أصعد عتبتين فوق منصّة الخطابة.. لا حبًّا في الحديث عن علو إلّا بمقدار ما يتيح للمشاهد رؤية وجه المتحدث دون قناع.. ولا رغبة في الوعظ إلّا بما يستوجب حكمة الدعوة الحسنة الى سبيل الحق..

وأستميح القارىء عذراً إن تحدّثت اليه متجرّداً من كل الأوسمة والنياشين.. متبرّءاً من كل الألقاب والرتب.. متجاوزاً كل حواجز الخوف والوهم بصوت مرتفع لا يثقب طبل الأذن ولكن يصل الى قاع السمع وبنبرة مؤثرة مشحونة بالايحاء. ولهجة واثقة مستحدثة للاصغاء في لحظة صفاء مع النفس وسط دوّامة عمل الماكينات الهادرة في عقل الانسان.. هذه المشكلة الشائكة من التوصّلات العصبية التي تفوق ميزة الضوء وخصائص الصوت وطول الأسلاك التي تفوق بلايين الأمتار الممتدّة عبر كل مساحات العالم. وأقوى شبكة تلفزيونية.. وأعظم محطة أقمار صناعية وبدون تفاصيل.. أعظم كمبيوتر عرفه تاريخ البشرية وهذا ليس من باب الاستعارة أو التشبيه ولكن من أكبر مستويات الدقة العلمية في كل ما نُشر وطُبع وصُنع وتوصّل اليه عقل الانسان.. من آلة تصوير.. أو جهاز هاتف.. أو محطة تلفزيون أو قطعة الكترونية تشهد بقدرة الانسان وتمجّد طاقته البشرية وتبشّر بفتح جديد في عالم الانسان هو انموذج مصغّر مأخوذ بتصرّف من جهاز الكمبيوتر الأعظم.. مخ الانسان.. ودعونا نقف عند هذا الحد..

كان لا بدّ من هذه المقدمة حتى يتهيّأ الانسان نفسياً لاستقبال الدعوة بمزاج معتدل وذهن متفتّح.. ونفس مطمئنة.. دعوة تنبع من النوايا الطيّبة وتصب في بحر المحبة للجميع، واذا أريد لها أن تصل الى قاع النفس وأن تضرب جذورها باطن الأرض وتصل فروعها الى السماء، فلا بدّ من أن نحتفل بغرس هذه الشجرة في وسط المدينة الفاضلة.. وليست بالضرورة أن تكون «يوتوبيا».. مدينة افلاطون فنحن في زمان تقف فيه على قمّة جبل تستشرف منه أبعاد هذه المدينة التي تفصلها عنا مسافات خرافية ونكتفي فقط بالنظر الى علو الأسوار الخارجية التي تحرس هذه المدينة.. وهي في الحق.. والواقع في داخل نفوسنا.

وكما عجزنا عن استغلال الكمبيوتر الكامن في رؤوسنا في حل مشكلاتنا لكثرة اصابته بالعطب الجزئي أو الشلل الكلّي في كل لحظة يتحرّك المفتاح في الاتجاه الخاطىء. وقد علّق به الصدأ ولجأنا الى الكمبيوتر المستورد من خارجنا.. حتى نسقط عليه اخطاءنا.. ونُعلق عليه خطايانا.. فقد أغلقنا بنفس القناعة المدينة الفاضلة التي تفوح بالعطور وتعبق بالبخور في داخلنا.. فهربت نفوسنا من الداخل لتسكن بعيداً عنا في الخارج.. في الشقق المفروشة والأرائك المنقوشة.. بالايجار.. والدفع مقدماً.. ولا خيار لمَن لا يختار.

بطاقة الدعوة

حول نقطة وأتحرك في محيط دائرة.. فلأن طبيعة الحياة العصرية فرضت على الانسان طرفاً ثالثاً حتى في الحوار بينه وبين نفسه.. لا يصل اليها إلّا من خلال وسيط.. واصابة الهدف مباشرة قد توصَف بأنها محض صدفة أو ضربة حظ أو رمية من غير رام.. وفي أحسن الظنون فرصة لن تتكرّر.. وان العبور الى منتصف الدائرة مباشرة يحتاج الى قفزة اكروباتية قد تدمي الأكف بالتصفيق وقد يصبح مثار السخرية والتعليق.. وباختصار شديد فان اسلوب المخاطبة المباشرة في تغيير قناعات الناس أصبح حرب استنزال اذا توفّرت لها الطاقة فقد تفقد التخطيط، واذا تحقّق كل هذا فقد تخسر عامل

الزمن.. لذلك كثيراً ما يتردّد المرء في ارسال بطاقة دعوة حتى في أحلى المناسبات.. ويضع في حسابه كل الاعتبارات وقد يكون عنصر الدعوة آخر هذه الاهتمامات.. وهذه مأساة جديدة في الزمن المعاصر. فاذا أدركنا حسن نيّة الداعي.. واستلطفنا لهجة الدعوة.. واستبشرنا بلون البطاقة.. شغلتنا هموم اللقاء..

لكل هذه الأشياء مجتمعة.. وضعت الاطار الذي يتحرك فيه الحديث.. وشرحت عبارات سطور الدعوة.. وعرضت تشكيلة ألوان البطاقة.. وبقيت مسؤولية هموم اللقاء.

ظروف اللقاء

هذا اللقاء يتمّ في كل لحظة.. في كل زمان ومكان في البيت.. في الشارع.. في المكتب وفي الأماكن العامة.. هذا اللقاء ليس موقوتاً ببداية معيّنة وليس محدوداً بنهاية مؤكّدة.. يبدأ بالانسان ونفسه.. والرجل وزوجته.. والساكن وجيرته.. والعامل وصاحب المصنع.. والساكن ومالك البناية.. والمشتري والبائع.. والممثل والمشاهد.. واللاعب والمتفرّج.. كل هذه الأطراف المتنافرة يجمعها في حلقة واحدة.. حب البقاء وتترابط الحلقات لتكون مسلسل الحياة الذي نعيشه بشتّى الانفعالات.. الغضب والسرور.. الضحك والبكاء.. الاستلطاف والاستهجان.. ويستحيل أن تكون هذه الانفعالات متجاوبة متناغمة في سيمفونية واحدة وإلّا أصبحت الحياة مملّة ورتيبة كما يندر أن تكون نشازاً يحشرنا في زاوية القلق والكآبة.

وأفضل ظروف اللقاء.. وأرجو ألا يكون مثالياً الى حد الشبهة.. فالافراط في المثالية لا يقل سذاجة عن التفريط في الديماجوجية. ولذلك قلت — في البدء — انني أخاطب القارىء بمواصفات معينة.. لا تلغي عقل الفرد.. ولا تستخف بفكر القارىء.. وأنا أدرك سلفاً.. تناقضات الحياة.. وصراع الطبقات.. وديناميكية حركة المدّ والجزر في الاتجاهات المتعارضة في طبيعة حركة الحياة وتركيبة المجتمع.. ولا تفوتني نظريات الأصول السلفية في الفكر ولا التيارات المعاصرة في القوانين التي تتحكّم في حركة الكون.

ولكن دور الممارسة وقناعة العمل في مجال أكثر التصاقاً بهموم الانسان الفرد.. الذي أصبح ترساً صغيراً في الآلة الضخمة التي تحرّك المجتمع زادتني يقيناً بأن أزمة الأمة من تأزّم الفرد.. وألمس شروخ بنيان الجماعة يومياً.. على مدار العام.. ودوران السنوات الطوال.. أقدم هذه الدعوة.. فاذا كانت الدعوة قد أسقطت من حسابها البعض في سبيل الكل فلأن ما لا يدرك جله.. لا يترك كله.

انها مجرد بطاقة دعوة للدخول للمدينة الفاضلة.. فتح أبوابها المغلقة داخل نفوسنا حيث لا تُقام مطبّات في طريق الآخرين.. ولا ترتفع أسوار تحجب الشمس عن الزهور المطلّة من النوافذ المستصلبة من الصدأ.. حتى تعانق ضوء الشمس.. والشمس لا تدخل البيوت المغلقة صيفاً.. وشتاء.. وما أكثر ما يحدث هذا، شعورياً أو لاشعورياً وكل منا يقول «اذا رأيت نيوب الليث بارزة لا تحسبنّ بان الليث يبتسم»، وهذه قمة المأساة في عصرنا الحاضر.

وحتى تكون تعابير المسرّة صادقة لا تخفي رغبة الانقضاض.. وتصبح فورة الغضب واضحة لا تموّه المشاعر المضادة.. لا بدّ من دخول المدينة الفاضلة.

مرحباً أيها الحزن

قال سيدنا ابراهيم عليه السلام مخاطباً ابنه اسماعيل: «يا بني اني أرى في المنام اني اذلحك»، قال «يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاءالله من الصابرين»، ويجتاز الامتحان وتكتمل صورة الصبر والايمان وتهبط الداية من السماء.. الهدى الذي أصبح ديناً في أعناق كل المسلمين.. وتقول بيروت وهي لا في مجال الرؤية ولا في خيال الحلم: «يا أمة العرب انني أرى سكاكين المذبحة تنحر رقاب أطفالي أمام عيوني.. فمَن الذي يفدي بيروت»، فنقول لها: «قلوبنا معكم».

فتقول لنا: «سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري وأصبر حتى يأذن الله في أمري وأصبر حتى يعلم الصبر أنني صبرت على شيء أمرّ من الصبر»، ونقول لها: «مرحباً أيها الحزن.. تدمع العين ويحزن القلب ولا تقول إلّا ما يرضي الرب وانّا لفراقك لمحزونون».

نار التجربة

حقاً ان التجربة نار تصهر معادن الرجال وتطهّر نفوس الأجيال فتجلو الصدأ والشوائب فيظهر وهج الذهب ولمعان النحاس ولألأة الماس ونضار الجبين، كما يظهر الحق ويزهق الباطل، ان الباطل كان زهوقاً.. فمَن لا يطهّر نفسه بالداخل لن يطهّر واقعه بالخارج ومَن لا يتحرّر قلبه من الخوف،

لن تتحرّر أرضه من الغزاة.. أكاد لا أصدق ان الأمّة العربية بكل أصالة القول وصدق الفعل في التاريخ المعاصر تعيش تجربة اسطورية تتذوّق فيها مرارة الجلوس على رصيف الشارع مكتوفة الأيدي أو الاتكاءة على حائط المبكي، دامعةالعيون أو الاسترخاء في شرفة الزوار معطلة الحواس تشاهد «مسرحية اللامعقول»، ولا تملك قدرة التعبير بصراخ الجمهور في القاعة أو صرخات الصفوف الخلفية التي تقذف الزجاج الفارغ..

وبقايا المأكولات المعلّبة على خشبة المسرح احتجاجاً على خرق قوانين اللعبة. فكيف الحال بأمة كاملة تقف نفس الموقف داخل وخارج المحافل الدولية من القاعدة الى القمة تتحرّك بخطى السلحفاة وتضغط في الاتجاه المضاد وتقبل التضحية بلا مقابل وتتأثر بالمواقف السطحية والخارجية المتعدّدة الديكورات أكثر من الآلام المكتومة الآهات.. ولا يكاد أحد في أركان العالم الأربعة يصدّق ما يجري وما يدور.

الحزن طهارة

الحزن تعبير عن الانفعال.. والانفعال أحد خصائص النفس البشرية السوية والمشاعر الطبيعية لأن الحزن ردّ فعل عاكس للتغييرات الداخلية في نفس الانسان صورة المناخ المؤثر والمتأثر بالأخذ والعطاء.. السلب والايجاب.. والذي يفقد غريزة الحزن يعاني من اعتلال نفسي، وضمور فكري في حركة تفاعل الوجدان الاجتماعي والتي تميّز الناس في درجات الرقي في سلم النزعة الانسانية والقدرة الانفعالية وسلامة الصحة النفسية. ان اختلال (الأنية) الذي تعاني ويعاني منه عالم اليوم يكمن في فقدان القدرة على الحزن وروح المشاركة الجماعية الوجدانية.. الحزن في مقابل الفرح في زمان لا نعرف من أين يأتينا الفرح.. ونستقبل بأذرع مفتوحة رياح الحزن.

وكلاهما ينبعان من مركز الغرائز الانسانية بفارق بسيط هو القدرة على التحكّم في شكل ومضمون السالب والموجب في مضمون الغريزة.. والحزن مطلوب كحالة وعي مفاجىء.. كصدمة أنوار كاشفة في ليلة مظلمة..

فالحزن كفارة والدموع طهارة.. كدموع ابن الرومي التي ترقرقت بعد وفاة ابنه فكتم غيظه وغالب حزنه قائلاً:

بكاؤكما يجدي وإن كان لا يفدي
فجودا فقد أودى نظيركما عندي

ليست هذه مرثية.. ولكنه شعور بالحزن تجاه الشعور بالعجز تنفيس مضبوط عن الشعور بالذنب، ومحاولة للانعتاق من عذاب الضمير لأن كل قذائف العالم الموجّهة نحو الانسان وكل مشاعر الخوف المسلّطة على قلب الفرد لا تعادل عذاب الضمير في لحظة محاسبة للنفس، في خلوة تأمّلية حول لحظة العطاء التي فاتت حين كان العطاء واجباً ووقت التضحية الذي مضى حين كان الفداء فرضاً على الرقاب كما قال شوقي:

وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرّجة يدق
وللأوطان في دم كل حرّ
يد سلفت ودين مستحق

ان كنوز الدنيا كلها لا تطهّر نفس الفرد.. ولا تعتق رقبةالمرء اذا لم يوفِ الديَّة في أوقاتها ويدفع الزكاة بحلول ميقاتها فيظل صيامه معلقاً بين السماء والأرض بعد فوات الأوان ولات ساعة مندم.. شأن البخيل الذي قال فيه أمام المتصوفة الحسن البصري: «لم أرَ أشقى بماله من البخيل لأنه في الدنيا يهتمّ بجمعه وفي الآخرة يحاسب على منعه، عيشه في الدنيا عيش الفقراء وحسابه في الآخرة حساب الأغنياء».

ويقول علماء النفس ان كبت المشاعر يولد الاكتئاب.. وشدّة الاحباط تفجّر العنف، وان الدموع تطهر الوجدان كما يغسّل الماء الثوب الأبيض. ان الحزن المكبوت يعمّق الشعور بالهزيمة واللامبالاة.. فمرحباً بالحزن المعافى الذي يفجّر فينا الطاقات المكبوتة والقدرات المخزونة بفعل الخوف أو الأنانية وحب الذات والاثرة والادّعاء والشماتة والكبرياء.

جريمة العالم الحرّ

الحزن المكبوت يقود البعض الى توجيه العنف نحو الذات.. بالانتحار.. وهي آخر مراحل الانكسار، وأول علامات ضعف الايمان وقد حرّم الله القتل «ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلّا بالحق ومَن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً»، قال «ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم»، فلماذا يُقتل الأبرياء في بيروت والأطفال في المخيمات، ومَن الذي يقتصّ لهم وفي القصاص حياة أخرى، ان جريمة القتل الجماعية التي يرتكبها العالم الحرّ في بيروت تحت شعار محاربة الارهاب قد هدم أكبر معاقل الحرية في العواصم العربية.. بيروت نموذج التعايش السلمي بين الشعوبية والحزبية والطائفية.. بيروت شعلة حرية العقيدة والعلم والفكر والقلم.. بيروت الورقة الاخيرة التي ظل «العالم الحرّ» يلوّح بها كالعصا في وجه أنصار الحرية في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية.

ان مفهوم الحرية.. ومضمون الشرعية وتعريف العالم الحرّ.. التي تتستر تحت مسميات محاربة الارهاب والخروج على القانون ومناهضة السلطة الشرعية كانت بالونات اختبار أشبه بالقنابل الموقوتة تقذف بها امريكا في ديار كل مَن يناضل من أجل الحق ابتغاء مرضاة الله لا خوفاً ولا رهبة ولا طمعاً ولا رغبة.

ويشاء الله أن تكون مجزرة بيروت بمثابة نزع الفتيل من هذه القنابل التي تفجّرت في وجود رواد نادي «العالم الحرّ» الذي أثقلت قلوبهم الطمأنينة من تصريحات المتحدث الرسمي بعد كل لقاء على مدار العام يذكرنا بقول سيدنا عمر بن الخطاب «مَن كثر كلامه كثر سقطه، ومَن كثر سقطه كثر غلطه، ومَن كثر غلطه قل حياؤه، ومَن قل حياؤه قل ورعه، ومَن قل ورعه مات قلبه، ومَن مات قلبه دخل النار».

فاليوم بيروت وغداً الحلفاء.

الفصل الخامس

* آراء في الأدب

١ ــ الشعر أو الطوفان

٢ ــ الحزن ينبت شعراً

٣ ــ لذة الهواية وألم الاحتراف

٤ ــ واذا كانت النفوس كباراً

٥ ــ لمَن تُكتب الأقلام

الشعر أو الطوفان

قديماً قيل (ان الشعر ديوان العرب) وقد حفرت هذه المقولة في ذاكرة الانسان العربي حتى أصبحت كالمكونات الوراثية يتناقلها جيل عن آخر. مثلما تنتقل خصائص الذكاء ولون البشرة بفعل انتقال (الجينات) في خلايا الجسم في الأسرة الواحدة.. وقد صدقت المقولة في اخراج قبيلة شاعرة في الأمة.. وأسرة شاعرة في القبيلة وأفراد شعراء في داخل الأسرة.. حملوا الصفات الموروثة وأضافوا اليها المقدرات المكتسبة.

ولو دققنا في خصائص تطوّر الشعر العربي عن عناصر الوراثة والبيئة في موهبة الشعر لوجدنا الصعوبة في الأصل في فصل هذين العاملين في مجال قياس كل القدرات العقلية.. ويذكّرني قول الكاتب العربي الكبير حسين مروة في «قضايا أدبية» حول خطورة الفصل بين دور الشعر في الوجود العربي ودور الوجود العربي في قضية الشعر.. ويبدو لي ان المسافة الزمنية تفصل بين الرؤيتين وتبرز حقيقة هامة.. ان الشعر قد طغى على كل ألوان الإبداع الفني في الساحة الأدبية وكأن مقولة الشعر في ديوان العرب قد أصبحت لعنة الفراعنة على الأشكال الأدبية الأخرى.. كالقصة والمسرحية والرسم والنحت والتمثيل.

لقد طغى الشعر على هذه الأنماط حتى أصبحت القصة أحد الجياد الخاسرة التي يمتطي صهوتها كثير من خيرة الأدباء فيتوقفون في منتصف الطريق بعد كبوة نهائية ولو حصرت عدد كتاب القصة البارزين في العالم

العربي لوجدتهم لا يتجاوزون نسبة ضئيلة بين مشاهير الشعراء.. وكذلك حال المسرحية تحوّلت الى مسرحية شعرية منذ عهد شوقي حتى مسرحية «الحلاج» للشاعر العربي المرحوم صلاح عبد الصبور.. حتى المسرحية الشعرية المغنّاة «الاوبرا» سواء الاوبرا الهزلية التي تتميز باشتمالها على حوار ملفوظ بالصيغة الكوميدية الغالبة على موضوعها أو الاوبرا الجليلة التي تتميّز بخلوّها من الحوار الملفوظ وبالصيغة التراجيدية الغالبة على موضوعها أو الاوبرا الخفيفة أو الهزلية في شكل «المنولوج» المعروف في العمل المسرحي.

وقد طغى الشعر على الفنون التشكيلية فأصبح مقابل كل لوحة تُعرض تصدر عشرة دواوين في المكتبات العربية.

وأنا هنا لا أتحامل على الشعر ولا أتطاول على الشعراء (ولا تبخسوا الناس أشياءهم)، وأنا محسوب عليهم ويشرفني الانتماء اليهم بعافية الأخذ والعطاء، ولكن في تصوّري ان هذا الزخم الشعري بقدر ما أضرّ بقضية الفنون الأخرى بقدر ما خرج الخاسر الأول في هذه المعركة غير المتكافئة.. فقد فرضت عليه هذه الهيمنة الفكرية ضوابط يصعب الالتزام بها.. وقدراً من الحرية يستحيل الحفاظ عليه.. ففي مجال الالتزام خرج من القافية.. والبحور.. والموسيقى والتفعيلة الى القصيدة الحرّة.. والقصيدة النثرية واخيراً القصيدة «الالكترونية» والبقية تأتي.

وفي هذه البورصة الفكرية بعيداً عن «سوق عكاظ» بكل حرارة اللقاء وعفوية العطاء وبعيداً عن التزام دور النشر بحفظ حقوق الشاعر مثلما ظلت « المعلقات السبع » محفوظة رغم سقوطها من حالق القداسة وخرج الشعر في عدة خطوط متداخلة أشبه بقوس قزح يستحيل فصل الألوان إلّا بمنظار الكتروني فأصبح ترفاً ذهنياً مقصوراً على صالونات الأدب والمنتديات الفكرية الخاصة.. ولقاءات الصفوة واخوان الصفا.. والأمسيات الشعرية وهذا أضعف الايمان.

واستحال عليه الحفاظ على الحرية في حين توفّر له الكادر البشري بصور

تفوق التصوّر في كل مستويات العمر.. من مرحلة الطفولة الوسطى حتى مرحلة الشيخوخة.. ولو أحصينا عدد الشعراء في العالم العربي من الهواة والمحترفين لكانوا أكثر عدداً من مجموعة الجيوش العربية المرابضة في خطوط المواجهة. ولكانت المخطوطات الشعرية أكثر عدد من البنادق المصوّبة في كل الجبهات، ولو أحصينا عدد الدواوين الشعرية في مكتباتنا العربية لكانت أكثر من ملفّات القضايا العربية الموجودة في ارشيف كل المحافل الدولية مجتمعة رغم الفارق بين النوعين من الملفات.

وألتمس العذر مرة أخرى في التصدّي لقضية الشعر لأنها أحد هموم الفكر العربي المعاصر. ولأنني طرف في القضية يهمّني أن أتحسّس موطىء أقدامي في حالة هي أشبه بالجوال الليلي.

وهذا يعنيني في المكان الأول بقدر أوفى (ولا ضرر ولا ضرار) ويهمّني ألّا تغمض عيوننا عن الحقائق التي تأخذ برقابنا وتلوي أعناقنا وتفرض نفسها على الساحة الأدبية والسياسية والاجتماعية.. وكلنا راع.. وكلنا مسؤول عن لاوعيه.

ومن الأضرار التي لحقت بقضية الشعر ذاتها الى جانب ذوبان قوالب الشعر القديمة والحديثة الى درجة اختزلت فيها القصيدة الشعرية الى بضعة أسطر أو بضعة أبيات كما في ديوان «لو أنبأني الفراق» للشاعرة العراقية لميعة عباس عمارة، علينا أن نتخيل الى أي مدى اختصرت حركة المدّ والجزر في هذا الطوفان معلقة امرؤ القيس الى بضع كلمات رغم ادراكي للظروف الموضوعية التي فرضت هذا التغيير، إلّا ان التشاؤم الحذر خير ألف مرة من التفاؤل المفرط.. خاصة اذا استرجعنا ذكريات زمان كان فيه بيت الشعر يقود الأمة الى الحياة أو الموت.. بيت من الهجاء يقود الى حرب بين قبيلتين.. وبيت من الغزل يدخل بقصة الحب أعماق التاريخ، وليست قصة مجنون ليلى المحفورة في أذهان الكبار المخضرة في عقول الصغار بعيدة عن الذاكرة.

واذا كانت من محاسن الشعر ان الأمة العربية أصبحت أمة شاعرة فان

من مساوىء هذا الموقف انه أفقدنا معنى الالتزام بقضية الشعر. فما زال الصراع بين القديم والحديث كأنما في وقت أصبح الشعر نفسه يعيش أزمة وجود.. وما زال الصراع بين الالزام والالتزام يأخذ حيزاً كبيراً من اهتمام الفرد والدولة بصورة شلّت قدرة الفرد على الابداع وطاقة الدولة على العطاء.

وما زال الصراع بين الشكل والمضمون يمثّل حجر الزاوية في هذا الصرح العتيق الذي بدأ يتهاوى من كثرة معاول الهدم وقلة لبنات البناء.. وموطن الألم في هذا الجسد المنهك من فرط ما تكسّرت النصال على النصال.

ولو استقرأنا الأحداث ورصدنا تطوّر تاريخ الفكر العربي لوجدنا الانسان العربي. وما زالت قصائد ابي الطيب المتنبي تقف شواهد صدق نبدأ بها كل خطبة ونختم بها كل حجة. وما زالت رائعة شوقي:

ولـــد الهـــدى فالكائنـــات ضيـــاء
وفـــم الزمـــان تبســـم وثنـــاء

زغرودة فرح ونغمة محبة تردّدها ملايين الشفاه في كل أرجاء المعمورة في ذكرى المولد النبوي الشريف، وما زال بيته المشهور:

قـــم للمعلـــم وفّـــه التبجيـــلا
كـــاد المعلـــم أن يكـــون رســـولا

هي الفاتحة والختام في نشاط كل مؤسسة تربوية على نطاق العالم العربي مثلما تقرع الأجراس ايذاناً بالدخول أو الخروج من فصول الدراسة.. وكم منّا يحفظ بيتاً من الشعر يقفز الى الذهن في لحظة استماع أو وقفة استرجاع.. قلة لا تعبّر عن الكثرة الغالبة.. هل لأننا مولعون بالقديم أم لأن هذا الطوفان قد أغرق أحلى معالم هذا الأثر الفني الذي قيل فيه:

اذا الشــعر لــم يهــزك عنــد ســماعه
فليس حريــًّا أن يُقــال لــه شــعــر

لقد أوجز أمير الشعراء قضية الشعر في البيت المشهور:

والشــعر إن لم يكـن ذكـرى وعاطفـة
أو حكمــــة فهـــو تقطـيـــع وأوزان

ولو قدّر الله لشوقي أن يعيش حتى عصرنا هذا.. عصر الاكتشافات وزمان الأزمات لأضاف صفات أخرى للشعر شأن قرينه الذي ذكر للأسفار خمس فوائد والذي عدد للدنيا سبع عجائب كنت واثقاً ان الرقم سيقفز على أقل تقدير الى عشرة لأن هذا الرقم له أكثر من دلالة في جدول الضرب لدى التلاميذ وفي جدول الرواتب لدى موظفي الدولة.

ولو عاش شوقي لوجد ان ما أوجزه في رسالة الشعر ما عاد يخدم عالمنا المعاصر وان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فذكرياتنا مرثيات وبكائيات تقطع نياط القلوب وعواطفنا صالات عرض تزخر بالزهور الصناعية لا رائحة فيها ولا عبير لا تحرّك شيئاً.

وقد يُقال ان رأي شوقي كان مثار نقاش في حياته حين كان الجدل عن الفن للفن أو الفن للحياة مثل اللغط حول الدجاجة من البيضة أو البيضة من الدجاجة. هذا اللغط والجدل ذاته كان متنفساً ونوعاً من الترويح النفسي بين الشعراء والأدباء، وكانت الحكمة تحكم علاقة الناس بين الحاكم والمحكوم، الظالم والمظلوم، حتى قالوا خذوا الحكمة ولو من أفواه المجانين لأن المجانين في عصر شوقي كانوا في حالة الصمت المشحون بالشجن أصدق من ثرثرة العقلاء في هذا الزمن حتى لو كانت من النوع الممنوع أو ذات الأجر المدفوع.. ألم أقل لكم ان الشعر نوع من الترويح النفسي. مَن منا لم يشعر براحة نفسية عندما يفتح كوى مضيئة ونوافذ يدخل منها الهواء النقي لرئتَي مريض تجمّد الدم في عروقه من رطوبة الغرفة. ان الشعور برعشة الجنين في الأحشاء هو بعض الشعور بحركة الشعر داخل النفس، حركة حياة تبحث عن نافذة جديدة تطلّ منها على شوارع أخرى ذات رائحة متنوّعة متجدّدة.

الشعر نوع من الترويح عن النفس

أقول ان الشعر منذ فجر الشعر الصوفي وقصائد الغناء في حب الذات الالهية والتغنّي بحب الرسول كان أحد رسائل التعبير عن هذا الحب الذي يحقّق الراحة النفسية من خلال رؤية القصيدة الشعرية.. وكانت وما زالت حلقات الذكر ذكر المصطفى في ليالي المولد تمثل حالات «الانجذاب»، نوع من التنويم المغناطيسي يكون الفرد فيه قابلاً ومستقبلاً للايحاء وما يتلقّاه ويسمعه من شعائر دينية وتراتيل قرآنية ينغرس في صفحة عميقة وطبقة داخلية في شعوره الداخلي، حتى اذا فاق كان احساسه بالراحة النفسية يصل مرتبة الشفاء من المرض النفسي، ممّا جعل حلقات الذكر التي ترتفع فيها الأصوات وتتجانس الحركات والايقاعات الموسيقية تكتب صفة الاستمرارية وقدسية الطقوس لأنها تمثل حالة انقطاع كامل من العالم والايقاعات الموسيقية تكتب صفة الاستمرارية وقدسية الطقوس لأنها تمثل حالة انقطاع كامل من العالم المادي الى خلوة نفسية وصحوة دينية مع حبيب الله، ومَن منا ينكر ان الثقة في المعالج هي نصف العلاج، لذلك مرة أخرى كان الشعر أحد وسائل العلاج والترويح النفسي، ولنشاهد أحد اللوحات الشعبية في التلفزيون ونرى صورة الايحاء الجماعي ولحظات الانجذاب التي يعيش فيها الفرد في عالم لا تؤثر فيه أضواء الكاميرا ولا أصوات الميكروفونات.

ان زماننا.. عصر التوتّر.. وعهد الردّة.. والكفر خير من الردّة.. حيث انقطعت صلة العبد بربه في أسوأ الحالات وتوتّرت علاقة الفرد بأخيه في أغلب الأوقات وانقطعت حلقات الذكر وأصبحت جزءاً من التراث الشعبي في كل الوطن العربي.. وانعزل الفرد في قوقعة محارية يعاني من العزلة النفسية. ومثلما لجأنا الى «مكننة» « اوتوميشن » أفكارنا بالكمبيوتر الصناعي وتربية أطفالنا بالحليب الصناعي لجأنا الى احداث حالة الانجذاب الروحي لعقار اصطناعي وخلق حالة الترويح النفسي التلقائي بالشعر والموسيقى الى حالة استرخاء عقلي مؤقت بالمخدر، فنعطي الفرد المتأزم جرعات من عقار مخدر لا يصل به الى درجة الغيبوبة ولكنه يفقده بعض المقاومة في السيطرة

على دوافعه اللاشعورية ليفرغ ما بداخله مثل شاحنات البترول في ميناء امستردام، حتى اذا خرجت الشحنة الشعورية شعر براحة نفسية وكثيراً ما نصف من يفيق من شبه الغيبوبة الصناعية ينكر ما قال حتى نوع البضاعة التي أفرغها في الميناء المجهول أو شريط التسجيل، ربما ان غرفة الطبيب ليست محطة تنصّت أو جهاز مراقبة ولا نقطة مخابرات، فيصبح ما قاله امتداداً لما ينبغي أن يسترسل فيه حتى يصل مرحلة يستطيع فيها التعبير في حالة الوعي عن مشاعره الداخلية دون اللجوء الى الغيبوبة الصناعية.

هنا أيضاً يصبح الشعر نوعاً من الترويح النفسي، أسلوب آخر في التفريغ العقلي في حالة تأمل فكري أو خلوة نفسية مثلما يسجّل الفرد انطباعاته الشخصية أو أزماته النفسية ساعة الانفعال في دفتر مذكرات يتحدث الى شخص مجهول حتى اذا فرغ من الكتابة شعر بالراحة والرغبة في تمزيق المذكرات.

أليست هذه مأساة، أن يتعامل الانسان مع الورق أن يبثّ شجونه في صمت، أن يشعر ان مجرد القدرة في الحديث على الورق نوع من المشاركة الوجدانية الذاتية، أليست هذه أقسى درجات الاحباط النفسي عندما نفشل في وجود شخص في حدوث مشاركة انسانية مع فرد تبثّه شكواك وتقاسمه بلواك، هل تصدّقون ان بعض الناس يعاني من مشاكل تشلّ قدرته على الحركة وعلاجه لا يتعدّى مخاطبة شخص يجيد الاستماع اليه.

كثيراً ما يكفي أن يشعر الفرد ان هناك مَن يستمع اليه في صبر حتى وإن كان يعلم سلفاً انه عاجز بالضرورة عن حلّ مشكلته، يكفي فقط أن يعطيه الفرصة ليقول وجهة نظره في قضية يصعب مخاطبة الطرف الآخر فيها لأسباب خارجة عن ارادته.

أليس الشعر نوعاً من التفريغ العقلي؟ طالع أحد الصفحات الثقافية في أي مجلة أو صحيفة واقرأ ما يقوله الذين يكتبون الشعر لماذا يكتبونه ولماذا يتمسّكون به دون غيره من وسائل التعبير! اسأل أحد محرّري الصفحات الأدبية عن ردود الفعل لدى أصحاب القصائد غير القابلة للنشر هل يصل

بهم الغضب حد الاستعداد للعراك والقتال! اسأل أحدهم عن شعور الاحباط النفسي الذي يصيبه عندما ترفض قصيدته! ان القضية ليست في عدم نشر القصيدة ولكن فى رفع الحاجز أمام رياح التنفيس التي تهب عليه حرمان الفرد من ثقب بالون الاحباط الذي يملأ جنباته والفشل في نزع فتيل الاشتعال الذي ينذر بالانفجار في الداخل.

لذلك اذا رأيت ان معظم الرجال والنساء وأكثر الشبان والشابات يكتبون الشعر وخاصة في مرحلة معينة فعليك أن تستوثق من انهم يعانون من الاحباط في شتّى صوره وفي أبشع حالاته ويحاولون التنفيس عنه، وليس الشعر حالة هذيان أو رحلة غيبوبة. قد تكون الكتابة المباشرة ممنوعة على الفتاة وغير مشروعة على الشباب وغير مسموعة من رجل الشارع.

وفي علم النفس يمثل الشعر والموسيقى بعض وسائل الدفاع النفسية الصحية التي تحفظ للفرد التوازن الاجتماعي والنفسي بالتنفيس عن الرغبات المكبوتة والمرفوضة اجتماعياً بأسلوب مقبول.

وقد اكتشفت من ممارستي كطبيب وهواياتي للأدب في تحرير صفحات أدبية في السودان منذ عشرين عام.. وجدت ان فيضان الشعر الذي يجتاح ويجرف بريد الجريدة يحمل رغبة شخصية في الوصول الى هدف خاص بأسلوب عام قد يكون الرغبة في الشهرة او صرخة استغاثة من موقف معين، أو احتجاج على سلوك خاص او تعبير غير مباشر عن رغبة ذاتية. وفي كل هذه الحالات يكون الكاتب في حالة « معاناة » كما يقول الأدباء، وفي حالة « احباط » كما يقول علماء النفس. ولذلك يصبح الشعر مرغوباً كنوع من الترويح النفسي بلا عقاقير، مخاض فكري وتفريغ عقلي في وعاء أدبي مقبول، والسؤال الآن هل لأن الشعراء أكثر الناس حساسية يتعرّضون للأزمات النفسية أم ان الشعر أكثر قدرة على التعبير عن هذه الحساسية وأفضل نوع من الترويح النفسي.

الحق أقول لكم هي الاثنان معاً فأنا شريك في حالة المعاناة وطرف في علاج الاحباط

« ولا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

الحزن ينبت شعراً

ان الشعر تعبير عن حالة انفعال.. والحزن احدى صور الانفعال، فلهذا ينبت الحزن شعراً. الحزن يفتّت النفس ذرات تتجمّع سحابة شعر.. من رهافة الحسّ.. سماد أرض العطاء الشعري.. وثقافة العقل خصوبة التربة الشعرية.. ومزاج الشاعر حالة المناخ الشعري، ومن كل هذه العناصر تتكوّن حديقة الشعر.. وتأخذ لون أزهارها وأريج أشجارها من هوية الشاعر معطيات وجوده الحياتي وأبعاد حسّه النفسي.

لم تعد المدارس الشعرية المختلفة إلّا اشكالاً متباينة لابعاد الحالة النفسية لجماعة الشعراء الذين ينتمون اليها، حرثوا أرضها، وأثروا ترابها.. وحصدوا ثمارها.. فالشاعر الرومانسي يبكي من الفرح، الفرح الطفولي النابض من أعماقه.. والشاعر الوجداني — إن صحّ التعبير — يزرع حديقته من ثمار الحزن ويحصد قصيدته سنابل ألم.. ألمه الفردي.. والحزن الجماعي.

والمهنة تتحكّم في تشكيل عجينة الموهبة الشعرية.. فتدخل من الأبواب الخلفية ومن الجدار الشفاف الفاصل بين الرؤية الاجتماعية والواقع النفسي.

لقد عاصرنا من مجتمعنا العربي جيل عطاء مبدع في شعر الأطباء.. أو الأطباء الشعراء مثل ناجي والجارم وغيرهما. والليالي من الزمان حبالى.. فتطوّر الشعر فكراً وأسلوباً.. وتطوّر الطب علماً ومعرفة.. وتعدّدت فروع المعرفة الى تخصّصات دقيقة.. وخلايا مجهرية ولدت أدق الشرائح العلمية..وجمعت بين

أطراف الخلايا بعقد عصبية أثبتت ان النفس والجسد وحدة متكاملة.. فالألم النفسي يفرز الأورام الجسدية.. والجرح العضوي يعمق المعانات النفسية، فأصبح لزاماً على الطبيب الشاعر أن يقفز بمهنته ويسمو بشعره.. ويمازج بين الاثنين بصورة تثري تجربته الشعرية.. وأن يجعل من مهنة الطب رافداً يثري وجدانه الفني ومن موهبته الشعرية مبضعاً رقيقاً يشفي به جراحات مجتمعة. ولذلك كتبت قبل خمس سنوات في مقدمة ديوان « قصائد من بريطانيا ».

«ان الطب النفسي قيثارة جديدة تعزف أنغاماً متجدّدة مشحونة بعنصر المأساة.. أزمة اليوم كآبة الغد.. الأرق.. الشعور بالخوف.. الرغبة في الانتحار.. فقدان الذاكرة والخوف من مرض الأعصاب.. تراجيديا محبوسة في صدر الطبيب النفسي تملأ رئتيه وتشغل قلبه وتمزّق وجدانه، وبذلك تتحقق له امكانية نقل الحياة الى الناس في أصدق صورها.. وأدقّ ملامحها من الداخل.. وتتداعى الصور في مخيلته بشكل عفوي يصبح في النهاية لوحة.. كقوس قزح تنضح بالألوان.. ألوان التعاسة التي ذاق طعمها بكل الانفعال التلقائي والانسجام الحقيقي، فيصبح للظاهرة مدلول نفسي أكبر من التفاصيل الجزئية.. فالكل ليس مجموع الأجزاء في نظر الطبيب النفسي.. وهذه مصيدة الشاعر الذي لم يجد نفسه بعد.. فيلجأ الى اصطياد الغريب والغامض وينفذ الى قلب القارىء من جهة العين العمياء والجانب المشلول بفعل تركيبة العقار السحري الذي يحدثه مزج الألوان.

ان على الطبيب النفسي الذي يكتب الشعر أن يبتر القلق والتوتّر الذي هو سبب نكسة الفرد.. وتحوّله الى العزلة ومرض الأعصاب.. ويزيد من مرارة هذه النكسة انغماس الفرد في كافة ملذّاته الحسية.. المخدرات، الجنس، الشذوذ، الملاهي الخ.. والطبيب النفسي عليه عبء النفاذ الى أوهام الناس أولاً.. ثم عملية تبديدها ثانياً بالادراك المتكامل لنوعيتها وظروفها وملابساتها.

ان عليه خلق يوتوبيا أو مدينة فاضلة في عقل كل فرد.. وحسّ كل جماعة لا مدينة خرافية من أنقاض وهم عالق بخيط كخيط العنكبوت في

جدران المعابد القديمة التي شوّهت وجه الحياة وجمّدت حركتها.. أن يفلت من قبضة الكتاب الى رحابة ممارسة العلاج بالكلمة.. بالايحاء.. بالاسترخاء.. بالموسيقى.. بالشعر.

واذا كانت هذه الوسائل من أساليب العلاج النفسي، أليست هي من خصائص الفن الشعري. واذا كانت كذلك أرأيتم كيف تنصهر عناصر الشعر وكوامن النفس في بوتقة الطب النفسي.. وتختمر في مختبراته النفسية.. فتولد الحزن الذي ينبت شعراً.

ان الطبيب النفساني يتحرك في ساحة الحزن.. دموع اليتامى التي تقطر مثل دم الجريح.. وشجن الأرامل الذي يتصاعد مثل خروج الروح من الجسد.. وأنين الثكالى الذي يتأجّج مثل حمم البراكين وكآبة المحرومين من طعم العاطفة ودفء الشعور بالأمان في صقيع حياتنا القاسية.

وعليه بالضرورة أن ينكفىء على خنجر المأساة المغروس في أحشاء الآخرين.. ويعطيهم من شعلته الذابلة مصابيح مضيئة يدخلون بها دهاليز الحياة المظلمة.. أن يسقيهم جرعات الايمان الذي اهتزّ تحت مطرقة العصر اللاهث بخطى الهارب من المجهول.. وأن يسوقهم الى مواكب الهدى في ليل الضلال الذي أسدل سدوله وغطّى المدن والقرى.. وأن يصل بهم الى شواطىء الطمأنينة النفسية بعد أن تحطّمت المراكب التي أبحروا بها في عصر القلق النفسي والكآبة الاجتماعية.

وقد يقول قائل ان هذه رسالة الأنبياء وليس قدر الأطباء أو الشعراء، ولكن ألم يكن صفوة الأطباء حملة رسالة.. وخيرة الشعراء حملة مشاعل. وقد كتبت في مقدمة ديوان «نقوش على البحر» انني عاشق للشعر.. عاشق حتى النخاع ولو سألتني ماذا تريد أن تكون، لأجبتك على الفور «شاعر» لأن الشعر رسالة وأفضل الشعراء كانوا أصحاب رسالات.. وأكثر أصحاب الرسالات كانوا حملة مشاعل في ظلام العصر.. فأنا لست نادماً على مهنة الطب، فقد أصبت فيها من رصيد النجاح أضعاف ما قدّرت لها في حساب الخسارة ولا أرى تناقضاً بين الاثنين، ولكن مهنتي لا تترك لي فراغاً أتعلم

فيه صنعة الشعر.. فالشعر ثلثه موهبة وثلثاه صنعة كالنحت بالازميل والغوص في البحار.. والحذق في الطلاء الى آخر أسرار احتراف المهنة.. وشتّان بين الهواية والاحتراف.

أعود وأقول: الحزن ينبت شعراً.. والى اللقاء.

لذّة الهواية.. وألم الاحتراف

يقولون في الأصل ان الهواية مَن هوى النفس.. وهوى الشيء أحبه.. واستهواه الشيء استهامه وعلق به.. وفي الهواية تحقيق رغبة أو مشيئة أو مسرة وبهجة.. وشر الهواية ما جنح الى الغواية. اي الغى به أو الضلال والانغماس في المتعة الحسية.. والاحتراف من الحرفة أي الصناعة ومحترف الشيء صانعه.. والهاوي ضد المحترف.. أي مَن تعوزه الخبرة والبراعة في فن أو علم والاحتراف يعني الانصراف الى الشيء بوصفه مصدراً للرزق والاحترافية هي التكسّب بكل ما لا يُعتبر في الأصل حرفة يكتسب بها كالرياضة البدنية والسياسية الى آخره... والحرفانية هي الصفة أو الروح أو الطرائق الحرفية أو المهنية كالاشتغال بمهنة تقتضي ثقافة وعلماً «كالأستاذية» أو عملاً تأهيلياً «كالجندية» أو مزيجاً من العمل والعلم كحرفة الهندسة والطب وغيره.

مبدأ الألم واللذة

ان الألم واللذة صنوان متلازمان متناقضان مكمّلان لبعضهما البعض.. التناقض في الشعور بقيمة أحدهما في غياب الآخر.. كلذّة النجاح بعد زوال ألم الفشل.. والتكامل في الشعور بقيمة أحدهما في وجود الثاني.. قيمة الألم من أجل اللذة.. كآلام مخاض الولادة من أجل اللذة في رؤية وليد

جديد.. وقد كتب فرويد عام ١٩٢٧ حول ديناميكية الشخصية من خلال تحليل الغرائز في شكل الثالوث المتصارع داخل نفسية الفرد.. وقد أدخلت هذه النظرية علماء النفس في متاهات جدلية اختلط فيها الحابل بالنابل والعالم بالجاهل والهواة بالمحترفين. إلّا ان مبدأ الألم واللذة في تحديد عناصر الشخصية ظل ركناً هاماً في تحديد سلوك الفرد واشباع رغبته، وقد ثبت حديثاً ان الاحساس بالألم والشعور باللذة حاجة فيزيولوجية موجودة في بعض المراكز العليا في مخ الانسان، ويمكن اثارتها بواسطة أقطاب كهربائية.. فرغبة الانسان في السلوك الاجتماعي المعتدل قد لا تقلّ أهمية من رغبته في الطعام، ولكن الانسان لا يأكل فقط من أجل الاشباع ولكن ايضاً من أجل الاستمتاع.. فقد يرفض الرجل الصيني أكل «قطعة الجبن» في أشد الحالات جوعاً حتى الهلاك بينما نجد ان الطعام الشهي «كطبق الأرز» يخلق لديه الرغبة في الأكل في أكثر حالات الافراط في الشبع، والرجل البخيل قد يشعر بلذة هواية جمع المال حتى يصل تكديسه وحرمان نفسه من الاستمتاع به درجة عذاب الاحتراف، فيصبح الدافع الجديد سلوكاً وظيفياً مستقلاً عن ارادته وخارج سيطرته (جئت أمتلك المال فامتلكني المال)، وقد تكون الهواية نوعاً من التسامي أو تحويل الدوافع الأولية (اللذة) الى قنوات نشاطات اجتماعية مقبولة وهي احدى حيل النفس الدفاعية في تذويب الغرائز البدائية المرفوضة عقلانياً الى المجالات المرغوبة روحانياً كالرياضة والرسم والشعر.

وألم الاحتراف يأتي من بروز الدوافع الجديدة المختلفة التي تفرض على الفرد نشاطاً ذهنياً أو بدنيا معيناً يخرج من الهواية للاحتراف رغم الآلام كالاصابة في الكره أو عدم القدرة على الكتابة أو فقدان شهية الرسم.

خطوة البداية

ان الرحلة من الهواية الى الاحتراف تبدأ بخطوة البداية.. فرحة «حظ المبتدىء» الذي يسوقه الفضول أو الاغراء الخارجي الى ممارسة لعبة يضع

فيها بضعة دراهم فيكسب آلافاً.. وتتولّد الرغبة في التكرار والكسب وتدور الحلقة بصورة تفسّر سيكولوجية الاحتراف لشيء ما أو الادمان عليه. وهذه ظاهرة نفسية تستغلها دور الملاهي والمراهنات وصالات الروليت والألعاب الالكترونية في اشباع رغبة المبتدىء بالكسب المادي السريع المفاجىء المؤدّي من الهواية الى الاحتراف ثم الادمان حتى الحالة المرضية.. والواقع يؤكّد ان الثروة رمز النفوذ والهيبة في المجتمع، فاكتساب الثروة يجعل الفرد مولعاً بالاكتساب ولكن مع اختلاف الدوافع فنجد في بعض المجتمعات البدائية ان مكانة الفرد مرتبطة بامتلاكه قطعاناً من الماشية ولذلك يبدأ بالسعي لامتلاك أكبر قدر يفوق حاجات الاستهلاك الضرورية فيصبح تجميع القطعان في زرائب دلالة هيبة ومظهر تباهي بقدرة الفرد على الكسب وفي مثل هذا الوضع يكون الرجل بلا قطعان ماشية بلا مكانة اجتماعية حيث تصبح الحاجة الى الثروة تعبر عن الحاجة للنفوذ أكثر من الحاجة للاكتساب بانتقال الهواية الى الاحتراف.

واذا انتقلنا الى المجالات الفنية كالشعر والموسيقى والرسم، والمجالات الرياضية مثل كرة القدم والملاكمة والمصارعة والمجالات الفكرية كقضايا العلم والفلسفة يبدأ أصل الهواية بالشعور بالمتعة والمسرّة في التعبير عن الرأي.. أو التنفيس عن الكبت بالرياضة ثم تتلاشى الدوافع الأولية وتبرز دوافع جديدة كالرغبة في التفوّق والمنافسة وحب الامتلاك والشهرة والمال.. تتنازع الفرد عوامل جذب ودفع.. جذب تجاه اللذة «الهواية» ودفع الألم «الاحتراف» ويشتدّ الصراع بين الألم واللذة عندما تكون عوامل الجذب نحو أحدهما أقوى من عوامل الجذب نحو الآخر.. أو عوامل الدفع عن الاثنين متعادلة بينما يكون أحدهما مصدر كسب والآخر مضيعة وقت.

صور من الحياة

قد تعترض الأسرة على ممارسة هواية رياضية شعوراً منها بتأثيرها السلبي على تحصيله العلمي، ولكن قد يطغى العائد المادي من هذه الهواية على هذا الشعور بالخطر فيصبح السير في طريق الاحتراف خيار مَن لا يملك

حق الاختيار لما يوفّره من اشباع رغبات مادية واجتماعية عاجلة رغم الآلام النفسية في قبول الأمر الواقع ولعل أكثر الأمثلة دلالة على المشي فوق جمر الهواية الى نار الاحتراف، ما نشاهده في صورة الملاكمة.. وأنا أضرب هذا المثل ليس في سبيل القدوة به فتحفّظاتي في هذا المضمار يفوق تصوّرات كل أصحاب هذا المزاج.. ولكن سياق الحديث يقتضي تقريب الصورة الى ذهن القارىء ولا أعرف صورة قريبة للأذهان من صورة الملاكم الأسطوري «كلاي» الذي بدأ بلذّة الهواية ثم قاده ألم الاحتراف الى قبول السقوط أمام المغمورين من صغار المغامرين (من أجل حفنة دولارات) الى جانب الألم النفسي في ذل الوقوف أمام كاميرا الاعلانات عن السيارات والعطور بعد الصعود على منصة رجال الدعوة الى الحرية والمبادىء الانسانية التي رفعته الى منزلة رجل الدولة.. والعذاب البدني في تمزّق الوجه النازف دماً من الشاشة البيضاء محشوراً في زاوية الصمت وهو الذي يجيد صناعة الكلام.

وفي مجال الثقافة فأكثر الأشعار كلمة وصدقاً وعفوية ما كتبه فرسان الهواية وأقله رصانة وموضوعية ما سجله أساطين الاحتراف مع الفارق.. وفي الفلسفة والاجتماع والطب نحني رؤوسنا اجلالاً أمام مخطوطات الرازي والفارابي وابن خلدون وابن سينا، وفي الربع الاخير من هذا القرن نعتزّ بروائع الفكر العربي المعاصر أمثال طه حسين والعقاد وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم.. نماذج معاناة الابتعاد عن وخز الألم لها معاناة الاقتراب من بحر اللذة حتى وصلنا عصر الاختزال العقلي والانحسار الفكري في ثقافة المقالة المضغوطة والموسيقى الممسوخة والأغاني القصيرة المبتورة واللقطات السينمائية المعلّبة الجاهزة وساندوتشات المعرفة المجمّدة في ثلاجات المجلات التجارية من شتى الأصناف في حمولة الأطنان في فن التعبئة وأرقام الأجور.

حقيقة لقد انتهى عهد السخرة وأطلّ زمان الأجرة.. فلا شيء بلا مقابل. وفي المقابل أصبحت روافد الالهام تنبع من بحيرة العطاء وتصبّ في بورصة

الأجور وتسابق عقارب الساعة.. فخبا وهج الابداع وضاعت لذة الامتاع وطغى الكم على الكيف، وهكذا أصبح الانسان المعاصر معلقاً بين لذة الهواية وألم الاحتراف.

واذا كانت النفوس كبارا

رحم الله أبا الطيب المتني الذي ترك لنا ورثة المقتدر في ديوان العرب.. ورثة في شتى ضروب الحكمة والشجاعة والبطولة.. صفحات مشرقة تتلألأ في سطورها «عزّة النفس» التي ولدت معه هالة نور في الكوفة فأضاءت أرجاء العالم الأربعة. ولم يطرق باباً في الحياة إلّا عز وبز.. صال وجال.. قادحاً أو مادحاً في كبرياء المقاتل وثقة الموهوب وفراسة الحكيم.

ليست هذه مقالة عن المتنبي الذي قد يعرفه القارىء أكثر مني وذاع صيته سابقاً لزمانه قائلاً:

أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي
وأسمعت كلماتي مَن به صمم

وهذه حقيقة يؤكّدها نبوغ عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في كتابه «مع المتنبي» ودلّل على انشغال الناس به حيث عكف خمسون من أكابر أهل العلم طوال الليل والنهار يشرحون ديوانه حتى بعد وفاته والصمت الأبدي مصداقاً لقوله:

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها
اني بما أنا باك منه محسود

ولم يثبط همّته في عصور الملوك والأمراء ان والده كان « سقّاء » في

الكوفة حتى دخلت به مكانته الأدبية أعماق بلاط الأمراء أمثال سيف الدولة الحمداني الذي اختصّه برعايته واصطفاه حتى قال فيه:

اذا كان بعض الناس سيفا لدولة
ففي الناس أبواق لها وطبول

وقد مدح وهجا كافور الأخشيدي وطاف بلاد الفرس حتى عاد الى الكوفة.. وتذكرني سيرة المتنبي روائية الكاتب الكبير «فيكتور هيجو» وقولته في وصف العباقرة «مجنون يدّعي النبوّة» فالمتنبي بمقياس عصره لم يكن من أدعياء النبوّة أمثال مسيلمة الكذاب وطلحة بن خويلد ولا بمقياس عصرنا الحاضر في علم الطب النفسي حيث يعتبر ادّعاء النبوّة أحد أعراض المرض العقلي «جنون العظمة» وهو نوع من انفصام الشخصية أو الهوس الدوري في حالات الذهان العقلي المتميز بالهذاءات اللامنطقية والاعتقادات الخاطئة والأفكار المفكّكة مقابل البلاغة الأسطورية والحكمة في أشعار المتنبي وهذا مجال دراسة أخرى.

تطابق القول والفعل

مرة أخرى لا دفاعاً عن المتنبي فقد قيل عنه ما لم يقل مالك عن الخمر ولكن دفعاً للشبهة بعدة شواهد تقوم عليها حتى في تبرير أفعاله مقترنة بأقواله اقتران الموت بالشهادة حتى صارت عزّة نفسه ذاتها سبب مصرعه.. ففي طريق العودة الى الكوفة اعترض سبيله خصمه(فاتك الأسدي)في قتال شديد وضيَّق عليه الخناق فحاول النجاة فارًّا، فقال له أحد أتباعه: ألست أنت القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فغلب على نفس المتنبي تفضيل موت العزيز على حياة الذليل أو ميتة الجبناء وهو القائل:

« عش عزيزاً أو مت وأنت كريم ».
بين طعن القنا وخفق البنود

فالتفت الى خادمه قائلاً : « قتلتني قتلك الله »، وقاتل حتى قُتل مع ابنه ضارباً أروع الأمثلة في تطابق القول بالفعل وذروة التمسّك بعزة النفس التي وردت في صدر المقالة :

واذا كـــانت النفـــوس كبـــارا
تعـــبت فـــي مرادهـــا الأجسام

عزّة النفس

في الشرح المحيط «العزة ضد الذل.. وعزّ الشيء اذا قلّ فلا يكاد يوجد ومنه قوله تعالى «فعززنا بثالث» وفي المثل «اذا عزّ أخوك فهن».. وعزّة النفس ليست الغرور والغَرور (بالفتح) الشيطان واعتزّ بالشيء خدع به، ومنه قوله تعالى « ولا يغرنكم بالله الغرور » والغرور (بالضم) ما اعتزّ به من متاع الدنيا وعزّة النفس ليست الكبر أو العظمة ومنها قوله تعالى «ولا تصعر خدك للناس ولا تمشِ في الأرض مرحاً ان الله لا يحب كل مختال فخور». ان عزّة النفس في كبريائها، هي سموّها رغم ضعفها وعلوّها فوق سقفها وخلافها ضد ألفها وخروجها وسط صفها اذا كانت بيِّنة الشاهد الذي يحلف بالزور مقابل أجر.. والمليونير الذي يزوّر الشيك بغير عذر والتاجر الذي يهرب من الضريبة والغني الذي يمتنع عن الزكاة والمسؤول الذي يسوِّف في المعاملات والموظف الذي يصعد سلم الوشاية الى الترقّي على جماجم الآخرين والتسوّل لدى المسؤولين.

يقولون من آفات الزمان ذل الانكسار وانحناءة الكبار لغير الواحد القهّار.. وبعد موت المتنبيء أنجبت الأمة ألف متنبي اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا أؤتمن خان.. واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر يقول ما لا يفعل.. ويفعل ما لا يستحي من الجهر به وكأنه يستخف بالحديث الشريف (ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فافعل ما شئت) وقد كثُر أدعياء النبوة والبدع والمحدثات وفي زمان يصرخ ملء الفم (ما أُخذ بالقوة لا يُسترد بغير القوة) يستأسد الفرد على الجماعة وتتغلب القلة على الكثرة وتنتصر دولة صغيرة على أمة كاملة وتنهزم الجيوش بتوقيعات رؤوس الأقلام

السائلة والجافة والملونة والمذهبة. وفي زمان تتمسّك فيه الأمة بالقول الفصل (وأمرهم شورى بينهم) يختلف الناس فيما يستوجب الاتفاق ويتفقون فيما طبيعته الاختلاف ولم يعرف التاريخ عصراً اتسم بظلم الانسان لأخيه الانسان حيث يواجه الشعب الأعزل في كل مكان نيران الدبابات وقصف الطائرات تحت مظلة المؤسسات الدولية والتي ترعى حقوق الانسان.. تستورد الخطب بكل اللغات.. وتتبادل في عدة قرارات وتصدر كل المسكنات الى الشعوب الثائرة في أرجاء المعمورة مطالبة بحقوقها المشروعة ولسان حالها يقول: اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها.. هواناً بها كانت على الناس أهونا فأصبح العالم لا يسمع صرخة المظلوم إلّا مسنودة بمنطق القوة.. ولا يعطي الغني الفقير ولو أحرق كل ثروته وأغرق كنوزه في البحر، ألم تحرق بعض الدول الأوروبية مستودعات اللحم حفاظاً على توازن الدخل القومي في وقت يموت فيه نصف أطفال العالم من الجوع.. ألّا يمثل (حق الفيتو) استلاباً لحقوق الآخرين.. وانتهاكاً لحرمة القانون وتحدياً لارادة البشر وطغياناً في وجه الحق عزّ وجل (يا عبادي.. اني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا). صدق الله العظيم

الموت والنجاة

ان عزّة النفس هي طوق النجاة لحظة الابحار في هذه الأمواج الهادرة.. ورب طالب للموت تُكتب له الحياة.. والذكرى للانسان عمر ثان.. وهل يذكر الأموات غير الأحياء:

ذلّ مَـن يغبـط الذليـل بعيـش
رب عيـش أخـف منـه الحمـام
مَـن يهـن يسـهل الهـوان عليـه
مـا لجـرح بميـت ايـلام

وفي كتب السيرة ما من رجل فقير عاقل يوقر ثرياً جاهلاً بلا عقل أو بصيرة وبعض الذين يكتسبون ألقاب العظمة بالجاه أو القوة بالمال لا تتعدّى

عظمتهم أخمص أقدامهم الى قمة أحلامهم. في نظر العاقل القانع العزيز النفس الذي يرضى بالقليل مستنكفاً ثراء الذليل.

نظرة في الحياة

ان فلسفة الحياة تملي على المرء أن لا ينتظر من الناس كثيراً ولا يتطلع منهم الى الأكثر وغنى النفس يعني القدرة على العمل الجاد المثمر ولا السلبية والاتكالية وانتظار الكثير من الغير والذي اذا تعذّر كان مثبطاً للهمم واذا توفّر كان مثيراً للطمع.. ورحم الله امرىء عرف قدر نفسه ومعرفة النفس هي المفتاح لأبواب النضوج الشخصي وغاية نضج الشخصية ادراك حقيقة العمل في بواعثه وأسبابه لا في غايته ومراميه وأساس نجاح العمل التنظيم الذاتي الفكري والتربية النفسية المشحونة بالثقة.. ان بعض الناس يغدقون على ذواتهم صفات لا يتميّزون بها متباهين بالجميل مستنكرين للرذيل.. وفحص النفس امتحان لقوة الارادة وهو أصعب أنواع الحوار مع الذات وأول مدخل الى تجنّب المساوىء باتباع الحسنات واذا كان الجرح مؤلماً فلأن الشرّ أحياناً ضروري لبقاء الخير ولأن الانسان الصغير تدوسه سنابك الخيل والعملاق تمرّ من تحته جحافل النصر والشجاع يموت مرة والجبان يموت الف مرة.

فلا تقس على نفسك بهوانها ولا تجرح كرامتك بامتهانها فان النفس اذا هانت سقطت والسقوط ليس له قاع وان الكرامة اذا انتهكت ضاعت.. وضياع الكرامة يعني فقدان الهوية.

لَمَن تكتب الأقلام ؟

قد يعتقد الكثيرون ان هذا التساؤل الافتراضي مطروح لذاته للاجابة من خلاله على تساؤلات استنكارية في ذهن الكاتب، وقد يفترض الآخرون ان هذا العنوان محاولة لتسليط الضوء على أبعاد أزمة الكتابة والنشر، وقد تكون الحقيقة أحد جزئيات كل هذه الافتراضات ولكنها قطعاً قطرة واحدة في بحر متاهات عقلانية تؤرق فكر القارىء والكاتب والناشر أولاً وأخيراً.

لقد كانت الكتابة وستظل الى وقت لاحق وسيلة اتصال بين الفرد والآخر والمجتمع وما جاوره، حتى أصبحت الكتابة ووسيلتها الكلمة المقرؤة أو المسموعة أو المرئية تتخذ عدة أشكال في الصحافة والمقالة والكتيبات وفي التلفزيون والأجهزة الالكترونية التي تعتمد الصورة أساساً كعنصر اتصال الى جانب الصوت أكثر فعالية في احداث التغيير والتأثير المطلوب وفي الاذاعة والخطابة والندوات والحوار المفتوح... وهذه كلها بعض أشكال الكتابة التي تتخذ من الحرف بداية ومن الجملة وسيلة ومن الكتابة هدفاً يخدم قضية ما.. واذا لم تكن القضية تهمّ القارىء المتلقي وتصب في قلب مشكلاته الحياتية فهي تعكس انصراف القارىء وفشل الكاتب وقصور الناشر وعجز الوسيلة.

ماذا نكتب

لعل من أبجديات التفكير العلمي في بداية عملية الكتابة تحديد نوعية الحدث واطار الموضوع، ماذا يريد الكاتب أن يقول؟ وهل كل ما يجول

في الخاطر يستحق التسجيل وكل ما في الذهن يستوجب الترجمة الى كلمة مقروؤة أو مسموعة أو مرئية تتطلّب قدراً كبيراً من المسؤولية وقدراً أكبر من المساءلة.. ان تحديد هذه الأولويات يصبح من أساسيات مبادىء أو علم الكتابة وإلّا أصبحت وسيلة لخدمة الكتابة غاية في حدّ ذاتها لا وسيلة لخدمة أهداف فكرية أو أخلاقية أو تربوية عامة أو خاصة تصنع علاقة الانسان بأخيه الانسان وعلاقة الانسان بمجتمعه في المكان الأمثل والجانب الأفضل في الاطار الصحيح، وهذا ما يميّز الغث من الثمين والصالح من الطالح وسمو الهدف من سطحية الترف الذهني والخواء الفكري.

واذا تجاوزنا هذه العقبات في التفكير بعد البدء في نوعية الكتابة فنصل الى شخصية الكاتب.. كثيرون يتصوّرون ان الكتابة لحظة غفلة أو قفزة سهلة فوق جدار قصير.. والواقع والثابت يؤكد ان من أصعب المهام في حياة الفرد هي ممارسة الكتابة وأكثرها صعوبة تحمل مسؤولية الكتابة وأكثرها صعوبة تحمل مسؤولية المحتوى الى جانب ضرورة الحاجة الى موهبة فذّة وثقافة ثرية.. فلا يكفي أن يكون الينبوع ممتلئاً بالماء ليصنع شلالاً متمتعاً بجاذبية الرؤية، ولكن ضرورة وجود الماء كموهبة يساعد في تشكيل هيكل الشلال كصنعة كالتمثال المتنوع الشكل أو النافورة المتناثرة الأضواء التي نشاهدها ونعجب بها دون أدنى تفكير في ديناميكية العلاقة بين الشكل والمحتوى أو دلالة العمل العفوي والصنعة المتقنة بالمهارة والممارسة والتدريب.

أزمة الكاتب

يتصور البعض ان كل فرد قادر على أن يكتب اذا توفّرت له بعض الشروط أو الحد الأدنى من امتلاك القدرة في الممارسة، والقدر المناسب من المعرفة وفسحة من الوقت وفرصته في النشر، ولكن الواقع يؤكد انه في ظل توافر كل هذه الامكانيات قد لا يستطيع كل انسان أن يكتب، واذا كتب قد لا يتعدّى أثر كتابته عتبة احساسه الخاص بأهمية ما قال، بل قد لا يحدث جزءاً ضئيلاً من الأثر الذي كان يرغب في حدوثه لحظة التفكير في الكتابة

إن لم يحدث رد فعل عكسي لتوقّعات وتطلّعات القارىء وكثيرون ممن يملكون هذه القدرات قد لا يمتلكون (جاذبية) الكتابة.. ذلك الشيء المبهم الذي لا يُقاس ولا يُعرف.. ولا نستطيع أن نلمسه بالأصابع ولكن نحس بخطاه داخل أعماقنا تتحرك كالدفء في ليلة شتوية باردة داخل أجسادنا.. والواقع يؤكد ان كثيرين قد كتبوا مخطوطات ملأت ارشيف المكتبات ولم يحرّكوا ساكناً في عقلية القارىء وقلة نادرة كتبت بضع مقالات أو كتاباً واحداً نفذت كالسهم الى أعماق مجتمعات خرافية وغيّرت تضاريس خريطة العقل البشري في كل أنحاء العالم وكثيرون يتعلّلون انهم بوسعهم أن يكتبوا ولكن ظروفهم العامة أو الخاصة لا تسمح لهم بالكتابة ولكنهم في الواقع ولنفس ذات الأسباب عاجزون عن الكتابة مهما كرّروا المحاولة وعندما تُتاح لهم فرصة الكتابة يفقدون قيمة (الجاذبية) التي تشد.. وتجذب.. وتملأ الكتابة بصدق التجربة وعافية الحوار.

لمَن نكتب

ان أحداً لا يستطيع أن يتصوّر شكل الحياة بلا كتابة كما لا يستطيع أن يتصوّر سطح البحر بلا ماء.. ووجه القمر بلا ضياء.. وفي أبسط الحالات قلب الشارع بلا حركة.. ان شعوراً غريباً يتميز بالفراغ النفسي والانقباض يحدث لحظة الخوف من الفراغ.. غياب الوجه المألوف الذي تعوّدنا رؤيته في البحر والليل والشارع.. حركة مستمرة تتخذ عدة أشكال ولكنها تعبر عن حركة الحياة.. ويكفي أن نتذكر ان أشد حالات الحزن تجتاح المجتمع البريطاني عندما تتوقف ماكينات الطباعة في شارع الصحافة (فيلت استريت) في لندن ويحدث شلل عام في كل مرافق الحياة وحتى في مجتمعاتنا التي تضيق ذرعاً بالكتابة والكتاب فانهم يلتهمون في نهم غريب كل ما تفرزه المطابع من صحف ومطبوعات ودوريات ومن أكثر الأمور غرابة ان الشعور بمرارة النقد عند توقف الصحف يحدث تجاه أكثر للصحيفة التي تكون (خميرة عكننة) في قاموس الفرد الخاص لأنها تمسّ خصوصية حياته وتؤثر في عمق صلاته سلباً أو ايجاباً مما يدل على ان الانسان يهتمّ بما يعنيه

وإن كان لا يرضيه ويستعذب الألم الذي يعذبه فيشفيه أكثر من المتعة التي تدغدغ حواسّه ولا تلمس ما يعانيه.. فاذا أردنا أن نكتب فلنكتب ذلك الشيء الذي اذا افتقده القارىء شعر بالمعاناة قائلاً:

رب شــــيء بكيـــت منـــه فلمـــا
ضـــاع منـــي بكيـــت عليـــه

أليست المعاناة في حد ذاتها وفي شتى أشكالها أحد الدوافع الأساسية للكتابة؟ هذه مجرد دعوة للتفكير.. قبل الكتابة.

الشعر بين الصدق والصنعة

من الموضوعات التي تشغلني كثيراً في الكتابة عنها موضوع الشعر.. لقد أصبح الشعر من أكثر الموضوعات المطروقة.. الشعر المقفى.. والمنثور.. والحرّ.. الى آخر المسميات التي وصلت بالشعر مرحلة من التعقيد فقد الشعر فيها بعض هويته حتى أصبح السؤال المطروح شعر أم لا شعر؟ وأصبح من أكبر هموم حملة الأقلام ان الشعر تعبير عن وجدان الانسان واذا طبّقنا عليه مقاييس الكتابة المذكورة ونوعية الكاتب وأزمة الهدف لتساءلنا: لماذا نكتب الشعر؟ هل هي محاولة للدخول الى مكتبة القارىء ولوحة الشرف مع الشعراء بداية بأصحاب المعلقات السبع الى أصحاب القصائد الالكترونية؟ هل نكتب الشعر لأن مسؤولية كتابة الشعر تحرّرنا من متطلبات تفرضها علينا ألوان أخرى من الكتابة أم لأن الشعر اكتسب خصوصية جمالية ومكانة أدبية متميّزة فأصبح الانتساب الى جيل الشعراء كالانخراط في مسيرة الأبطال تعقد ألوية النصر وتقرع له طبول الفرح أم لأن الشعر أصبح هواية مَن لا هواية له في مجال الكتابة الحركة بلا رقابة أدبية؟ ان دقّة المعايير العروضية وضرورة الموسيقى الداخلية وغيرها من المعايير قد سقطت من حساب النقاد والشعراء.. وأصبح الشعر يعيش أزمة حقيقية.. فقد فقد المكانة الاولى التي عاشها في العصر الذهبي حيث كان بيت الشعر يعني تخليد الشاعر ونبع الحكمة، ومصدر الالهام والحركة لدى الفرد والقبيلة، وكان تعبيراً عن ضمير أمة كما قال أمير الشعراء شوقي:

والشعر إن لم يكن ذكرى وعاطفة
أو حكمة فهو تقطيع وأوزان

فقد كان الشعر فناً ذاتياً.. وكانت مقولة الفن من أجل الفن تقرع أجراسها بقوة تحرّك كل اذن خرساء وتطغي على كل الاتجاهات المعاصرة.

الفن للحياة

وعندما تبدّلت ظروف الحياة وفرضت على المفكر والمثقف والكاتب نوعاً من التغيير في الرؤية والتبديل في القناعات، وضح ان لا بدّ من أن يكون للفن هدف، وهذا الهدف ينبغي أن يكون في خدمة قضايا الناس والحياة وبدأت موجة التحرّر من القافية والغموض والرمز والأسطورة حتى وصل مرحلة أصبح من العسير أن نصف النص المكتوب ان كان شعراً أم نوعاً من النثر أم مزيجاً من الاثنين.

الصدق والصنعة

أمام هذه الحرية المطلقة في التعبير الشعري.. انقسم الشعراء الى دعاة (الشكل) والحفاظ على الهيكل التقليدي ووقفها خلف صخرة القافية ضد كل التيارات الفكرية الحديثة ثم دعاة (المضمون) والذين مزّقوا جسد القافية ونتفوا ريشها الى خطوط وزوايا في القصيدة الالكترونية.. والعبارة المنثورة فأصبح هناك شعراء (محتوى) يكتبون من أجل الصدق في التجربة المُعاشة ليصل صوتهم للقارىء بأي شكل كباقة زهر تحمل عفوية التجربة وصدق التعبير ودفء الزخم الوجداني الخاص الذي ينبع من خصوصية نفسية الشاعر.. وشعراء (شكل) يرفضون الخروج من الاطار التقليدي ويفضّلون الانتظار بالقصيدة في (غرفة الانعاش) للتنقيح والتصحيح حتى ولو فقدت لذّة المخاض ونبض المعايشة وخرجت تحمل اسم الشاعر في ذيل القصيدة.. وجاء دور (الوسيط) الذي يقوم بعملية التجميل (المساحيق والمكياج) على وجه القصيدة حتى تخرج مكتملة بكل ما يترتّب عليه من فقدان عفوية المخاطبة الوجدانية المباشرة بين الشاعر والجمهور.

وفي تصوّري ان الشاعر الحق يفضّل الصدق على الصنعة لأن المسافة الزمنية بين لحظة الصدق في كتابة القصيدة وفترة الانتظار في عملية (المكياج) هي أصل الخلاف بين الذين يهتمّون (بالمحتوى) الموجّه الى قلب القارىء وبين الذين يفضّلون (الشكل) يلهثون وراء الصنعة وعندما يصلون نقطة النهاية يكونون قد خسروا السباق.. ان معركة الكتابة في مجال الشعراء أحد مظاهر الأزمة.. لمَن تُكتب الأقلام.. للعامة وهذه تفرض قدراً من المواصفات أم الخاصة وهذه تتطلّب درجة معينة في مستوى التعامل من حيث الكم والكيف.. خاصية قد يصعب توافرها لدى الكثرة الغالبة من حملة الأقلام ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه.

الفصل السادس

* رسائل مؤثرة

١ ــ عفوا أستاذي

٢ ــ خواطر

٣ ــ رسالة الى (عمر) في العالم الآخر

٤ ــ السائرون تحت المظلة الكيمائيه

رسائل مؤثره

آثرت أن أثبت هنا في بداية هذا الفصل هذه الرسائل كجزء من تسليط الضوء على خفايا النفس البشرية فهي ذات طابع تراجيدي خاص يحمل سمات انسانية متميزة بطبيعة ونوعية العلاقات التي تحكم سلوك الفرد والجماعة كما أنها تمثل متنفسا للجيل الذي عاصر الفترة التي حدثت فيها وقائع هذه الرسائل والشخصيات الواردة فيها لما تتمتع به من اسهامات في مجال الفكر والأدب والسياسة...

فالرسائل في حد ذاتها مؤثرة الى درجة استدرار الدموع في المآقي واستدارة عجلة التاريخ في الاتجاه المغاير خاصة اذا علمنا أن الاقلام صاحبة الرسائل قد رحلت عن عالمنا الى العالم الآخر. وان هذه الرسائل هي اعادة كتابة القصاصات من الصحافة السودانية مدونة بتاريخ صدورها للضرورة الوثائقية لأنها تؤرخ أيضا لفترة خصبه من تاريخ الحياة السودانية كما أن الجانب النفسي يمثل القاسم المشترك الأعظم في الرسائل حيث تعكس كل ملامح الوجه الآخر من طبيعة صاحب العلم ولأن أصحاب الرسائل كانوا على موعد مع القدر في أوقات متقاربة مثلما كانوا على وفاق في الحياة في فترات سابقة فهي تعكس الاحساس الداخلي بالتمزق والهاجس اللاشعوري بالرحيل قبل لحظة الغروب بقليل.

فقد كانت شموسهم على درجة من تضوع الضوء ووضوح الرؤية بصورة أدخلت شعاع اقلامهم الى كوى مظلمة في حياتنا الأدبية ومزجت ينبوع كلماتهم في صحاري قاحلة من حقبة حضارية كاملة مازالت ترتوي من فيض فكرهم أكثر وعطائهم المتدفق... وتجد هناك رابطة خفية بين ترابط الأفكار وعافية الحوار رغم أن الرسائل قد كتبت في مناسبات مختلفة وأوقات متباعدة مما يدل على أن ما يجمع بين هذه الفئة من الكتاب الأدباء الشعراء كان جزءا من سلسلة متصلة الحلقات رغم قلة المصادفات وكثرة المفارقات ورغم حس الغربة الداخلي بين النفس والجسد والعقل والعاطفة

ورغم طول المسافة بين المسرة المشعة في سطور الرسائل والحزن المختبىء في دهاليز الداخل.

وقد أوردت هنا رسالتين فقط في مجموعة احتفظت بها في كتاب (خواطر أدبية) ومنها تسجيل لأحداث الستينيات بكل الزخم الفكري الدافق من قلم الشاعر السوداني الكبير المرحوم / محمد المهدي مجذوب والكاتب الأستاذ الجليل المرحوم حسن نجيلة والشاعر الاسطوري المرحوم ابراهيم العبادي والكاتب السياسي المرحوم الاستاذ عمر الحاج موسى ـــ يصدق عليهم قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل هم أحياء عند ربهم يرزقون » صدق الله العظيم.

رسائل مؤثرة

* عفوا استاذي... مازلت « مالكا » في المدينة

لقد هزتني كلمة أستاذنا الجليل حسن نجيله في العدد الماضي حول نشر صورته في الصحافة حين قال « عفوا أبنائي »... لا تفرحوا فان لكم يوما مقبلا تعيشون فيه على الذكريات.. عفواً استاذي قاتل الله ذلك اليوم مستدبرا لا مقبلا تصدق نبوءته.. فقد أصبحت بقايا الكنز والقلة النادرة من ذلك الجيل الذي ما زال قلمه يثري حركتنا الأدبية في عمق التاريخ البعيد الى قمة المنهج الحديث... صدقا وأصاله... ان ابناءك لا يقولون لك « أين أنت اليوم من هذا؟ ولكن أين نحن اليوم منك يا هذا » فان جيلكم منارة هدى تقف في ارتفاع (سنجانيب) في عمق البحر الأحمر ترشد قوافل السفن الثقافية التي تمخر بلا هداية تستمد من بقايا الضوء المشمع في أقلامكم الثره أمل الوصول الى هدف تراه قريبا ونراه بعيدا.

وليسمح لي أستاذي أن أفضي له بسر لا يعلمه غير صديقي شعلة نار المجاذيب الأستاذ محمد المهدي مجذوب وأسطورة العرب الطاغوري في قيثارة الشعر السوداني.

لقد كنا اعضاء في لجنة نصوص الاغاني السودانية عام ١٩٦٦ يكلل هاماتنا

* مقالة للمؤلف نشرت رداً على مقالة أستاذي الجليل المرحوم حسن نجيله ونشرت بجريدة الصحافة السودانية بتاريخ ١٢/٥/١٩٧٧.

غرة شعراء الحقيبة أستاذنا ابراهيم العبادي... وقبل بداية كل جلسة كان المجذوب يضفي من خفة روحه جوا من المرح الساخر عن دنيا الفن يعقب عليه العبادي بذكائه الحاد وبداهيته الحاضرة وذاكرته الموسوعية، وأكثر الحديث يدور حول العمر وفارق السن وكان المجذوب يداعب أستاذنا نجيله مناديا (يا عمي حسن) وكنت أصغرهم سنا وأقلهم حنكة فسألت العم حسن، هل أنت حقا أكبر منه ؟ فأجابني بالحديث المشهور (هو أكبر مني ولكنني ولدت قبله) والحق يقال أن العم حسن أطال الله عمره ومد في أيامه الطويلة باذن الله كان يبدوا وكأنه على وئام مع الدهر لم يلمس بفرشاته الخشنة ملامح وجهه ولم يرسم تجاعيده وخطوطه مثلما فعل في جبيني العبادي ووجه المجذوب.

فقلت للمجذوب مواسيا هل تصدق أن أستاذنا الجليل حسن لا يعلم حتى اللحظة أنه درسني في المدرسة الأولية (بسنجه) فقال المجذوب متلهفا « لا بد أن تفشي هذا السر ليغضب العم حسن فاستحلفته بالله أن لا يفشي سري ولا يفضح أمري وأستاذي ينادينى « صديقنا الدكتور » في رقة المخاطبة التي كسدت سوقها في كل منتدي... وأصبح المجذوب كلما بدأ اجتماع بادرني « قلت كيف يا دكتور »؟ فأبتسم أنا وأخفض البصر خاشعا حتى ضاق العبادي وصاح « ياخي ما تقول حجّوه أم ضبيبنه دي وتخلصنا قبل ما روحنا تخلص مع الجماعة الجاية دي!! والله صحيح لجنة لصوص!

وتشاء قدرة الله أن نفترق بعد نقلي الى عاصمة الجزيرة وظل السر في صدري وذاكرة المجذوب وخلال عشرة أعوام لم أقابل فيها أستاذنا نجيله ولكن صورته قطعا لم تتغير كثيرا بالمقارنة مع مستهل الخمسينات وأذكر له الواقعة التي غرست جذور محبته في أعماق نفسي منذ الحداثة فما زال عندي الأب الروحي وعند الآخرين « مالك » في المدينة.

والقصة أنني وأنا أجلس لامتحان الدخول للمدرسة الوسطى كانت هناك أسئلة حول ملء الخانات الشاغرة ومنها سؤال (التاج محل من الأماكن

المشهورة في... ؟) وملأت الخانات الا اسم ذاك القطر، وكان الأستاذ حسن مراقبا للامتحان فوقف بجانبي وكرّ البصر مرتين في ورقة اجابتي وقال لي « مالك يا ابني »؟ فقلت له : لا أعرف أين القطر ؟ فقال مربتا على كتفي: (الهند) هذه هدية مني... جزاء اجاباتك السابقة وتنفسّت الصعداء وشعرت بعاطفة الأبوة وارتسمت صورته في ذهني بنفس الجلابية والقفطان والعمامة والوجه الصبوح وافترقنا عام ١٩٥٠ في مدينة (سنجه) لنلتقي عام ١٩٦٦ بأم درمان في اجتماع لجنة النصوص وما زاده الدهر الا نداوة وطراوة.

والآن وبعد سبعة وعشرين عاما من تجربة الأستاذ والتلميذ يقدر لي الله أن أعمل في حقل الصحة النفسية ويشاء لي أن أعمل مستشارا للطب النفسي للصحة المدرسية في دولة الامارات بأبوظبي وفي يوم الثلاثاء أطالع كلمة أستاذي في الصحافة ليسألني طالب في نفس الأمسية في ندوة تلفزيونية حول « قضايا الشباب » عن الآثار النفسية للعلاقة بين الطالب والمعلم فيلهمني الله قصة أستاذي والآثار التي تركتها في نفسي بعد ربع قرن من الزمان... وفيها من الحكمة والموعظة الحسنة ما يكفي أجيال المعلمين مؤونة البحث عن سر هذه الصلة في أعظم الكتب.

الا حيّا الله أستاذي الجليل الذي ظن الزمن قد غير ملامح صورته الشمسية ولكنه عجز عن تغيير صورته الانسانية وصلته الروحية مع تلاميذه ومعاصريه.

وآمل أن تسير وزارة الاعلام على نهج فقيد العلم والأدب عمر الحاج موسى الذي سجل (ذكريات العبادي) حفاظا على التراث فتقوم بطباعة ونشر أعمال أستاذنا حسن نجيله وأمثاله من الافذاذ حتى لا تضيع تحت أقدام المتزاحمين بالمناكب فوق السلالم الزجاجية والمتصدرين للمناقب فوق المقاعد اللولبية.

ويذكرني حديثي هذا بأشجان صديقي الفنان عثمان حسين عندما حدثني عن اختفاء أغاني الفنان الراحل ابراهيم الكاشف في مكتبة الاذاعة

التي اكتشفت موهبته بعد وفاته، فتركت أمر جزائه للآخرة ودفعت ثمن عطائه للأفواه الفاغرة.

رجائي أن تأخذ وزارة الاعلام زمام المبادرة بطبع وتسجيل آثار المبدعين من الجيل القديم حتى لا تتكرر المأساة... وقد علمتنا التجارب أننا لا نشعر بقيمة الشيء الّا بعد أن نفقده ولكن فضيلة العمل في البصيرة ودلالته بالاستبصار.

ويقيني أنهم لا تعوزهم البصيرة ولا ينقصهم الاستبصار، والله الموفق.

خواطر *

يقول الأستاذ:

« أكذب ان قلت أن الكلمة العذبة الرطبة التي وجهها اليّ من أبوظبي ابني الدكتور الأديب الشاعر/الزين عباس عماره لم تمس شغاف قلبي، وتهز مشاعري هزاً، كيف لا، وقد أراد أن يدخل السرور على نفسي فبشرني بأنني مازلت شابا... رغم بصمات السنين الطويلة التي عشتها... ولعله لو استطاع لأرجعني والزمان القهقري كما يقول شاعرنا الفحل محمد سعيد العباسي رحمه الله الذي أعداني ببكائه على شبابه النضر، وقد كنا على تفاوت أعمارنا أصدقاء لا نفترق الّا على موعد. وقد كان لبادية الكبابيش التي جمعنا لأول مرة في مستهل الثلاثينات أثرها السحري في عمق المودة التي ربطت بيننا وهو يدلف للشيخوخة وأنا أزهو بالشباب.

وقد أعاد على عليّ ابني الدكتور الزين ذكرى هذا الشباب وهو يقول أنه كان تلميذا لي في مدرسة سنجه الأولية، حيا الله أهلي وأحبتي بها — وليس هناك من سعادة تعدل سعادة المدرس وهو يرى تلاميذه الصغار وقد صاروا رجالا نافعين لأهلهم ووطنهم ثم يلتقون معا في مجالات مختلفة وقد زالت فوارق السن وتضاعفت مشاعر الاحترام المقرون بالود الصادق بينهما.

ولقد التقينا معا — كما ذكر — في لجنة النصوص باذاعة أم درمان التي

* مقالة للكاتب السوداني الكبير الأستاذ المرحوم حسن نجيله نشرت بجريدة الصحافة السودانية بتاريخ الثلاثاء ١٠/٥/١٩٧٧.

خرجت منها بتجربة قاسية، ومازلت أشفق على أعضاء هذه اللجنة من غضب وثورة شعراء الأغنية والفنانين ـــ الذين يصرون على اجازة كل ما يقدمونه مهما كان مستواه ؟

وقد نجوت منها وأنا أقول مع ((أبو نواس)) :

لا أذود الطيـــر عن شجـــر   قد بلوت المـــر من ثمـــره

ولعل (أخي) الشاعر المبدع محمد المهدي مجذوب مايزال يحتفظ بمكانه فيها، ولست أدري ان كان مايزال يمارس سخرياته الحلوة، كما كان يفعل معي متآمرا معك خفية ؟ وأنا أعلم أنه سيغضب وأنا أقول عنه (أخي) وهو يصر على أنني عمه وقد خرج للمعاش بعدي بما لا يتجاوز الخمس سنوات... أقول هذا امعانا في اغضابه، وهو يعلم لماذا ؟

وقبل سنوات كنت عضوا في اللجنة المختارة لوضع مسودة الميثاق الوطني، وكان يجلس بالقرب مني الفنان (الكابلي) من بين ممثلي الفنانين في اللجنة وكنا نثرثر معا أحيانا، فجرنا الحديث مرة عن عهد الشباب... فقال، لقد حصلت على أبيات غنائية لطيفة من تأليف صديقك محمد الخليفة طه الريفي بعد أن (ولى الشباب) على حد قوله... جاء في مستهلها : يسأل (الحب) سؤال استنكار :

هسة جيتني ؟
بعدما ولّى الشباب
والفضل من عمري بس
أصبح عقاب ؟

قلت للكابلي، أرجوك لا تلحنها ولا تغنيها، اشفاقا على من ولى شبابهم وقلوبهم شابة... فما أشقى الذين يدهمهم الحب بعد ذلك... واستجاب لرجائي... هل يعرف أخي (الريفي)... ويذكرنا هذا بشاعر الجلال والجمال (أحمد شوقي) في قصيدته المشهورة... شيعت أحلامي بقلب

باك)... ويقول فيها واصفا قلبه وقد هدأت ثورة الحب فيه بعد المشيب :

واليوم تبعث فيَّ حين تهزني ... ما يبعث الناقوس في النسّاك

وأنا أعرف أنك تحب الشعر وتقرضه، وقد أصدرت من شعرك ديوانين أطمع أن أجد لهما ثالثا من أبوظبي... وأنا أيضا أحب الشعر وكنت أقرضه ثم انصرفت عنه الا نادراً الا أن محبتي له تزداد على مر الأيام، ومن عادتي كلما أحسست بضيق أو كره، عدت الى دواوين من أحب من الشعراء، فأجد في أسفارهم راحة لنفسي... وقد كلفني حبي لهؤلاء الشعراء القدامى منهم أن أخصص جانبا من رحلاتي للبلاد العربية للوقوف على آثارهم، فمضيت الى مدينة (حلب) بسوريا لأعتلي قلعتها العالية والتي تبدو حلب تحتها كأنك تراها من طائرة تحلق من عل... وفي هذه القلعة التاريخية دخلت خاشعا القاعة التي كان يجلس فيها أمير بني حمدان (سيف الدولة) وحوله عدد كبير من العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة مما لم يجتمع حول أمير غيره، يتوسط هؤلاء المتنبي بكبريائه وشموخه وقد اشترط على سيف الدولة الا ينشده شعره فيه الا وهو جالس، على غير ما جرت به عادة الشعراء وممدوحيهم، وخيل الى من فرط تأثري أنهم أمامي في هذه القاعة وأسمع صدى أشعارهم وأحاديثهم.

ومن حلب تسرع بي السيارة لمعرة النعمان لأقف أمام ذلك القبر الصخري الصغير الذي يضم رفاة الشاعر الفيلسوف المستهزىء المحتقر للدنيا (أبو العلاء المعري).

ثم... الى الموصل حيث النصب العالي الذي أقيم حيث كان أبو تمام وقد وقف قبلي في هذا الموضع كثيرون من مقدري شعره ولكن الأديب العربي المصري (عبد الوهاب عزام) استلهم من موقفه كتابا يعد من خير ما كتب عن (أبو تمام)... وأين أنا منه... ويستبد بي الشوق الى (سامراء) أو (سر من رأى) عاصمة الخلافة العباسية في بعض عهودها لأزور بقايا

قصر المتوكل وأقف عند أثر (البركة) التي كان يجلس حولها مع ندمائه ومغنياته، وبين الندامى الشاعر (البحتري) ينشده شعره العذب، ويذكر التاريخ أن المتآمرين على المتوكل وثبوا عليه وهو وندمائه وحسانه حول البركة وقتلوه، وفر البحتري هاربا وعيب عليه هذا، ولكن الاحساس بالذنب جعله يبكي المتوكل في شعر ما يزال يروى... وقادني شعر البحتري في ايوان كسرى أن أذهب الى (طاق كسرى) كما يسمونه في العراق... وكان كسرى هناك والبحتري يبكي على اطلال أيوانه :

والمنايا مواثل وانــو شروان　　　يزجي الصفوف تحت الدرفس

ولكم كلفني جهدا ومالاً على ضيق ذات اليد كلفي بالشعر والشعراء والوقوف عند آثارهم، ولكم حزنت عندما جئت الكويت ممنيا نفسي بلقاء الشاعر المعاصر المجدد (بدر شاكر السياب) فوجدته قد فارق الحياة قبلي بفترة قصيرة ونقل الى قريته (حيكور) بالعراق التي كان يحن اليها ويتوجع، وقد تندت عيناي وأنا أقرأ بعض شعره وقد حانت منيته، وخاصة قصيدته التي كان يبكي فيها أيامه بالعراق وخيل اليّ وهو يردد في أكثر مقاطعها (عراق... عراق... اني أسمع أناته وهو يكرر كلمة (عراق) ويمد الألف متحسرا... ويذكرني (بآهات) خليل فرح في ختام أغنيته الوطنية (عزة) فهل لك.

ماذا أريد أن أقول هنا ؟ لست أدري، فان من عادة المدرسين يكثرون من الحديث وينشرونه أشتاتا، وأنا منهم.

أرجو أن أراك في الخرطوم وأنت تحمل ديوانك الثالث، معافى من كل ما يسوء ».

* رسالة الى (عمر)... في العالم الآخر

من رعشة التاكا
وحزن الغاش
وولولة بنات كسلا
وبحة الأوتار الباكية في قيثارة الأسى
ويحي عليك يا عمر...

تغشى قبرك شآبيب الرحمة وتسند رأسك وسائد الغفران وأنا أحد قوافل المحزونين... أحدِّث نفسي بما يخالج نفسي... فلا أصدق... وأتحسس جسدي وأكاد ألمس رأسي فأقول لك :

مالي أحس بأن الريح تخنقني — وأن نبأ حديث النعي مكذوب
وان كل شموس الأرض قد كسفت — وأن ضوء أب الشمسين محجوب
وأن عمر خطيب القوم قد ولى — متهدج الصوت لا نغم وتطريب
وأن عمر كتاب العلم نفتحه — ينداح فوق صحائف المنقوشة الطيب
وأن عمر لتأتم البلاد به — ابن القبيلة بين القوم محبوب
وأن عمر لتبكيه الرجال دما — ملء الجفون وقدر الموت مكتوب

* مقالة مرثيه نشرت للمؤلف في الذكرى الأربعين لتأبين الأديب الكبير الأستاذ عمر الحاج موسى ونشرت في عدد الصحافة الخاص بهذه الذكرى الحزينة.

والحق طوق رقاب العارفين له والأجر عند إله الكون محسوب
وأن جيلا غدا يمشي بسيرته مهما طوى السفر فالتاريخ مكتوب
واحسرتاه يا عمر

من خلال عشرين عاما هي فترة معرفتك لي وعمر صلتي بك منذ كنت قائدا لسلاح الاشارة ببحري تصدر (مجلة الاشارة) أول مركز اشعاع ثقافي في مؤسسة عسكرية كنت أزورك وتترك لي ورقة بخط يدك (يسمح له بالدخول لمقابلة عمر الحاج موسى) بلا رترش ومقدمات فأجد عندك من صفاء الحديث وصفوة الكتب وظل الصفصاف ما لا يتوفر لي بدون مساعدتك وحتى بعد الانقلاب العسكري عام ١٩٥٨ ونحن نكتب شعر المقاومة ضده ونرفع الملصقات في جدران الجامعة كنت تناقشني كأديب وتحاورني كسياسي حول (نوفمبر... الشهر العاطل) وتجادلني بالتي هي أحسن... وكان بوسعك وبحكم وضعك أن تفعل بي ما تشاء أو توعز لمن يحسن اداء المهمة فلم تفعل لا تلميحا ولا تصريحا ولم تقدم لا في السر ولا في العلن فارتفع رصيدك من المثقفين داخل الجامعة لو أحسن النظام استغلاله لتجاوز محنة الجامعة، ولكن أدركه قول أبي القاسم الشابي :

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

وفي فترة خلودك للراحة قبل ثورة مايو الاشتراكية كنا نزورك في منزلك في مكتبتك الواسعة التي أثرت فكري وفتحت ذهني على كنوز المعرفة التي ما كانت لتتوفر لأمثالي الذي يستنكفون طرق الأبواب المسوّرة بالأشجار الخضراء في أرقى الأحياء ويهيمون في الطرقات الخلفية مثل « عبقرية جماع » (يتأبطون أشعارهم كالطفل اللقيط ولا يعرفون بيت « عمر »... فكان عمر آنذاك في رحم الغيب وبيته معلقا في السماء فليت (جماع) عرف أمثال عمر لكان اليوم بيننا واختصر رحلته الطويلة الى الوادي المقدس طوى... وجنينا نحن ثمار غربته خلف أسوار عزلته النفسية لأن عمر كان يجلس على مقربة من الباب فيأذن للداخل قبل أن يفكر في موقع جرس الباب.

وبعد اندلاع ثورة مايو الاشتراكية وأنت وزير للدفاع في الزي الزاهي بالمسؤولية، الزاهد بقناعة التواضع كنت تدعونا لأن ندخل اليك من بوابة القصر الجانبية بلا بطاقة ونتصل بك هاتفيا بلا وسيط يجيد فن المماطلة وحرج المجادلة وتأذن لنا بالدخول ونشرب معك القهوة ولعل قلبك الكبير الذي كان يتسع لما يقوله الناس من فظ الحديث وحرج التعبير هو الذي سد الشريان التاجي الذي يمد ذاك القلب بنبض الحياة... فالذي يجعل قلبه بحيرة صفاء تصب فيها شلالات هادرة... أو قطرات باردة... فتفيض حتى تتآكل من الداخل بقوة الاندفاع... يموت بعد خطبة الوداع.

وأنت وزير للاعلام... وضعت خلف ظهرك لوحة (لو دامت لغيرك لما آلت اليك) وما زالت تلك الكلمات ترن في أذني كأنها تخرج من مئذنة معلقة فوق رأسي... فأصبحت قدري في الحياة... وكانت شعورك في العمل... وعندما بدأت أجمع ديوان (مع رياح العودة) وجدت عندك نصف ما ضاع من شعري مرتبا في كراستك (قصاصات من الشعر السوداني) وذهنك مثقل بجراحات المسؤولية بدأت تكتب لي المقدمة وفاء لي واحتفاء بي شأنك مع صاحب كل حاجة... ولعل الانفتاح الثقافي الذي أضاء دهاليز الوزارة المعتمة وجدد شبابها يرجع الى حقن شرايينها المتصلبة بأكسير الحياة... ونفضت عنها غبار العناكب العالقة بالرؤوس والنفوس ومنحتها في مكتبتك خير التراث وحلال الميراث وخرج الديوان في بيروت فوجئت بعدم شرائه وأنت أسهمت في مقدمته خشية أن تعلن عن نفسك من فوق منبرك وكان نصيبي من معاملتك أن جنيت ثمار حكمتك وعرفت أن العذر الجميل خير من المطل الطويل.

وعند سفري الى لندن لم تقطع حبل الود بيننا وكانت بطاقات الشوق وكروت المعايدة مهر الغربة الذي دفعته لنا من وقتك وجهدك الخاص وأنا قطرة في محيط الصداقات ولم ينقطع منك العشم يوما ولا دب الندم... وكنت ترجوني أن أكتب اليك بلا ألقاب في وقت كان سقوط اللقب من رسائل صغار الموظفين يعني الحرمان من المقابلة أو التجريح في المجاملة

وانقطاع المراسلة... ويشهد الله أنني من خلال عشرين سنة لم تصلني منك رسالة بتذييل أكثر من ثلاثة حروف... عمر... عارية من رونق الضيافة وخالية من حلية الشرافة.

وفي زيارتك الأخيرة لدولة الامارات الشقيقة التقيت بك في أبو ظبي... في منزل الصديق علي شمو... ملتقى الصفا... الظل الوارف والصنو العارف... جسر العبور بين السودان والخليج وسألتني لماذا توقفت عن الكتابة وقلت لك ماذا أكتب ؟ فعاجلتني ببداهتك المعهودة وبشاشتك المشهودة... « أكتب لنا أنك لا تعرف ماذا تكتب » وفعلا كتبت مقالتي الأخيرة حول (الهجرة) وفيها بعض جوانب الحوار الذي دار بيننا... وتقدرون فتضحك الأقدار... وتشاء قدرة الله تعالى أن تظهر مقالتي في نفس العدد الذي يحمل صورة جثمانك محمولا الى مثواه الأخير.

وفي زيارتي الأخيرة للخرطوم تذكرت وصاياك قبل ساعات من عودتي الى أبوظبي قائلا :

« أحمل التحايا للأخوان... وقل لهم أنتم في القلب والخاطر... ما رحلتم عن البال ولا غبتم عن الذاكرة وطمئنهم أننا تجاوزنا « هموم المرحلة » وقلت لك « أراك مرهقا يا عمر...» فهل استنفذت طاقتك أم استبقيت شيئا؟ والله على ما أقول شهيد على قولك:

« لقد سمعت هذا التعليق كثيراً ولعل وفاة بعض اخواننا الأدباء في الآونة الأخيرة جماعات « بالجملة » جعل الناس ترى الموت في كل منعطف... فلا تدخل الخوف في قلبي... والأعمار بيد الله... ولا تحلل نفسي فأنا أحمل قلبي في قلمي ومن الاثنين أستمد بقايا العافية.

فودعتني وأهديتني خطبتك في مؤتمر كسلا موقعا « أخي الزين... كيف ترى هذا ؟ وأرسلت لك مع الصديق مندوب المؤتمر في أبوظبي أطلب منك نص خطابك في المؤتمر الأخير... وقبل أن ترى ما رأيت أنا في خطبتك الأولى وقبل أن أسمع ما قلت أنت في خطبتك الثانية أسدل ستار النهاية...

اعذرني يا عمر أن كتبت في غيبتك ما أعرضت عنه في حضرتك... وحق الغائب في ذمة الحاضر... واعذرني ان فشلت في كبت ما يفتعل في نفسي تجاه مواقفك المليئة بالمثيرات حزنا ومسره... مما شل قدرتي في الكتابة بطلاقة كنت أظنها عندي وبسلاسة كنت أحسبها ملكي... وبقدرة كنت أودعها قدري... ولكن عندما تكون قوة الفاجعة أكبر من حجم الواقعة والمفقود أغلى من أول مولود يصبح الحديث خطرفة، والعزاء مناحة وكثرة الصياح أبلغ دليل على عمق الجراح... ولكن صوت الثاكلة أطول من حبال حنجرتها ودموع النائحة أكبر من حدقات عيونها.

ألست أنت القائل « وعندما يحب المرء فلا سدرة لمنتهاه فالحب كالطيب وللطيب افتضاح » ولقد انكسرت قارورة العطر وافتضح الطيب واختلط بحبات التراب التي ارتفعت فوق قبرك جبالا من الكحل ما زادت العيون سحرا ولا اتساعا بعد أن ملأتها الدموع وضاقت حدقاتها بالورم... ولا زادت الوجوه جمالا بعد أن جللها السواد وضاع منها الرواء... فارتجفت كل فاصلة من حروفي وارتعش كل مقطع من كلماتي... وبعد ربع قرن من نظم الشعر يخذلني القصيد يا عمر... وتهرب مني قافية الرثاء... فما كنت أحسبني أحيا الى زمن أرثيك فيه وأنت تختم رسائلك بعبارة (أتمنى لك العافية) وتبخل بها على نفسك حتى أننا لم نتعود أن نقرن الموت باسمك في ذاكرتنا من فرط ما شبعنا منك بأمنيات العافية لنا... توزعها على الناس حتى آخر قطرة منها... ولم نتخيلك محمولا على الأعناق وكنت تحمل في أكتافك عبء الصلح والوفاق وفي صدرك وزر الصحب والرفاق... وفي قلبك اتسعت ساحة المحبة تنبض شفافية وتفيض حساسية حتى ضاقت بالناس مثل مسجد الحسين في كربلا... فلا موطيء لقدم ولا شبر لنعل... والناس يتأبطون العصا والحذاء... والصحيفة والحقيبة... صفوفا أمام مكتبك وقوافل أمام دارك... وقلائد محبة حول عنقك... يلتفون حولك في كل منتدى ويحاصرونك في كل ملتقى فما عميت قلوبهم الا بحبك... وما اشرأبت أعناقهم الّا لرؤيتك فجمعت بين النقيضين في حبل مودة وبين العدوين في فنجان قهوة وألفت لدودا يقدح وودودا

يمدح فما زاد اللدود الّا قناعة بخيبة مسعاه وما زاد الودود الّا وصولا لسدرة منتهاه.

ويحي عليك يا عمر...

فقد كنت كالظل الوريف... وظلك تدور حوله الشمس ولا يدور معها... فان بزغت من الشرق كان المغرب في جهاتك الأربع وأن طلعت من الغرب كان الشرق حول رحابك الأوسع وأمامك ظل... وخلفك ظل... يا شجرة العطاء... ولا ظل لمن لم يستظل بك في هجير حاجته وساعة شدته فقد فاته القطار... وقتله الانتظار...

اليوم يا عمر... أحاور الشعر ساعات فيغلبني وكان عندي أقرب من حبل الوريد... كالموت أرقبه... وكالحق أطلبه... والآن ما من قافية طرقت بابها الا وصمتت وما من بحر ركبت موجته الا وهربت وما من وزن لويت رقبته الا وانكسرت... وبقيت أعزل من كل وسائل الرثاء الا أبيات تجيء سهلة وتهرب غفلة وأقول لك :

لا البعد ينسيني ولا الصبر ينفع ولا الدمع يجديني ولا أنت ترجع
وقد حملت نفسي جراحا كثيرة ولكن جرحك لا يطيب ويوجع
ولو سطرت ديوانا من الشعر كاملا لكان أقل جزاء عند مثلك يشفع
وكان بودي أن نكون جماعة تخر جباها صاغرات وتركع
كتبت رثائي فيك يا عمر قانعا بأنك تحت الأرض تصغي وتسمع

وعندما سقطت... سقطت شجرة الأدب في بلادي... فالذين ينحتون الكتابة في أوراق البردي بأقلام البوص جف مدادهم... والذين يطرزون حروف الشعر المترفه في قطيفة من حرير أدمى أصابعهم وخز الابر المكسورة بين السبابة والابهام والذين يمزجون أحاديثهم بعصارة أفكارك انفرط عقدهم ونضب معينهم في مجالس الأنس والكلام.

ومت يا عمر ميتة جمل الشيل... يقتله الظمأ والماء فوق ظهره

محمول... يأكل أقدامه هجير الرمضاء في عرض الصحراء... ويئن تحت وطأة الحمل حتى اذا شارف مدخل المدينة وحط رحاله تحت شجرة المنتهى بقلب راض... يقطر دما من الداخل ونفس حزينة تفيض بشاشة من الخارج... راح في سبات عميق... وأسلم الروح الى بارئها.

لقد أديت الأمانة وبلغت الرسالة وأنا لفراقك لمحزونون... ولا حول ولا قوة الا بالله.

السائرون تحت المظلة الكيمائية

لعل فئة غير قليلة من الناس تعلم أن كثرة غالبة منهم بدأت تلجأ الى استعمال المهدئات والعقاقير الطبية بصورة مستديمة معتذرين بأسباب قد نجهل سرها أو أمراض يستعصي أمرها أو ظروف يتفاوت قدرها ولكنهم دخلوا (الدوامة) وهي تدور بهم كما قال المتنبي :

وفي الناس أمثلة تدور حياتها كمماتها ومماتها كحياتها

ورغم أن المتنبي لم يعاصر حضارة القرن العشرين التي أفرزت مستحضرات الطب الحديث فان المتأمل في بيت الشعر يدرك الدلالة الموضوعية في (دور الحياة) التي يتحدث عنها رغم اختلاف الزاوية التي ينظر منها.

وظاهرة تعاطي المهدئات تحت وطأة حاجة طارئة... أو مجاراة تقليد أعمى أو بدافع التعود أو لحظة التأود هي المحنة التي يجب أن تنال من العناية أضعاف ما تمليه طبيعة الوقاية لصحة الفرد والمجتمع.

ان الفرد الذي يتحرك بقفل مقيد بسلاسل المهدئات وقلب أعمى من تخدير المنومات وعين نصف مفتوحة والنصف الآخر ممتلىء بالأقراص المضادة لخميرة الوعي... هذا الفرد عاجز عن الحركة وان كان يمشي على قدمين ويقود سيارة تمشي على الآخرين ويوقع أوراق رسمية تقرر مصير الآخرين ويحرر فواتير تجارية تحدد أرزاق الآخرين وأخيرا يقود

مركبات عامة تحمل آمال الملايين من البشر في طرقات مختلفة بصورة تتحدى حواس الرجل الخارق.

قبل عشرة أعوام خلت كنت أقدم برنامجا تلفزيونيا بعنوان (أضواء على النفس البشرية) يتناول قضايا الصحة النفسية وكانت الندوة عن (الطاعون الحديث) وهي ترجمة تقرير الصحة العالمية عن حوادث الحركة وكان يشاركني الندوة الزميل الكبير الدكتور / طه بعشر والأستاذ علي يسن حكمدار الحركة في مديرية الخرطوم، في ذلك الوقت وأذكر أنني ذكرت بالتحديد ظاهرة تعاطي المهدئات كظاهرة حديثة لا تقل خطورة عن المخدرات وما خامر العقل من خمر وخمائر وخمارات هي في الأصل تحت طائلة القانون... وظن البعض أن البرنامج قد كان يخدم قضايا مقدميه أكثر من حاجة مشاهديه وكان دفاعي أضعف الايمان بيت الشعر القائل:

فان يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللائي سررن ألوف وتتسع دائرة الضوء فتشمل نخبة من المهتمين بالقضايا الاجتماعية والنفسية... واستمر البرنامج حتى تركته طلبا للعلم بالخارج.

والآن بعد عشرة سنوات من تلك الندوة نجد الظاهرة التي أشرنا اليها حقيقة تفرض نفسها على كل مستوى وحدثني صديق حميم قائلا (ان الناس أصبحت تبلع الحبوب كالطباشير) وبقدر ما ارتفع دخل العيادات الخاصة بقدر ما هبط بنفس المعدل مستوى الدخل العام للفرد الذي يتعاطى هذه الحبوب... (ومصائب قوم عند قوم فوائد) ولا أود أن أشير الى كيفية الحصول على هذه العقاقير فهذه ليست قضيتي ولكن اهتمامي ينبع من انتشار الظاهرة بين فئات مختلفة من الشباب وحتى المتقدمين في السن.

حقيقة أن ضغوط الحياة في الربع الأخير من هذا القرن قد أضفت بعدا جديدا الى بؤرة ضياع أمن الفرد النفسي وقدمت هيئة الصحة العالمية تقارير متعددة تشير الى انتشار هذه الظاهرة خاصة بين الفتيات والنساء والطلبة الذين يدورون في حلقة مفرغة بين الأقراص المنشطة للمذاكرة والأقراص المهدئة للنوم حتى تآكلت تروس الساعة البشرية التي تسير عدة أعوام بلا

قطرة تشحيم أو وقفة تقويم... وتشير التقارير الى ظاهرة القلق وسفر الشباب... الخوف من الامتحانات... التطلع الى المستقبل... الطموح للوظيفة... الرغبة في الزواج... وطول فترة المراهقة حيث يصبح الفتى بيولوجيا في سن الرجولة ويظل اجتماعيا قاصرا في مرحلة الطفولة.

وأضيف الى ذلك ضعف الايمان... ان متطلبات الحياة العصرية الفورية تولد في الفرد شعورا بعدم الطمأنينة وكما يبحث المريض عن طبيب مقتدر يبحث الخائف عن أمن مستقر لا يتوفر بتناول المهدئات والانسان بحاجة الى جرعات من الايمان... أعمدة ثابتة يبني عليها مستقبل حياته خوف الانهيار وأضيف الى ذلك خصائص الحياة وافتقارها للحب والتقدير الاجتماعي... ان الناس في سباقهم المحموم غير المتكافيء الى غايات مختلفة بطرق مختلفة جعل في مسرح الحياة معركة غالب ومعلوب فانتشر التنافس الضار الذي لا يحترم الفوارق الضرورية والاستعدادات الفطرية التي تميز بين الناس في صراعهم من أجل البقاء... فأصبح هجير الحياة المحرق في رابعة النهار يحتاج الى مظلة شمسية وأصبح قلق الانسان المتجدد في هزيع الليل يحتاج الى مظلة أمن نفسية، وبعد أن كانت الحياة تسير على النهج القويم وقوله الكريم (وجعلن الليل لباسا وجعلن النهار معاشا)، أصبح الليل والنهار دوائر متصلة من أجل تأمين لقمة العيش... ففشلت كل المظلاّت... ولجأ الناس الى المظلة الكيمائية يسيرون تحت غطائها المكشوف... فامتلأت بطونهم بالمواد الجيرية فأصابهم عسر الهضم وضعف الشهية واكتظت عقولهم بشحنات فسيولوجية عطلت حساسية المراكز العليا... وكانت النتيجة تلفا في صمام الأمان الذي ظل محتفظا بقدرته على التأثير بالضغوط الحياتية والتأثير في الانفعالات النفسية بصورة تتميز بالدقة والانضباط.

اننا لا نقصد قطعا تعاطي المهدئات والعقاقير الطبية تحت الاشراف الطبي المنتظم لعلاج القلق والاكتئاب وكل افرازات العصاب العصري ولكننا نشير الى خطر السير تحت المظلة الكيمائية الذي يغريه خداع التصور لدى الفرد في لحظة ضعف تحجب عنه الأشياء الجانبية وتسطح

أمامه الطرق الوعرة المحفوفة بالمخاطر على أنها أقصر الطرق للفردوس المفقود وأخطر من هذا... الذي يسير تحت المظلة الكيمائية لن يستطيع الحركة في أي اتجاه بدون هذه المظلة والتي لن تتوفر له في كل الظروف كما حدث لصديقي الذي فقد عصاه السحرية في احدى رحلاته خارج البلاد ـــ وعاش لحظات ضياع قلت له فيها قول المتنبي :

هنيئا لك العيد الذي أنت عيده   وعيد لمن سمى وضحى عيدا

وعندما عاد كان يردد (ما أحلى الرجوع اليه) وقلت له

الا هل بلغت اللهم فأشهد   ولا تزر وازرة وزر أخرى

وكأني به يقول لي :

لكل امرىء من دهره ما تعودا   وعادات بعض الناس تورد للردى

مع تمنياتي له بطول العمر وهو يسير تحت مظلته الكيمائية.

الفصل السابع

* نظرة في التربية

١ ـ طواحين الفراغ

٢ ـ الوقت أغلى من معدن

٣ ـ نعيب زماننا

٤ ـ أثر السلوك الجماعي في تكوين الشخصية

طواحين الفراغ

ان الايحاء النفسي لكلمة (الفراغ) يحدث أصداء متباينة في نفوس الأفراد ويكتسب الصدى ايقاعا خاصا من شفافية نفسية الفرد المتأثر بقوة الايحاء. وذات هذه الخصوصية هي العامل الفارق بين شخصيات الناس... (الفراغ) عند البعض شعور بالانعتاق من دوامة العمل والانطلاق الى رحابة الحرية... حرية نسبية معتدلة تحترم حقوق الآخرين أو مطلقة تتجاوز كل المعايير (والفراغ) عند البعض شعور بالضياع في متاهة مجهولة: كالسير في الظلام أو الصراخ في صحراء أو الانتظار فوق قمة جبل... (والفراغ) عند البعض وقفة قصيرة في رحلة سير طويلة... محطة عابرة في قطار الحياة... الوقوف فيها لا يعني تعطل القطار... والنزول عندها لا يستوجب قطع الرحلة... والبقاء فيها يعني فقدان الرغبة في وصول الهدف.

علميا الفراغ ضد الامتلاء... نقيض غريزة الأشباع... وطبيعة الحياة العمل على ملء الفراغ... في البر والبحر... في السطح والفضاء... ومتى حدث فراغ أوجد ناموس الحياة له البديل المناسب من ذات جنسه ولونه ومادته... أليست الحياة والموت... عملية تفريغ للكون واعادة ملئه بالبديل المغاير، هذا في مجال الفراغ المادي أما الفراغ النفسي فهو شعور الانسان باختلال التوازن الداخلي وبالتالي عدم القدرة على الاحتفاظ بالتوازن الخارجي... وفقدان السيطرة على عجلة القيادة... فيصبح كالريشة في مهب الريح... قد تسقط... فتغرق في البحر أو تتحطم على جبل أو

تحترق في النار أو تبقى معلقة في الفضاء وكل هذه المواقف حالات ضياع.

وغريزة الانسان تبحث عن مثير خارجي... واذا افتقدت المثير الخارجي... تحاول التعويض بمثير داخلي كحك الجسم أو هرش الشعر أو احداث أصوات أو تحريك أعضاء الجسم وعمليات (انعدام الوزن) لدى رواد الفضاء أو (غسيل المخ) تتم تحت تأثير أحداث فراغ أو فجوة في عقل الفرد بحرمانه من المثيرات الداخلية والخارجية في كبسولة مغلقة أو زنزانة منفردة لدرجة تجعله متعطشا لأي مثير وقابلا للايحاء لملء هذا الفراغ... بأفكار جديدة أو مركبات جاهزة لأن من حكمة الخالق في تسيير الحياة ملء الفراغ وبما أن الانسان قد وصل مرحلة من السلوك الراقي المميز عن الحيوان والتحكم على الاستجابة السريعة للمثيرات الخارجية التي تشغل حواسه الخمس... السمع. البصر. واللمس. والشم. والتذوق فانه يبحث عن هذه المثيرات بغريزته الفطرية بشتى الوسائل الممكنة ومن هنا تتضح خطورة الفراغ في حياة الانسان في كل مراحل العمر.

آثار الفراغ

وخطورة الفراغ تتجسد في حالة اقترانه بالعطالة... عدم وجود عمل يشبع هذه الرغبة... وينشط هذه الحواس... فيقع فريسة استجابة الحواس للمثيرات الخارجية الموجودة في البيئة وما لم تكن هذه المثيرات مدروسة ومشروطة وملتزمة وهادفة بحيث تناسب حاجاته وتلبي رغباته في حدود الضوابط الاجتماعية والأخلاقية وجد نفسه تحت رحمة طواحين الفراغ... والتي تطحن الفرد ناعما حتى العظم والنخاع...

ان التجارب العلمية أثبتت أن حرمان الفرد من المثيرات الخارجية وهي أكثر حدوثا في حالات الفراغ وظروف العطالة والعزلة الاجتماعية والبعد عن الترويح النفسي بالنشاط البدني أو الكدح الذهني كالقراءة والمطالعة

(وخير جليس في الأنام كتاب). يتعرض الفرد الى نوع من الاضطرابات النفسية والسلوكية تؤثر على شخصيته وان هذا الأثر يتوقف على التوقيت والمدى ودرجة القوة ومدة الحرمان من المثير، وفي المقابل نجد أن تعرض الانسان لعدة مثيرات خارجية شديدة غير منضبطة يمكن أن تحدث آثارا مماثلة في الاتجاه المضاد... اذن كثرة وشدة الاثارة تؤديان الى نتائج مماثلة لفقدان أو كف الاثارة تماما (والانسان رهين برباط الوسط) بداية بالكبار الذين يتعرضون للتعذيب البدني أو النفسي نهاية بالأطفال المتخلفين ذهنيا نتيجة حرمانهم من نعمة الحواس... كالصمم والبكم والعمى والمحرومين عاطفيا نتيجة فقدان الأم أو حنان الأسرة.

اننا نستطيع ملاحظة اثار الفراغ الحسي والمعنوي في الطفل والمراهق والراشد والكهل فالطفل يحتاج الى اثارة خارجية داخل سريره الصغير واذا لم تتوافر يبدأ في أحداث هذه الاثارة ذاته بأصوات المناغاة والهديل والحركة العشوائية في محيط دائرته. واذا تكررت التجربة كما يحدث لأطفال الملاجيء فقد يتدهور النمو الجسدي والنفسي بدرجة ملحوظة... وعند المراهق نلاحظ أنه يبحث عن المثيرات الخارجية لدرجة تصل الى الخروج عن طاعة الأسرة والمجتمع والسلطة وما لم يتوافر هذا المثير بطريقة مشروعة ومقننة يقع بين فكي الرحى... وتطحنه طواحين الفراغ لا يبقى منه الا الأجزاء المفككة من بقايا شخصية مضطربة وهذه قضية تربوية تطرق أبواب كل البيوت... وعند الشباب نلاحظ المعاناة من الفراغ نتيجة عطالة حقيقية أو مفتعلة. مكشوفة أو مقنعة يمزقه نفس الشعور بالحرمان ويدفعه الى ملء هذا الفراغ بمثيرات سلوكية مضطربة أو نشاطات بيولوجية حسية ضارة بنفسه والمجتمع أو أمراض نفسية طاحنة كالقلق... والاكتئاب... والتوتر... ونلاحظ الكهل الذي أصبح كالطفل... كثير الشكوى... شديد التمارض... وشد الانتباه... وتأكيد الذات خشية غفلة الأسرة داخل البيت، اذن الفراغ لدى الطفل الصغير والمسن المجهض مأساة العاجز وعند المراهق الموتور والناضج المغرور ملهاة المعتذر فبينما يحتاج أولئك الى توفير بدائل لملء الفراغ يحتاج هؤلاء الى ترشيد جهود

امتصاص وقت الفراغ. الى سد ثغرة الانزلاق من الفجوات المتعددة في تركيبة المجتمع.

العلاج بالعمل

ان علاج الفراغ يتحقق في شرف العمل. للرجل والمرأة، داخل البيت وخارجه... العمل اليدوي أو الذهني والعمل لا يعني قتل الوقت بأي وسيلة لأن ما يتبقى من ساعات الوقت الضائع اذا أسيء استغلالها تكون كافية لتخريب انجازات العمل المثمر الذي استنفذ معظم سنوات الوقت الأصل. وغاية العمل تحقيق الجهد الذي يلبي حاجات الفرد بحيث يشعر عند نهاية العمل أن طاقاته قد استنفذت بشكل مثمر لم يعد فيها فائض يسبح به في بحار فراغ جديد... فالانسان يولد على الفطرة... ومسؤولية الدولة والمجتمع والمؤسسات والمدرسة والمنزل تشكيل هذه العجينة... واختيار العمل المناسب الذي يساعد على اشباع الرغبات... ان القدرة أو الاستعداد على عمل ما لا تظهر وحدها بل تحتاج الى تهيئة الظروف المناسبة التي تساعد على ظهورها... فالطفل ذو الموهبة الفنية لا ينتظر منه أن يظهر ميلا الى الفن الا اذا توافرت لديه الظروف المناسبة لاظهار موهبته... والحقيقة الثابتة أن عدم وجود رغبة معينة لدى الشخص لعمل ما لا تقوم دليلا كافيا على عدم استعداده في هذه الناحية أو عدم توافر القدرة الكافية لاكتساب الرغبة في العمل. ان لذة النجاح تترك أثرا ملحوظا في تكوين الرغبة... فالشخص الذي يقوم بعمل من الأعمال لأول مرة يترقب نتيجة ويتأمل شعوره أثناء العمل فاذا كان سارا رغب في تكراره طمعا في تكوين المزيد من المهارة والشعور بالنجاح... ويتوقف نجاح الفرد وفشله في العمل على بعض العوامل مثل الاستعداد الخاص وشعوره بأهمية العمل الذي يقوم به ومدى استفادته منه وما يقدمه له من العون على حل مشاكله ويذكر بعض الطلاب عدم حبهم لبعض المواد نتيجة جفافها واخفاقها في حل قضاياهم أو ربطها بحياتهم اليومية كما أن الشباب الذي يعاني من الفراغ يبحث عن العمل الذي يثير فيه غريزة التحدي لقدراته في التحليل والمقارنة والاختيار

وحل صراعاته القائمة بين القيم القديمة والجديدة، كما تستنفرهم الأنشطة الموجهة لامتصاص طاقاتهم في العطلات الصيفية والاجازات الدورية... واذا أدركنا أن هذه الطواحين ستبدأ في الدوران بعد قليل في موسم الفراغ فان تنمية ورعاية قدرات الشباب فكريا ورياضيا واجتماعيا وترشيد الاتجاهات التعاونية وتزويد دور الاندية بالاتجاهات العلمية وتحبيب روح العمل وتوفير أدوات الانتاج اليدوي والفكري يثير رغبة الشباب في الاسهام في الخدمات الاجتماعية، كمحو الأمية، خدمة البيئة ومعسكرات العمل ليس من أجل الكسب المادي المتوافر ولكن من أجل التقدير الاجتماعي المفقود وهذا ما يسمى « العلاج بالعمل » فاذا كان هذا هو البديل الوحيد للمرضى في المستشفيات فهو أحد البدائل المتعددة للأصحاء في المجتمع...

الوقت أغلى من معدن

منذ أيام، دارت داخل كل بيت وفي محيط كل أسرة وفي نطاق كل جماعة، داخل وخارج ساحة العمل والمنزل معا، معركة مصيرية حاسمة تشتغل كل الوسائل المشروعة للانتصار... ويبقى السلاح الوحيد والفعال المؤثر في النصر أو الهزيمة عامل الزمن... قيمة الوقت... ورب صدفة خير من ميعاد فقد كان المفروض أن يكون التوجه بهذا المقال وبنفس العنوان في اتجاه مغاير تماما في الشكل متشابه نصا في المضمون ولكن ايمانا بحكمة (لكل مقام مقال) فقد جاء المقال في مقام وقت الامتحانات السنوية للطلاب أحد أكبر اهتماماتي الحياتية في مجال العمل والأسرة وكما قال الشاعر :

لا يعرف الشوق الا من يكابده　　　ولا الصبابة الا من يعانيها

تعاملنا مع الزمن :

وموقف الامتحانات جعل كل فرد يتساوى في اهتمامه بالموضوع ويتفاعل في احساسه بالنار التي يقف عليها حتى ينقضي الوقت المحدد لهذه المعركة وتبدو قيمة الوقت أكثر وضوحا للذين يقدر لهم أن يكون مصير النتيجة مرتبطا باللعب في الوقت الضائع حيث تعادل الثانية الواحدة وقتا مقداره خمسون ألف ثانية في عمر الطالب وحياة الأسرة ومستقبل المجتمع.

وقد جاء المدخل الى الموضوع متزامنا مع لحظة المخاض وساعة الولادة والتي يكون الفارق فيها بين حياة الطفل السابقة واللاحقة هي بضع دقائق يخرج فيها من الظلمات الى النور، وهنا يحضرني القول المأثور (الوقت من ذهب) ومع العلم المسبق بأن المقصود من هذا الاستدلال على أهمية الوقت في حياة الانسان وهو كذلك مؤشر لنوعية الاهتمامات باختلاف الزمان الذي قيل فيه حيث كان الذهب يمثل أغلب طموحات الفرد ورمزا للثروة والجاه والسلطان وبعكس التحول الحضاري الكبير في حياة المجتمعات وفكر الأفراد حيث لم يصبح الذهب أكثر من معدن نفيس له وزن بالجرام وسعر بالعملة الصعبة ولكن بالمقابل وصلنا مرحلة من حاسة التقويم للمعادن حسب حاجة المجتمع الاقتصادية والسياسية ينافسه فيها البلاتنيوم (الذهب الأبيض) أقل نصوعا وأعلى قيمة واليورانيوم أقل فائدة للفرد وأكثر خطورة على العالم من القنابل النووية والاشعاعات الذرية، وقس على ذلك أهمية بقية المعادن الأخرى وتبقى أهمية الذهب فقط للاستدلال.

نظرة خاصة :

لقد أدّى فارق التحول الحضاري الى تغيير نظرة المجتمع نوعيا فأصبح الاهتمام بالذهب من شؤون المرأة في أكثر الأحيان للحلية أو الادخار بينما لا يمثل عند الرجل الا وسيلة استثمار شرعية لا تصب مباشرة في بؤرة اهتمامه الشخصي، الا من خلال ملاحقة الزوجة برغبة اغتناء أكبر قدر ممكن للزينة (وكل اناء بما فيه ينضح) وهو بهذا المقياس ترف اقتصادي لا ترتفع قيمته الى قيمة الوقت الذي أصبح فيه أغلى من معدن ولا يقدر بثمن.

ويبدو أن من أكبر مشكلاتنا أننا لا نتعامل مع الوقت بأسلوب متحضر، ولعل الفارق الاستراتيجي بين المجتمعات المتقدمة والنامية ــ الى جانب عوامل هامة أخرى ــ هو نظرتنا لعامل الوقت... ويحضرني في هذه

المناسبة أنه قبل عشر سنوات وفي نطاق تجربة طائرة الكونكورد البريطانية التي صنعت في محاولة للانتصار على معركة الوقت كان يجري الاستعداد لاستقبال الطائرة في رحلة تجريبية لما وراء البحار في مطار البحرين الدولي، وذهبنا مع جماعة من الأخوة لمشاهدة هذه التجربة الرائدة على أرض قطر عربي له مطار ذو مواصفات عالمية تستوعب هذا الديناصور الجديد... وساعتها قال لنا أحد طاقم الطائرة « أننا بعد أن قمنا بهذه التجربة نشعر بنجاحها » ولكننا نحس بالفشل في تحقيق الهدف من صناعتها أصلا، حيث كلنا نتمنى أن تنتصر على الوقت بصورة تجعل الثانية دقيقة والدقيقة ساعة حتى يستطيع الانسان أن يعيش عمره الزمني مرتين في حساب عمره الاقتصادي، فقلت لصديقي العربي ولله في خلقه شؤون... أعتقد أنهم عندما يصلون الى هذا العصر نكون قد رجعنا الى العصر الجاهلي ان لم نجد أنفسنا في مراكز التخلف العقلي الحديثة.

وتحضرني مناسبة أخرى في منافسات الأولمبياد عام ١٩٧٢ م في نهائي كرة السلة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، حيث أنهى الحكم المباراة قبل الموعد المحدد بثلاث ثوان بالتحديد وكانت الولايات المتحدة متقدمة بنقطة على السوفييت فطالب المدير السوفييتي بمدة الثلاث ثوان وضحكنا لهذه المغالطة والنكتة الأسطورية وقررنا أن الاتحاد السوفييتي يريد أن يسجل موقفا سياسيا يثبت أن العدالة الأمريكية لا تمتد الى كل الميادين حتى في مجالات الرياضة الشريفة... وأعطيت الثوان الثلاث ومن رمية ركنية سجل السوفييت هدفا قاتلا مباشرا ونقطة أغلى من كل مخزونه من ذهب العالم ليفوز بالكأس وسط دهشة كل الرياضيين العرب الذين أعتقد جازما أن ما من أحد منهم لاحظ هذا الفارق الزمني رغم الساعات الالكترونية التي تزين معاصمهم ويكفي أن تسمع المعلق الرياضي، فأي معدن في رصيد الاتحاد السوفييتي يعادل هذه النقطة بنت الثلاث ثوان التي هزمت أمريكا وهي أكبر انجازات تحرزها الدولة في نطاق الصراع بين القوتين الأعظم حتى في مجال لا يرمز فيه الصراع الى القوة.

عصر التكنولوجيا :

ان حرب التكنولوجيا ومنجزاتها من الحاسب الآلي والرجل الآلي والزوجة الآلية ــ وما خفي أعظم ــ هي الفارق في النظرة الى قيمة الوقت بين مجتمع وآخر... ان المجتمع الغربي يتفوق علينا في وسيلة تعامله مع الوقت ونحن نجهل هذه الحقيقة لأننا في غيابنا الدائم من ساحة المنافسة.

وحضورنا المستمر في مجالات الاسترخاء والملذات ــ وأنا أحد أبناء هذه الأمة الذي لا يبرىء نفسه من عيوبها ولا ينصب نفسه وصيا عليها ــ أؤكد أننا مازلنا في أعلى مستويات تفكيرنا نحجر على عقولنا حرية الاستمتاع بقيمة الوقت في المفيد والمثمر وأستدل على ذلك بالأعداد الهائلة من الطلاب الذين أفرغوا ما بأذهانهم على الورق استعدادا للسفر الى الغرب في العطلة الصيفية لا لاستيراد البدائل الحسنة المتوفرة، ولكن لشحن الأدمغة بالعادات المتدنية والموديلات الرخيصة في تزجية الفراغ ليرتفع معدل التسرب والتسيب والتهرب في بداية العام الدراسي لأننا ما زلنا نعتقد أن حياتنا خارج دواوين الحكومة يتمثل في (قتل الوقت) وتتعدد الأسباب والموت واحد... فالذي يفكر في قتل الوقت يقتل نفسه أولا لأنه يستحيل على الانسان أن يعيش حياته مرتين ولكنه يستطيع أن يعوض خسارة الذهب ماديا ومعنويا، ومن المفارقات أننا نردد دائما أنه يستحيل اعادة عقارب الساعة الى الوراء، ولا أفهم هذا ونحن نمارس يوميا وبلا غفلة رياضة تأخير المعاملات أطنانا فوق المكاتب... ونتلكأ في تنفيذ المشروعات التي تقفز تكلفتها من بعضة أصفار الى أرقام فلكية في الوقت الضائع، ونتندر ونسخر من الذين يعملون بلا انقطاع كأنهم يسابقون أقدارهم لتسليم مشروعاتهم أو سداد ديونهم التي يدفعون عليها غرامة نسبية بسبب التأخير ونصفهم بأنها (عقدة الخواجه) ولو قدر الله لنا الاصابة بهذه العقدة بالذات فرب ضارة نافعة حيث يحدث الانضباط التلقائي لموجة اللامبالاة التي تحتاج قلاع البيروقراطية العربية من المحيط الى الخليج بشعارات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب تبدأ من الظاهر بشعار (لا تؤجل عمل اليوم الى الغد)

ومن الداخل بفلسفة (المراجعة بعد أيام من استلام المعاملة تحت التوقيع) وهل يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون ؟

أوقات الفراغ :

أرجو أن يكون حديثي برداً وسلاما على العقول المجهدة والنفوس المنهكة من السهر والارهاق والتي تريد الارتحال الى أوروبا لقتل الفراغ ونتيجة للاشارات الخاطئة حول المفاهيم المفرغة من المحتوى التربوي في كيفية الاستغلال المستمر للوقت، وصدق الرسول الكريم حين قال (أن القلوب اذا كلت عميت) ولكنه أيضا أكد أن ابن آدم يسأل يوم القيامة عن ماله كيف أنفقه وعن وقته كيف قضاه ونحن ننفق مالنا في قضاء أوقاتنا فنخسر مرتين... المال والوقت... والأول عارية مستردة والثاني عمر مكتوب لن يعود... ومن أراد الدنيا فلينفق وقته فيما ينفع، ومن أراد الآخرة فلينفق وقته فيما يشفع، ومن أراد الاثنين فليحرص على وقته ما استطاع الى ذلك سبيلا.

نعيب زماننا

استوقفني مقالة هادفة في إحدى المجلات حول مضمون التعليم وحاجات المجتمع ونظام التربية والتحصيل... ورغبة مني في تأكيد المعنى الذي رمى اليه الكاتب أكرر تحفظاتي في أنني لست الجهة المتخصصة في تناول هذا الموضوع، ولا المعنى بتقويم هذه التجربة. ولكنني من القلة التي تهتم بمصير أطفالنا الذين نرصد من أجلهم الملايين في سبيل تحصيل العلم والمعرفة دون أن نستوثق ان كان عائد هذه العملية يتوازى ونفقاتها اقتصاديا ويبرر مردودها اجتماعيا ويعادل حجمها فنيا بمقاييس هذا المنعطف الأخير من القرن العشرين.

قضية التناول :

لعل من مأساة قضايا التعليم ان أكثرها أصبح في حكم المسلمات وأصبح العمل يتجه في أكثر الأحيان الى توطيد الفكرة لا إلى طرح البدائل حتى أصبحت القناعات القديمة خططا ثابتة يتأكد صدقها بالتكرار بينما يثبت فشلها بالممارسة... لقد جعل هذا الوضع الغريب تناول هذه القضايا قضية في حد ذاته... مجرد تغيير زاوية النظر الى السلم التعليمي يثير وجهات نظر تضيف عتبات جديدة الى ذلك السلم بحيث بلغ درجة من العلو ومرتبة من التعقيد ويصبح مجرد محاولة التخطى مغامرة تستهدف العملية التربوية في الصميم.

نماذج مطلوبة :

لقد ذكر الكاتب موقف الأستاذ الجامعي ابن العشرين والذي حصل على درجة الدكتوراة من أكبر الجامعات الأوربية في الرياضيات المعاصرة رغم أن أوروبا لا تفتقر الى خبرته في مجالاته مثل افتقارنا الى أي نوعية فنية في مجال الرياضيات، وما زلنا عاجزين عن توفير الحد الأدنى من هذه الخبرات في كل مراحل العمر في معظم البلاد العربية.

وأورد هنا حادثة مشابهة عندما بعثت في منحة دراسية فوق الجامعية في جامعة لندن قبل أكثر من عشر سنوات من قبل حكومة السودان... في ذلك الوقت كانت هنالك محاضرة علمية مشهورة حول موضوع يشغل أذهان كل العاملين في حقل الصحة النفسية.

وكان الموضوع بحثا علميا فريدا يذكره زملاء الدراسة من كل بلدان ما وراء البحار في معهد الدراسات النفسية في جامعة لندن في فترة نهاية الستينات...

انتظرنا قدوم المحاضر طويلا حتى حانت ساعة المحاضرة، ولم نكن نعلم أن المحاضر كان يجلس بيننا لأن الصورة التي ارتسمت في أذهاننا. ونحن طلاب للمحاضرين الذين يتناولون المواضيع الخطيرة... كاريكاتير الرجل الطاعن في السن... الأشيب... وفي أحسن الحالات الأصلع... تتدلى نظارته بخيط طويل الى تحت الرقبة وغليونه يرسل غيمات من الدخان في سماء الغرفة.

وقف العميد يقدم المحاضر (تلميذه) البروفسور (مارسدن) أستاذ علم الأعصاب في مستشفى « كنيجز كولدج » بالطرف المقابل للشارع... ولا أستطيع أن أصور الموقف ولكن أستطيع أن أوكد أن المحاضر كان أصغر الحاضرين سنا في القاعة على الاطلاق... خاصة وان الدارسين الوافدين من جميع بقاع العالم أمثالنا كانوا فوق الثلاثين عاما على أحسن الافتراض وكنا نحن مجموعة الطلبة المعنيين بالبحث الى جانب

« أساتذتنا » الذين غصت بهم القاعة... وأدركت وقتذاك كيف تذوب فوارق السن في بوتقة العلم وكيف تعلو قامات الرجال وتقصر لحظة الوقوف فوق هذه المنصة المقدسة.

الدرس الوحيد :

انتهت المحاضرة وخرجنا بدروس عظيمة حول البحث... وكان الدرس الوحيد الذي لن أنساه... العلم من المهد الى اللحد... وعرفنا الفارق بين المهد واللحد في حساب الزمن وفي رصيد العلم.

ودارت الأيام تحمل نفس الصور المتعددة في مجتمعات سبقتنا في تأمين كفايتها العلمية في كل المجالات كما وكيفا... وتخطت عقبة الفوارق النوعية والموضوعية في قضايا التعليم.

سلم التعليم العربي

ونرجع الى وطننا العربي ونطرق هذا الباب... كأحد مرافق الحياة التي هبت عليها رياح التغيير وانقلب فيها الهدم التقليدي رأسا على عقب وما زالت التماثيل البرونزية للسلم التعليمي في الوطن العربي تقف ضامرة أمام كل محاولات التغيير وتطول قامتها على يد الاصلاح التي تعلو وروح العصر التي تفرض هذا التغيير.

لقد عجزنا جزئيا في البداية... وتبلور هذا العجز في شكل قناعات فردية في اعادة صياغة القوانين التي شلت مسيرة التقدم وأصبح التقدم العلمي قياسيا بالنهضة الحضارية العمرانية والاقتصادية ونمو القوة السياسية بمثل نقطة الضعف في تركيبة المجتمع.

بل لقد وصل الحال بنا أن استسلمنا لهذا الواقع فأصبحت الدول العربية ترصد ميزانية ثانية للتعليم العالي بالخارج والتعليم الجامعي في كل التخصصات والتي تمثل الجزء القومي لاحتياجات خطط التنميه.

وإذا استطعنا أن نجد العذر لصعوبة تغيير الواقع الاقتصادي في كثير من الدول لعوامل وظروف موضوعية قد تكون خارج ارادة المخطط وكذلك الحال بالنسبة للثقل السياسي والبنية الاجتماعية، الا أننا نفاجأ بالقدرة المذهلة على تجاوز هذه الظروف في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، بينما ظل التعليم في مسيرته الطويلة بالخط البياني الثابت يسجل في أكثر الحالات هبوطا لا مبرر له، حتى أصبحت القيمة الحقيقية في بورصة العمل الوظيفي للمواطن العربي تكمن في الفارق بين المتخرج من الجامعات العربية أو الأوروبية، حتى ظروف التعاقد للعمل أصبحت تخضع لهذا المقياس الذي يعكس قناعتنا الراسخة.

الخلفية الذهنية :

ولو صدق ظني فان ذلك يرجع الى الخلفية الذهنية التي نعالج بها قضية التعليم فما زلنا نربط السلم التعليمي بالخارج بنماذج أوروبية وصلت في تركيبها الاجتماعي ناطحات السحاب وما زلنا نحن نتحرك في الطوابق الأولى... ولذلك انعكس هذا الفارق في التخطيط بسلبيات تشدنا للوراء في اتجاه الحركة للأمام.

انه لا يعيبنا اطلاقا أن نكون في بداية الطريق ولكن يلزمنا تحديد الأولويات... وأول هذه الأولويات إعادة النظر في الهيكل التعليمي على مستوى الوطن العربي. وما زلت أتمسك بفضيلة الاعتراف بجهلي بما يدور في بعض البلاد العربية ولكن ما شاهدته وما قرأته من توصيات وقرارات المؤتمرات يؤكد حقيقة احتمال عدم تطابق الرؤيا المستقبلية بين احتياجاتنا العاجلة وخططنا الآجلة.

نحن ما زلنا نفتقر الى كادر علمي مؤهل على كل المستويات يملأ قاعدة الهرم الوظيفي في أكثر القطاعات التي نشأت نتيجة التطور الاقتصادي السريع الذي يشهده العالم العربي في قطاع التنمية وما زالت أكثر البلدان تستورد كفاءات بسياسة تبادل المواقع لسد هذه الثغرة التي حدثت من عجز قطاع التعليم عن مواكبة سرعة هذا التطور.

مصانع السيارات :

ما زال أكثر الأبناء يتطلعون الى الدراسات الجامعية في الخارج... والبقية تركض حول المقاعد الشاغرة في (لعبة الكراسي) في الجامعات العربية... وما زلنا نتمسك بالقناعات الآنفة الذكر حول ضرورة مرور الطالب بورشة تجميع الأجزاء في خط مستقيم يبدأ من الروضة الى الجامعة قبل أن يخرج الى الحياة فردا مؤهلا قادرا على تحمل مسؤوليات أساسية في مجتمع جديد، ان دراسة الطالب أشبه بمصنع السيارات حيث تمر المركبة في خط طويل بمحطات وضع الأجزاء المختلفة للسيارات حتى نهاية الشوط... بحيث يتم تشكيل الطالب في قوالب جاهزة وتكون النتيجة تخريج دفعات بنمط واحد مع تغييرات هامشية بسيطة في التصميم.

وما زلنا نعمل أن يكون الفارق بين طالب الطب والقانون مجموعة درجات حسابية وليست القدرات العقلية والاستعدادات الذهنية الخاضعة للقياس والاختبار مما يجعل أكثر الحالات تنتهي بانخراط الطالب في تخصص لم يكن واردا في حساباته أو تطلعاته وانما فرضه السلم التعليمي الذي صعد عليه.

ما زلنا نتمسك بالسن القانونية لدخول المدرسة الابتدائية حتى لو أثبتت تجربة الروضة أن قدرات التلميذ العقلية (العمر العقلي) أعلى بسنوات من العمر الحقيقي (العمر الزمني) وهي نفس المعادلة التي نقيس بها درجة ذكاء التلميذ في كل المجتمعات، فاذا كان الهدف من قيام الروضة تنمية المهارات الفردية لدى التلميذ فلماذا لا نأخذ نتائجها أو نلغي فكرة الرياض اذا كانت معدلات الذكاء مؤشرا ثابتا لنجاح الطالب فلماذا لا نعمل بها في مجال التطبيق.

لقد لمست بأصابعي العشرة حجم معاناة الطالب الذي فقد فرصة الالتحاق بالجامعة نتيجة رسوبه في مادة لا تدخل في صلب تخصصه خلال ممارستي المهنية كطبيب نفسي ولقد عشت تجربة الطالب الجامعي الذي يحاول التوفيق بين عدد المحاضرات الأسبوعية وعدد الامتحانات الدورية

في الفصل الدراسي الواحد من خلال محاضراتي وامتحاناتي لهم ورصد الحضور والغياب كاستاذ مساق في الجامعة... وقس على ذلك معاناة الطالب على امتداد خريطة الوطن العربي.

حاشية :

الا تتملكك الدهشة عند مطالعة الاعلانات عن وظائف حكومية تتطلب كفاءات عربية في مجالات علمية متخصصة نادرة مع خبرة عشر سنوات رغم أن أكثر الكليات العلمية في معظم البلدان العربية لم تحتفل بعد باليوبيل الفضي لهذه الكليات، رحم الله القائل :

نعيب زماننا والعـيب فينـا   ومـا لزماننـا عيب سوانـا

أثر السلوك الجماعي في تكوين الشخصية

نعني بالسلوك الجماعي التأثير الثابت المنظم في حياة الفرد، بما يتكيف ويتوافق مع الجماعة ويتطلب هذا نوعا من التعديل والتحوير في نمط الحياة الخاصة بحيث تتجانس كل صفات الفرد العقلية والمزاجية والاجتماعية والخلقية في وحدة متكاملة تميزه عن الآخرين تمييزا واضحا، فيكتسب شخصيته ولكنها تصهره فيهم فتكتمل انسانيته... فالانسان لا ينمو في فراغ ولا يولد انسانا أو (اجتماعيا) وانما يكتسب قدراته ومهاراته التي تجعل منه انسانا اجتماعيا بالتعليم بطريقة مدروسة متقنة بالممارسة والتدريب.

وتعني بالشخصية الصفات المختلفة التي تميز الشخص عن غيره في ناحية التكيف للمواقف الاجتماعية ومن أهم مظاهر الشخصية، المظهر الاجتماعي ولذلك قيل أن الانسان حيوان اجتماعي للموازنة بين الغرائز الموروثة والتطبع المكتسب والشخصية وحدة متكاملة ليست أجزاء مرصوصة ولكنها وحدات متفاعلة وسمات شعورية ولا شعورية أساسها التنشئة السليمة في الطفولة وأبعادها الأمانة والكذب ــ السيطرة، والاستسلام والانطواء والانفتاح... الخ، وتعريفها يفوق كل الصفات المعروفة في الانسان، ومن الصعوبة بحيث لا يسمح المجال بطرق الموضوع... وسيكلوجية الشخصية السوية المتزنة لها شروط تكامل بيولوجية ونفسية واجتماعية.

١ ــ الشروط البيولوجية : ــ تتمثل في سلامة الجهاز العصبي وقدرة

الغدد الصماء على افراز الهرمونات اللازمة لنمو الجسم.

٢ ــ الشروط النفسية : ــ النضج الانفعالي وسلامة النفس في الصراعات الشعورية واللاشعورية.

٣ ــ الشروط الاجتماعية : التوافق الاجتماعي وانصهار الفرد في اطار الجماعة.

وعاقبة عدم تكامل الشخصية يبرز في الفشل في عملية التوافق الاجتماعي وتكون النتيجة ــ انحرافات خلقية وجنسية، اضطرابات سلوكية، تمرد مراهقة وجنوح أحداث، أو انطواء على النفس أو اضطرابات عقلية.

ونماذج الشخصية كثيرة أيضا ولكن أكثر النماذج وخصوصا لدى العامة ما عرفه (يونج) :

الشخصية المنطوية :

وهي غير قادرة على المشاركة عاجزة عن المساهمة مع الجماعة كثيرة التأمل في الماضي والمستقبل كثيرة التردد في المواقف كثيرة الحذر، قليلة الحركة في كل الاتجاهات وهذه سمات شخصية وليست أعراضا مرضية.

الشخصية المنبسطة :

وهي كثيرة الحركة، شديدة التعلق بالآخرين وخلق صداقات مع كل الناس، سريعة الانفعال والتسرع في اتخاذ القرارات، ميالة للمرح والانطلاق وينطبق عليها الوصف السابق.

ونمو الشخصية يكون عن طريقين :

١ ــ نتيجة التكوين الوراثي للفرد (النضج الطبيعي).
٢ ــ نتيجة التكوين البيئي للفرد (بالممارسة والتدريب).

ونحن نستطيع أن نؤثر في الأول بصور أقل فعالية ولكننا نستطيع أن نعدل الثاني بطرق أكثر ايجابية، وهذا دور الأنشطة الجماعية والاجتماعية بالكشف عن قدرات الاحتمال والضغط والتوتر والانفعال والاجهاد الذهني وضبط النفس والقدرة على التعاون والتفكير الجماعي وعلى القيادة والمبادرة والابتكار، وكتم الأسرار، ومعاونة الصغار والكبار... الخ.

وفي السلوك الجماعي يزداد التفاعل وتتعدد الدوافع الفطرية ويتكون وينمو (الضمير) والاتجاه نحو الحق والباطل والخطأ والصواب، والمباح والمحظور، وتتكون من خلال المعاشرة الفكرة عن النفس واكتساب أساليب جديدة في حل المشاكل والتعامل مع الناس كما يكتسب ميولا وعادات شتى، ويرسم لنفسه مستوى طموح خاص بالمقارنة مع مستويات زملائه ويتخذ لنفسه مبادىء ومثلا وأهدافا في الحياة.

كما أن الأخذ والعطاء بين الرئتين والهواء ضروري لحياة ونمو الجسم، كذلك الأخذ والعطاء بين الفرد وبيئته شرط أساسي في نمو الشخصية ولا يتم هذا الا بالسلوك الجماعي المتناسق والسلوك الجماعي عملية نضج وتعلم... تعلم بالشرطية وتعلم بالمحاولة والخطأ، وتعلم بالاستبصار منذ الطفولة حتى الرجولة، وهذا أكثر وخصوصا في تعلم السمات الخلقية والاجتماعية كالتعاون والأمانة والمثابرة.

ومرحلة الشباب هي آخر فرصة للتجمع لتغير شخصية الفرد... والسلوك الجماعي يكتمل بنجاع عملية التطبع الاجتماعي وهي عملية تربوية وتعليمية يقوم بها الآباء والمعلمون وغيرهم ممن يمثلون ثقافة المجتمع.

ومن أبرزها تعليم الشباب كف دوافعه غير المرغوبة واستبدالها بالبديل المثمر وكبح جماح دوافعه الجنسية والعدوانية بالاسلوب المباشر وتحوير سلوكه الى بدائل سلوكية مقبولة اجتماعيا... وأكبر نجاح يحرزه المجتمع هو تقبل الشباب لهذه البدائل وهو غير كاره، أو مكره فقد قال سقراط (لا تكرهوا أبناءكم على اثاركم فهم مخلوقون لزمان غير زمانكم).

ان مهمة السلوك الجماعي هو تعزيز دور الفرد في المجتمع والدور هو السلوك المنتظر من الفرد في سنة وثقافته وجنسه ومجتمعه، فدور الشاب في المجتمع العربي الشرقي الاسلامي النامي مختلف عن دور الشاب في المجتمع الأوروبي الغربي المسيحي المتقدم، وعجز الشاب عن اداء دوره كما يجب يهز بثقته في نفسه وثقة المجتمع فيه، فيخلق فجوة بين الشاب ومجتمعه، ويخلق لكليهما صراعات نفسية حادة والانتقال من دور الى دور — نوع من الفطام النفسي يحتاج الى التكيف الاجتماعي بالتنازل عن عادات مألوفة، والأخذ بأخرى جديدة، ولا يتم هذا الا بالمجادلة بالتي هي أحسن، ان السوط لا يدفع الحصان للأمام ولكنه يحثه على السير بنشاطه الذاتي وجهده الخاص.

ان تعليم الشباب فن استغلال أوقات الفراغ لا يقل أهمية عن تعليمهم فن تحصيل المواد الدراسية.

ان الشخصية المتكاملة مثل فريق من لاعبي كرة القدم يكمل بعضهم البعض، ولكل دور يؤديه لا يستغني عنه الآخر... فاذا ساد الانسجام بين عناصر الفريق كان مصيرهم النصر واذا انفرط النظام بين عناصر الفريق كان مصيرهم الفشل.

واذا انعدم التعاون كان مصيرهم الهزيمة... كذلك الحال في تكامل أو تفكك عناصر الشخصية، تكامل يضع في حسابه الوحدة في التنوع والائتلاف في الاختلاف.

والفوارق الفردية بين الناس هي التي تجعل بعضهم أسرع استجابة وبعضهم أكثر اثارة، ومراعاة هذه الفوارق يجعلنا نضع لكل فرد قياسا خاصا به ولكل مشكلة حلا منفصلا لها فتبعد عن التعميم الذي يضر بأهداف التعليم... ولنتذكر أن النار التي تذيب الدهن هي نفسها التي تجعل البيض يتجمد.

الفصل الثامن

* قضايا اجتماعية

١ ــ البحث عن الحقيقة

٢ ــ السباق مع الزمن

٣ ــ الجحيم هم الآخرون

٤ ــ اللغة... التراث... الجذور

٥ ــ لا تبخسوا الناس أشياءهم

٦ ــ لا يصح الا الصحيح

البحث عن الحقيقة

ظلت الحقيقة ضالة الانسان... منذ بدء الخليقة وستظل أكبر هموم الانسان حتى يرث الله الأرض ومن عليها... والبحث عن الحقيقة غريزة في تكوين البشر تبدأ من لحظة الولادة... ذكر أم أنثى، وتتبلور في نظرة الطفل في الوجه... أبي أم أمي ؟ وفي استكشاف البيئة والتخريب الفضولي للعب والأسئلة المحيرة حول حقائق الحياة... الموت والحياة... الصواب والخطأ وتمتد حتى مرحلة الاضطرابات السلوكية في المراهقة حيث صراع تأكيد الذات. الحقوق والواجبات... الاستقلالية والاتكالية... وحيرة الشباب حول الفشل والنجاح... الدخول في الزواج أو البقاء في العزوبية، الأطفال والمسؤولية وتأملات الوالد... كيف أعول أسرتي... ومتى يكبر أطفالي ؟ الموازنة بين التجربة المتمثلة والواقع المعاش... حتى نهاية مطاف الشيخوخة، محطة الوقوف قبل النهاية... لحظة محاسبة النفس... ورصد الربح والخسارة... ماذا فعلت لدنياي وماذا قدمت لآخرتي ؟

تظل (فضيلة) البحث عن الحقيقة تلاحق الانسان في كل نشاطات حياته حتى لحظة مماته... دوامة الظلام بين الشك واليقين... وهوة الخصام بين الحق والباطل... وحالة الفصام بين القول والفعل وقد يصبح البحث عن الحقيقة نشاطا ذهنيا ايجابيا يوجد المعطيات ويوازن المعادلات ويطرح الحلول، وقد يكون ترفا فلسفيا يغوص في متاهات الجدل والمناظرة ويصبح البحث عن الحقيقة غاية تتشعب طرق الوصول اليها... وقد يتطرف البحث

عن الحقيقة فيصبح تصوفا عقلانيا أو تأملا استيطانيا يحلق بالروح في عوالم تخترق آفاق الكوكب الذي نعيش فيه وعندها ينسلخ المرء من واقعه عندما يجهل أن العبادة عمل... فالافراط في الفلسفة والغلو في التصوف ابتعاد عن جهاد البحث عن الحقيقة بالوسائل المتوفرة للجميع الا ما كان نشاطا فرديا ابتغاء وجه الله.

والحقيقة عند بعض الناس غاية تبرر الوسيلة... وهنا تصبح القضية أخلاقية في المكان الأول، والحقيقة عند البعض الآخر وسيلة الوصول الى غاية وهنا يكون المنطق أكثر قبولا طالما كانت الوسيلة نابعة من النوايا الطيبة وتصب في الهدف الكبير. وسيلة الوصول الى الحقيقة تختلف من رجل الشارع الذي تقض مضجعة الأحلام الوردية أو رؤى الأشباح ويقع في مصيدة الخوف من المجهول فيخلط الألوان كقوس قزح لا يتبين الأبيض من الأسود في سبيل البحث عن الحقيقة... وتختلف لدى الطبيب الذي يفحص المريض عدة مرات ويجري عشرات الفحوصات في سبيل الوصول الى بضع كلمات تحمل التشخيص أو (وصفة الحقيقة) وتختلف لدى الشرطي بكل قدراته وكافة امكانياته ومجموعة سلطاته الموظفة ليل نهار بحثا عن الحقيقة.

عيون الحقيقة :

قليلون يخسرون الزاد والوقود ويفقدون البصر والبصيرة في سبيل الوصول الى الحقيقة... من أجل عيون الحقيقة... وكثيرون يركبون المركب الصعب ويتحملون الكي بالنار والمشي على المسامير بعيدا عن السير في ساحة الحقيقة ويهيلون أكواما من الرمل وتلالا من الحجارة حتى لا تظل الحقيقة برأسها في غفلة من الزمن... فتتلألأ كالماسة المشعة في الدهاليز المظلمة لأنهم عشقوا الظلمة وألفوا عيشة الدهاليز... وأكثر من هؤلاء يبحث جاهدا عن الحقيقة يحمل رأسه على كفيه وقدره بكلتا يديه فداء الحقيقة. لا لكي تشع وتضيء أو تموت وتخبو ولكن من أجل أن

تكون سلاحا في وجه حقائق أخرى... ومنطادا يعبر به بحارا تتلاطم فيها الأمواج فتغرق... فلا نجاة الا بمتانة المركب وقوة المجذاف.

كثير من الناس يسألك عن الحقيقة... وفي ذهنه تصور خاص للاجابة ورغبة معينة في المشورة... ويكاد يضع الكلمات في فمك... ويرسم التعابير في وجهك... يضع لك السؤال بصورة لا تحتمل الا اجابة واحدة... أما (نعم) هنيئة أو (لا) مريحة... وأكثر الحالات التي تحمل قدرا من الصدق تحتمل قدرا أكبر من الاحتمالات... (نعم) قد تكون نوعا من المجاملة و (لا) قد تكون رغبة في المماطلة وتكون النتيجة في النهاية واحدة رغم اختلاف المقدمات... وحالة الفصل بين القول والفعل تكون مصدر احباط نفسي حاد عندما تعرف سلفا درجة التعارض بين المشورة المطلوبة والحقيقة المرغوبة وان وضع السؤال وطريقة المسألة وشخصية السائل تتطلب الحقيقة التي تلبي الدافع ولا تمثل الواقع ولا خيار لمن لا يختار... فأما أن تكون الحقيقة مزيفة ومطابقة للطلب أو دقيقة ومثيرة للغضب... ولا حل وسط والواقع يعطينا عدة نماذج... وما قولنا (اختلاف وجهات النظر لا يفسد للود قضية) الا ثلاجة لتجميد الوضع المتفجر في هذه الحرب الباردة... وما المقولة المأثورة : (ما كل ما يعرف يقال) الا اعتراف ضمني بأن الحقيقة (لا تنزل من الزور) ومحاولة تبرير لحجب الحقيقة عن الظهور تمشيا مع دبلوماسية ضرورة التغاضي عن الهفوات في سبيل الابقاء على حسن الصلات وستظل حالة الفصام قائمة بين ديناميكية الفعل ومصداقية القول حتى اشعار آخر.

الحقيقة وتغيير الاتجاهات :

لقد أثبتت دراسات علم الاجتماع أن العامل المؤثر في تغيير الاتجاهات والمواقف لدى الانسان يكمن في نظرة الفرد ونوعية التعامل مع الحقائق... والحقيقة تصبح مجردة أو مطلقة أو نسبية حسب الاطار الذي توضع فيه خاصة في غياب الظروف الموضوعية التي تتجمع فيها كل خيوط الحقيقة في نقطة واحدة.

لقد أجريت دراسات لمحاولة تغيير الاتجاهات لدى ثلاث مجموعات : الأولى تقف موقف الاستعداد لقبول التغيير والثانية موقف اللامبالاة تجاه التغيير والثالثة موقف الحذر ورفض التغيير، فثبت أن الحقيقة تكون عند المجموعة الأولى نسبية تخضع لعدة مقاييس ويكون التغيير ايجابيا وبطيئا، والثانية تكون الحقيقة مجردة قابلة للأخذ والعطاء فيكون التغيير سريعا وانفعاليا والثالة تكون الحقيقة متميزة ومطلقة ويكون التغيير سلبيا أو غير وارد على الاطلاق.

ووضح أن المجموعتين الأولى والثالثة لا تتأثران بشخصية المتحدث ونوعية الطرح وأسلوب الاقناع بينما تتأثر مجموعة (اللامبالاة) بهذه العوامل بدرجة كبيرة.

الحقيقة والمجتمع :

نخلص من هذا الى أن الحقيقة في واقع المجتمع تمثل العملة النقدية في البورصة المالية... فأي تزييف يصيب هذا الوسيط يحدث هزة في السوق الاقتصادية تؤثر على سيولة الحركة التجارية وكذلك الحال في المجتمع فان أي تزييف أو تحوير في الحقيقة ــ وسيلة التخاطب ــ يحدث أزمة ثقة تحدث خللا نفسيا في تركيبة المجتمع فسيكلوجية الاشاعة تعتمد على وجود بضع حقائق في جو من التعتيم مع قابلية ذاتية أو دوافع شخصية لدى المتلقى... فتفرخ الاشاعة في ضباب التعتيم وتموت في ضوء الحقائق.

وسيكلوجية الاعلان تعتمد على وجود حقائق أولية في جو من الترغيب تستغل غريزة الانسان في اشباع رغباته وكف الحرمان النفسي وحب الامتلاك ومعرفة الحقيقة... والحقيقة تعلن عن نفسها.. في الأسواق... الاعلان عن (تنزيلات حقيقية) يعني وجود تنزيلات غير حقيقة... في دوائر الحكومة... وجود أكثر من استشارة في موضوع واحد يعني وجود أكثر من وسيلة للوصول الى غاية واحدة... وفي المحاكم الصراع بين

الأهل والنيابة والدفاع والاتهام بأساليب مختلفة للوصول الى حقيقة واحدة يدفع بالقاضي للقسم المشهور (أقسم بالله العظيم أن أقول الحق... وكل الحق... ولا شيء غير الحق) دلالة على أن الحقيقة في أغلب الظن ضائعة وفي أحسن الحالات مهضومة وعندما تلجأ المحكمة الى تأدية القسم... وهو قسم لو تعلمون عظيم... فانها تخاطب ضمير الانسان في لحظة صفاء... بعيدا عن مؤثرات الترغيب والترهيب في همس مؤثر، الرجوع الى الحق فضيلة... والله عليم بذات الصدور.

والحق يقال الدين النصيحة وفي الحديث (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت) صدق رسول الله الكريم.

السباق مع الزمن

يبدو أن عهد الوفاق الروحي بين الانسان والزمن قد انتهى الى غير رجعة وانقضى شهر العسل الذي كان يعيش فيه المرء (انسان زمانه) شأنه شأن أي عقد بين طرفين غير متكافئين سيطر الانسان فأصبح « سيد زمانه » حتى استرد الزمن قوته وكعادته مع كل الكائنات الحية فقد طوع الانسان بقسوة الأيام وهد قواه بعبء المحن فأصبح « عبد زمانه » عبودية العاجز بحكم السن وقلة العافية.

اذا نظرنا الى هذا التسلسل من زاوية عصرنا الحديث نجد أن الانسان قد هبط بالعد التنازلي من « انسان زمانه » الى « عبد زمانه » فاغترب داخل ذاته... وداخل مجتمعه ووطنه... وبعد أن كان يتعامل مع الزمن بدقة توقيت المواسم في الزراعة والحصاد والأعياد يعرف لماذا يزرع ومتى يحصد، وماذا يأكل وممن يتزوج وكيف يتهيأ لاستقبال نهاية العمر حتى كان موت الفجأة أشبه بلعنة الفراعنة، وكأني بالانسان يجد مهلة في العمر ليكتب وصيته ويودع أهله ويرتب أموره قبل أن ينطق بالشهادتين... بينما تجد انسان اليوم في حربه مع الزمن... الحرب الباردة... الحرب غير المعلنة... حرب المباغتة والاستنزاف تأخذ الصغير قبل الكبير والشاب قبل العجوز والقوي قبل الضعيف ألم يصبح في وسع الانسان أن يفهم لغز الموت حتى فقد الفرد الشعور « برهبة الموت » والتي هي من أعلى درجات الايمان بأسرار الحياة.

تأمل... أم تصوف

قد يتبادر الى ذهن القارىء انها نزعة تصوف وحتى ذلك في قاموس أئمة المتصوفة، المتصوف ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع، وكما قال ذو النون « المتصوف هو الذي لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب » ولكن من حسن ايمان المرء ان اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا « فهي اذن محاولة تأمل ولحظة تذكير حتى تتسع مدارك الفرد بمشاكل الزمن فيختبر قدرته على الصمود وسلاحه على الانطلاق... وطبيعة الميدان الذي يحارب فيه... والاستراتيجية التي يتحرك في اطارها فاذا لم تكن للانسان استراتيجية واضحة في حياته ضاع عليه الهدف وخسر نصف المعركة لأن التكتيك تفرضه عوامل خارجية لا يستطيع الانسان أن يتحكم فيها وهي في مصلحة الزمن لأن هذا العصر قد « حيد » الصراع بين الانسان والزمن بحيث جعل قدرة الانسان على الدخول لمناصرة أخيه الانسان ضد عاديات الزمن محدودة الى أبعد الحدود... وهذا ناتج من أصل الصراع... حيث جعل الزمن طبيعة الصراع تتخذ أشكالا يصبح فيها الانسان عدو أخيه الانسان وضاعت أمنية أفلاطون التي صاغها الشاعر :

صديقي من يرد الشر عني ويرمي بالعداوة من رماني

فمن أجل أن يكسب الانسان معركته مع الزمن أصبح يرى في وجود أو نجاح الانسان الآخر أحد العوائق المادية التي تقف في طريقه نحو الهدف المنشود أو تحقيق الرغبة فالانسان يريد أن يصعد سلم الرقى ولكن لا بد أن يتخطى الآخر. ويريد أن يصل بسيارته نهاية الطريق ولا بد أن يتجاوز السيارة الأمامية ويريد أن يحتل مركزا مرموقا ولا بد من تحريك الشخص الجالس فيحدث الاحتكاك والصراع بين الانسان والآخر وهذه معركة جانبية محصلتها للزمن.

الجدول الزمني

ان الجدول الزمني في حياة « الانسان القديم والذي كان يسير بصورة

منضبطة قد انقلب رأسا على عقب في عصر الانجازات الفردية لو صح التعبير — فتفكير الانسان كان يبدو منطقيا مع زمانه... يتزوج في العشرينات... ويخطط في الثلاثينات... وينجز في الأربعينات ويصعد القمة في الخمسينات ثم يبدأ تلقائيا وبقناعة شخصية، في مرحلة الهبوط الى سطح الأرض وملامسة شفا حفرة الموت بعد الستينات ولا يمكن أن تنكسر هذه الحلقة الا بمعجزة أو تتداخل حلقاتها الا بالقدر المحسوب والقضاء المكتوب. أما اليوم فقد تداخلت الحلقات بحيث أصبح عنصر المفاجأة والصدفة أكثر حدوثا من عنصر المنطق والمألوف... الانسان يريد أن يختزل الزمن في سنوات أن يصل قمة انجاز الخمسينات في مطلع الثلاثينات ومن خلال هذه الأزمة يفقد أعظم عناصر استراتيجية حتى اذا نجح في اختصار هذه المسافات الخرافية وجد الوصول الى القمة أكثر صعوبة من البقاء عليها واذا فشل بعد كل هذا الجهد وقع فريسة ضعف ايمان الانسان بنفسه وقدرة الآخرين. ودخل دوامة الشك لحظة الخروج من بوابة اليقين وينطبق عليه القول المأثور « الزمن كالسيف ان لم تقطعه قطعك » وبصورة جذرية يعمل الزمن تقطيعا وتجميعا في أجزاء الانسان في حجم المعلبات. وهذه المعلبات تحمل كل أنواع الملصقات الجدارية المحذرة من أمراض العصر الحديث. كالضغط والسكر والقرحة والانزلاق الغضروفي والسكتة القلبية واذا استطاع أن يقطع الزمن قبل أن تنقطع أنفاسه في سباق « الماراثون » فان النتيجة تعني الوصول الى نهاية السباق من البوابة الأخرى ولا يتم حل هذه المعادلة الصعبة في ظروف هذه الحرب النفسية والجسدية الا على حساب « السعادة الشخصية » حيث لا تقدم الفواتير في شكل صكوك مالية قابلة للتحويل بالعملات النقدية حتى لو كانت في ندرة وقيمة وضمانات الدولار الأمريكي أحد الأسلحة العصرية المستعملة في هذه الحرب الحضارية. حرب انتصار الانسان على عدوه التقليدي الزمن والوجه الحضاري في هذه الحرب غير المعلنة هي كثرة طموحات الانسان وتطلعاته في الحياة الى أكثر مما توفره نعمة المال البنون زينة الحياة الدنيا. فأصبحت المكانة الاجتماعية والمرتبة العلمية

ضروريات لا تقل أهمية عن الملايين المسجلة بالبنوك والأطفال الموزعين على المدارس... وبالمقابل فان الزمن قد اكتسب أهمية أخرى تتمثل في زيادة الاحتياجات الأساسية للفرد لتأمين مستقبل المال وحياة الأطفال مع الزيادة المطردة في صعوبة تحقيق هذا الهدف من المشكلات العصرية التي فرضت نفسها نتيجة التطور المذهل الذي عاصرناه حديثا قضايا « سرعة العصر » و« السباق مع الزمن » التلخيص الموجز للحرب التي سبق الحديث عنها... التعبير العصري عن الأساليب المستعملة في هذه الحرب... سرعة العصر تعني أن خطى الزمن تمشي على جسد الفرد كما تدوس الآلة قطعة الجبن في مصانع الألبان التي قذفت الآلاف خارج ساحة العمل اليدوي بدخول الآلة... وهذه احدى جهات القتال وسرعة العصر تعني الحاجة على أن يعيش الانسان يومه الواحد بين ثلاث قارات يتناول وجبات الطعام في كل قارة على حدة ويحمل سجادة صلاة ذات بوصلة لكي تحدد له « القبلة » بعد أن كان يهتدي باتجاه الشمس وأصبح يحمل مسبحة الكترونية « كوارتر » تختصر التسبيح الى رقم ٩٩٩ وهو ضعف الوقت الذي كان ينفقه مع ربه في لحظات التعبد واقامة الليل وهذه احدى جبهات الحرب العقائدية بين الانسان والزمن... وتعبير « سباق الزمن » يعني تخطي الحواجز الطبيعية في حياة الفرد في القفز الأكروباتي من مرحلة الشباب الى الرجولة بكل المسؤوليات الاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية التي يفرضها الدور الاجتماعي ويحول دونها النضج العقلي والانفعالي وهذه احدى جبهات الحرب النفسية... ان القارىء يستطيع استخلاص العديد من تجاربه للوصول الى النوعية والكيفية التي وصل بها الانسان هذه المرحلة في « المواجهة » مع زمانه... بل ان ظاهرة الاغتراب في بعض صورها الصحية هي مبادرة في فتح جبهة جديدة في حرب الزمن حيث يستطيع الانسان فتح « ثغرة » يلتف بها حول انجازات ما كان يمكن أن تتحقق بالطريق التقليدي واختار طريق الاغتراب لاختزال رحلة العمر في مشوار المستلزمات الشخصية وعقد مصالحة بين شرف العمل وجمع المال وتكوين الأسرة وبناء المنزل وتوفير الرصيد المادي الذي يؤمن مستقبل

الأطفال اذا ما قدر للانسان أن يقع فريسة أحد « فخاخ » الزمن داخل طائرة مسافرة أو عبوة ناسفة في مركبة عامة أو طلقة طائشه في أحد الشوارع وهذه بعض أنواع الأسلحة الحديثة التي كانت مجهولة في الحرب التقليدية حتى وصلنا مرحلة الحرب الكيمائية التي تقتل بلا صوت ولا دماء فاختزلت الزمن والمسافة.. والجهد البدني والمادي كأحد أشكال الوجه الحضاري في حقيقة حرب الانسان الذي أصبح يتمنى أن يمتد اليوم لأكثر من أربع وعشرين ساعة ويطول الأسبوع لأكثر من سبعة أيام ليتمكن من انجاز جزء ضئيل من الاعباء الحياتية التي يسجلها في مذكراته أملا في تنفيذها في بضعة أيام فتمتد الى بضعة أسابيع ان لم يفشل في القيام بها على الاطلاق في سباقه مع الزمن... وكثيرا ما يحس المرء بالحرج تجاه الآخرين نتيجة عدم القدرة على الالتزام بوفاء وعد قطعه أو زيارة التزم بها أو مقابلة ارتبط بها وفشل في مجاراة خطى العصر وما يدعو للتفاؤل ان هذه حرب مشروعة ومفروضة علينا « ضريبة تقدم » حتى لا نبقى كعلامة أثرية في طريق مهجور وكلما تقدمت الحياة وتطورت الحضارة ارتفع حجم الضريبة وازداد أوار نار هذه الحرب... فلنكن أكثر تفاؤلا بالنصر لكي نكون أكثر جدارة بالحياة.

السباق مع الزمن... مرة أخرى

ان من المشكلات العصرية التي انتشرت بكثرة نتيجة التطور المذهل الذي عشناه حديثا هي قضايا (سرعة العصر) والسباق مع الزمن. فهي تلخيص موجز لحرب الاستنزاف التي يخوضها الانسان في عدة جهات... وهناك عدة تعابير مستحدثة للأساليب المستعملة في هذه الحرب بمسميات مقبولة تحت مظلة التطور.

ان سرعة العصر تعني أن خطى الزمن تمشي على جسد الانسان كما تقطع سكينة آلة المصنع قالب الجبن بعد أن قذفت به خارج ساحة العمل اليدوي باحتلال الآلة مكان الفرد... وهذه احدى جبهات القتال المكثف بين الانسان والزمن وسرعة العصر تعني القدرة على أن يعيش الانسان نصف اليوم في ثلاث قارات يتناول وجبة طعام في كل قارة ومن كل نبع قطرة ويحمل سجادة صلاة ذات بوصلة تحدد له اتجاه القبلة بعد أن كان يستعين بظل الشمس أو صوت الآذان ليؤدي شعائر الصلاة، وأصبح يحمل مسبحة الكترونية (كوارتز) تختصر له التسبيح حتى رقم ٩٩٩ وهو اختصار للعبادة وهذه ايديولوجية جديدة واحدى جبهات الحرب العقائدية بين الانسان والزمن... أليست هذه المنجزات العلمية اعترافا ضمنيا بأننا خسرنا معركتنا في هذا السباق الزمني الذي لم ينطلق من حلبة واحدة وبلا صفارة بداية أو ساعة صفر... ان أجهزة التحكم الآلي البعيد والتي تدير جهاز التلفاز والفيديو آلة الكمبيوتر الجديدة التي تفتح الباب للطارق وترد

على الهاتف وتسجل المحادثة وتقوم بعمل الترجمة الى عدة لغات وبرمجة عمل المطبخ وجدولة الديون الخارجية بالاضافة الى جيل (أطفال الأنابيب والذي حلل المشكلة العائلية وفكك العلاقات الاسرية تمهيدا لصنع (الزوجة الكمبوتر) بحيث يستغني رجل الأعمال عن عبء الزوجة وانجاب الأطفال بالطريقة التقليدية الطويلة المعقدة هذا اذا تجاوزنا قضية (الرجل الآلي) الذي باشر عمله في المصانع من خلال نظرية اقتصادية تحاول أن تلغي دور الفرد في علاقات الانتاج وقضية السباق مع الزمن تعني تخطي الحواجز الطبيعية في حياة الفرد في القفز الاكروباتي من مرحلة الشباب الى الرجولة بتحمل مسؤوليات اقتصادية واجتماعية واخلاقية يفرضها وضعه الاجتماعي ويقصر دونها نضجه العقلي ومزاجه الانفعالي وهذه احدى جبهات الحرب النفسية بين الانسان والزمن.

اختزال العمر :

ان هذه المحاولة لاختزال العمر هي مرحلة (المواجهة) بين الانسان والزمان بل أن ظاهرة الاغتراب في اطارها الصحي نوع من المبادرة الفردية في فتح جبهة جديدة في حرب الزمن حيث يستطيع الانسان فتح (ثغرة) يلتف بها حول انجازات ما كان يمكن أن يحققها بالطريق التقليدي فاختار طريق الاغتراب ليس فقط هروبا من واقع الحصار الذي فرضته الظروف الزمانية والمكانية بل محاولة مشروعة لاختزال رحلة العمر في مشوار الطموح الشخصي وعقد مصالحة شرف بين حق العمل وحب المال من أجل تكوين أسرة وبناء مسكن. وتوفير رصيد مادي يؤمن مستقبل الأطفال اذا ما وصلت مرحلة الاختزال سرعة الوقوع في أحد (فخاخ) الزمن لحظة المباغتة داخل طائرة مختطفة أو عبوة ناسفة في مركبة عامة أو طلقة طائشة في شوارع المدينة وهذه وسائل حرب جديدة في رحلة اختزال العمر حتى وصلنا عصر قنبلة النيوترون التي تقضي على الحياة وتترك المنشآت لأن بناء الانسان عملية شاقة ومكلفة ذات عائد بعيد واقامة المنشآت وظيفة اقتصادية سهلة وذات عائد سريع... نقطة جديدة ضد مصلحة الانسان.

دعوة للتفاؤل :

ان ما ورد في السطور السابقة مجرد نظرة متأنية لأحداث الحياة، وهي محاولة استبطانية تأملية لما كان يحدث في الماضي وما يحدث الآن وما قد يحدث في المستقبل وهي أشبه ما يكون باستقراء للأحداث في حياتنا العامة ولا ينتقص أو يزيد من قدر هذه النظرة انها كتبت من وجهة نظر خاصة قد لا تخلو من عيوب الانطباع بقدر ما تهدف الى الامتاع ولكن ما يدعو للتفاؤل أن يتذكر أنها تبرز لنا الوجه الحضاري في حقيقة حرب الانسان الذي أصبح يتمنى أن يمتد اليوم لأكثر من أربع وعشرين ساعة. والأسبوع لأكثر من سبعة أيام والسنة الى ما لا نهاية حتى يحقق بعض انجازاته اننا كثيرا ما نرصد في مفكرتنا أشياء نتصور بوسعنا انجازها في ساعات فتمتد الى أيام ان لم نفشل في انجازها على الاطلاق بصورة جعلت القدرة على الالتزام بوفاء وعد قطعته أو زيارة التزمت بها أو مقابلة ارتبطت بها قضايا يومية خارج نطاق المعيار الاخلاقي لأنها بالضرورة خارجة عن ارادة الفرد ولولا بعض العزاء في أن الناس يدركون حكمة (العبد في التفكير والرب في التدبير) لانقطعت وشائج المودة بين الناس وما يدعو للتفاؤل أن هذه الحرب غير المشروعة مفروضة علينا (ضريبة تقدم) وكلما تقدمت وتعقدت الحياة كلما ارتفع حجم الضريبة وتصاعد رقم الفاتورة واجبة السداد وشر البلية ما يضحك حيث أن أخطاء الفواتير كثيرا ما تعزى الى أخطاء الكمبيوتر رأس الرمح في هذه الحرب غير المتكافئة التي شعارها :

لعل أفضل ما يقال في السباق مع الزمن :

رب يوم بكيت فيه فلمّا ... صرت في غيره بكيت عليه

الجحيم هم الآخرون

قال الفيلسوف الوجودي الشهير جان بول سارتر (الجحيم... هم الآخرون) ورغم اختلافنا المتميز مع فلسفة سارتر الا أن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية... فقد شغلت هذه المقولة عقول المثقفين في الستينات وأثارت معارك جدلية ما زال غبارها يغطي مساحة كبيرة في المجال الفكري المليء بدخان المعركة التي وصفها أبو تمام في بيت الشعر:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا　　وأسيافنا ليل تهاوت كواكبه

ولعل من باب القول المعاد أن نكرر موقف سارتر فيما قال ولكننا ينبغي أن نصغي لاصداء قوله بآذان متجردة من الخلفية المسبقة وبزاوية مختلفة في مجال القول والفعل... أما القول فليس أصدق من حكمة زهير بن أبي سلمى حيث قال: (فان الحرب أولها كلام) مع الاعتراف بدبلوماسية عبارة (ما كل ما يعرف يقال) وفي مجال الفعل يندر أن يتطوع الانسان بادانة فعله مهما اختلفت قناعة الآخرين ومهما اتفقت في أن الخطأ من طبيعة البشر ولو كان الصواب من نصيب كل فرد حي لكانت الحياة نمطا غريبا من السلوك فالحياة ليست خطا مستقيما يربط بين نقطتين هما الموت والحياة والا أصبحت فيلما وثائقيا مفرطا في التكرار والرتابة لأن الانحناءات والمنعطفات تضيف الى حركة الحياة زخما جديدا من قوة الاندفاع وتنويعا رائعا من التجارب في الفكر والعمل.

والفكر والعمل صنوان فمن يعمل بلا فكر ومن يفكر بلا عمل يتساويان

في حصيلة العطاء. فالفكر المترف بالاستبطانات والتأمل جهد سلبي يفقد لذة العطاء والعمل المجرد من الفكر هبوط من قمة الانسانية الى حضيض الحيوانية لأن العقل هو مستودع الأفكار واذا عمل الانسان بلا فكر فقد حرم عقله من ممارسة حقه المشروع في حياة البشر.

يقولون من لا يعمل لا يخطيء وبقدر حجم العمل يكون مقدار الخطأ ودرجة المسألة وأخطاء الكبار كبيرة كما قال أبو الطيب المتنبي في سياق التعبير عن أقدارهم:

على قدر أهل العزائم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وكما قال الحكيم الصيني كونفوشيوس (اذا أردت أن تعرف رجلا فاعطه عملا) لأن العمل مقرون بالخطأ ولأن البشر غير معصومين والخوف من الخطأ ينبغي ألا يكون عقبة في سبيل العمل فقد قال تعالى (قل اعملوا وسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) كما قال تعالى (ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) اذن فالخير والشر مرتبطان بشرف العمل.

وقد يتساءل الانسان: كيف يعمل أو يتعامل؟ ان متطلبات التعامل متعددة ومتداخلة ومتكاملة... في سلسلة من حلقات الاتصال... متعددة من حيث طبائع البشر... ونوعيات سلوكهم ومتداخلة بحيث ما يرضي الانسان ذاته قد يغضب من يتعامل معه واذا رضي الطرفان فقد يغضب طرفا ثالث في دائرة المعاملة... ومتكاملة من حيث أن العمل الواحد له جوانب سلبية وايجابية تكمل هذه الدائرة الكهربائية التي تولد الطاقة التي يتحرك بها دينامو الحياة فيدور بنا في بورصة المعاملة.

ان التعامل مع الآخرين يقتضي قدرا من التنازلات... بعض الناس يقنع منك بالنوايا الحسنة والرغبة في السيرآلية فيتحرك نحوك خطوات أكثر والبعض على استعداد للقاء في منتصف الطريق... والبعض لا بد أن تصل الى داخل دائرته يفكر في الحركة نحوك ثم ماذا بعد؟ تأتي مرحلة

التعامل... فالبعض يرغب في تقديمك تنازلات قد تلغي انسانيتك وتهدد حقوقك وتنفق معه بأسلوبه وتختلف معه بطريقته حتى يبني جسور مودة من نسيج أعصابك ومادة نخاعك ويمثل هذا الحد الأدني من القبول لديه في بورصة المعاملة وفي أفضل الحالات يمكنك الاحتفاظ بحقك في الاختلاف والاتفاق بعد التنازلات السابقة لدى الضرورة وقد يتطلب الأمر تجاوز الضرورة ذاتها شكلا ومضمونا حتى تصل الى أرضية مشتركة في التعامل وقد تكون المشكلة هي من صنعه ووليدة موقفه ولكن قطار الحياة لا بد أن يسير ولن يوقف حركته سقوط فرد أو تقاعس جماعة ولعل الشاعر القائل (سافر فللأسفار خمس فوائد) كانت في ذهنه صورة رحلة الحياة في قطار مجهول الهوية لا بد لكل منا أن يسافر عليه ومن يكمل الرحلة قد يستمتع بأكثر من خمس فوائد ومن يرفض السفر فقد لا تتكرر له الفرصة، والتعامل مع الآخرين رحلة في مركبة ومن أداب السفر حسن اختيار الرفيق قبل الطريق واذا استحال بتبديل رفيق الرحلة فمن المستطاع بتغيير سير الاتجاه حتى نصل الى ذات الغاية محمولين على جناحين من صبر أيوب: طول الزمن. وفداحة الثمن.

ويقولون ماذا تكسب عندما تخسر نفسك وتكسب الآخرين... وهذا افتراض بأن ملكية الخيار في يد الفرد عند اتخاذ القرار والواقع يؤكد أننا في كثير من الحالات يكون رضاء الآخرين مفروضا علينا من موقع الالزام والالتزام مع العلم المسبق بأن (ارضاء الناس غاية لا تدرك) وان الخسارة الفردية ضريبة تعامل في بورصة الحياة، من أجل السعادة وقد لا تكون السعادة مكسبا ذاتيا بقدر ما هي بطاقة دخول الى حياة الآخرين في اطار البروتوكول المقبول لديهم وحتى اذا افترضنا من أجل تبسيط الحياة وخلوها من المنغصات أن قمة العافية في الرضا عن النفس فمن لا يرضى عن نفسه يصعب عليه ارضاء الآخرين وفاقد الشيء لا يعطيه. اننا في كثير من الأوقات مضطرون لقلب أطراف المعادلة للوصول الى الاجابة الصحيحة. بما أن أبجديات علم الرياضيات التي نتعلمها في المدارس كوسيلة لتعليم الفكر قدرة الاستفادة من المعلومات في حل مشكلات

مستقبلية. في الحياة لا كفاية في حشو الرأس بالمنهاج المدرسي السنوي فقط... هذه الفرضية تؤكد أن لكل مسألة حلا يبدأ بمقدمة موضوعية وخطوات علمية تقود الى نتيجة منطقية بحيث يكون مجموع المعطيات مرتبطا بمحطة النتيجة الا أن هذه الفرضية في الوجه المقابل قد تكون أوسع الأبواب للدخول في جحيم الآخرين... لأن من فخاخ التعامل الانساني وسيلة (الاسقاط) حيث يصبح الجحيم هو محاولة اسقاط أخطائنا على الآخرين باعتبارهم مخطئون ونحن على صواب والاسقاط في حد ذاته أحد حيل النفس الداعية وصمام الأمان في ايجاد توازن نفسي وتوافق ذاتي عند الانسان وفوق معدلات معينة يصبح ظاهرة مرضية تجعل الانسان نفسه جحيما للآخرين من فرط احساسه اللامنطقي بوهم عذاب الآخرين.

ان الانسان لا يمكن أن يعيش في فراغ، ومن قوانين الطبيعة ملء حدوث الفراغ فالآخرون هم الذين يملأون هذا الفراغ في حياتنا ويحددون اطار الصورة التي نعيش بداخلها ويعطوننا الحجم والشكل ويحددون لنا الزمان والمكان... ويرسمون لنا الحاضر والمستقبل... ويصبح الفارق الوحيد بين شخص وآخر في قدرته على التدخل في الوقت المعقول وبالقدر المناسب والأسلوب الأمثل للمشاركة في تحديد هذه الأبعاد حتى لا يجد نفسه يدور داخل اطار ليس من صنع ذاته وداخل قالب لا يناسب مواصفاته وفي زمان ومكان لا يحققان طموحاته... وفي حاضر يملك تغييره أو مستقبل لا يعرف مصيره.

فهل كان سارتر على حق حين قال: الجحيم هم الآخرون؟ مجرد تساؤل يستحق التفكير ولا يشترط اجابه.

اللغة... التراث... الجذور...

اذا نظرنا الى الهرم التقليدي في بناء الحضارات القديمة في تاريخ الأمم لوجدناه ـــ في أبسط صوره ـــ يتكون من ثلاثة عناصر ـــ اللغة... التراث... الجذور... وباختلاف الزاوية التي ننظر منها والمكان الذي نقف عليه يجد المتأمل في شكل وبنية الهرم من خلال المنظار المنصوب في قمة جبل أو المتحرك في ظهر مزكب في وسط البحر أنه لا يرى كل الاضلاع ـــ البعد الثالث للشكل ـــ أنه يرى قمة جبل الجليد العائم تحت الماء وعندما يغوص أكثر يجد جسم الهرم وعندما يصل الأعماق تبدأ رحلة الجذور الضاربة في أغوار سحيقة... اذن نلاحظ وجود ثلاثة عناصر مركبة بصورة هرمية كطبقات الصخور الجيولوجية أو شرائح التركيبة الاجتماعية... منظومة اللغة... التراث... الجذور من أعلى الى أسفل.

عنصر اللغة : اللغة هي اللبنة الأولى في بناء الهرم والدالة على طبيعته وتعريف اللغة ـــ وسيلة لنقل معنى للناس والتعبير عن حاجاتنا ورغباتنا للآخرين ثم التأثير في سلوكهم بتحوير وتغيير الاتجاهات سلبا أم ايجابا... وهي بهذا المعنى العام أهم عنصر في تكوين الهرم... أن اللغة (الهيروغلوفية) المنقوشة على جدران الاهرامات ومقابر الملوك وتوابيت التحنيط هي المؤشر على وجود الحضارة الفرعونية القديمة والميثولوجيا الاغريقية المنتشرة في التراث الأدبي العالمي هي حجر الأساس في فهم الحضارة اليونانية العريقة التي تغلغلت جذورها الى باطن الأرض في كل

يبدأ في هدم الهرم التقليدي الذي يعبر عن حضارة الأمة... والتخلف الحضاري أكثر خطرا من التخلف التكنولوجي لأن الأول أزمة أصالة أما الثاني فسباق معاصرة.

أشكال التراث : التراث يمثل جسد الهرم والقلب النابض في هيكل الأمة... والأمة بلا تراث كالوعاء الفارغ بلا محتوى... ان الأهرامات تراث تاريخي خالد لمرحلة من حضارة الشعب المصري وقناة السويس تراث لمرحلة أخرى... والسد العالي تراث لمرحلة أخرى... وكل مرحلة تحمل سماتها وتاريخها المميز ويمكن اقامة عدة هياكل متنوعة تحكي قصة التراث وتعدد أشكال التراث.وتعدد أشكال التراث يعكس عراقة تاريخ الشعب أو الأمة.

ان « الفولكلور » أي عادات شعب ما وتقاليده حكاياته وأقواله المأثورة والمحفوظة شفهيا هي في علم الاجتماع دراسة متكاملة لحياة الشعب كما تتجلى في هذه التقاليد وعلم الأجناس يعني بدراسة هذه الظواهر لرصد حركة نمو الهرم التقليدي لحضارة الأمة... واذا عرفنا ان اللغة هي وسيلة الرصد فان جمع التراث هو رضع اللبنات في تشكيل جسد هذا الهرم.

والميتولوجيا الأغريقية هي مجموعة الأساطير خاصة المتصلة بالآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال الخرافيين عند الشعب الأغريقي أمثال « بروميثوس » و« سيزيف » وقد وصل هذا التراث درجة من التأثير في ثقافات المجتمعات الأخرى احتلت مسافة كبيرة من التراث الأدبي العالمي وبدايات الأدب العربي المعاصر الذي طفح بالأساطير الأغريقية. وطقوس التحنيط التي كانت أحد أشكال التراث الفرعوني ورمزا الى « عودة الروح» انتقلت بشكل آخر لخدمة أغراض مختلفة في مفهوم الحضارات الأخرى.

وفي مجال الحضارة العربية نجد أن مؤلفات الطب والعلوم والفلسفة والاجتماع للرازي وابن سينا وابن رشد وابن خلدون كانت أكبر أثرا في الحضارة الغربية من تأثيرها في الحضارة العربية نفسها، فانتقال التراث بقوة الأثر والتأثير مثل تسرب الماء تحت الأرض يبدأ من نقطة بعيدة في العمق

وتظهر آثاره في موقع آخر من السطح وهذا يؤكد أن الهوية تعني اعادة صياغة الهرم التقليدي برؤية معاصرة تحفظ الأصالة الحقيقية برؤية مستقبلية واعية في مجالات العلم والتكنولوجيا تستكشف النماذج العربية القديمة التي نستوردها في أشكال هندسية معمارية غربية جديدة.

ان محاولات تأكيد الهوية العربية الاسلامية في اطار الأصالة والمتمثلة في قيام المباني الحديثة على الطريقة الاسلامية القديمة هي اتكاءة على الأصالة واستعمال المواد والأساليب الحديثة هي نقلة في اتجاه المعاصرة... رغبة توفيقية للسير في اتجاهين الى هدف واحد.

الأصالة والمعاصرة: يدور جدل طويل حول الأصالة والمعاصرة خاصة في هذه المرحلة من تاريخ عالمنا اليوم... ان محاولة صهر القوميات... وتقليص الشعوبية قد تكون صرخة بصوت أعلى من ذي قبل عندما كان شكسبير يحلم بقيام (الدولة العالمية) بحيث تحكم الناس علاقات اجتماعية واحدة في الاطار العام من خلال نظرة انسانية شاملة... وقبله كان يحلم أفلاطون بالمدينة الفاضلة (يوتوبيا) وبما أن المشاعر الشعوبية والاقليمية والمحلية طغت على هذه النظرة سار العالم في الاتجاه المضاد بخطى أسرع من تصور الحالمين عندما هبطوا بأحلامهم الى أرض الواقع.

ان أصالة الشعوب تقاس بعمق الجذور الحضارية والتحدي الحقيقي الذي يواجه المفكرين اليوم هو محاولة تقريب الشقة في صراع الأصالة والمعاصرة... ان أنصار المعاصرة يؤمنون بضرورة السير تحت مظلة العصر حتى اذا كان على حساب التراث، واتباع الأصالة يرون أنه بدون شهادة الأصالة تظل الأمة بلا تاريخ ميلاد... لأن التاريخ هو حركة الأحداث في رحم الماضي حتى مرحلة النقش على جدران المستقبل وهذا لا يتم في فراغ... وفي اعتقادي أن الأصالة هي حجر الزاوية في قيام بناية المعاصرة لأن المستقبل يعتمد في بنائه على استقراء الماضي واستشراف المستقبل والمعاصرة يمكن اللحاق بها ولكن الأصالة يستحيل الرجوع اليها اذا ماتت واندثرت من تاريخ الأمة.

أعماق الجذور: في علم النبات كل شيء له أصل تمتد له جذور... اذن شجرة الأصالة تمتد جذورها في باطن الأرض... ترسخ قاعدة أساسية للهرم التقليدي وان اقتلاع الجذور لا يعني (هدم) الهرم من القمة الى القاعدة وانما يعني (اقتلاع) الجذور... والهدم عملية تدريجية بطيئة متفاعلة موقوتة والاقتلاع عملية زلزالية مباغتة... والذين قرأوا أو شاهدو قصة (الجذور) للكاتب الأمريكي الزنجي (اليكس هيلي) يستطيعون ملاحظة عملية البناء الهرمي للتراث الحضاري للأمة بمتابعة رحلة الوصول الى الجذور... والذين شاهدوا « كرنفال جزر الهند الغربية » السنوي في قلب لندن النابض بالحياة في حي (تننج هل قيت) يشاهدون أحد أشكال التراث الزنجي المنقول من (جامايكا) الى نواة المجتمع الانجليزي عندما توفر له عنصر اللغة بانصهار اللغة الأصلية في اللغة المحلية... وأسباب الأصالة والمعاصرة... فوصلت جذور الكرنفال الى تقويم الدولة الرسمي وأصبح أحد مظاهر التراث المحفورة في ذاكرة المجتمع الانجليزي وفي قلب رجل الشارع... في أعماق جذوره وفي الحديث (ان الأمانة نزلت في جذور قلوب الرجال).

وهكذا نقلت اللغة التراث... وشكل التراث التاريخ... وصنع التاريخ الجذور... وقام الهرم.

لا تبخسوا الناس أشياءهم

كل انسان يفترض الصدق والحق فيما يقول ويفعل... وهو على حق في هذا الافتراض فيما يصدر عنه حتى يثبت الواقع بطلان صحة اعتقاده في عدم اقتران القول بالفعل أو تعارض الاثنين في الغاية والوسيلة. وحتى ذلك لا يقلل من شأن اجتهاده في العمل خاصة اذا كان منظوره للأمور من زاوية مختلفة عن الآخرين. وبطلان العمل ناتج عن خطأ التصور لأسوء النية فيبقى عليه تحمل تبعة الخطأ وله أجر المحاولة.

يقودني الحديث الى مدخل ظاهرة اجتماعية لا يخلو مجلس من الحديث عنها ولا تبرأ جماعة من التورط فيها ولا يسلم متحدث من الخوض فيها ولا ينجو مجتمع من المعاناة منها وهي خطيئة في حق الفرد والجماعة... صحيح أن بعض الناس يتوهمون في أنفسهم قدرات لا تتوفر فيهم وصفات لا تنطبق عليهم وأعمالا لا تتناسب معهم ولكنهم جميعا يربطهم ذلك الخيط الرفيع من التطلع الغريزي لتحقيق هدف أو اشباع رغبة أو بلوغ غاية... وبما أن ادراك الغايات لا يتحقق بركوب الأمنيات فلا بد من عمل تتحقق من خلاله هذه الرغبات وفضيلة العمل تكمن في حقيقة الايمان به. واذا قيل أن على المرء أن يسعى وليس عليه ادراك المقاصد ففضيلة السعي لا تكتمل الا بالايمان بسلامة القصد.

الوجه الآخر... للغيرة

تتميز مرحلة الطفولة بظهور مشاعر الغيرة (بفتح العين) والغيرة ظاهرة

بشرية غريزية موجودة في تركيبة الانسان منذ بدء الخليقة وهي لون من ألوان صراع البقاء في صورتها البدائية المصغرة وأسلوب من أساليب تقليم أظافر الآخرين وتحجيم قامات الطامحين في أشكالها العصرية المؤطرة. فالطفل بدافع الغيرة أول من يبادر فيبخس (بفتح الياء وتسكين الباء وفتح الحاء) أخوته حقوقهم في الأخذ والعطاء وهو سلوك طفولي مقبول حتى يتخطاه الطفل بفعل النضج العقلي واشباع رغبته في اطفاء نار الغيرة المشتعلة في اهتمام والديه بغيره... ونلاحظ في سن الشيخوخة (الخرف) عندما يحس المرء بالعجز عن مجاراة خطى الآخرين... والحنين الى أيام زمان... فهو يسقط شعوره بالعجز على العصر كله... فكل شيء لا يروقه وينتقص قيمة الملبس والمأكل والعادات والتقاليد الجارية وهذا السلوك نتقبله في اطار فهمنا لطبيعة مرحلة العمر قبل أن تصبح عاهة نفسية تجعل الحياة جحيما لا يطاق... وما يهمنا هو هذا الوجه الآخر للغيرة في شريحة الوسط بين الطفولة والشيخوخة.

مدخل للمشكلة

الغيرة عاطفة انسانية نبيلة في حياة الانسان. فالرجل يغار على أهله وعرضه (الغيرة الزوجية) ويغار على دينه وحرمة شرائعه (الغيرة الدينية) ويغار على كرامة وطنه وسلامة أراضيه (الغيرة الوطنية) ويغار على مكانته الأدبية والعلمية ويسلك كل سبل التنافس الشريف في سبيل الحفاظ على شرف مهنته « الغيرة المهنية » وهذه الألوان المختلفة من الغيرة هي الشعلة التي لا تنطفىء وتعطي الانسان لذة ملاحقة الأمل ومطاردة الأحلام بالعزم والعزيمة وفي هذا الاطار تكون الغيرة (وقود الحياة) وقوة أساسية في استمرار حيوية الفرد والمجتمع ولكن الخطورة تكمن في تحول الغيرة كظاهرة صحية الى « غيرة مرضية » حيث يرى الفرد في قوة الآخرين ضعفا له... وانتصارهم هزيمة له وفي هذه الحالة تتخذ الغيرة ثلاثة أشكال شكل التشاؤم والتحامل واتكاءة اللامنتمي لروح العصر بفلسفة المثل الشائع (لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب) ورغبة السباحة ضد حركة

الحياة واعتبار كل شيء يسير في الاتجاه المضاد... أشكال الناس... برامج التليفزيون... مباريات كرة القدم... سلوك الشباب... حكايات العواجيز... كلها عاجزة عن ملء الفراغ النفسي الهائل بداخله... والشكل الثاني حالة مجاراة (أو لعبة مباراة) مع سراب الوهم... وهم التفوق على الآخرين في المظهر والملبس والمسكن دون لحظة مراجعة مع النفس حول كيف بدأت الرحلة وأين نهاية المطاف.

والشكل الأخير حالة (احتراق داخلي) نزعة جسد... واذا كان تعريف الحسد هو تمني زوال نعمة الغير فان هذا الشعور في صورته المبطنة وغلافه الخارجي تتخذ شكل التقليل من شأن الآخرين أو الانتقاص من أقدارهم... فلاعب الكرة الموهوب مجرد محظوظ خدمته الظروف المواتية، والموسيقار المشهور يتسلق على سلالم ألحان الموتى من عمالقة الطرب القديم... والتاجر الذي أنعم الله عليه بمفاتيح الرزق قد سرق كنوز سليمان في غفلة من الزمن والموظف الذي نال وظيفة أعلى فصلت على يد المحاسيب بحجم مقاساته وقد يكون هناك بعض الصحة في بعض الشيء من هذا الكم الهائل من النوعيات ولكن يستحيل تطبيق حكم القلة على الكثرة وقد يصل سوء الظن الى حد خلع صفات على الناس تصل درجة من عفوية التعميم وعشوائية التقويم. ما لا يصلح فيها العطار ما أفسده الدهر لا في السر ولا في الجهر وما بعد الحقيقة عن الخيال.

الحديث ذو شجون

اذا قدر لك أن تتحدث الى هؤلاء الناس فستجد الاجابة على كل سؤال معلقة على طرف اللسان فالأحكام جاهزة والقوالب متوفرة فتتساقط عبارات السخرية من أفواههم كقطرات العلقم وتهوي كالسياط على ظهور العباد الذين يجترون الحديث (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله) متفق عليه.

وقد يكون في شكل تساؤلات استنكارية تحمل أكثر من اجابة. كيف حصل هذا على سيارة أكبر من مركزه؟ وهذا على سكن أغلى من راتبه ؟

وهذا على وظيفة أكثر من مؤهله؟ وهذا على محل لا يملك بعض قيمة أجرته؟ يتساءلون ويعلمون أن الله يرزق من يشاء بغير حساب. عطاء لا بخس فيه ولا شطط... ولكن في هذه الدوامة لا شيء يدخل الذاكرة كما قال المتنبي :

وإذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتــاده من توهــم.

عيون الحكمة

هذه نماذج متكررة من عينات عشوائية في المجتمع، يبخسون الناس أشياءهم يسألونك عن الشيء ليبرهنوا خطأ جوابك ويطيروا بعقل صوابك وتسألهم فيجيبون « كل هذا لا يستحق : لا يرحمون ولا يستمطرون الرحمة على رؤوس الاحياء ولا قبور الموتى قال تعالى (يا أيها الناس انّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم) دعوة مفتوحة الى محبة الناس... وفي الحديث (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله اخوانا). المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله ولا يكذبه كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه بحسب امرىء من الشر أن يحقر (أخاه المسلم) ويقولون أن اسم الرجل أحلى نغم لديه فلا تبخل بترديده عليه فتكسبه بأصغريه... قلبه ولسانه.

ورأس الحكمة مخـافة الله. فلا تبخسوا الناس أشياءهم... لأن النار التي تجعل « البيض » يتجمد هي التي تجعل « الدهن » يذوب ولسوف تذرونا رمادا مع رياح العاصفة التي تهب من كل الجهات وسوف تتناثر اشلاؤنا على كل الجبهات أو نتبادل جرعات الموت البطيء من شتى السموم وكثرة الهموم وليس هنالك هم أكبر من الشعور بالوحدة والاحساس بالعزلة وسط الشعور المتعاظم بالرغبة في الانتماء الى الآخرين والايمان بأن « من كان منكم بغير خطيئة فليرمها بحجر » فاذا كان معظم النار من مستصغر الشرر فان أضعف

الناس أقوى على الضرر... الضرر بنفسه وبغيره... وبأقرب الأقربين اليه مؤكدا قول أبي الطيب المتنبي:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

لا يصح الا الصحيح

ان من المواقف التي تؤدي الى اختلاف التوازن النفسي لدى الفرد وتدفع به الى ثورة الغضب أو روح الاستسلام وبمعنى أكثر دقة أن أصل الصراعات الداخلية التي تؤثر في سلوك الانسان سلبيا فتدفعه الى اندفاع متهور أو عزلة قاتلة هو عدم المواءمة بين رغبته في التجانس مع واقعة وحبه للحفاظ على دوافعه في الحياة.

وهذه ظاهرة معروفة... يسميها بعض الناس الفارق بين التجربة المتمثلة والتجربة المعايشة ويعرفها آخرون بحالة ازدواجية بين القول والفعل ويلصق بها آخرون تهمة (ذي الوجهين) الذي يأتي هذا بوجه وذلك بوجه.

الحلقة المفرغة :

حصيلة كل هذا ان الانسان أصبح يعيش أزمة نفسية حادة بين ما يرى وما يسمع وما يقال وما يقع فاضطربت حالته النفسية وعلاقاته الاجتماعية وحياته العملية وضعف الايمان عنده بصورة جعلت اللجوء الى عالم الكهان والعراف والمنجم وأصحاب الرمل وقراءة الفنجان ومطالعة برج الحظ بعض مظاهر التنفيس عن هذا الشعور بالاحباط في مسابقة الأحداث لمعرفة ما يخبئه له القدر من مفاجآت وما تخفيه له الأيام من أزمات وهذه أكثر سمات القلق في هذا العصر الذي امتدت مخالبه كالاخطبوط تلاحق

الانسان في كل منعطف من شوارع الحياة رغم قوله تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول) صدق الله العظيم. الا أن قسوة الحياة هزت كيان الفرد وخلخلت تركيبته الانفعالية وبنيته النفسية بحيث أصبح عاجزا عن الصبر والمجادلة أمام ضربات اليأس والقنوط فأصبح الفرد يخاف من قول الحق حتى لا يجرفه تيار الباطل بقوة اليد الشريرة التي تتحكم في قبضة الدفة في هذا البحر المتلاطم، ورغم كل الجرعات المنشطة للايمان الا أن الانسان ظل بعيدا عن مناصرة الحق وصحبة العمل الطيب حتى لا تنقطع دورة رزقه الصاعد والهابط في السلم الآلي الذي يعمل بزر كهربائي تحركه أصابع البشر... فلا يقدم ولا يؤخر في سبيل اصلاح خطأ أو تقويم اعوجاج حتى صار تجميل وجه الباطل بالمساحيق الحضارية تجارة رابحة لها أصول وبروتوكولات رغم نواقيس الذكرى التي يقرعها الحديث الشريف (قال رسول الله ﷺ من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) وبما أن أضعف الايمان قد وصل درجة تحتاج الى الدخول في (غرفة العناية المكثفة) لانقاذه من الموت البطيء فقد أصبح الفرد يتهيب كل موقف يدفع به الى العمل من أجل الاصلاح والتصحيح ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

قوة الحق :

ان من مبادىء التوافق الذاتي والاجتماعي أن يتعلم الفرد أن الحق هو الكاسب في نهاية السباق حتى لو كان يمتطي جوادا خاسرا في الرهان وأن الباطل هو الخاسر حتى لو كان ينطلق من مركبة (الرجل الخارق) والا لما كان هناك وعد بالجنة للصابرين والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس وما كان هناك توعد بالنار للظالمين والباغين والمفسدين في الأرض.

ان الساكت عن الحق شيطان أخرس. وهذه آفة الفرد الذي يحاول أن يكسب في صمت على حساب توطيد أركان العدالة... فعدالة السماء راسخة كالجبال وعدالة الأرض تحتاج الى عمد ممددة وأوتاد من الأيدي

والألسنة والقلوب فاذا شلت الأيدي وخرست الألسن وضعفت القلوب فهذا من فعل الشيطان في قوله تعالى (قل أعوذ برب الناس) سورة الناس آية (٤) فالوسواس القهري أحد الأمراض العصابية التي تشل حياة الانسان فيصبح القول (اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب) كلمة حق أريد بها باطل لأنه لا حياد في الحق... ولا توجد منطقة ظل بين الأبيض والأسود في حدود الله. وقد قال سقراط أن من مبادىء الصحة النفسية (أعرف نفسك) ومعرفة النفس تبدأ باصلاح ذواتنا لأن الطلقة لا تخرج من البندقية الصدئة ولا يمكن أن يتصدى للتصحيح من يقصم ظهره الاعوجاج.

فمعركة الحق والباطل تقتضي أن تكون أسلحتها شريفة وجنودها يحملون أوسمة الشرف... شرف الكلمة... وقوة الارادة... ونقاء السريرة... وكنوز المعرفة وقدرة المواجهة للشدائد... وشجاعة الكر والفر في موقف النصر والهزيمة.

بداية الطريق :

ان الكمال لله وحده ولكن الانسان يستطيع برباطة الجأش ورجاحة العقل أن يسيطر على نفسه ومفتاح السيطرة من دلائل الصحة النفسية لأن من يريد أن يصلح الآخرين فليبدأ بنفسه فلن يستقيم الظل والعود أعوج فلا طاعة لعاص... ولا تبعية لجاهل ولا حرمة لفاسق. فأركان العمل الصالح لا تؤثر فيها رياح الأزمات ولا أعاصير الفساد وجبروت الطغيان والاضطهاد والعمل الصالح ليس له بداية ولا خاتمة يبدأ منذ صرخة الولادة وينتهي عندما تفيض الروح وهو كالجوهرة الثمينة والمعدن النفيس ولا تزيده النار الا توقدا وشعاعا...

الفصل التاسع

* رؤية فلسفية

١ ــ حوار حول مطاردة الظل
٢ ــ بقايا حوار حول مطارة الظل
٣ ــ أنواع الصراع ونوعية الحلول
٤ ــ من أجل عيون الحقيقة
٥ ــ التفاؤل والتشاؤم ونقطة الوسط

حوار حول... ملاحقة الظل

كتب أحد الكتاب في احدى الصحف المحلية مقالة تحت عنوان (انك أنت العالَم) (بفتح اللام) مجموعة تأملات استبطانية فلسفية تثير وتناقش مشاكل عملية هامة... وتمثل مدخلا صغيرا الى قضايا فلسفة الحياة... القضايا التي أقامت حواجز نفسية بين الانسان وذاته... وبين الانسان والآخرين... حتى أصبحت محاولات القفز فوق سور هذا الوهم شبه وساوس يومية تقض مضاجع الناس في دوامة البحث عن اجابة للسؤال : كيف أبدو أنا، وكيف يراني الآخرون ؟

يقول الكاتب « أنك في داخلك... فلا تبحث عن نفسك في الخارج... لن تجد نفسك في غيرك... ولن تجدها في المال ولا المنصب ولا النفوذ... انك فقط في عملك وفي علمك... وفي صبرك... وفي ايمانك ويقينك... في داخلك يدور الكون الحقيقي... ويستقر العالم... وتمضي الحياة... ».

وأسرد لكم هذه الواقعة كنموذج واقعي لأحد المداخل الصغيرة للترجمة العلمية للخواطر الفلسفية الواردة في المقالة...

نوع الحوار

رن جرس الهاتف وكان محدثي في الجانب الآخر رجلا لم تسعدني

الأيام بمعرفته، يطلب مقابلتي في مسألة خاصة ذات معنى عام. وبعد محادثة قصيرة وتحديد الزمان والمكان كان هذا اللقاء... يصعب كثيرا على الذي لم يجرب مثل هذه المواقف أن يتخيل كيف يبدأ الحديث من فراغ... وكيف يدور الحوار من نقطة الصفر... وبعد لقاء أكثر من ساعة ودون دخول في تفاصيل كانت هذه خلاصة الحوار :

حدثني الرجل عن حالة أرق وشعور بالانقباض... وقد شدني صدق لهجته... وثاقب نظرته... وسعة ثقافته وهي صفات اذا اجتمعت في سن ما قبل الأربعين كانت عند المرء من أجزل النعم... وقد قاوم هذه الحالة فترة طويلة حتى وصل الى طريق مسدود يثقله الشعور بعدم الرضا عن نفسه والآخرين.

قال لي : لقد جئت للعمل في وظيفة مجزية وتركت أسرتي في البلاد حتى ندبر شؤوننا في الخارج. وبحكم علاقاتي الواسعة في معاشرة الصحاب ولقاء الأحباب عشت سعيدا مع شلة الأنس في بداية أيام حياتي هنا... ننفق أوقاتنا في انفاق المال... وحسن الحال... والقيل والقال...

قلت له : لماذا تقول ذلك ؟

قال لي : هذا ما جئت به اليك... وبعد أن أدركت الى أي مدى دفع بي الآخرون في هذا الطريق وكانوا أول من ابتعد عني عندما توقفت عن السير فيه دون سابق انذار أو التماس الاعذار.

قلت له : ماذا حدث... ولماذا توقفت... وكيف ؟

قال : لقد حضرت أسرتي من البلاد... ووجدت وقتي موزعا بين أعمالي الرسمية وحياتي الأسرية والاجتماعية... فالوقت لم يعد كافيا لتبديده... والمال لم يعد مجزيا في أحسن حالات وجوده والعمر من منطق الأحداث فرض علينا تحديد نقطة حدوده في خريطة الالزام والالتزام في كل مجالات الحياة... فتغيرت حياتي في نظري الى الأفضل وفي نظر الآخرين الى الأسوء... فانفض سامر الأصدقاء... وانقطع حبل الود في

السراء والضراء... وعشت في شبه عزلة داخل محيط الأسرة... أشتاق الى العودة الى سيرتي الأولى... ويعذبني الشعور بالمسؤولية تجاه عملي وأسرتي وأطفالي الذين كونوا لهم صداقات جديدة أصبحت طرفا فيها... متفاعلا فيها... متأثرا بها... وخروجي من هذه الدائرة يعني كسر حلقة جديدة تكونت في حياتي.

لعبة المواقع

لقد بدأت أحسن أن شيئا بداخلي قد تغير... فأصبحت أكثر حرصا على المال... لا حبا في المال... ولكن خوفا من ذل السوّال... وأصبحت أشد مقتا للقيل والقال لأننا من فرط. نهشنا في اللحم... ونخرنا في العظم... وحرقنا من الأخضر واليابس بدأ ينتابني شعور بالغثيان كلما قابلت قدامى الأصدقاء... وبدأت أهرب من اللقاءات المنظمة واللقاءات العفوية... وكلما شعرت بالقرب من نفسي... رغبت في البعد عن الآخرين... وتبدلت مواقع الآخرين... فوجدت أن الذين كان بيني وبينهم ود مفقود أصبحوا أقرب الى نفسي وأحب الى قلبي رغم ما أشبعوني ذما... في غيابي وحضوري... وتساءلت ان كان حبهم لي عشقا لنمط حياتي الجديد... أم أن تقربهم مني كان نكاية بالأصدقاء القدامى... أم ان الاثنين معا.

فقلت له : وماذ يزعجك في هذا الموقف ؟

قال لي : ما يؤرقني حقا ان الذين اختلفوا معي بعد وفاق... والذين اتفقوا معيّ بعد شقاق... هم فيما بين بعضهم متفقون... يقبلون بعضهم على علاتهم... رغم وقوفهم مواقف متناقضة... الا أنهم لا يناصبون بعضهم العداء... بينما أقف في الوسط... ولست مقبولا من الطرفين وكأني بهم يقولون لي « احفظ عليك لسانك... وليسعك بيتك وابك على خطيئتك ».

قلت له : أي وسط، وبأي مقياس... أنت تقف في الوسط بمقياسك أنت... فأنت في الأصل كنت على اتفاق مع طرف على حساب الآخر...

وعندما اختلفت في النهج مع ذلك الطرف وجدت نفسك تلقائيا في اتفاق مع هذا الطرف... والواقع أنهم كانوا وما زالوا في الأصل على خلاف... ولكن اتفاقهم واختلافهم كان ولا يزال حولك أنت... فأنت تبحث عن نفسك في الخارج... وترى ذاتك من خلال صفات الآخرين...

فلسفة الصراع

ان هذه الواقعة تطرح بعض الحقائق التي اذا نظرنا اليها من خلال معطيات المقالة نجد أن أصل المعادلة الصعبة يكمن في فلسفة الصراع بين الحق والباطل... فعندما كان الرجل على باطل كان له أنصاره ومعارضوه. وعندما رجع الى الحق كان له أنصاره ومعارضوه... فمجد الصراع يؤكد أن الحياة ليست حقا مطلقا يكون الرجوع فيه. غاية الفضيلة... لأن فضيلة الرجوع الى الحق تكون على ذمة رذيلة البقاء على الباطل وسيلة. وحكمه « خير الأمور الوسط » هي محاولة فض الصراع... وفك رموز المعادلة الصعبة بحيث يوطن الانسان نفسه على الايمان واليقين بأنه ان ضل سواء السبيل وجد نفسه بين قادح ومادح. ولو اهتدى الى الصراط المستقيم وجد موقعه بين الرفض والقبول... وعليه أن يحدد نقطة الوقوف في هذا الطريق... وعليه وحده يقع عبء هذا الاختيار ».

والصراع الذي يمزق الفرد... بين النفس في شتى صورها... النفس الامارة بالسوء... والنفس اللوّامة... والنفس المطمئنة... فالأولى تدفع دفعا الى التهلكة والثانية تشد الخناق في دائرة مغلقة بين تأنيب الضمير ويقظة الحس وكبح جماح الغرائز والثالثة هي الوسط... والوسيط... لا افراط ولا تفريط... فالمغالاة في هوى النفس خدعة والغلو في زهد الحياة بدعة... وفي المرض والسواء فان السيرة والسلوك لا تقاس « بترمومتر الحرارة » وانما بالملاحظة والمقارنة والقياس ولا تعالج بالمسكنات والأقراص وانما بالتحوير والتغيير وعلى الانسان وحده تحمل مسؤولية هذا التغيير « ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ».

عود على بدء

يقول كاتب المقال « انك أنت العالَم »... فحاول أن تكون عالما قويا... خذ بأسباب القوة ودع عنك الضعف والخوف... ودع عنك غيرك... ان أحدا لن يحاسب عنك... واحدا لن يحمل عنك ما حملت »...

ويستطرد الرجل في حديثه لي : لقد بدأت أتراجع... فلا يمكن أن يكون الآخرون على خطأ وأنا على صواب فاذا كان الفريق الأول مخطئا والثاني مصيبا... أو كان كلاهما على خطأ أو صواب فأنا في النهاية على خطأ في كل الحالات...

قلت له : ماذا تجني... اذا خسرت نفسك وكسبت الآخرين، خاصة اذا كانت الخسارة في غير موقعها، وقال تعالى « من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازره وزر اخرى... وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا صدق الله العظيم ».

قال لي : ان قلبي مفعم بالايمان... ولا أظنني سوف أخسر كثيرا... وقد فقدت لحظة مصالحة مع النفس... وكلمة رضا من الآخرين عندما عابوا على حياتي الأولى وكانت تضحية لهم... وسخروا من حياتي الثانية وهي صدقة مني لسعادة الآخرين.

قلت له : اذن أنت تدرك أن الناس يريدونك كما يشاؤون... ويشكلونك كما يحبون فان أطعت ربك فيما يغضبهم كرهوك... وان عصيته فيما يرضيهم أحبوك... وأنا لا أحدثك من منصة الوعظ فما أهلك أوائل المسلمين غير غلاة المتفيقهين... ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق... الا ترى هذه من البديهيات في باب المعاملات.

غاية لا تدرك

قال لي : الا تعتقد أن الحياة تصبح بلا معنى عندما يشعر المرء أنه

أصبح عاجزا عن التوفيق بين حياته وحياة الآخرين... خاصة في هذه المرحلة من العمر.

قلت له : ان المسألة ليست تصنيف القلة من الكثرة، ولا تحليل الجزئيات من الكل، فرب قلة مؤمنة تنصر قضية وتكسب معركة أفضل من كثرة غالبة تحارب بلا عقيدة... فالقضية في تحديد الموقف نفسه... موقفك من نفسك... ومن الآخرين... ونظرتك للحياة من خلال قناعاتك ومدى توافقها مع هوى الآخرين... في اطار المجتمع الذي تعيش فيه... وفي حدود الانضباط بالتوقيت الزمني الذي تتم فيه عملية التفاعل... فما كان مقبولا بمعيار الأمس... قد يصبح مرفوضا بمقياس اليوم... والتوافق عملية لا تتم خارج اطار الزمان والمكان الذي يعيش فيه الانسان.

قال لي : انني أفكر في العودة للبلاد... فقد تساعدني علاقاتي القديمة وصلاتي الحميمة على اعادة التوازن النفسي الذي افتقدته مع الآخرين... عسى ولعل...

قلت له : أنت سوف تنتقل بذات النفس التي لن تنسلخ عنها... ولن تتركها مع بقاياك هنا... وسوف تلتقي بالآخرين ذاتهم في ظروف جديدة وقناعات مختلفة داخل ذات الاطار القديم... وسوف تتكرر لعبة المواقع... سوف تستبدل بالأزمة الحالية « أزمة جديدة... قد تكون أكثر حدة... وأشد ضراوة... وقد تجد أن أسلحة الأمس غير صالحة لمعركة اليوم... فقد تجد الآخرين وقد تغيروا أكثر مما تتصور... وقد يجدونك تبدلت الى الأسوأ والأخطر... وتبدأ أزمة مختلفة في الشكل متفقة في المضمون... أزمة ثقة مع الآخرين... من طراز فريد في الرؤية والتصور... فابدأ بنفسك أولا... هنا... وأقول لك... وأخيرا فان رضاء كل الناس غاية لا تدرك وملاحقة الظل عقدة لن تنفك.

فلم يحدثنا التاريخ عن بشر فاز برضاء كل الناس... ولا بنفر نجح في ملاحقة الظل... وأجمل الأيام لم نعشها بعد... وأحلى الأشعار لم تكتب بعد...

فابتسم لأول مرة وسألني مازحا : لماذا يقولون عني انني « غريب »، قلت له ضاحكا : هذا وصف المقتدر في قاموس العاجز... والله أعلم.

بقايا... مطاردة الظل

ذكرت في الواحة السابقة تحت عنوان « حوار حول... ملاحقة الظل » ان رضاء الناس غاية لا تدرك وملاحقة الظل عقدة لن تنفك... وأكدت في البداية أنه مدخل صغير الى قضايا كثيرة تؤرق مضاجع الناس كالوساوس اليومية.

وصدق ظني عندما تحرك الهاجس بعد نشر المقالة مباشرة في ردود الفعل المتواترة المتباينة لدى قطاع القراء... في الصحيفة... الهاتف... الرسائل... والمقابلات وكانت الحصيلة أكثر دقة وأعمق دلالة في تأكيد المعنى الذي تناولته وامعانا في التحديد فقد صنفت ردود الفعل الى ثلاث فئات... فئة خاصة... تعاملت مع المقالة من زاوية المعرفة الشخصية... وفئة متميزة... استقرأت الحقائق بمنظار الهوية المهنية... وفئة عامة... تناولت المقالة في اطار العمل العام بدون سابق خلفيات.

وحتى يتخذ التحديد أبعادا موضوعية فقد كانت ردود الفعل كالآتي... الفئة الأولى اعتبرت الشخصية رمزا وتجسيدا لموقف خاص له دلالات عامة... والفئة الثانية نظرت الى الموضوع كقضية مهنية تتناول حالة فرد مواطن من أبناء بلدي وتعبر عن احداث تدور في نطاق الأسرة الواحدة. والفئة الثالثة، أخذت المقالة على علاتها بكل عفوية القاريء الذي تناول الصحيفة وفي ذهنه ثلاثة عناصر... طبيعة صفحة (الواحة) وهوية الكاتب

المهنية والمجال الذي يعمل فيه... ومجموعة الحقائق المذكورة من منظور محايد... والحقيقة كانت نسيجا من كل هذه الخيوط مجتمعة وقد أخذت كل فئة من النبع قطرة دون الوصول منفردة الى أصل النبع الذي تفجرت منه الحقيقة.

ولو تحدثنا بلغة علم النفس... ووضعنا الموضوع في اطار آخر ملتمسا العذر في استخدام التعبير في موقف مغاير... فان المقالة كانت أشبه باختبار الشخصية (الروشارخ) وهو أحد الاختبارات الاسقاطية الذي صممه (روشارخ) لاستنباط ما يدور في نفسية الفرد تجاه موقف معين من خلال رؤية بضعة معطيات بطريقة غير مباشرة... ومع مراعاة ضرورة التقنين والتحليل للاختبار والذي لا يكون في شكل مقالة وانما خليط من الرسومات والخطوط مع بقع الحبر على قطعة ورق ومطلوب من الفرد (القارىء) استخراج مضمون الصورة... الحركة... الخ... وتكون الاستجابة اسقاطا لما يعتمل في نفسية الفرد يختلف باختلاف الشخصيات... وهذا ما حدث في تحليلات القارىء لعناصر المقالة.

ورغم قناعتي باختلاف وضع الاختبار في ظروفه المقننة من وضعه في اطار مقالة صحفية تحت مظلة واسعة في صحيفة عامة يقف تحتها جمهور كبير من القراء بشتى المزاجات والقناعات... الا أن حصيلة التساؤلات كانت بعيدة عن اختلاف نفسيات الناس في التعامل مع القضايا التي تطرح من خلال أعمدة الصحف.

وأهم من كل هذا... اضافة جديدة وهي أننا في كثير من الأحيان لا نرى الأشياء كما هي قائمة أمامنا بالفعل ولكن كما تعودناها أن تكون في الأصل... ربما أن الهوة بين ما نريده أن يكون وبينما هو كائن تتسع وتضيق طبقا للظروف الموضوعية التي يعيش فيها كل منا في حدود معينة فان خلاصة التأكيد تأتي من جديد... ان رضاء الناس غاية لا تدرك... وملاحقة الظل عقدة لن تنفك لو أريد للأولى الشمول ولو أريد بالثانية الوصول الى تلك الغاية.

استبيان رأي

من خلال ملاحظة أخرى حول مدى توافق ردود الفعل بين شخصية القارىء.. خلاصة الموضوع والموقف من القضايا المطروحة في الصحيفة وضحت حقيقة جديدة حول نوعية القارىء... ومدى تأثره بالموضوعات سلبا أم ايجابا... ويمكن بكثير من التبسيط تقسيم القراء الى نوعيات ثلاث... قارىء «المانشيتات» والصفحات الأولى... وهذا القارىء يمثل شريحة النبض الاجماعي الذي يحب أن يكون له رأي في كل قضية... وحديث في كل مجتمع... وقارىء « التخصصات ») الذي يهتم بنوعية معينة من الموضوعات... متخصصة في مجالات دينية... ثقافية. فنية ــ رياضية. أما لأنه طرف فيها بالمشاركة أو الرزق أو الهواية... والثالث قارىء « المناسبات » مسطح المزاج... الذي لا يعني بصحيفة دون الأخرى ولا صفحة دون غيرها ــ ولا موضوع دون آخر... وقد يقرأ من أجل المتعة والتسلية وقد لا يقرأ اطلاقا اذا لم يتوفر المناخ النفسي الخاص والمزاج المناسب... وقد يقرأ العناوين أو الأسماء أو الموضوعات كاملة دون هذه جميعا.

ولو أردنا أن نضع المقالة في شكل استبيان رأي كمدخل آخر لتحليل ردود الفعل علما بصعوبة تصميم الاستمارة... ورصد الاجابات... وتحليل النتائج وعمل الاحصائيات في ظروف بعيدة عن الوضع الامثل لمثل هذا العمل الا على نطاق واسع فان نتائج الاستبيان الراهن تكون في ثلاثة اتجاهات... القارىء الأول كان على قناعة تامة بأن نقطة الارتكاز في الموضوع خلفية سياسية أخذه في الاعتبار التوقيت الزمني للموضوع وهوية الكاتب والظروف الموضوعية الخاصة داخل مجتمعه هنا وهناك وحتى من خلال هذه النظرة كانت المواقف متأرجحة بين الرفض والقبول كل من زاوية خاصة تؤكد :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما ان عين السخط تبدي المساويا

والقارىء الثاني كان يحاول ايجاد (خصوصية) تربط بين موقف الكاتب الخاص ومواقفه العامة من خلال نشاطات اجتماعية أخرى ومحاولة الوصول الى نتيجة عادلة بين الموقف المطلوب من الكاتب ومناقشة قضايا تدخل في مجال تخصصه مثلما تفرضه على شخصيات تربوية وأدبية تناقش قضايا في مجال عملها... وتنظر الى أي مدى يتوافق أو يتناقض موقف الكاتب مع توقعات القارىء.

والقارىء الثالث... أما انه لم يقرأ الموضوع اطلاقا أو اكتفى بالعنوان أو قرأ الموضوع بدون الاهتمام بالكاتب أو طاف حول اضلاع المثلث وطوى الصحيفة دون اهتمام أو وقف في منتصف المقالة... مع ملاحظة أن الذي يقرأ الموضوع من النهاية صاعدا الى أعلى أو من البداية متدرجا الى أسفل يجد في نقطة الوسط ملخصا للموضوع.

المدخل الثالث

لقد ذكرت في البداية أن هناك أكثر من مدخل لمناقشة أكثر من قضية في هذا المجال... واذا خرجنا من المدخل الأول والثاني... فان المدخل الثالث يؤكد مرة أخرى الحقيقة... أننا لا نرى الأشياء ـــ في كثير من الأحيان ـــ بالشكل الذي تعودناه... وفي علم النفس ونظرية (الجشتالط) وهي بالالمانية ـــ حيث قامت النظرية ـــ تعني الكلمة (شكل أو هيئة) وتقول ان الكل ليس مجموع الاجزاء... وهي نظرية هامة في التعليم والتذكر ودراسة الدوافع الشخصية وتؤكد أننا نحاول دائما أن نعطي الأشياء معنى خاصا (شكل أو هيئة) حتى ترتبط في أذهاننا بصورة يسهل اختزانها واسترجاعها، أي أننا في سبيل ذلك نحاول أن نملأ الفراغات ونضع النقاط على الحروف ونصحح الأخطاء المطبعية في قراءاتنا بدافع لاشعوري حتى تكتمل الصورة المثالية في أذهاننا... ولذلك نعطي الأشياء الصورة المفروضة لا الحقيقة الماثلة... مثال أن نرى الشكل البيضاوي في الأصل أقرب الى الدائري في الرؤية... ولو أخذنا لعبة المكعبات نجد أن

الكل ليس مجموع الأجزاء فنحن نستطيع أن نعمل من هذه الأجزاء المتفرقة عدة نماذج وتصميمات مختلفة في الشكل (الكل) رغم أنها مكونة من ذات (الجزئيات) وهي محاولة منا لملء الفراغ... واكمال النقص... واعطاء الشكل المفروض لا النموذج المعروض رغم أن الدافع يفرض علينا أن نتعامل مع الحقائق دون اضافات أو تحريف واذ كان لا بد من هذه الاضافات فلتكن عملا واعيا لا رد فعل لاشعوري يخضع للمناخ النفسي والخلفية الذهنية والخبرات السابقة والا كانت مضاعفات هذا تفريخ الاشاعة وسيكلوجية الاعلان وعمليات الاسقاط التي قد تصل مرحلة الاعتقادات المرضية الخاطئة... وهذه بداية المنعطف الخطير.

النموذج الآخر

وكنموذج آخر للمدخل الثالث في هذه القضية أذكر أنه قد نشرت لي قصيدة وجدانية في الصفحة الثقافية قبل أسابيع يرجع تاريخ القصيدة الى اكتوبر ١٩٦٦ وقد سقط هذا التاريخ من ذيل القصيدة وهو مثبت في قلب الديوان الذي طبع عام ١٩٦٨ فكانت ردود الفعل تصنيفا دقيقا لنوعية القراء... بين موقف الاعجاب بشكل ومضمون القصيدة كعمل فني بحت لدى القارىء العادي... وموقف الدهشة والاستغراب بين مضمون القصيدة والموقف الاخلاقي لدى القارىء الذي يضع فواصل بين الابداع الأدبي والالتزام الخلقي في كل عمل يصدر عن الفرد... وبين الاحتواء والاستقطاب عند ذوي الميول السياسية في محاولة ايجاد الرمز في القصيدة بحيث تصبح المناجاة العاطفية في الداخل حوارا سياسيا في الخارج... خاصة اذا كان التوقيت الزمني يلازم الهدف ويخدم القضية... وهو تأكيد من نوع آخر... اننا نرى الأشياء كما نريدها لا كما تحدث في الواقع... حتى اذا اقتضت هذه الارادة حدوث اضافات وتحوير بما يتناسب وهوانا ويرضى رغباتنا وهذا يضيف بعدا جديدا للحقيقة التي تكرز نفسها في ملاحقة الظل.

أنواع... الظل

أتصور فيما حدث ــ وآمل ألا يكون هذا من باب الأمنيات فقط ــ ان في خلاصة المقالة تعبيرا عن مشاعر الكبت... وفترة استراحة في (ظل) الواحة... ولحظة التقاط أنفاس في سباق الماراثون الذي نمارسه ليلا ونهارا في مطاردة الظل... واذا لم يجنح بي الخيال فقد كان نوعا من الترويح النفسي أو التفريغ العقلي كما يسميه الأطباء النفسانيون لكثيرين ممن رأوا في الوجه العاكس للمرآة اجساما أخرى تتحرك في نفس اتجاهاتهم وتحمل ذات همومهم... وغاية الترويح النفسي أن يدرك الانسان أن بعض الغايات نوع من الظل لا يمكن ملاحقته فيكف عن المطاردة... وهذه احدى صور القناعة... الكنز الذي لا يفنى... وان كان في متناول اليد الا أنه خارج المجال البصري أو دائرة الرؤية اليومية للانسان.

وقد يكون الظل... نفوس الآخرين... كيف نتعامل معها نؤثر فيها... نسيطر عليها... وعندما يتحقق لنا ذلك يتعداها الى كيف نتحكم فيها بحيث نضعها في القوالب الجاهزة التي تناسب مزاجنا وتخدم رغباتنا والا أصبحت عبئا علينا نسعى للتخلص منه أو نتبارى في الاخلاص له.

وقد يكون الظل... ظل الانسان نفسه... رغباته التي لا تقف عند علو الوظيفة... ومثالية الزيجة وعدالة توزيع الذرية في الذكور والاناث... وفخامة البيت... وضخامة الرصيد... بل يتجاوز مضاعفة هذه الأمنيات الى قطع تيار النور الأحمر في فاتورة الخسارة وهي أحد أصول المعادلات الحسابية.

وقد يكون... الظل... الوهم... الشيء الذي نخاف منه ولا ندري ما هو، ونخشى أن يحدث ولا نعرف متى، ونتوجس من وجوده ولا نعلم أين، وهذا وهم الخوف من المجهول... وهي صفة ملازمة للانسان... منذ ولادته في غرفة منفردة يعبر عنه بالبكاء حتى يصل أعلى مراحل النضج ثم يبتدع شتى الوسائل للتعبير عن هذا الخوف... وهي قدر الفرد حتى يموت... حين تقعده الشيخوخة في غرفة منعزلة يعبر عنها بالبكاء حين

يصل أولى مراحل النكوص الى النمط الطفولي في السلوك المتمثل في الافراط في التعلق بالحياة... وحب الذات... بقايا مطاردة الظل... من الولادة حتى الشيخوخة.

اذن يبقى السؤال... في كل زمان ومكان... في كل مراحل العمر... بكل اللغات واللهجات من الذي يطارد الظل؟ والاجابة... في كل حالات اليقظة... وفي أقصى درجات الوعي، نحن جميعا ذلك الرجل... الفقير الذي يطارد الثراء... والغني الذي يطارد القناعة... والمريض الذي يطارد العافية... والعقيم الذي يطارد الذرية... والساهر الذي يطارد النوم... ولا يكف عن هذه المطاردة من كل هؤلاء الاحياء جميعا الا ذلك الحي الذي أدركه الموت أو المسافر الذي فاته القطار... ورغم كل ذلك يظل المسافر في انتظار القطار القادم... والميت في انتظار البعث الجديد.

أنواع الصراع... ونوعية الحلول

من المؤكد أنه مهما كانت امكانيات الفرد في التغلب على المشاكل، فان ظروف الحياة تفرض عليه نوعا من الضغوط لا حيلة له عليها مثل الحاجات التي تتطلب التلبية، والعقبات التي تحتاج للتخطي، والاختيارات التي تحتاج الى الحسم والمعوقات التي تستنفذ كل وقود الصبر والاحتمال.

ان كل انسان يحاول أن يوجد وسائل معينة لحل الصراعات وعندما تخفق محاولاته في الوصول الى هدف معين، فان طبيعة هذه الحلول لمواقف الاحباط هي التي تحدد الى درجة كبيرة قدرة وكفاءة الفرد على التكيف مع الحياة... فالقدرة على تحديد نوع الصراع... والكيفية في ايجاد نوع الحل يكون بعض مفاتيح الشخصية.

ان لدى كل انسان مجموعة دوافع حية في وقت واحد... وأهدافها قد تكون متعارضة في ذات الوقت... وعندما تتصارع رغبتان فان تحقيق واحدة يعني اسقاط الأخرى... فالطالب قد لا يستطيع في كل الأوقات أن يكون رياضيا مبرزا وفي ذات الوقت أكاديميا قادرا على احراز أعلى المعدلات في الامتحان... وحتى عندما تكون هناك رغبة واحدة فقد تكون هناك عدة وسائل لتحقيقها وقد يحدث الصراع في النقطة التي تتلاقى أو تتفرع منها هذه الوسائل لتحقيق هذه الرغبة... مثلا قد تكون للطالب فرصة الدخول الى عدة كليات ولكن اختيار الكلية المعنية قد يكون موقف صراع

وعلى الرغم من القدرة على اختيار واحدة في النهاية فان التقدم نحو الهدف قد أعاقه ضرورة الاختيار ــ لحظة الوقوف أمام الأخذ بأحد البدائل المطروحة... ومن أهم الأساليب للانسان في فهم أنواع الصراع هو تصنيفهم وشرح المصنفات في ضوء هذه الحقائق.

أنواع الصراع

يقسم علماء النفس أنواع الصراعات الحياتية في أبسط صورها الى ثلاثة أنواع حسب النوعية في التركيب والاسلوب في الحل... هناك صراع (أحجام ــ أحجام) ــ حالة تحدث عند موقفين سلبيين أو موقفين ايجابيين أو موقف واحد له جانب سلبي وجانب ايجابي والصراع يتمثل في الاختيار بين بديلين غير مقبولين (أمران كلاهما مر) كمحاولة الخروج من ورطة معينة والدخول في أخرى مشابهة، وهذا يأخذ وقتا أطول للحل... ان يجبر الطفل على أكل طعام لا يرغب فيه أو ينام بلا طعام، أن ندفع الفرد الى أكل مال الغير أو لقاء الموت جوعاً وهذه أخطر الصراعات في حياة الانسان... ان الصراعات الحقيقية توجد أكثر من بديلين.

وحتى في هذه الظروف فان الأمر ليس بهذه البساطة... وهناك حالة صراع (اقبال ــ اقبال) عندما يجد الانسان نفسه بين موقفين محببين ومتناقضين فانه يتمزق بالصراع... قد يوجد موقفان ايجابيان لاختيار بديل واحد كأن تختار أحد الأطعمة من قائمة الوجبات المقدمة في الفندق فيتم الاختيار بعد فترة وجيزة من التفكير بدون تردد مذهل أو أثر مستمر لدى الانسان الطبيعي. أما اذا كان القرار هاما بين موقفين متعادلين في الجاذبية فقد يكون الصراع قويا خاصة لدى الأطفال... عند الاختيار بين لعبتين... اختيار واحدة يعني فقدان الثانية ولدى الكبار الاختيار بين شراء سيارة جديدة أو ادخار المبلغ للطوارىء. وهناك صراع (الاقبال ــ الاحجام) ان لدى الانسان دوافع كثيرة مرغوبة وغير مرغوبة في نفس الوقت ممكنة

ومستحيلة، ايجابية وسلبية كالطفل الذي يرغب في الذهاب الى المدرسة ويخاف من فراق الأم... كالسيدة التي ترغب في أكل الحلوى وتخاف من السمنة... وهذا الصراع من أكثر الصراعات التي يجب فهمها لأن معظم صراعات الحياة من هذا النوع.

فالزوجان يلتقيان... يختلفان... يفترقان ثم يلتقيان... في الفراق تحيا الجاذبية المتبادلة وتموت حدة الكراهية... وفي اللقاء يحدث النقيض وقد يبدو هذا الأمر غير منطقي للمراقب ولكن عندما تتضح ابعاد الصراع تبدو حقيقة الموقف... فالرغبة في الملذات الحسية كالتدخين اختيار أكثر من رغبة... الخمر وأضرارها... الوازع الديني وضعف السيطرة على النفس، والهرب من المسؤولية، ولذلك نجد أن صراعات الاقبال والأحجام في مجتمعنا أكثر حدوثا وأشد صعوبة في الحل لأنها تتطلب اتخاذ القرار المناسب في ثلاثة مجالات وحالات متداخلة... فالحالة الأولى هي الاستقلال والاتكال... الرغبة في الاتكال على شخص يحل مشاكلنا ويتحمل أعباءنا ثم شعورنا الداخلي بأننا يجب أن نتعلم الاعتماد على أنفسنا منذ الصغر كعلامة النضج والمسؤولية... والحالة الثانية هي التعاون والتنافس...

ان حب المنافسة والتفوق رغبات متأصلة في الانسان منذ الصغر في المنزل والمدرسة والكلية ثم حياة العمل والوظيفة... وفي نفس الوقت تتنازعنا فضيلة حب التعاون وروح الزمالة والتغاضي عن (الغيرة المهنية) والتفاوت الاجتماعي وهذه مواقف متناقضة تقود الى صراعات تحتاج الى حلول... والحالة الثالثة التعبير الاندفاعي والضوابط الخلقية... ان كل المجتمعات تضع ضوابطها على السلوك الاندفاعي... وتربية الأطفال تعتمد كثيرا على وضع تقاليد مقيدة للسلوك. ان غريزة الجنس والعنف من أكثر المجالات اصطداما مع المعايير الاخلاقية وخرق هذه المعايير قد يولد شعوراً قاتلاً بالذنب. وهذه هي المجالات التي يحدث فيها أخطر الصراع... والفضل في ايجاد حل يوفق بين هذه الصراعات يؤدي الى

اضطرابات نفسية خاصة لدى الشباب في مرحلة المراهقة ولدى الكبار في صراع البقاء على المال والسلطة والشهرة...

آثار ومضاعفات

ان استمرارية الصراع أو الفشل حل الصراعات المتأزمة يولد الاحباط كنتيجة طبيعية لأي اعاقة أو تأخير أو تدخل في تحقيق هدف الفرد وقد تكون شخصية الانسان هي سبب الصراع أو تكون البيئة المادية سبب أحد هذه العوائق كالتكيف على الحياة في ظروف زمانية ومكانية معينة أو تكون البيئة الاجتماعية المؤثرة بفعل المحاذير والضوابط التي تضعها على سلوك الفرد عن طريق عادات الأفراد وتقاليد المجتمع ورغم كل ذلك فان أكثر النقائض التي تؤدي الى الاحباط توجد داخل الفرد نفسه اما جسدية أو نفسية... ان بعض الناس يعوقهم الصمم والبكم والشلل وبعضهم تقعدهم حالات نفسية تفرض عليهم طموحات يكمن حلها في عزاء النفس مكررا القول بأعلى درجات اليقين:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه　　　تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

وما كل شخص يستطيع ادراك رغباته في أن يكون رساما مشهورا أو موسيقارا مرموقا أو مهندسا ناجحا بحيث اذا طغت رغبات الانسان على رصيد قدراته فان نصيبه الاحباط بصنع يده ومحض ارادته ومن الأثار المباشرة للاحباط عند الانسان في الحياة اليومية في المكتب والشارع والمنزل هي الشعور بالملل وكثرة الحركة والسلوك المتوتر في المكتب كالرسومات الهذائية والشخبطة على الورق وتحريك أطراف الجسم وفي المنزل فقدان السعادة وكثرة الشكوى عند المرأة وعند الأطفال قضم الأظافر ومص الأصابع وأحلام اليقظة وعند الكبار الافراط في التدخين ومضغ العلك أو اللامبالاة والجمود... وفي الشارع شدة الانفعال والتوتر المدمر بالعنف كالركل والمشاجرة... وحوادث الطريق والسباب الى آخره.

ان الآثار العاجلة للاحباط هي في حد ذاتها وسائل انحرفت عن طريق

صراع الاحباط وليس مجرد اعراض وانما محاولات حل مبتورة... واذا كان الحل ناجحا فتخطى الحواجز ولبى الحاجات انتهى الصراع... ولذلك عندما نصف الفرد بأنه مصادم أو مسالم... قانع أو متشكك انما نتحدث عن الطرق التي يسلكها عادة في حل الصراعات... نصف ذلك الوجه المألوف لدينا... وليست الشخصية المتوارية خلف شتى الأقنعة والمساحيق... السرداب الذي يحتاج الى عدة مصابيح وحزمة مفاتيح... لأن نفسية الانسان أغوار سحيقة يصعب علينا فهمها فنكتفي بالحكم العام أو الانطباع الذي هو مجرد قراءة في تعابير الوجه أو محاولة تفسير للسلوك الظاهر ويصعب على الانسان نفسه فهمها وهذه من أكبر مشكلات الحياة في عالم اليوم... هي أقرب ما تكون الى النبوءة أو علم الغيب وهذا لا يعلمه غير الله...

ومن هنا نبدأ... من هذه الحقيقة الواحدة... في اعادة صياغة عدة حقائق... في الفرد... والمجتمع... والبيئة، أليس ما يحدث الآن هو الرغبة في العودة الى هذه الحقيقة لنعرف نوع الصراع ونوعية الحل.

من أجل عيون الحقيقة

استوقفني في مطالعتي للصحافة المحلية في الأسابيع الماضية أخبار متفرقة عن حوادث الانتحار بطرق مختلفة أعنفها الموت شنقا وأعمار مختلفة تتصدرها مرحلة العشرين والأربعين وفي امارات مختلفة تتقدمها المزدحمة بالسكان والمليئة بالتوتر والقلق... ومن جنسيات مختلفة أكثر الضحايا هم المنعزلون اجتماعيا لظروف كثيرة وبصفة عامة أكثر وقوعا وسط الرجال وأكثر المحاولات من النساء.

وما يستدعي الاشارة اليه أن مصدر اكتشاف الحالة يكون الشرطة وأخطر منه أن التحقيق أثبت في بعض الحالات أن المنتحر كان يعاني من مرض نفسي باعتراف الأهل... فبقدر ما ارتفع الوعي الجنائي لدى رجل الشرطة باثبات واقعة الانتحار بقدر ما يحز في النفس ضعف الوعي الصحي لدى الأهل في ملاحظة أعراض المرض النفسي الذي يؤدي للانتحار.

وشأن كل الأمراض النفسية ينتظر الجميع لحظة الانفجار... أو نقطة الانهيار وكلنا يعلم من قوانين الطبيعة أن أي جسم يتعرض الى ضغط كاف ينكسر في نقطة الضعف... فلا التهديد المبطن... ولا الوعيد الخفي... ولا العزلة المشبوهة ولا الحزن الأسود الذي يظلل حياة الفقيد مؤشرات كافية لتحريك ضمير أي فرد لأن يفكر في استشارة طبيب... أو مساعدة قريب في تبرير السلوك غير الطبيعي الذي تتميز به تصرفات الفرد المكتئب قبل وقوع الحادث الذي يصبح الشاهد الوحيد فيه أول الغائبين في ساحة التحقيق.

ان الاقدام على قتل النفس عن طواعية واختيار... باصرار مسبق أو نزق طارىء... له جذوره الممتدة في العمر الزمني الى السنوات الأولى من الحياة وفي التحليل النفسي الى آخر طبقات عمق الشخصية.

ان القارىء للأنباء المتفرقة عن حوادث الانتحار في الأسابيع الماضية تتأكد له حقيقة واحدة أثبتها الطب النفسي قبل عشرات السنين... وحذر منها الأطباء النفسانيون ولكن، شأنهم في معاناتهم المهنية بكسر حواجز الدجل والخرافة... والتميز بين العلمي الخاضع للتجربة والنظري المتجرد من فضيلة البحث وسط جهل طوفان أفراد السيرك المتحرك في ساحة علم النفس ضاعت أصواتهم في ضوضاء المدينة... مدينة اليوم التي تورمت من آلام الآلات التي تسحق أعصاب الفرد. وضعف نبضها من شدة الخفقان الذي أبلف قلب الانسان... هذه المدينة دخلت في غيبوبة العصر الحديث... وهي صورة أخرى من الانتحار الجماعي بتعاطي المهدئات والعقاقير المخدرة للحس والعقل وترفض مواجهة الحقيقة التي تقول « من غير الطبيعي أن تكون طبيعيا في ظروف غير طبيعية ».

أقول لقد بح صوت الطب النفسي عندما نشرت أكثر من دراسة حول ظاهرة الانتحار في المجتمع الشرقي والغربي وكتب أحد أطباء علم النفس الاجتماعي في مصر دراسة مستفيضة في مجلد معهد الدراسات الشرقية في لندن حول ظاهرة الانتحار في المجتمع الشرقي والغربي... عرض وتحليل للدوافع والمسببات... وتوصل الى حقائق هامة تؤكد أن المجتمع الشرقي الذي يتميز بصفات التماسك الأسري والترابط العائلي وقوة الايمان بالقضاء والقدر في قوله تعالى في سورة الاسراء « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرفن في القتل انه كان منصورا » صدق الله العظيم... هذه الايجابيات التي تقابلها سلبيات المجتمع الغربي حيث يخرج الابن عن طاعة والديه في سن المراهقة وتنتشر دور رعاية اللقطاء... وحضانة المنبوذين ورعاية الجانحين... وتترك الزوجة أطفالها بحكم القانون... هذه الصورة جعلت الشعور بالعزلة والحاجة الى

الحنان والرغبة في الانتماء أساسيات حياتية يفتقدها الفرد في أكثر لحظات الضعف البشري فيرتد الى نفسه محاسبا الى درجة القتل.

ولكن حقيقة أخرى أثبتتها الدراسة وهي أن قوة الرقيب (الضمير) أو الشعور بالذنب أكثر صرامة عند المجتمع الغربي مما جعل الفرد في حالات الاكتئاب النفسي عرضه لتأنيب الضمير القاسي... بحيث يحمل نفسه ما لا طاقة لها به... ويتهم نفسه بكل مصائب العالم فترتد سيكلوجية عدوانه الى نفسه فيلجأ للانتحار حتى أننا نقرأ في المجلات الغربية من يقتل نفسه وأطفاله حتى يخلصهم من المعاناة النفسية لا يعصمه قوله تعالى « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا » صدق الله العظيم.

ولكن في المقابل نجد سيكلوجية العدوان في هذه الدراسة تثبت أن الرجل الشرقي يميل الى الاسقاط... القاء تبعيات فشلة على الآخرين فتكثر جريمة القتل لا الانتحار وقد أبرز الكاتب هذه الظاهرة في صعيد مصر والأرياف الشرقية تنفيسا لرغبات عدوانية مكبوتة.

هذه الدراسة التي نشرت قبل أكثر من عشرات أعوام... رغم بعض عيوب التعميم فيها الا أنها كانت بداية مثيرة لدراسات خصبة في ظاهرة الانتحار نضع يدنا على مفتاح الحقيقة التي ضاعت في زحمة الجدل الطوبائي في علم النفس.

والآن وقد انقلب الهرم التقليدي في تركيبة أكثر المجتمعات الشرقية والغربية... وقال تعالى « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسف سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » صدق الله العظيم.

علينا أن نراجع حساباتنا القديمة وأن نعود الى ملفاتنا المنسية لنرى كيف كانت الصورة قبل عشرة سنوات خيث كان مجرد وقوع حادثة انتحار عاراً على الأسرة وفضيحة في المجتمع... وقضية ليست في متناول الشرطة في المجتمعات الشرقية...

والآن تقرأ بالعناوين والمانشيتات العريضة أنباء حوادث الانتحار... لقد كتبت في مقالة سابقة ان « القلق » طاعون العصر الحديث وأرجو الا يصدق ظني في أن ما نطالعه هو القلة النادرة لكثرة الغالبة التي تظل مخبوءة تحت غطاء التقاليد والعرف الاجتماعي.

ان الانتحار ما زال عندنا جريمة حتى الآن تقع تحت طائلة القانون ولا نريد طواعية أن نصل درجة الانهيار النفسي الذي يصبح فيه ظاهرة مرضية تفرض نفسها على المجتمع في كل المستويات وفي أعلى درجات الخطر بحيث نضطر الى فتح مستشفيات خاصة لمتابعة حالات محاولة الانتحار... أو وحدات طوارىء ومراكز انعاش كما انشىء في جامعة ادنبرة باسكتلندة لعلاج محاولات الانتحار التي وصلت في المجتمعات الغربية نسبة عشرة في المائة من أسباب الوفيات وسط جيل العشرينات حقيقة مؤسفة ومن أجل عيون الحقيقة أقول لكم : الا بلغت اللهم فأشهد...

التفاؤل والتشاؤم ونقطة الوسط

ان الحياة جميلة بمقدار جهدنا فيها... قبيحة بنوعية منظارنا لها ومقياس التفاؤل والتشاؤم يتفاوت في ميزان الحياة باختلاف الكم والكيف أو الحجم والنوع في العمل، فأطنان الوزن من العمل المتصل قد يسقط أجر صاحبه في حساب الكيفية والنوعية... فيكون اختلال القياس جزءا من أصل المعادلة... وهذه مصيدة الاحباط التي يقع فيها الكثيرون نتيجة قناعات بأعمال ترجح كفة الشكل على المضمون... فرب ذرة من عمل صالح خير من قنطار وفره من جهد مشبوه.

ان الحياة لا تسير على وتيرة واحدة أو نمط معين لأن التنوع والاختلاف أساس تكوين الانسان... حتى لو كانت هذه الوتيرة أنغاما شجية وافراحا متصلة من التفاؤل ففي النهاية قد تدفع بالانسان الى كسر حلقة الرتابة والدخول في رحابة التفاؤل اذا فتجاوز النقيض حدوده المعقولة يولد النقيض الآخر. ويؤكد حقيقة أن الحياة مزيج من التفاؤل والتشاؤم... النجاح والفشل... الالم واللذة... الضيق والفرج... الانطواء والانبساط... الفرح والغضب ثم الموت بعد الحياة.

نقطة الوصول :

كثيرا ما يغرق الانسان في التشاؤم نتيجة الشعور بالجهد الضائع أو يفرط في التفاؤل ضحية الاحساس بالحظ المواتي ويفكر ويقدر...

وتضحك الاقدار... ومشاكل أكثر الناس في أغلب مجالات الحياة وليدة محاولة الوقوف في أحد طرفي الخط المستقيم بداية من اللاشيء الى اللانهاية... فالبداية لا بد أن تكون من نقطة الصفر أما نقطة النهاية فليست لها حدود وهي في علم الغيب... فنقطة الصفر عند البعض قد تكون موقف الاحباط يبدأون منه وينتهون اليه وعند البعض اثارة الشعور بالتحدي لبلوغ أطول مدى في هذا الخط الطويل ومعظم الناس يقعون في نقطة الوسط... والوصول الى نقطة الوسط في حد ذاته يحتاج الى جهد معقول وعطاء مبذول يفوق جهد محاولات الوصول الى أحد طرفي المستقيم... التشاؤم أو التفاؤل أو صعوبة البقاء في القمة (وحتى الذين يصلون قريبا من نقطة النهاية قد يعانون نفس الشعور بالاحباط عندما يرصدون المسافة التي تفصل بينهم وبين نقطة الوصول للحقيقة.

وبوابة دخول هذه المتاهة تؤكد أن الحياة عمليا ليست خطا مستقيما كما يتخيل البعض له نقطة بداية ونهاية في مسار مسطح وحسابيا ليست الخط الذي يوصل بين نقطتين. من أقصى اليمين الى أقصى اليسار أو من أعلى الى أسفل... ان الحياة تسير تارة في شبه منحنى جرسي وتارة في شكل دائري وأخرى في شكل موجات متلاحقة في بحر هائج... وهذه المنحنيات والدوائر والتموجات تدخل في تكوينها عناصر عدة أكثرها خارج ارادة الفرد... وان كانت في حدود رؤيته الشعورية حسب قدرته على قراءة الأحداث من خلال الواقع.

منطقة الظل :

يتضح أن معظم الناس يقعون في منطقة الظل... ما بين الأبيض والأسود، وحقيقة أن الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات يؤكد أن منطقة الظل هي محيط الدائرة التي تدخل فيها هموم أكثر الناس وتقذف بهم الى داخل هذا الفك المفترس في صراعهم للوصول الى (جزر الوسط) في محيط الحياة.

من المؤسف أننا نعيش زمان رهان على كل شيء، ومحنة هوان في كل شيء، رهان الانسان بحياته وأسرته رغبة في الخلاص من قبضة الأبيض والأسود وهوان الانسان بآدميته في صراعه للخروج من عنق الزجاجة التي طفحت باحزانه اليومية وأفرزت الأزمات النفسية والاجتماعية التي يعيشها المجتمع المعاصر وهو يمشي في الرمال المتحركة كلما أوغل في السير غاصت قدماه في أعماق سحيقه... فلا التقدم الى الأمام ممكن ولا العودة الى الوراء سهلة... ويظل الانسان يتحرك (مكانك سر) حتى الاعياء... ويجلس في لحظة حساب مع نفسه في صراع الأرقام... ورصد حساب الربح والخسارة مستعذبا حالة الدوران التي يصورها ثلاثة شعراء :

فيقول ايليا أبو ماضي... شاعر المهجر الكبير :

أيها المشتكي وما بك داء   كن جميلا تر الوجود جميلا

ويقول فيلسوف المعرة... أبو العلاء المعري :

تعب كلها الحياة فما   أعجب الا من راغب في ازدياد

ويقول بشار بن برد :

اذا كنت في كل الأمور معاتبا   صديقك لن تلقي الذي لا تعاتبه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى   ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

فأين نقطة الوسط... في منطقة الظل ؟

طريق العودة :

ان غريزة البحث عن نقطة الوسط توجد حتى في أكثر قطاعات المجتمع خروجا عن معايير الاعتدال.

ان جماعات (الهيبز) التي بدأت من التشاؤم المفرط نتيجة الفقر والضياع ولجأت الى المخدرات والعنف رفضا للواقع وهدما للقيم ثم وصلت أعلى مراتب الشهرة والثراء تحت ظل التفاؤل المفرط وبين الانتقال من النقيضين في المواقف ظلت تبحث عن بديل... عن هدف في الحياة

يعطي الحياة معنى... وتحضرني أغنية للمطرب الانجليزي الشهير (كلف رتشارد) بعنوان (عد لي أيها المسيح) اكتسحت أسواق أوروبا في السبعينات وحملت جماعات الهيبز لافتات غطت ساحة بيكاديللي والطرف الآخر حول الهدف الجديد (العودة الى المسيحية) حتى أن المجتمع الانجليزي أصيب بحالة ذهول عندما وجد جماعات الرفاة والمخدرات تملأ شوارع لندن بشعارات (العودة الى الكنيسة Back To Christianity).

بعد تجريب كل أنماط الحياة من التفاؤل والتشاؤم ووجدت أن الحاجة الى الايمان بها هو الخيط الرفيع الذي بقي ليربط الانسان بعجلة الحياة المعطاءة، ويبدو هذا أكثر وضوحا في أغاني المطرب الزنجي (بوب مارلي) في الدعوة لحرية الانسان من عبودية الفساد والمادة ومحاربة العنصرية والصهيونية وأعطى قيمة جديدة لحياة جيل الانحراف.

وفي الجانب الآخر نشر في ذات الوقت كتاب (الحاجة الى الايمان) للكاتب الأمريكي ديفيد وولتر (The Need For Faith) أثناء فضيحة ووترجيت ابان المعركة الانتخابية الأمريكية حول علاقة الناخب بالمرشح حيث يؤكد ضرورة العقيدة : دينية... فلسفية... سياسية... اجتماعية في برنامج أي مرشح كصفة أساسية للتمتع بثقة الناخب ويؤدي خطورة عدم وجود خلفية فكرية للمرشح... تمثل صمام الامان في حركة المرشح في الاتجاه الصائب نحو القرار الصحيح... وتمثل البوصلة في يد المواطن العادي الذي يستطيع أن يرى بها الاتجاه المتوقع لسير حركة الحاكم تجاه الأحداث... ويؤكد أن الفرد المتجرد من قيد الايمان بفلسفة أو هدف محكوم بتذبذب المواقف... وتقلب المزاج ويصعب ضبط حركاته المتأرجح في فراغ.

في الاتجاه الآخر :

ان الروح الميكيافيلليه التي تسيطر على المجتمعات المعاصرة بشعار (من ليس معنا فهو ضدنا) قد وضعت الانسان بين فكي الرحى بصورة

جعلت خيارات الانسان محدودة في التعامل مع الواقع وأخطر الخيارات حتمية السير في أقصى الاتجاهات سواء الوقوع في متاهات (صوفية) سلبية مستسلمة ترفض الواقع جملة وتفصيلا أو اللجوء الى أنظمة ايديولوجية متطرفة تهدف الى تغيير هذا الواقع شكلا ومضموناً او محاولة اجتناب الموقفين في نظرية (مثالية) ترى الحقيقة المطلقة كامنة في عالم يتعدى الظواهر ويعطي المظاهر الجمالية قيمة أسمى من الصفات الشكلية وهذا لا يبدل واقعنا الحاضر أو نظرية (برجماتيه) تحاول جادة الاستشراف العملي للأمور والمشكلات وهي تتخذ من النتائج العملية مقياسا لتحديد قيمة الأفكار الفلسفية وصدقها وهي بهذا المعيار فلسفة عملية واقعية ولكنها انتهازية متقلبة... وبين طقوس الصوفية والمثالية البرجماتية يجد الانسان نفسه مشدوداً للبحث عن مخرج صدق في الحديث (فوالله الذي لا اله غيره أن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها). صدق رسول الله.

* كلمة أخيرة :

ان التشاؤم الحذر خير من التفاؤل المفرط لدى قلب عقول ولسان مسؤول، وهذه بداية تحديد نقطة الوسط...

الفصل العاشر

* قضايا سيكلوجية

١ ــ بين البصر والبصيرة

٢ ــ فضيلة الثقة بالنفس

٣ ــ السيطرة على النفس

٤ ــ شجرة ثقة أم غابة علاج

بين البصر والبصيرة

ان البصر أحد الحواس الخمس التي ندرك بها العالم حولنا نتأثر به ونؤثر فيه وما من حركة أو سكون الا ويتم من خلال مدركاتنا الحسية له من خلال هذه الحواس... والبصر حاسة الرؤية كوظيفة جسدية وحاسة الادراك كاداة سلوكية فنحن لا نبصر الشيء أي نراه فقط ولكننا نكون سلوكا معينا نتيجة هذه الرؤية. وفي مختار الصحاح (بصير بالشيء أي علم به فهو بصير ومنها قوله تعالى (بصرت بما لم يبصروا به) والتبصر هو التأمل والتعرف والتبصير التعريف والافصاح ومنه قوله (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) والابصار لا يكون مجرد فعل ورد فعل وانما يكون عملية تفاؤل متكاملة... فنرى الشيء... وندركه ونحلله... ونكون عاطفة نحوه سلبية أو ايجابية ونسمي هذا الشعور حالة انفعال.

والبصيرة هي الحجة والاستبصار في الشيء في قوله تعالى (بل الانسان على نفسه بصيراً) ان حجة عليها... ونفاذ البصيرة يعني قوة الفراسة وشدة المراس وقوة الحنكة والقدرة على تخطي العقبات الحالية بالخبرات السابقة المتراكمة بتطويعها وترويضها والاستفادة منها في رؤية حلول لمشاكل جديدة... وهذا ما يسمى بالتفكير الاستبصاري وهو أعلى مراحل الرقي في تدرج الفكر الانساني فوق مرحلة التفكير المتحجر أو العياني لدى الطفل والحيوان وقد ميز الله الانسان عن الحيوان بنعمة الفكر بالاستبصار حيث يتدرج الطفل من التفكير بالمحاولة والخطأ والتعلم بالشرطية والتقليد،

والمحاكاة الى مرحلة الاستبصار أي جمع حصيلة التجارب الفكرية القديمة ومزجها في خليط جديد لمواجهة مشكلة مستجدة عليه في المستقبل ولذلك خاطب الله الانسان في أكثر من موقع (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وتفسير الآية يحمل في طياته أن التبصر أعلى مراحل الوعي عند الانسان بمشاكل نفسه برؤية مجرّدة لا تتحقق الا اذا وصل درجة من العقل ترقى به الى قوة الملاحظة والاستنتاج والاستدلال والتحليل.

وفي الحياة العامة نلاحظ عند عامة الناس بعض الشواهد... فعند أهل السودان كلمة (البصير) تعني الحكيم أو الذي يملك الخبرة في المعالجة والمداواة بالكي والنار أو الأعشاب أو جبر الكسور وآلام الظهر والصداع وقد يرادفها عند أهل الخليج (المطوع) اذا صدق ظني وان كانت كلمة البصير عند أهل السودان تحمل من الصفات الطيبة أكثر ما تحمل من الملكات الروحانية والشاهد في كل هذا أن الفارق بين البصر والبصيرة قد يكون صحيا كقنطرة تربط بين طرفين أو مرضيا كحاجز يفصل بين نقيضين.

فالشطر الصحي في الفارق يكون حاسة البصر قنطرة عبور الى واحة البصيرة... ولهذا التكامل الذي يعطي الانسان صورته السوية وجه ادراكي ووجه تحليلي ونحن لا يمكن أن نحلل الشيء الا اذا أدركناه ولا يمكن أن يتغلب الوجه الادراكي على الوجه التحليلي والا فقدنا لذة الاستمتاع بالرؤية فاذا ضاع وقتنا في تحليل شكل الوردة وامتزاج خطوطها نفقد الانفعال بها وما تثيره فينا من عاطفة دهشة ومسرة واذا ضاع في الانفعال بجمال الواردة ونكهة عطرها فقدنا فرصة التعلم من هذه الظاهرة التي بين يدينا لأن المعرفة في حياتنا تتكون من التقاط هذه الجزئيات الصغيرة التي تتكون منها موسوعة الثقافة العلمية الكبيرة التي تميز فردا عن آخر... فالمعرفة هي الجزئيات المنشورة منظومة في عقد واحد بطريقة خاصة للغاية يعطي كل فرد نوعية ثقافية وسواء كانت هذه المعرفة من باب الادراك العام أو التخصص الدقيق فهي نبت الحواس ونتاج العقل فاذا كانت البصيرة تمثل

الحاسة فالبصيرة تمثل المدخل الى العقل أن نتخيل وجود الحاسة السليمة في غياب البصيرة الواعية... حالة ذهول... والشطر المرضي في الفارق يحدث عندما يتعطل عمل الابصار عن وظيفته الادراكية لما ترى فيكون الشخص المبصر المعافى غير قادر على التفاعل مع معطيات الرؤية فيفقد العاطفة والانفعال لأن الانسان السوي عندما يبصر شيئا يفسره بشكل خاص تبعا لمعلوماته السابقة ويكون استجابة داخلية لها تغييرات جسدية وعقلية يصاحبها أخرى خارجية مستمدة من البيئة التي يعيش فيها الفرد... ومثل هذه التغييرات قد تكون لفظية (كلمة) أو حركية تعبيرية في ملامح الوجه أو الجسم وعندما يفتقد الانسان القدرة على الجمع بين عمل البصر والبصير تنشل حركته الفعّالة والمؤثرة والمدركة لطبيعة الأشياء.

ان كثيرًا من الناس الذين يكتب الله عليهم فقدان البصر يعطيهم القدرة على التعويض بالحواس الأخرى... فنحن ندرك العالم من خلال الحواس الخمس مجتمعة ولكننا لا نستطيع أن ننفعل بأحداث العالم بدون البصيرة فهي التي تجعل انفعالنا منضبطا ومنسجما ومتجاوبا بالقدر الذي نبصر به الشيء فرؤية الشيء المخيف تجعلنا نشعر بالارتجاف، وهي حالة انفعال وعاطفة خوف لأننا (نبصر) ما تنطوي عليه خطورة الموقف ومن يفقد البصيرة يفقد نعمة الاستجابة الطبيعية للمؤثرات الخارجية ولكننا نستطيع أن نبصر الشيء المخيف بحاسة السمع... كصوت الانفجار... ونباح الكلب وزمجرة الرعد... وننفعل بنفس الدرجة لأن قنطرة العبور مفتوحة وسليمة... وعطاء البصيرة لا يتوقف فقط عن حد الاستجابة السوية للمثير الواحد فقد يكون للمثير الواحد أكثر من حالة استجابة... فقد يثير فينا رؤية الشخص الواحد عدة انفعالات كالاعجاب، والفرح والخوف والرهبة كاستجابة ايجابية أو انفعال الكراهية والتقزز والغثيان وهذه استجابة سلبية أو خليطا من الاثنين وحتى الحيوانات تتمتع بهذه الصفات بقدر مختلف من الانسان هو الفارق النوعي والموضوعي بين خصائص الانسان والحيوان ولذلك خاطب الله الانسان مرات عديدة (أفلا تبصرون) (أفلا تعقلون)

مما يؤكد أن البصيرة نتاج العقل وليست وليدة البصر... وكثيرا من المبصرين لا يعقلون وبعض العقلاء لا يبصرون ولكنهم يملكون قدرات خيالية في مجال العطاء والابداع... كتابة... وشعرا... ونثرا، يبصرون بقلوبهم لأن الجسر الذي يربط بين البصر والبصيرة ممتدا سليما فلا كلت قلوبهم ولا عميت أبصارهم.

الا تدفعنا رؤية الطعام الى الاندفاع بدافع الشهية وغريزة الجوع لولا سيطرة البصيرة التي تلائم الظروف حسب الزمان والمكان... ألا تدفعنا رؤيتنا لأشياء كثيرة للانقضاض عليها أو الهرب منها لولا أن شيئا بداخلنا يروض هذا الشعور ويشذب هذه الدافعية... فيتحول الانقضاض الى سلوك حضاري للوصول الى غاية مطلوبة بطريقة دبلوماسية مقبولة ويتحول سلوك الهرب الى أسلوب عصري في محاولة الخروج من مأزق دون أن نريق ماء وجهنا أو نجرح كبرياءنا أو نعكر صفو حياة الآخرين.

ان كثيرا من المآسي تكون نتيجة هذه الهوة العميقة بين البصر والبصيرة بين رؤية الشيء والقدرة على ادراكه والصبر في تحليله ووسيلة التعبير عن هذا الشعور نحوه بالقول أو الفعل... ألا يمكن لكلمة واحدة أن تفسد علاقة سنوات أو حركة شاردة أن تهدم أركان أقوى الصلات لأن هذه الكلمة أو ذلك الفعل قد سقط في الخندق الذي يفصل بين البصر والبصيرة.

والحق أقول لكم.

وما كل ذي عينين بالفعل يبصر ولا كل ذي كفين يعطى فيؤجر

فضيلة الثقة بالنفس

يقولون أن الثقة بالنفس فرع أخضر من شجرة الايمان وعدو للطغيان، لأن الايمان ظل العدالة في الأرض والطغيان نار الضلالة والبغض، ولا يؤتي القدرة على العفو والتسامح الا من يكره الظلم من ذوي النفوس الكبيرة والقلوب الرحيمة... والرحمة عنوان المحبة... والمحبة مدخل الى بوابة الغفران... والغفران نور الضمائر المستيقظة.

ان الثقة بالنفس (اكسير) الحياة فهي صمام الامان للبيوت من الخراب والدمار والفرقة والشتات، وهي مفتاح الفرج في ساعة المحن والأزمات، لأنها تعلم النفس رياضة الصبر على الأذى... والصدق في القول... والامانة في الفعل... والوقوف مع الحق... ومنازلة الباطل وهذه ومضة اشعاع فكري في بؤرة ظلام مطبق وصحوة نفس من غفوة أهل الكهف حيث تتجلى الحكمة في تثبيت الزمان في مكان واحد حتى يستيقظ الضمير النائم لأن المرضى بأعصابهم هم الذين يفرطون في النوم هروبا من الواقع لأن اليقظة تدفعهم للتفكير في عدم النوم.

مفتاح اليقين :

والثقة بالنفس مفتاح اليقين في رحلة الشك الطويلة في طريق البحث عن الحقيقة ولأن شهوة اليقين أقوى من حب الحياة فان الحياة بلا يقين أشبه بحالة الحكم بالاعدام مع وقف التنفيذ وشهوة البحث عن اليقين أخطر

من شهوة البحث عن الطعام والحب واللذة لأن ضعف الانسان الفطري يدفعه للبحث عن هدف يتعلق به في هذا الطوفان ولو كان الهدف عبادة صنم أو تألية بقره أو مجرد رمز لأن الثقة بالنفس هي الفاصل بين المعقول واللامعقول والوجود والعدم وهي بداية الخروج من السرداب المظلم بشوائب الغرور والأنانية التي تحجب رؤية الحقيقة وهي المصباح الذي نكتشف به أعماقنا من الداخل لنعرف لماذا نكره ونحب ؟ كيف نقدم ونحجم ؟ ومتى نبكي ونضحك ؟ والثقة بالنفس تفتح عيوننا على شكل الموازين التي تؤكد لنا حجم أوزاننا وقيمتها الحقيقية وابعادها الأصيلة ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه وقدر الله حق قدره ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق الذي يخرجنا من الظلمات الى النور ومن الحلم الى الحقيقة عندما نحاول تحقيق التوازن بين الرغبة والواقع... الرغبة في أن نمتلك كل شيء... أن ننزع ذلك الشيء من أيدي الآخرين والواقع الذي يفرض علينا التعقل وتأجيل الرغبة وتجميدها داخل ثلاجة النفس المبرمجة بترمومتر داخلي يقع في حسابه عامل الزمان والمكان والظرف والبيئة وحرية الآخرين حتى نتفادى الصدام وحرب المواجهة اليومية بين الأفراد والجماعات والجنسيات والشعوب والدول حتى لا تصبح حياتنا سلسلة من القضايا وحلقات من المآزق.

ترياق التوتر :

ان الثقة بالنفس ترياق ضد التوتر والقلق واذا كانت أسباب القلق موجودة ومفروضة علينا داخل المكاتب وفي صالات المحلات التجارية وفي شوارع المدينة وفي ردهات الفنادق فان عنصر الثقة بالنفس هو ذلك العقار السحري الذي يطوع نفوسنا لنتكيف ونتلاءم ونوفق بين رغباتنا ودوافعنا... ونوطن نفوسنا على قبول الهزيمة المؤقتة من أجل نصر دائم والخسارة الطارئة في سبيل ربح مؤكد نتطلع اليه في فرصة قادمة وان خسارتنا لا تعني نهاية العالم وانما بداية تساقط المشاكل من أكتافنا الواحدة بعد الأخرى مثل التمر الخبيث من فروع الشجرة الطيبة.

اننا عندما نفقد الثقة بنفوسنا نظل منفصلين عن الواقع غير قادرين على الانصهار فيه مثل بقعة الزيت تعوم في الماء ولا تمتزج فيتعطل جهاز التكييف المركزي بداخلنا والذي يجعلنا نتجاذب مع حرارة الواقع وبالخارج دون ادارة مؤشر أو الضغط على أزرار فنجابه حياتنا بلا ثورة احباط أو محاولات هروب نفتقد روح الاعتدال في السلوك... فلا يضرنا أن نعمل ولا يسوءنا أن يعمل الآخرون وهذه من علامات الصحة النفسية أن نتعلم التنازل عن رغباتنا رغم مرارة الحرمان لتسير عجلة الحياة لا أن نقف ضد حركة الطبيعة وحكم القدر ونروض نفوسنا على الطاعة العاقلة قائلين (اللهم اني لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه) فالثقة بالنفس عملية تذويب لحالة الشد والجذب عند الانسان، اننا كثيرا ما نقع فريسة حالة شد نحو أشياء نرغب فيها ويستحيل تحقيقها، وحالة جذب تجاه أخرى نهرب منها ولا نستطيع الفكاك منها وعامل الثقة بالنفس هو الذي يلهب ارادتنا بنار الغريزة التي تذيب حلقات السلسلة الحديدية فتكسر القيد ونتحرك في كل الاتجاهات شعارنا (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا).

فضيلة الثقة :

ان الثقة بالنفس فضيلة لأن غاية الفضيلة تحقيق السعادة للانسان... وان كانت السعادة نسبية الا أنها في النهاية تحقيق أمنية والمؤسف قد تكون رغبة فرد على حساب الآخر بشكل من الأشكال مهما حاولنا تزيين هذه الحقيقة فلا يمكن تحقيق سعادة كل الناس في العالم المعاصر الذي نتصارع فيه الا بحدوث معجزة ليست من صنع البشر ولا توجد أي نظرية عملية أو فلسفية أو عقلانية طرقت هذا الباب الا وأكدت حقيقة (ارضاء الناس غاية لا تدرك) فاذا كان رضاء الفرد في تحقيق السعادة فان السعادة في رضاء النفس، وهذه وصفة أخلاقية نحاول صنعها من صفات موروثة في طينة الانسان، لأن الواقع يحمل لنا المنغصات في طبق شهي خاصة لحظة اصطدام العقل الباطن بمدلولات رمزية لا نملك مفاتيح رموزها وقاموسها

رغم تشابه النفوس البشرية في معايشتها لهذا الواقع الا أنها تختلف اختلاف بصمات الأصابع في تفاعلها معه وهذا ما يعطي خصوصية كل فرد في الشعور بقوة أو ضعف الثقة بالنفس ولذا لا تجود في نظري أي نظرية عامة لتفسير فضيلة الثقة بالنفس الا مظلة القوة في الايمان بأن ما من أحد يملك لنا ضرا ولا نفعا الا بما هو مقدور علينا وهذا الايمان هو ضرورة التدريب على التفكير النفسي السوى ليستطيع كل منا اكتشاف أسباب همومه ومشاكله في ظاهرها وباطنها... في اليقظة والحلم... في الخيال والواقع والقوة والضعف. اننا في رحلة الايمان للوصول الى محطة الثقة بنفوسنا نسير عبر حواجز ومطبات تحتاج الى تكرار المحاولة وتجاوز العجز والقفز فوق الأسلاك... وقد نتعرض الى الخطر ولكننا نستطيع أن نتجاوزه اذا أدركنا أن لا بد دون الشهد من ابر النحل... ووخز هذه الابر قد يكون الحافز لأن الشعور بالألم قد يكون الدافع لاثارة اللذة في الوصول الى الهدف... وهذه فضيلة وقد قيل فيها :

واذا أراد الله نشر فضيلـــــة طويت أتاح لها لسان حسود

اننا يجب الا نشعر بالهزيمة... هزيمة الفرد أمام نفسه أو أمام الآخرين لأنها في الحالتين ضعف للثقة بالنفس وعندما تضعف ثقتنا بأنفسنا نفقد ثقتنا بالآخرين وفاقد الشيء لا يعطيه ونكون قد خسرنا المعركة الواحدة مرتين لأن الثقة بالنفس هي مفتاح السلام، الحقيقي للحرب الطاغية بين الأفراد والجماعات والقبائل والجنسيات والشعوب والدول وما شذ عن هذه القاعدة يأتي في باب الحكمة عند أبي الطيب المتنبي الذي قال :

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهـم

السيطرة على النفس

قال الحكيم الصيني كونفوشيوس : « ان توقد شمعة خير من ان تلعن الظلام » والتفسير المنطقي يعني ببساطة أن المسافة الزمنية بين نقطة البداية في الاكتفاء بلعنة الظلام ولحظة التقدم نحو ايقاد الشمعة هي المساحة الشعورية التي تحدد مقياس القدرة على السيطرة على النفس... وتتفاوت قدرات الناس في الاحتفاظ بالتوازن النفسي والعضوي... ولكن صعوبة الحفاظ على عدم اختلال هذا الميزان يتوقف على الطاقة النفسية للعقل عند الفرد والجماعة والأمة والشعوب لأنه السمة المميزة بين الانسان والحيوان، والانسان والآخر لأنه يعقل النفس من التورط في الهلاك والسقوط والانتهاك والمصادمة والاحتكاك ويمسك بزمام السيطرة على النفس.

العقل والارادة

الانسان الطبيعي لا ينجو من الأزمات الصحية والنفسية... ولكل حالة صحية حالة نفسية مقابلة تؤثر في نوعية سلوك الانسان وتصرفاته وعاداته، وللحالة النفسية صدى فعال في السبب والنتيجة في ضعف البدن وتصدع البنية، واحتراق الطاقة النفسية التي هي أساس النشاط الارادي والوقود الذهني للعمل العقلي. فالعقل في حياة الفرد قاعدة ادارة ومركز توجيه يدرك ويميز... يحاور ويناور معتمدا على مدى قوة نفاذه الى أغوار نفس الانسان الذي يرغب في السيطرة على النفس في صدق وصبر... فيلجأ الى

الايمان والارادة وقوة البصيرة التي تميز بين الواقع وغير الواقع والمعلوم وغير المعلوم والأسباب والمسببات والحقوق والواجبات والقضاء والقدر... وهذه أبسط متطلبات الارادة.

ان أشكال الارادة نوعان : ارادة واعية تصدر في العقل الواعي وارادة عفوية تلقائية تصدر من العقل الباطن، ومن الصعوبة أن نفصل بين الوعي واللاوعي يلتقيان حينا ويتعارضان أحيانا... والتحكم في أحدهما لا يعني بالضرورة السيطرة على الآخر ولكن ايجاد التوازن المناسب هو الحد الأدنى من شروط السيطرة... ان الانسان بطبيعته خطر على نفسه وعلى الآخرين وأول الأخطار التي تحدق بالانسان نفسه هو نفسه وأكبر وأعظم نجاح يحرزه الفرد هو السيطرة على نفسه وهذه تتم بفضيلتين... الصدق... والصبر... فالصدق مع النفس هو طريق الصدق مع الآخرين، لأن بالصدق يحيا الانسان مع الحق وبالحق... ولأن الانسان ولد ليحيا فرحا لا ترحا... يتحقق له أن ما بداخل الفرد والجماعة والأمة لا ينتسب بحال الى المكر والجبن أو الفوضى والغوغائية بل يتحول الى قدرة تتغلب بها على نزواته وأعظم منتصر هو الذي يهزم نفسه ويدخل الى ساحة جلائل الأعمال لأنه يصنع الخطوة الأولى في رحلة المليون خطوة...

ان الكمال لله وحده، وهذه من بديهيات التوحيد... وان النقائص من طبيعة البشر وهذه من أولويات المعرفة وكما قال سقراط « اعرف نفسك » وهذه أكبر علامات الصحة النفسية لأن الحياة تناقضات تتلاقى ولا تتلاقى في الأفكار والاتجاهات والمواقف ولا يسلم الانسان فيها من منغصات فكيف نواجه الآخرين اذا فشلنا في مواجهة أنفسنا.

والفضيلة الثانية في الصبر... فالصبر ينزع فتيلة الغضب الذي أثبت الطب النفسي أنه يقود الى التوتر والانفعال والتي تؤثر في وظائف الأعضاء والى الكابة التي تقود الى ضعف الانتباه والتركيز الارادي والعفوي... وتعطيل الحواس المدركة واطلاق العنان للعواطف الجامحة... ليقع الانسان في الخطأ... والخطأ يقود الى الخطأ... ويتتبع الخطأ حتى يصبح الانسان

خطأ مجسدا مجسما ويكون دلالة على الفشل وبرهانا على فقدان السيطرة على النفس.

الطاقة النفسية

ان الصبر وقود الطاقة النفسية... لقد أقسم الله تعالى وهو قسم لو تعلمون عظيم « والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين أمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فالصبر هو مفتاح الصدق... والمولود والوريث الشرعي للفضيلة ولقد ورد ذكر الصبر في القرآن الكريم في تسعين موضعا، منها الأمر به والنهى من التخلي عنه وتعليق النجاح عليه ومضاعفة الأجر له واستقامة الأمور به...

والصبر لا يعني الاذعان والمذلة... والضعف والاستكانة ولكنه يعني مبادرة محاسبة النفس على كل عادة فالعادات الموروثة ليست أمرا محتوما علينا ولا قدرا مسطرا لدينا لا نملك الانعتاق منه لأن الله لن يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فالقدرة على التغيير والتبديل تحت طاعة الله من الصفات الايجابية في الانسان أن الطاقة النفسية بمثابة التيار الكهربائي الذي يضيء الظلام... ويحرك السكون، وهو تيار عصبي يولده جهاز خاص في الدماغ ويوزعه على الأوعية الدموية لتستمر الحياة في النمو والعطاء وأي خلل يطرأ عليه ينجم عنه المرض وهو أيضا اشعاع روحي مستمد من داخل الذات كشرارة اللهب الخالد الذي يميز الانسان عن الحيوان لأن نشاط الروح هو الشيء الوحيد في الحياة الذي له قيمة فيصبح الوهن الروحي أو الكسل النفسي الذي يبتلي به المشتكي من اعتلال الصحة وضعف القدرة والرغبة في البكاء تكرارا للقول المعاد :

أيها المشتكي وما بك داء　　　كن جميلا ترى الوجود جميلا

والصبر هو الماء البارد الذي ينسكب على وهج النار المشتعلة بفعل فاعل أو هفوة جاهل.

وفي الحديث « ان رجلا جاء الى الرسول الكريم ﷺ قائلا أوصي يا رسول الله قال : لا تغضب فردد مرارا فقال : لا تغضب » ولكن ينبغي أن تعرف في الجانب المقابل حدود الصبر. وان تفاوتت الفوارق الفردية بين الناس، الا أن هناك معايير اجتماعية واخلاقية وتربوية تجعل من الصبر فضيلة وشمعة مضيئة والسيطرة على النفس في نطاق الصبر تعني القدرة على تحقيق الغايات والعيش بأكبر قدر من الحرية والمتعة والعطاء قبل نفاد ضوء هذه الشمعة... هذه الطاقة النفسية المنبعثة من داخلنا.

وقفة أخيرة

هذه وقفة قصيرة في مسيرة طويلة لايقاد شمعة في ظلام التفكير في وسائل السيطرة على النفس، شتى الظروف قد لا ترقى الى مستوى الدراسة ولكنها لا تفتقر الى محاولة التغيير لأن مشكلة الفرد والجماعة والأمة والشعوب تتمثل في القدرة على السيطرة على النفس... فاذا استطاع الفرد السيطرة على نفسه فقد أدرك نعمة الله عليه في أن يكون مأمونا على مصلحته ومصلحة من ينتسب اليه وقادرا على العدل والرعاية والتقويم ولذلك كان العقل الواعي قادرا على التأثير في العقل اللاواعي واذا استطاعت الجماعة أن تسيطر على نفسها فهي تقبل الواقع بحكمة ولو كان مؤلما وتعيشه بيقين وتتخطاه بايمان القدرة على التغيير الى الأفضل رغم صدام المصالح وتضارب الغايات.

واذا استطاعت الأمة السيطرة على نفسها فلن تندفع في طريق الخطأ ولن تحيد عن جادة الطريق ولن تتحرك حين يجب الوقوف ولن تتوقف حيث تجب الحركة ولن تتخبط بين البعد الحقيقي والخط الوهمي الذي يفصل بين شكل وآخر... واذا استطاعت الشعوب أن تسيطر على نفسها فهي تبدأ في التفكير بهدوء، والغضب باتزان وقبول الرأي المعارض وسيادة الفكر المعتدل واعادة ترميم التصدع الفكري والانهيار الاجتماعي في وقفة مصالحة مع النفس... مصالحة تستوجب الصدق في القول والفعل وقوة الصبر في تحمل نتائج الفعل وامتصاص ردود الفعل.

ألم نقل أن الصدق والصبر من أهم مفاتيح التحكم، وازداد الضغط الآلي في السيطرة على النفس بجهاز الانذار المبكر الذي يؤشر ان ما بداخلنا يهدد بالانفجار، فيصبح للحديث دلالة وللفعل مسؤولية وللحياة معنى وللانسان قيمة.

شجرة ثقة أم غابة علاج

في كتاب « مختار الصحاح » للامام الرازي ان كلمة ثقة من الائتمان... والثقة من (الميثاق) العهد... ومنه قوله تعالى (وميثاقه الذي واثقكم به) وقوله تعالى (فشدوا الوثاق)... والثقة هي العملة الاجتماعية الوحيدة المتبادلة بين الناس... هي أساس العلاقات الانسانية التي تقاس بمعيار واحد... صدق القول ومصداقية الفعل. واذا اهتزت هذه القاعدة في مجال التعامل. سقطت قيمة كل أنواع (العملات) الأخرى والتي تخضع للعرض والطلب... الأخذ والعطاء... الرفض والقبول.

أما الثقة فصفة مطلقة إما أن تكون أ لا تكون. فكما يقول ديكارت « أنا أفكر... اذن أنا موجود « فالمقابل » أنا واثق... اذن أنا موثوق به « وانعدام الثقة يمكن أن يلغي وجود الانسان معنويا في قلب الآخرين ويلغي ذاته داخل وجوده. جماع النقيضين.

مفتاح الشخصية

في كتاب مقدمة ابن خلدون نجد أن « الثقة مفتاح الشخصية » هي أروع ما كتب في علم الاجتماع في سنوات ميلاده الأولى... وبالقياس نستطيع ادراك أهمية عامل الثقة في العلاقات الاجتماعية والانسانية... وتحديد معالم الشخصية للفرد والجماعة... فالثقة هي لغة التخاطب ووسيلة

الاقناع بين الحاكم والمحكوم... البائع والمشتري... الصديق وصديقه... الرئيس والمرؤوس والطالب والمعلم واخيرا وليس آخرا الطبيب والمريض.

وقد قال تعالى « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » والعهد من المعاهدة... والمعاهدة ميثاق بين الطرفين... عقد... والعقد شريعة المتعاقد... فاذا اختلت أطراف المعادلة أو رجحت كفة الميزان في اتجاه أو آخر بصورة ضد اتجاه الثقة... تهدمت كل جسور الوصول الى قلب ووجدان الفرد... وهذا لب القضية.

وما يجول في خاطري في اطار الحديث عن عامل الثقة... أهمية الثقة في عنصر العلاقة بين الطبيب والمعلم... وبين الطبيب والمريض... وغير ذلك قد يعلو قامتي في الوصول اليه أو يعجز قلمي عن الخوض فيه... لا طمعا ولا رهبة... ولا خوفا ولا رهبة ولكن لكل مقام مقال.

ان حركتي محكومة بدائرة تضيق وتتسع بحكم الالتزام الوظيفي والخلق المهني فالضوابط الوظيفية تفرض أن أدلو بدلوي في القضايا التربوية واخلاقيات المهنة تستلزم أن أكون طرفا في قضايا العلاقة بين الطبيب والمريض.

الطالب والمعلم

ان ثقة الطالب في المعلم... قد تكون بداية رحلة لم يخطط لها... أو نهاية مشوار حرق في مسيرته حصاد السنين... قد يكون تغيير قناعات عاشت عليها الأسرة مثل الميراث وتبديل تطلعات بني عليها الابوان جبالا من الآمال والأمنيات وقد يكون دور المدرس تلخيصا موجزا وسريعا لجهود طويلة ومكثفة خلال سنوات قضت الأسرة الليالي الطوال في نسج خيوطها والوصول بها الى مشروع قرار، وقد يكون في الاتجاه الصحيح للطالب أو الاتجاه الخاطىء للأسرة ولكنه يبقي وليد الثقة التي تولدت بين الطالب والمعلم... وهنا تتضح عوامل الشد نحو ميول المعلم أكثر قوة من عوامل الجذب نحو الأسرة... سلبا أم ايجابا... فاذا أدركنا هذه الحقيقة

يستطيع المعلم أن يدرك الى أي مدى يستطيع أن يروض العنيد ويطوع الجامح بنيته ثقة يغرسها في نفس الطالب... في المناخ المناسب فتمتد فروعها الى السماء وجذورها الى باطن الأرض وسط غاية علاج فسدت من كثرة الحرث والري الخاطىء والصحيح... والنبتة الطيبة تعطي ثمرا طيبا والغابة الكثيفة تفرز الصالح والطالح والخبيث والطيب وعملية الهدم والبناء أكثر تكلفة من وضع لبنة جديدة في أرض عذراء...

الطبيب والمريض

ان ثقة المريض بالطبيب تكاد تكون العملة الوحيدة النادرة التي لا تقدر بثمن ولا تخضع للمساومة (وللذهب ثمن ولا ثمن للثقة) وعندما يمتلك الطبيب الموهبة أو القدرة على خلق هذه الثقة وعندما يتمكن المريض من الحصول على هذه الثقة يقطعان نصف الطريق الى العلاج... فالأجهزة الالكترونية والمعدات النووية... والمختبرات الحديثة ترشد الخبرة ولا تستبدل الثقة... وتصبح بطاقة تموين نافذة الصلاحية في يد المريض اذا فقد الثقة في صاحب التوقيع... فالمريض منذ البداية يجهل هوية هذه المعدات ويتردد في جدوى هذه الفحوصات وقطعا يجهل ماهية النتائج... فتبقى الثقة بين الطبيب والمريض هي الخيط الرفيع الذي يفصل بين الصحة والمرض... بين الشك واليقين وقد تعجب حين تعرف مرضى من (مدمني المستشفيات) يعانون بجانب الشكاوي المتعددة والمتجددة من مرض مشترك. أزمة الثقة فيترددون على أكثر من طبيب ويجرون أكثر من فحوصات متكررة لمرض واحد... يبحثون عن فرد يتعامل معهم باللغة التي يفهمونها والعملة التي يتبادلونها (الثقة) فقد يقنعون بأنهم أصحاء وهم على شفا حفرة من الموت وقد يؤمنون بأنهم مرضى وأجسامهم تفيض بماء العافية... والسر في هذا الاعتقاد (والعقدة) في هذه المصيدة هي الثقة بين الطبيب والمريض.

وحتى نكون أكثر دقة في الملاحظة علينا أن نطالع (باب الشكاوي) في الصحافة المحلية حول معاملة الطبيب. والمريض نجد في أكثر الأحيان

أن الحلقة المفقودة هي سوء فهم وليدة أزمة ثقة... أكثر منها ضعف كفاءة أو سوء اداء ولو توفر الحد الأدني من الثقة لما اشتعل هذا القدر الهائل من الحرائق.

والمؤسف حقا أنه كثيرا ما يفوتنا ادراك بساطة الاثر في سحر (الكلمة الطيبة) في نفوس الآخرين (ان الله طيب لا يحب الا طيبا) ان كثيرا من بذور الثقة تنشأ في لحظة الانطباع الأول الذي يتركه الطبيب في نفسية المريض... أما نبتة طيبة تأتي اكلا طيبا... أو شجرة خبيثة في غابة علاج داخلها مفقود وخارجها مولود... فكثير من الأطباء المشهود لهم بالقدرة والكفاءة فقدوا ثقة أبسط المرضى في لحظة الخيار بين الموت والحياة لأنهم لم يحالفهم الحظ في فهم نفسية المريض وتلبية حاجته في حدود المثل الطبية دون الاخلال بقسم (أبو قراط) والذي وضع المريض في مرتبة في مصاف الملائكة.

لقد اثير هذا الموضوع في المجلة الدورية (المجلة الطبية البريطانية) قبل أسابيع حول اثر (البلاسيبو) في علاج المريض.

وفي شرح (المورد) فالترجمة العربية لكلمة البلاسيبو تعني « الدواء الذي يعطى لمجرد ارضاء المريض أو كل ما يهدىء أو يرضي) وطبيا تعني العقار فاقد الفعالية والنشاط البيولوجي والكيمائي... وهو فعل مشروع وخيرة معروفة للأطباء معمول به في كل مستشفيات العالم في ظروف خاصة وحالات معينة وخبرة كافية وقد أجريت التجارب على عينة من المرضى أعطيت لهم عقاقير طبيعية... وعينة أخرى أعطيت (البلاسيبو) وقد وضح أن العينة الأخيرة أبدت تحسنا ملحوظا مما يدل على أن عامل الثقة في الطبيب أو العقار يلعب دورا أساسيا في علاج المريض الى جانب العناصر العلمية والانسانية الأخرى...

والطبيب الذي يفقد ثقة المريض يخسر نصف المعركة منذ صفارة البداية... والثقة امانة في عنق الطبيب ومسؤولية في ضمير المريض.

والحقيقة الثابتة ان حدوث أزمة الثقة في الطبيب هي بداية الدخول في غابة علاج وهي أخطر مؤشر لأزمة الضمير بين الطرفين (وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه).

الفصل الحادي عشر

* حول رعاية الطفل

١ ــ الأم شجرة العطاء

٢ ــ محنة الاختيار بين المال والأطفال

٣ ــ عود على بدء

٤ ــ حول رعاية الطفل

٥ ــ رعاية الطفل مرة أخرى

٦ ــ حساب الربح والخسارة

الأم... شجرة العطاء

في الصحيح يقال أن (أم) الشيء أصله... ومكة (أم) القرى (والأم) الوالدة ورئيس القوم (أمهم) و (أم) النجوم المجرة و (أم) الدماغ الجلدة التي تجمع الدماغ ويقال (أم) الرأس... مثال ضربة على أم رأسه. ومنها قوله تعالى (هن أم الكتاب). واذا كان (أم) الشيء أصله... فأصل الطفل أمه.

وبنظرة متأتية في المجالات النفسية والاجتماعية والتربوية والدينية نجد أن هذه الأعمدة هي التي يقف عليها السقف الذي يستظل به الطفل في هجير الحياة... والشاب في عاصفة المراهقة والرجل في أحضان الزوجية والمسن في رحلة الشيخوخة والميت في ظلام القبر.

نظرة علمية :

يرى علماء النفس أن الاضطرابات السلوكية والأمراض النفسية التي تصيب الطفل في حداثته والرجل في مستقبله تكون نتيجة المعاملة الخاطئة للأبوين... كالاحتكاكات الزوجية التي تخلق الجو العائلي المتوتر الذي يسلب الطفل الأمن النفسي وتناقضات أسلوب المعاملة كالتذبذب بين التسامح والشدة، العنف واللين، التدليل والاهمال وتكون نتيجة هذه (التورطات) أما خلق روح العدوان والجنوح وبرود العاطفة والاحباط

والوساوس من ناحية أو المغالاة في الاعتماد على الغير والسلوك المدلل وضعف الشخصية من ناحية أخرى.

تجارب وأفكار :

يقول العالم (جيرارد فوجان) عميد معهد استقبال الأطفال في (وودفيل) في لندن أن علاقة الطفل بأمه تمثل المحور الأساسي في نمو الشخصية والأم التي لا تجد التقدير الكافي كانسانه وأم وزوجة في المنزل لا تستطيع أن تعطي الشعور بالأمن (وفاقد الشيء لا يعطيه) فشعور الطفل بسعادة الكبار داخل الأسرة يعطي انطباعا جميلا لنوع الحياة السوية في المستقبل وانعدام العلاقة الودية في دفء الحب والعاطفة لدى الأم يترك بصمات مشوهة في حياة الطفل. وفي غياب هذه المعطيات النفسية تصبح كل أساسيات العناية المادية المتوافرة كالشجرة بلا ظل... وكالبيت بلا سقف فوق الطفل ويصف الموقف :

لأن حنان الأم وعطفها هي الأعمدة التي يقوم عليها بناء شخصية الطفل ويضيف أن العقاب البدني من أم حانية له آثار ايجابية فعالة، بينما العقاب البدني من أم قاسية له آثار سلبية مدمرة مما يؤكد النظرة التربوية في أن القضية ليست نوعية العقاب وانما الشخصية التي تعاقب.

وقد قام العالم الانجليزي « جون بولبي » بفصل بعض الأطفال في عمر ستة أشهر عن أمهاتهم ولاحظ عليهم أعراض الحرمان الجزئي... والكلي. فالحرمان الجزئي ومصدره الأم غير القادرة على عطاء الحب لسبب ما يتمثل في القلق وشعور الكراهية والكآبة وعدم الاستقرار وأعراض العصاب... ووجد أن الحرمان الكلي ومصدره الانفصال والطلاق وحياة الملاجيء ودور الرعاية ويتمثل في عدم القدرة على التوافق الاجتماعي وحدوث تصدع في بناء الشخصية وقد أوجز الأعراض تدريجا في شعور الكآبة ثم اليأس والانسحاب ثم الرفض للآخرين ثم التبلد في المشاعر ثم فقدان الشهية للأكل والنوم ونقص الوزن والمرض والوفاة.

وقد أكد العالم الامريكي « هارلو » على النظرية في مجموعة من القردة... من فئتين... فئة مع أم صناعية مصنوعة من الأسلاك غير المغطاة بشعر ناعم كالأم ولكنها تحمل الحليب والثانية مع أم من الأسلاك الصناعية المغطاة بشعر ناعم كالأم. ولكنها لا تحمل الحليب. فوجد أن القرد يتعلق بالأم ذات الملمس الناعم وبدون حليب أكثر من الأخرى مما يدل على أنه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان وليس بالحليب وحده ينمو الطفل وقد لاحظ أن ملامسة الطفل لأمه هو احدى وسائل الاتصال بين الطرفين أحاسيس الدفء والحنان في لحظة الرضاعة الطبيعية والتي تدخل في نفسه قسطا وافرا من الطمأنينة ولذلك وجد أن الرضاعة الطبيعية والتي تدخل في تكوين شخصية الطفل مؤكدا قوله تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفطامه في عامين ان أشكر لي ولوالديك) والفطام لا يقتصر على الفطام البيولوجي وانما الفطام النفسي والروحي حيث دلت التجارب الأخرى ان انفصال الطفل عن أمه يسبب نوعا من قلق الانفصال لأن الشعور المتبادل بالأخذ والعطاء والراحة النفسية لا تقل أهمية من أشباع الحاجات والدوافع الأولية للطفل. فغياب الأم مصدر تعاسة الطفل لأن فقدان الأم يمثل فقدان الأمان.

بينما فقدان الأب يمثل فقدان القدوة وفقدان الاثنين يمثل فقدان القدرة على تكوين الضمير لدى الطفل لأن تكوين الضمير عملية تقمص وامتصاص لقيم الوالدين وبدونهما يكون الطفل ضحية الاضطرابات النفسية والجنوح نتيجة ضعف تكوين الضمير اللاشعوري مما يؤكد أهمية دور الأم في حياة الطفل.

وقد ثبت مؤخرا أن ما يسمى بالأم البديل (Mother Substitute) في دور الرعاية والملاجيء قد يكون له أثر سلبي مثل الرضاعة الصناعية والتي احتلت اهتمام الأسرة الحديثة في كثير من المجتمعات في منتصف هذا القرن حتى وضح أنها أسهل الخيارات وأخطر البدائل لا على صحة الطفل وحده بل على حياة الأم ويكفي أن نذكر العلاقة السببية بين ارتفاع نسبة سرطان الثدي لدى الأمهات والرضاعة الصناعية وفي كل يوم تتكشف حقائق

جديدة تؤكد خصوصية العلاقة بين الطفل وأمه لا من الناحية النفسية فقط وانما من الناحية الجسمية ومعدلات النمو وقد وضح في احصائيات جمعية تبني الأطفال في انجلترا ان كثيراً من الأطفال الذين عاشوا مع الأم البديل رغم دقة الشروط التي فرضت على اختيار الأسرة المتقدمة فيندر وجود الأسوياء مع ارتفاع نسبة الاضطرابات النفسية في المستقبل بالمقارنة مع أطفال الأسرة المتمتعة بوجود الأم في حياة الطفل.

تجمع الأدلة على أنه لا بديل للأم وفي أقسى الظروف التي لا بد منها فان البديل مهما توافرت فيه شروط التطابق ومزايا التقارب فلن يحقق الحد الأدنى من متطلبات نمو شخصية الطفل في غياب الأم... شجرة العطاء... التي تغدق أحلى الثمرات في وقت الجفاف وتنشر فيء الظلال في لحظات الهجير... وتبث الطمأنينة في ليالي الرعب والخوف... وتمنح الأحضان الآمنة في ساعة الهرب من شبح المجهول... ان هذا العطاء المستمر الذي توفره هذه الشجرة الوارفة الظلال، الحبلى بأماني الأجيال لا بد أن تتوافر لها عناصر البقاء وأهم هذه العناصر أن ترتوي جذورها وأن تمتد فروعها لتظلل أكبر مساحة في حياة الأسرة. ان الأم التي تفقد الشعور بالأمن تحت ظروف القهر والزجر والهجر لا يمكن إلا أن تكون عدوانية النزعة تحول شعورها بالاحباط الى قسوة مفتعلة تجاه الأطفال انتقاما أو تنفيسا عن مشاعر الكبت والحرمان. وان الأم التي تعيش معلقة بين الانفصال والطلاق موزعة بين ولاء الزوج وحاجات الأطفال لا يمكن أن تكون عادلة في توزيع أقساط الحب المفقود بشكل مريح في بورصة الحياة العصرية.

ان العالم يحتفل كل عام بعيد الأم... وعيد الشجرة الى آخر قائمة الأعياد الموسمية فاذا كنا نقدم شتى ضروب الهدايا تعبيرا عن فرحتنا بالأم فيجدر بنا في كل عيد أن نغرس في نفوس الأطفال شجرة محبة الأم... ونغرس في قلوب الكبار شجرة معزة الأم... ونغرس في تربة المجتمع شجرة تكريم الأم على مدار أيام العام... الشعلة التي لا تنطفىء في ظلام البيت والشمس التي لا تغيب عن سماء الأسرة... واذا كانت المرأة الأم

هي سيدة النساء بما تميزت به من نعمة الزيجة وفضل الانجاب على غيرها من النساء ففي الحديث (استوصوا بالنساء خيرا فان المرأة خلقت من ضلع أعوج وان أعوج ما في الضلع أعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته وان تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء).

واذا آمنا بأن الجنة تحت أقدام الأمهات وان الجنة ضالة المؤمن فقد توصلنا الى مرحلة من القناعة الكاملة بالأدلة المنطقية العلمية والنفسية والاجتماعية والتربوية والدينية ان الأم شجرة العطاء.

محنة الاختيار بين المال والأطفال

من سورة الكهف « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا » صدق الله العظيم.

والسلام على من اتبع الهدى فلا حور أو بدل في هذا القول الفصل ولا رجحّ كفة على أخرى في ميزان العدالة الذي وقف شامخا أمام كل رياح التغيير التي هبت على مدى العصور.

لذلك لم تكن هنالك مشكلة في التوفيق بين جمع المال ورعاية الأطفال بل أن من ملك مال قارون وابتلى بالعقم عانى من المرض النفسي معاناة المحروم من المال ومن أنعم الله عليه بالأطفال وحرمة المال عانى من المرض النفسي معاناة المحروم من الأطفال ولعل العظمة الكبرى تكمن في امتحان المخلوق أما بقلة المال أو عدم الأطفال فكان خاسرا في الحالتين الا من آمن وأتى ربه بقلب سليم...

ومن صورة الاعجاز أن يستوى الغني العقيم والعائل الفقير في المعاناة من المرض النفسي كالشعور بالحزن والاحساس بالكآبة وفقدان اللذة للحياة فالأول يبحث عن طفل يحمل اسمه والثاني يبحث عن مال يكفيه ذل السؤال، ومن ممارستنا اليومية في مجال العلاج النفسي كثيرا ما تجتمع الاضداد وتلتقي النقائض في دوام اليوم الواحد والمصائب تجمعن المصابين فالعقيم يسأل الله أن يأخذ ماله ويعطيه طفلا يشبع غريزة الأبوة والفقير يتضرع اليه طالبا المال قبل العيال... وما بدلوا تبديلا...

فالمال نعمة... والأطفال نعمة... ومن يرفض النعمة جاحد... ومن يغالي في طلب النعمتين طامع... وهل الانسان الا طامع في المزيد أو جاحدّ للعديد ولا هم بأرزاقهم قانعون.

فقد وجدت من الأغنياء من يتردد على الأطباء ينفق كل ثروته بحثا عن الذرية وعرفت من الفقراء من يتردد على الأطباء يبذل جهد طاقته التي بددها الفقر والفاقة في تربية الأطفال رغم تباين الأدوار... وتفاوت الأقدار... وتقدرون فتضحك الأقدار.

وقد وصلنا الى عصر المادة فطغى حب المال على كل شيء... وغطى على كل فضيلة وكم من قائل « جئت امتلك المال فامتلكني المال » والناس في سباق محموم في بورصة الحياة المادية يطففون الكيل والميزان ويكنزون الذهب والفضة... فازداد الغني غنى والفقير فقرا... فاختل الميزان الذي حكم حركة كل شيء بفعل الأنسان وتجاوز الناس سياق الآية الكريمة وكأنما في عيونهم غشاوة... فالغني انشغل عن أطفاله في جمع الثروة والفقير ترك عياله بحثا عن المال حتى تلاحقت الأكتاف في الصعود الى الذري لقطف ثمار الشجرة المحرمة.

واتسعت الهوة وكبر الفارق بين المال والأطفال وحدثت محنة الاختيار عندما طغى حب المال على رعاية الأطفال فلم يعد العقيم يبحث عن الأطفال لأن لديه من المشاغل والبحث عن الوسائل وموازنة البدائل لجمع المال ما يلهيه عن مراعاة طفل واحد وأصبح الفقير يمتطي صهوة الطموح المدمر في استكشاف منابع الرزق... فيحفر الأرض بأسنانه وينحت الجبل بأظافره ويعصر قلبه حتى آخر قطرة ليجمع المال... والأطفال لهم رب يحميهم ولكن أهلهم عن ذكر ربهم غافلون.

فكأن انسان اليوم يعيش محنة الاختيار بين المال والأطفال المحنة من صنع يده... ونبات فكرة... وجموح شهوته...

ان هذه الصورة القائمة هي الواقع المؤلم... مهما أبدعنا في الطلاء...

واستحدثنا المساحيق... وابدعنا في الديكور... والذين يعيشون هذه المحنة أو يعاصرون بعض ظروفها أو يشاركون في صنع الحل يعلمون أن محنة المجتمعات الحديثة تكمن في عدم الرغبة في الوقوف لحظات في مفترق الطريق الذي وصلنا اليه... المفترق الذي يحمل مؤشرات تحثنا على تغيير اتجاهاتنا في السير في الطريق المسدود.

ولكن عنصر المغامرة الذي اقتحم قلب كل فرد يدفعه الى تحدي لافتات المرور حتى ان كان يعلم سلفا أنه قد يتعرض لحادث يؤدي بحياته وأطفاله... وليس بالضرورة أن يكون الحادث تصادم سيارتين... فاخطر الحوادث انفصال الطرفين الأب والأم وهذه قمة المأساة التي يعاني منها المجتمع... الأب الغائب نفسيا رغم وجوده داخل البيت... والأم المقهورة عاطفيا بين الفراغ النفسي والوجود المادي والأطفال المحرومون كليا من أبسط حاجيات الرعاية الأسرية.

لقد سألت أكثر من أب... وناقشت أكثر من مجلس وتدخلت في أكثر من موقف يجادلني الأب بأنه يحترق من أجل أبنائه لتأمين مستقبلهم فلا يستطيع مقابلة الناظر أو حضور مجلس الآباء أو مراجعة الطبيب أو أخذ الأطفال في رحلة سياحية ويعتقد عن قناعة ان ما يفعله عين الصواب وما يقال له مجرد ترف ذهني وفراغ فكري يعاني منه هواة جمع الطوابع لملء الفراغ المهني في بعض مواقع العمل.

ولو سألنا، لمن تقرع الأجراس... أو تساءلنا لمن تجمع الأموال، يكون الجواب المنطقي بداهة... من أجل الأطفال واذا أردنا أن يكون أكثر دقة في تحديد متطلبات الأطفال لوجدنا المال ليس من أولوية احتياجاتهم فالغرف الجميلة المزودة بالملابس لا توفر كل الاستقرار النفسي للطفل بل لا تمثل بديلا واحدا لوجود الأب في المنزل في صورته المتعددة ولا يكفي لحظة واحدة عن حنان الأم المستقرة نفسيا بتوفر الطمأنينة الزوجية داخل محيط الأسرة.

ان الأطفال ثروة قومية للدول في كل بلاد العالم... وعائد مضمون

للأسرة منذ فجر التاريخ رغم تبديل المعايير وحدوث التغيير في فكر الفرد المادي فقد تنضب الثروة مهما ارتفع رصيدها وتنوع مصدر دخلها ولكن العائد المضمون في الادخار الوحيد في بنك الحياة والذي لا يخضع لتقلبات السوق أو ذبذبة البورصة المالية هو الطفل.

ان طفلا واحدا يشب محروما من عطف الوالدين فاقدا الاستقرار النفسي يستطيع أن يبدد في أحد نزواته ما جمعه أبوه طيلة حياته... وان طفلا واحدا يشب مشبعا بالأمن النفسي مزودا بالغذاء الروحي من والديه يستطيع أن يضيف الى جهدهم أضعاف ما فشلوا في الحصول عليه... وفي الحياة شواهد صدق على كلا النقيضين من انماط السلوك.

اذن اذا بذلنا بعض جهدنا الذي نغامر به في عقد الصفقات في تنظيم الأوقات بين ضرورة المال ورعاية الأطفال لوجدنا في معدل الربح والخسارة اننا نستطيع أن نؤمن الثروات التي نسعى لها منذ فجر طفولتنا حتى غروب كهولتنا عندما نترك الأمانة في يد من أحسنا اعداده للحفاظ عليها.

واذا كان جمع المال وكثرة الثروة أحد مظاهر التفاخر... الا يكون التفاخر بأطفالنا أكرم من التفاخر بأموالنا.

مجرد سؤال أرجو من كل أب محاولة البحث عن اجابة عليه... وللحديث صلة...

عود على بدء

لقد كتبت تحت عنوان « محنة الاختيار بين المال والاطفال » في مقالة سابقة اننا يجب علينا ان نوفق في تثبيت كفة الميزان المتأرجح بين العناية بالاطفال والرغبة في جمع المال... لأن التناقض ليس واردا بالضرورة في التوفيق بين الأثنين.

وقد قلت ان طفلا واحدا قادر على ان يبدد في أحد نزواته، ما جمعه والده طيلة حياته. وبالمثل فان طفلا واحدا قادر على ان يضيف الى رصيد اسرته، اضعاف ما فشلت في الحصول عليه طيلة حياتها. وفي الحياة شواهد صدق على كلا النقيضين من هذه الانماط السلوكية. ويشاء الله ان تصدق نبوءتي، فلم يمضي ايام على نشر المقالة حتى طالعتنا الصفحات الاولى في الصحف بالعنوان التالي :
« تلميذ بالاعدادية يستولي على ٢٠٠,٠٠٠ مائتين الف درهم وينفقها على زملائه خلال شهرين، وعمر الطفل لا يتجاوز الثالثة عشر واعمار زملائه تتراوح بين الثانية عشر والثامنة عشر، أي في مفهوم علم النفس التربوي في سن المراهقة، وقد تم انفاق المال مع الشلة في الفنادق، وشراء السيارات وطراد، وعند حضور اولياء الأمور، اعربوا في اسفهم لعدم رعايتهم لأبنائهم ومتابعة تصرفاتهم، ووعدوا بتشديد الرقابة عليهم.

انتهى الخبر... وترك اسئلة تحتاج الاجابة عليها الى صفحات هائلة واعداد صخمة من المجلدات، فكل عبارة في الخبر هي عنوان لموضوع

تحتاج الى نقاش، ولو توفر لي عامل الزمن وامهلني العمر واعانني الله على تحقيق رغبتي، فإنني سأتولى نشر هذه المواضيع في كتيبات في حجم المشكلة.

ما يهمني في هذه المقالة الإجابة على السؤال الذي طرحته في نهاية مقالتي السابقة، راجيا من كل اب محاولة الإجابة عليه وكأن هذا الخبر نموذج الإجابات التقليدية التي تطرح عند هذا السؤال... ويقفل ملف القضية، ولكن فضول العلم يدفع الانسان دائما لأن يتأمل كل شيء وينبش كل مبعثرة يشم منها رائحة الحقيقة، لأن الحقيقة منبت التاريخ ولا بد ان يلدها الزمن... وزماني هذا عقيم من كثرة تعاطي حبوب منع الحقيقة من الظهور مثل كسوف الشمس... والشعاع خلف غيمة داكنة.

ولكن من علامات الصحة النفسية ان توطن النفس على ان الابقاء على حسن الصلات لا يكون بكثرة التقاضي عن الهفوات، فلكل هذا يجد الطبيب النفسي من موقع الالزام والالتزام، مطالبا بأن يتجاوز السطح والقشور في تعامله مع الاحداث... فالبوصلة التي في يده تشير الى الاتجاه الذي يجب ان يسير فيه في معالجة الظاهرة حتى ولو كانت الرياح التي تهب من كل الجهات تشير الى اتجاه آخر.

ان التنقيب والنبش في أعماق الانسان هي من أبرز ممارسات الطب النفسي في سبيل الوصول الى الحقائق، لا الانطلاق من الافتراضات والجدليات. وهنا يقف الجسر بين الطب النفسي وعلم النفس نتناوله في موقف آخر. وبعد كل هذا استأذن في أن اتناول بالبحث المبسط تحليل ظاهرة السرقة عند طفل في الثالثة عشرة من عمره... ان الطب النفسي يؤكد في مقدمة علم نفس النمو ان الطفل يتشكل حسب ظروف بيئته مع استعداده وقدراته الوراثية. ودوافع السرقة تكون اما اقتصادية بدافع سد الاحتياجات البيولوجية كالجوع والعطش ولا فضيلة مع الجوع. او اجتماعية نتيجة فقدان الانضباط الاسري وضعف السيطرة العائلية للقيم الاجتماعية السائدة وتفكك العلاقات كسلوك طفل الزوجة او طفل المطلقة او تعدد الزوجات

او الطفل المهمل المنبوذ او تشجيع الاسرة المحرومة للميول العدوانية لدى الاطفال.

وقد تكون السرقة في أغلب حالاتها نتيجة مرض نفسي او ازمة نفسية للآتي :

- الطفل فاقد العطف يسرق من اسرته ليشتري حنان الآخرين وهو يبحث عن الاستحسان والقبول لدى الجماعة خارج البيت عندما يفقد هذا الأمن في ظل الاسرة وقد يضطر الى دفع ثمن هذا العطف بشتى العملات والمقايضات واكثرها الاموال المتوفرة في خزانة الاسرة...
- قد يسرق الطفل حبا في الانتقام من أسرته حيث يشعر ان المال المتوفر لا يصرف في تلبية حاجياته وهذا نوع من العدوان التحولي حيث لا يستطيع ان يوجه عدوانه المباشر بسبب الحرمان كالاب او الام او زوجة الاب، ولكن بصورة اخرى يسرقهم اعز ما يملكون وقد يؤثر ان يكلف بعض رفاقه بشراء ما يريد ويقول « ان هذه اللعبة اعطاني لها صديقي هدية » وهو سلوك اجتماعي مقبول في مستويات بعض الأسر...
- وقد يسرق الطفل احيانا حبا في الظهور وشدّ للانتباه عندما يجد انه يفقد التقدير الاجتماعي داخل الاسرة... اما بدافع الغيرة او يفضل طفل على آخر... او كراهية معلنة أو خفية في احد الوالدين لأسباب قطعا خارج إرادة الطفل وغالبا ما يكون هذا الطفل متنازعا عليه عاطفيا... أو اجتماعيا أو شرعيا...

فيجد في استمالة زملائه تعويضا لفقدان التقدير الاجتماعي الذي يشعر به... وحسب عمره وقدر نضوجه قد يصل حد المواجهة باسلوب رفض للمعاملة والاعتراف بالسرقة او التكتم ويندفع للمباهاة بين زملائه بحسن المظهر والشرف حتي يجد موقعا مريحا تحت الشمس.

- وقد يسرق الطفل عندما يعاني من حالة نفسية، اكتئاب نفسي... وتكون السرقة نوعا من معاقبته للنفس، اما بالشعور المفرط بالذنب

الذي يتبع عملية السرقة حيث يجد الطفل المكتئب نوعا من التفريغ العقلي والراحة حتى لو كان مصدر الراحة عقوبة بدنية من الأسرة.

- وهناك اسباب عقلية... فالطفل الذي يعاني من الضعف العقلي او التخلف الذهني لا يدرك طبيعة العمل الذي يقوم به وتسقط عنه المسؤولية الجنائية وقد يستغلّه بعض ضعاف النفوس في السرقة، اما الأهل او ذو المزاج المنحرف.

وهناك الطفل الذي يعاني من مرض عقلي مثل الفصام البسيط الذي يبدأ في تفكيك عناصر الشخصية في وقت مبكر قبل ظهور الأعراض العقلية وتكون الاضطرابات السلوكية أول مؤشر لحدوث المرض خاصة وان هذا المرض يظهر في مرحلة مبكرة في الطفولة المتأخرة.

ان المحزن حقا ان هذه الصورة تتكرر بشكل مفجع في أكثر من موقع ونحن لا تحركنا إلّا مأساة، نميل الى الإثارة وتصيد وقوع الحدث المؤسف ولا نخطط لتلاقيه ماذا نفعل...

اشارات المرور نتعامل معها كلافتات الزينة، وعندما نصطدم بالسيارة الاخرى ننظر الى الخلف لنرى ان كان الضوء اخضر ام احمر. جنوح الأطفال في سن المراهقة نتعامل معه بعفوية ولا مبالاة، وعندما يقدم احدهم على مغامرة تهز المجتمع يسلّط الأضواء لتصبح ذرة الرمل في حجم الكثبان. والغياب المتكرر نتصدى له بالانذارات وتخفيض الدرجات، فإذا اصبح ظاهرة عقدنا ندوات لمناقشة قضية الغياب والرسوب والمطروح والمطلوب والغالب والمغلوب في مواقف انسانية.

التصنيف.

معذرة... فأنا لا ألوم احدا ولا أخص احدا بالعتاب... وان كان اللوم والعتاب من موقع المسؤولية من أعلى درجات اليقظة والحذر ولا ابرىء نفسي من تهمة فأنني طرف يفتح صدره للمساءلة مع غيري في هذا البحر

الواسع في عالم الطفل حيث نمسك بأطراف شبكة صخمة لنصطاد مشاكل قد تكون في حجم المحارة ولكنها في قيمة اللؤلؤ. وقد تكون في حجم الثمرة ولكنها تتفرغ الى شجرة جذعها في الأرض وفروعها في السماء، وأخطرها ما كان في حجم القنبلة اليدوية... في حجم كف الطفل الذي يخفيها ولا ندري متى يقذف بها فتدمر عدة احياء، وقد تكون أول الضحايا لأننا كنا نتعامل معه كطفل لا كمشكلة.

حول رعاية الطفل

لقد اتيحت لي فرصة حضور بعض جلسات حلقة (رعاية الطفولة في الاسلام) والتي نظمها مكتب المستشار الثقافي بديوان سمو رئيس الدولة ومنظمة المؤتمر الاسلامي والاتحاد النسائي وجامعة الامارات العربية، والتي اقيمت في فندق هيلتون ابو ظبي في مطلع الشهر الماضي، بإشراف مدير عام جامعة الامارات...

وقد قدم ممثلو الهيئات المذكورة، كلمات في جلسة الافتتاح كانت بمثابة ورقات عمل، وقد قدم معالي وزير العمل والشؤون الاجتماعية، بعض الاحصائيات التي توضح حجم المشكلة من حيث الكم والكيف، مؤكدا على ضرورة شمولية مفهوم رعاية الطفولة اعتمادا على الاحصائيات الاقليمية والدولية، ومركزا على ضرورة تناول قضايا الطفل بعيدا عن المنظور السياسي، لأن الدول التي ترعى المؤسسات التي تدافع عن حقوق الانسان هي ذاتها التي تشعل الحروب المدمرة التي يكون الأطفال أول ضحاياها العاجزين عن الدفاع عن انفسهم... وقد أشار الى الاحصائيات التي تدل على ان نسبة الأطفال تعادل نصف السكان في بعض مناطق العالم، وأكثر من ربع السكان في منطقة الخليج. وإذا قيست هذه النسبة بالتعداد العام للسكان فإنها تمثل ثمرة حصيلة اغلى ثروة بشرية واعظم عائدا في الدخل القومي على مدى نهاية القرن الحالي...

حلول عاجلة

إن معطيات استقراء حقائق مرحلة ما بعد البترول على مستوى منطقة الخليج، تعطي موضوع رعاية الطفولة اولوية في التناول واسبقية في الاهتمام، ومن المؤسف انه على مستوى الوطن العربي يتجه المؤشر الى الإتجاه المضاد حيث يرتفع معدل الكثافة السكانية وتنخفض الموارد الغذائية والدخل القومي، وعلى نطاق الدول النامية فان اغلبية الأطفال يموتون دون بلوغ العام الأول واذا تجاوزوه، يعانون من مشاكل سوء التغذية والأمراض الوبائية والمستوطنة. واذا تخطوها فيقعون في مستنقع الأمية بارقام فلكية، وإذا خرجوا للحياة واجهوا البطالة والجريمة والانحراف، وهذا مصير أجيال تمر بكل اصناف الحرمان والمُعاناة من الطفولة للشيخوخة، وأطفال الأقليات في المجتمعات المتقدمة يقابلون نفس المصير.

ولو رجعنا الى مداولات مؤتمر الطب العربي للأطفال الذي نظمته وزارة الصحة بالامارات الشمالية، نلاحظ بوضوح تكرار المأساة في مشاكل سوء التغذية والتطعيم، وضعف الرعاية الأولية والحد الأدنى من احتياجات الطفل الأساسية في كل مراحل العمر وهي قضايا متشابهة في كل الأقطار المشتركة والتي تعاني من مشاكل التخطيط لرعاية الأمومة والطفولة.

ابعاد جديدة

ان قضايا الطفل واحدة... خارج اعتبارات الجنس واللون واللغة والعقيدة. وهناك قواعد عامة تحكم هذه القضايا وقد قدم الدكتور عز الدين ابراهيم اقتراحين في كلمة الافتتاح، يتلخصان في تكون مجلس اعلى لرعاية الطفولة في العالم الاسلامي، واتحاد نسائي اسلامي عالمي. والواقع ان الاقتراحين ينبعان من ارضية مشتركة هي رعاية الطفل... وفي الحديث « اللهم اني أخرج حق الضعيفين اليتيم والمرأة »، وهما ينفصلان نظريا في ضرورة التخطيط لكل فئة على حدة في تحديد الأولويات ومصادر التمويل

ويتكاملان عمليا في شمولية التصدي لقضية واحدة هي مشاكل الطفولة والأمومة. والمؤسسات التي ترعى مشاكل الطرفين، لا بد ان تكون ذات ابعاد مشتركة الا ان التمييز في طرح قضية الطفل في العالم الأسلامي او المسيحي هي انعكاس لواقع هذه المجتمعات، بحيث يكون العلاج نابعا من خصوصية المشكلات المميزة لكل مجتمع دون غيره، آخذة في الأعتبار الاطار العام الذي يهتم بالطفل... كانسان...

ان معظم اطفال العالم الاسلامي والدول النامية، يعيشون في مناخ غير صحّي يفتقر الى كثير من ضروريات صحة البيئة والمجتمع التي وصل اهتمام الدول المتقدمة بها، مرحلة الاساطير العلمية، كالرجل الخارق ورحلات الفضاء... مواقف مثيرة للاحباط في نفسية الطفل في العالم العربي والاسلامي.

مؤسسات الأطفال

اننا ما زلنا نعاني من أزمة حقيقية في رعاية الطفل... رغم ان الأطفال يمثلون اكبر شريحة في المجتمع... والعملة الوحيدة في مستقبل سوق التعامل الحر... والعنصر الأساسي في خدمة قضايا التنمية خاصة وان عائد المواد الخام يسجل هبوطا ملحوظا في السنوات الأخيرة...

ان دول العالم الثالث اصبحت دول مؤسسات تهدر جهودها في التخطيط القطاعي، ولا يقع الطفل في اولويات هذا التخطيط. ومظاهر هذه المؤسسات يتمثل في المهرجانات الموسمية، كالعام الدولي للطفل... والعام الدولي للمعوقين... والعام الدولي للأمومة، وهي من باب (الذكرى تنفع المؤمنين) ويجب اعادة النظر في دور هذه المؤسسات بحيث يكون للطفل مؤسسات خاصة ــ اذا لزم الأمر ــ على نسق وزارات التربية والشباب والرياضة، تعنى بطفل ما قبل المدرسة... وان يخرج دور المؤسسات والهيئات العالمية كاليونسكو واليونيسيف والمنظمة العربية، من اطار المؤتمرات والتوصيات الى متابعة التنفيذ على المستوى الأقليمي والمحلي، حيث لا تزال هذه القرارات تخضع لسياسة واهتمام كل دولة

على حدة... فالطفل في السنوات الأولى يكون المقومات الأساسية للرجل... العادات... والضمير الانساني... وعلامات النضج الخلقي والديني والعقلي وحين يصل الى المدرسة يكون قد وصل برصيد هائل من مشاكل ما قبل المدرسة ويكون دور التربية في محاولات اصلاح السلوك المعوج، او تقويم العادات المكتسبة، حتى اذا وصل دائرة اهتمام وزارة الشباب والرياضة اصبحت اهتماماته منصبة في قوالب جاهزة...

لذلك، فإن وجود مؤسسات خاصة بالطفل في كل دولة تضع في اعتبارها التخطيط الصحي في التغذية والتطعيم ومراكز رعاية الطفولة والأمومة، ودور التوجيه والرعاية الأولية... والتخطيط الاقتصادي بحيث يصبح الطفل الرقم الأول في ميزانية الأسرة... والتخطيط الاجتماعي الذي يوطد اسس التنشئة النفسية السليمة ومتطلبات النمو في كل مراحله... والتخطيط الثقافي الذي يعنى بثقافة الطفل... مكتبة الطفل... ملاعب الطفل... تنمية المهارات والقدرات، من خلال توفير أماكن خاصة للأطفال... وصالات عرض... وحدائق متخصصة، لا تقتصر على توفير المنتفس الاجتماعي، وإنما تخدم هدف دور الرعاية والحضانة... والمناخ النفسي لنمو شخصية الطفل... حيث لا يستقيم الظل والعود أعوج.

القضايا المعاصرة

ان متطلبات العصر الحديث قد فرضت على المرأة الخروج الى العمل... وخرجت بالرجل بعيدا عن دائرة الاسرة لأوقات طويلة وفرضت على بقية الأطفال سرعة النضج الاجتماعي والاعتماد على النفس بحثا عن العلم او العمل، وبقي الطفل في المنزل آخر افراد الكتيبة المحاربة من اجل الرزق، وبقدر ما توفرت طرق الخروج تعذرت دروب العودة.

وقد فرض هذا الواقع المعاصر التزامات جديدة على الطفل... مثل الاعتماد على النفس قبل اكتمال النضج... وضرورة التكيف مع البيئة دون توفير الضمانات، فأصبح طفل اليوم ليس كطفل الأمس شكلا وموضوعا...

لقد قال سيدنا على كرم الله وجهه (الناس بزمانهم اشبه منه بأبائهم) ولعل حلقة رعاية الطفولة في الاسلام قد وجدت في هذا المعنى مدخلا جديدا لقضايا قديمة يجب اعادة صياغة مفاهيمها بصورة جديدة.

وقال سقراط (لا تكرهوا ابناءكم على آثاركم فهم مخلوقون لزمان غير زمانكم) وقد وضح من ابحاث ومداولات الحلقة ان مشاكل العصر الحديث في الإنجاب والنسل والتنشئة والزواج والحرية والتفاوت النوعي والموضوعي بين قطر وآخر، هي معطيات قديمة تحتاج الى التناول بأسلوب جديد نابع من البيئة الأقليمية في إطار النظرة العالمية... وقديما قيل (ان النار التي تذيب الذهن هي التي تجعل البيض يتجمد) ومن هذا المنظور الفلسفي نستطيع ادراك خطورة التعامل باسلوب القوالب الجاهزة... في رعاية الطفل... ولنا عودة...

رعاية الطفل مرة أخرى

يعتقد الكثيرون ان ميلاد الطفل هو بداية حياته... ويؤرخون لحياته ويخططون لمستقبله، ويقيسون معدلات نموه وسلوكه ودراسته اعتمادا على شهادة الميلاد... واذا أردنا أن نوفر رعاية أفضل للطفل فعلينا أن ندرك أن يوم ميلاد الطفل، لا يعني اكثر من تسجيل لحظة وصوله للعالم الخارجي حيث كان يعيش في بيئة اخرى ـــ رحم أمه ـــ قرابة (٢٨٠) يوما ـــ في مرحلة ما قبل الولادة.

وبعد لحظة الاخصاب، وفي الشهر الثاني (الأسبوع الثامن) تكتمل كل اعضاء الجسم والصفات الأساسية للشكل الخارجي بعد اكتساب كل الخصائص والموروثات. قال تعالى (هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل، ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعلقون). صدق الله العظيم.

فحاجات الطفل في مرحلة تكوين النطفة ثم العلقة داخل بيئة الرحم، تتلخص في الغذاء الجيد والمناخ الصحي، في سلامة جسم الأم من الأمراض واضرار التدخين والمشروبات والعقاقير والحالة النفسية، حيث ثبتت العلاقة بين حالة الانفعال الشديد والصدمات النفسية وحدوث الاجهاض.

إذاً عوامل الوراثة والبيئة الرحمية والتغذية والتكوينات الجسمية تتم قبل

خروج الطفل للحياة حيث تصبح له شخصية اعتبارية متميزة عن غيره من الأطفال نظريا وعمليا... شكلا ومضمونا وأهمية مؤسسات الطفل هي أخذ هذه الحقائق في الاعتبار، عندما تغيب عن الذين يعتقدون ان مشاكل الطفل تبدأ في مرحلة الحضانة والروضة والمدرسة ومجالات التعليم الأخرى.

مرحلة ما قبل المدرسة

ان هذه المرحلة والتي تقع ما بين الثالثة والخامسة من العمر ـــ تتميز بخصائص معينة تتطلب برنامجا خاصا في أسلوب التعامل وهي من أهم المراحل التربوية في نمو الطفل الحركي والعقلي واللغوي والاجتماعي... وهي فترة تشكيل البناء النفسي الذي تقوم عليه اعمدة الصحة النفسية ومتطلباتها كالشعور بالمحبة والطمأنينة والتقدير الأسري ولذة النجاح وحلاوة الحرية ومبادىء الانضباط ـــ مرحلة التكوين ـــ والتلوين... تكوين اساسيات البناء... وتلوين الرغبات والأهواء... وعلى قدر نجاح أو فشل أولى الأمر في الاستفادة من هذه المرحلة يكون عطاء ما بعدها من مراحل.

حلقات متصلة

ان البيئة المادية للطفل تمتد من داخل الرحم الى الخارج ـــ الاسرة ـــ المدرسة والمجتمع وما نحاول الوصول اليه ضرورة وجود مؤسسات كاملة ذات فروع متخصصة، تعني بالطفل قبل الولادة وقبل المدرسة، لأن البيت أفضل مدرسة وهو الذي يهيء الطفل للدخول المتدرج بثقة الى قاعة الدرس لكنه ليس الجانب الوحيد... ودور المؤسسة هو الاهتمام بكل الجوانب حتى دخوله هذه القاعة مزودا بكل الاحتياجات الذهنية والنفسية اللازمة لممارسة هذه النشاط الانساني. لقد اثبتت القناعات القديمة ان اعتبار ميلاد الطفل ترمومتر قياس مظاهر النمو في المشي والكلام والقراءة لا تمثل المعيار الحقيقي في التنبؤ بقدرات الطفل في المستقبل وقد اثبتت دراسات علم النفس السلوكي لعلماء من امثال واطسون وسكز وولب صدق

هذا الافتراض، وقد وضح ان سلوك الطفل قابل للتبديل والتحوير في .تجاهات مختلفة بدرجات كبيرة.

المعايير الجديدة

اننا ما زلنا نتفاخر بالطفل (الاول) في الصف... الطفل الرقم بين مجموعة ارقام اخرى في الصف وقد يكون دور المتوسط في الذكاء والقدرات. ونغالي في السخرية من الطفل (دون العشرة الأوائل) حتى وان كان بين مجموعة من المتفوقين وذوي القدرات الذهنية العليا حتى اصبحنا جنسيات وقبائل في سباق الأوائل وابتكرنا شتى الأساليب في تقديم الجوائز القيمة والمثيرة للهمة في نفوس البعض والمسببة للأحباط في نفوس الآخرين من الأطفال دون سوء قصد قطعا... وهي خطوة صحيحة في اتجاه خاطىء اذا أننا منذ البداية لم نصنف الأطفال حسب القدرات والذكاء والمهارات والفوارق الفردية وهي المبادىء الأساسية للمنافسة غير الضارة بين الأطفال. يندر أن نجد الأسرة التي تفخر بالقدرة اللغوية للطفل او المهارة الفنية في الرسم او النبوغ المبكر في مادة الرياضيات أو موهبة المهارة اليدوية وهي قدرات كامنة عند تفجيرها الى طاقات تملأ فراغا هائلا في مجالات الخلق والابداع بحيث يسهل تصنيف الأطفال حسب ميولهم الفطرية وتنمية قدراتهم في هذه الاتجاهات... وكثيرا ما نلاحظ طفلا متوسط القدرات في كل هذه المواد مجتمعة، يكون اول الصف متفوقا على طفل خارق النبوغ في مجال نادر... لكن شخصيته المنطوية وقدرته الكلامية المتوسطة تحول دون ظهور هذه الموهبة، بحيث لا يطفو على السطح مثل الطفل الآخر.

اصناف دور الحضانة

ثم ندفع بالطفل الى دور حضانة من شتى النوعيات، بعضها مستودع لحفظ الأطفال حتى نهاية دوام الأبوين... بعضها قاعات انتظار في المطارات الدولية تحت اشراف زائرة صحية، عندما يكون فكر الوالدين

غائبا في سحابة السفر، وظهورهم مثقلة بالحقائب في انتظار الطائرة المتأخرة حتى منتصف الليل... بعضها... مظهر من مظاهر الترف الحضاري حيث تحاول الأم تمثيل دور الحضانة كظاهرة اجتماعية، حتى وان كانت التزاماتها الأسرية لا تبرر هذا الفعل... بعضها مصدر تجارة رابحة لبعض ربات البيوت اللواتي يطحنهن الشعور بالفراغ الممل او تدفع بهن غريزة الثراء السريع في اتجاه اي مشروع تجاري لا يحتاج الى تراخيص ومراقبة، أو نفقات وميزانية وانصافا للقلة المسؤولة هناك دور مقنّنة ملتزمة بمواصفات خاصة هادفة من حيث المساحة والتنويع في البيئة والأبداع في اصناف اللعب مع مراعاة الاعمار والتشويق في معاملة الطفل باثارة غريزة الفضول في حل الألغاز وتنويع النشاط والتحكم في حركة الجسم وتعزيز الثقة بالنفس بتشجيع روح المبادأة، فتصبح ذات أغراض متعددة وأهداف متجددة وليست قتلا للوقت، وشغل فراغ الطفل.

دور رياض الأطفال

لعل من أهم مراحل ما قبل المدرسة مرحلة رياض الأطفال، وضرورة وجود مؤسسات خاصة بالطفل، لا يعني فصل رياض الأطفال من مؤسسة التربية والتعليم والشباب، فهذه الحلقات متصلة ولكنه يقتضي شرط وجود مرحلة تعليمية تربوية متكاملة من حيث مواصفات المباني والتصاميم بصورة نموذجية تخدم حاجات الطفل في هذه المرحلة من العمر... ومن حيث النظام الخاصّ في المناهج التعليمية المنهجية واللامنهجية والمقررات التربوية الأخرى... ومن حيث الكادر الوظيفي المؤهل عمليا حتى لا تكون رياض الأطفال أول تجربة المبتدئين في حقل التربية، ولكن عصارة جهد المقتدرين خصوصية وتخصصا في عبء انتقال الطفل من البيت للروضة للمدرسة بصورة تضع الطفل المناسب في الصف المناسب.

من هنا تتبلور أهمية مؤسسات رعاية الطفل كنقطة التقاء في أعلى مواقع التخطيط الشامل لفروع التخطيط القطاعية الموزعة بحيث تقع مراكز الطفولة والأمومة تحت مسؤولية جهة ومراكز الاعانة الأسرية وخدمات

التنمية الاجتماعية تحت جهة أخرى وحق رعاية الطفل في حالات الطلاق والانفصال تحت جهة وتراخيص دور الحضانة ومسؤولية الاشراف والمراقبة عليها تحت جهة ودور رعاية المعوقين ومعاهد المكفوفين تحت جهة اخرى، ان دقة التخصص ضرورة ولكن شمولية التخطيط خطوة اكثر عملية في التنفيذ حتى لا يضيع الطفل في متاهة السير في عدة اتجاهات في آن واحد.

وقد يكون تكوين مجلس اعلى لرعاية الطفولة على مستوى الدولة الخطوة العملية الاولى ونقطة البداية من أجل تكوين مجلس أعلى لرعاية الطفولة في العالم الاسلامي... والميل يبدأ بخطوة والغيث أوله قطر فينهمر.

حساب الربح والخسارة

أن الحياة لا تقف على ساق واحدة كما لا ترتفع البناية العالية على كتلة عمود واحد، لأن العددية من طبع العباد والوحدانية من جوهر العبادة، أما الحياة الدنيا فتستقيم على الأجماع... الأجماع في الرأي والجهد والمشاركة ومن هذا المنطلق كانت فضيلة الصلاة مع الجماعة وتحمل المسؤولية مع ومن أجل الجماعة حتى أصبحت (الجماعية) من صلب حقيقة الوجود. والحقيقة صفة مطلقة تتجاوز مجال النسبية والعددية الى مجالات العلاقات الانسانية، فالانسان حيوان اجتماعي في أدنى درجات الوصف قال تعالى (لقد خلقنا الأنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) صدق الله العظيم، فالمسؤولية الجماعية تفوق الاجتهاد الشخصي منه في الأداء ولا تتساوى معه في الجزاء... والمساءلة الجماعية تعطي كل ذي حق حقه ولا تعفي الفرد من عبء التقصير في حدود واجباته ولا تزر وازرة وزر أخرى.

المدخل والمخرج :

أردت من هذه المقدمة أن أمتص حيرة القارىء في مضمون العنوان فيتصور أن الحديث يدور حول التجارة فالانسان تعلّم أن يستوعب لغة الأرقام فقط في مجال العمل التجاري ونسي أن هناك بالمقابل جوانب متناقضة في كل شيء... الخير والشرّ... الفشل والنجاح... الربح

والخسارة... ثم المال والبنون جانبان مكملان لبعضهما البعض... (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) حتى لا يكون المال هدفا في حدّ ذاته، ولا يكون البنون أعظم غاياته وانما تكتمل بهجة الحياة الدنيا بوفرة المال ونعمة الأطفال، ولا تستقيم كفة ميزان الحياة إلّا بوجود العاملين في وقت واحد... والسؤال كيف نوظف المال في سبيل تحقيق المنفعة من خلال الأطفال ؟ وكيف نوجّه الأطفال من أجل ترشيد الثروة الموجودة في المال ؟

لقد علمتنا الحياة وهي — حقا خير معلم — ان لذة البحث عن المال في غياب جهد الرعاية للأطفال، كانت بوابة الدخول الكبرى، والاولى لجماعات الباحثين عن الثراء في بورصة الحياة التجارية، وما زالوا يبحثون عن مخرج صدق من المتاهات الأسطورية والدهاليز المعتمة التي يحاولون الخروج منها بسلالم لولبية، كلما صعدوا درجا من سلم الثراء نازعتهم لهفة التطلع الى عتبة أخرى يصدق عليهم قول أبي الطيب المتنبي :

كلما أنبت الزمان قناة
ركّب المرء في القناة سنانا

وما أكثر الأسنة في غابة الرماح... الغابة التي نعيش فيها داخل المدن المتحضرة، وما أعظم البون بين الربح والخسارة... بأثر رجعي ظاهره الرحمة وباطنه العذاب.

المال والبنون :

لقد كتب الكثيرون على المستوى العالمي والمحلي، عن مشاكل الأطفال وجنوح الأحداث... وأثبتت الاحصائيات أنه في ظلّ الظروف الطبيعية، لا يولد الطفل جانحا اذا تجاوزنا قلّة تقع في باب الوراثة ما زالت تخضع للبحث والدراسة وانما يتعلم الطفل بالتقليد والمحاكاة، وتوفر عناصر الانحراف عن الطريق السوي في داخل المجتمع.

ربما اننا نعيش داخل مجتمعات خرجت من (قمقم) الانغلاف الفصامي الى

(مولد) هوس الانفتاح، فقد كانت الطفرة أكبر من قدرة الطفل على تجاوزها فسقط في مستنقع الوحل الحضاري الذي يسير فيه المجتمع كالرمال المتحركة.

ان من سمات النضج العقلي التي تميز مجتمعا عن آخر... وفردا عن آخر هي المحاولة المستمرة والمتكررة لترويض النفس على حمل المسؤولية، لا محاولات اسقاط المصائب على أكتاف الآخرين بحيث يتعلم الفرد فضيلة قول الحق (أنا المسؤول). فقد أصبحنا من فرط افتقارنا الى روح النقد الذاتي ومواجهة الآخرين مجرد متفرجين على (مسلسل الخطأ) الذي يعرض أمامنا يوميا ونشاهده على شاشة الحياة ولا نعرف من المسؤول أو نجرؤ على رفع أصابعنا بالاتهام، لأننا جميعا أطراف في هذه القضية.

لقد وجدنا علاقتنا بالغرب أشبه بالزواج الكاثوليكي وصنعنا منها مشجبا نعلق عليه مشاكلنا الأجتماعية والتربوية، ونسينا أن هناك من الإيجابيات ما لو استجلبناه مع السلبيات التي غمرت أسواقنا وبيوتنا وشوارعنا وحجراتنا الداخلية، لحدث نوع من التوازن المؤقت حتى نستطيع ترتيب أمور بيتنا من الداخل... لقد أصبح الأب يقضي نصف يومه في مجال العمل ويداعب أرقام الحاسب الألكتروني والنصف الآخر مناصفة بين جلسات العمل ومناقشة المناقصات والسفر المفاجىء على خطوط الطيران المتعددة الاتجاهات ولحظات الاسترخاء القصيرة وفيما تبقى من الزمن في السؤال عن الحال والأحوال للزوجة والأطفال، والسؤال التقليدي الذي ينتظر الاجابة الجاهزة سلفا (ليس في الامكان أبدع مما كان) حتى اذا كان ذلك ينافي الحقيقة ويجافي الواقع ويتعارض وطبيعة الحياة... وفي هذه الاوضاع يجد الأب العاجز العزاء في (انني أشقى من أجلكم) وقد تكون حقيقة، ولكنها خطوة صحيحة في اتجاه خاطىء شأن الشقاء المهدر رغم الجهد المقدر، لأن حاجة الطفل ليست فقط في الماديات المتوفرة ولا في المغريات المتواترة داخل وخارج البيت وانما في الوجود الحسي والمعنوي للأب... ذلك الوجود الروحي الذي يلمسه الطفل بأصابعه العشرة ونشتم

رائحته بوجدان زهرة الجاردينيا المتفتحة في شرفة المنزل... وحاجة الأم الى قدر من الأهتمام يعطيها قوة الدفع لتفريغ المخزون من الطاقة النفسية في روح الأطفال وبغير هذا العقار السحري، ينضب معين حنانها وتفقد القدرة على استنبات الأخضر من اليابس وفاقد الشيء لا يعطيه... وربما لجأت الأم المنهمكة بالمسؤولية والباحثة عن الطمأنينة الى زرع القلق في نفوس الأطفال دون وعي بما تفعل لأن الحصار النفسي داخل جدران البيت مع مرور الزمن يعطل حواس الانسان ويجعل اليأس يدب في أغوار النفس ولا يطفو الى السطح الا في لحظات الضعف والانكسار واخطرها ما ينفجر كالعاصفة بلا سابق انذار.

المعادلة الصعبة :

يقولون : لا خيار لمن لا يختار... والخيار لا يكون الا في وجود بديلين، وأصل الصراع عندما تطغي عوامل الجذب أو الدفع في جانب طرف على الآخر... وأكثرها عندما تتساوى الدافعية في الاتجاهين... وبينما يبدو أن الخيار السهل هو السير في طريق المال فأن الواقع يؤكد أن الخيار الصعب هو الاتجاه نحو العناية بالأطفال... فالمال ثروة... والأطفال ثروة... ولكن المال لا يستطيع ان يصنع أطفالا يحققون الخيارات المطلوبة للمستقبل، بينما يستطيع الأطفال بالحد الأدنى من الاهتمام والرعاية تحقيق أكبر الغايات التي لا تقدر بثمن... ان طفلا واحدا خارجا عن طاعة الأبوين... مارقا على سلطة المدرسة، جانحا في سلوكه الاجتماعي، يستطيع أن يبدد في لحظات، ما جمعته الأسرة في سنوات من أموال طائلة وثروة هائلة. بينما يستطيع، بالمقابل، طفل آخر مطمئن النفس في كنف والديه، هادىء البال في محيط أسرته، ينعم بالتقدير في إطار مجتمع يستطيع أن يكون منارة هدىً في طريق الظلام وشعلة وعي في دياجير الجهل الاجتماعي وحامل راية في مسيرة أمة كاملة... وتاريخ الأمم يصنعه أطفال شبوا عن الطوق وأدركتهم الرجولة في بداية المسيرة، فسجلوا بطولة مثيرة في منعطفات حادة في تاريخ شعوبهم، وأكبر دليل في كتب السيرة

والتاريخ. بينما لم يسجل التاريخ حتى الآن أن دولة ما، استطاعت أن تشيد مجدها أو تبني حضارتها بالمال في غياب العنصر الانساني القادر على تحمل مسؤولية البناء وترجمة أهداف التنمية الى برامج.

قضايا الساعة :

لقد طرحت أقلام كثيرة مشكلة جنوح الأحداث من زوايا مختلفة وان اختلفت في أسلوب الطرح، فقد اتفقت في وضع المشكلة في الاطار المناسب ومن أكثر الأطر المناسبة النظرة الموضوعية الى هذه المشكلة من منظور وطني على انها احدى قضايا الساعة... وما أكثر هذه القضايا على امتداد الوطن العربي.

ان جنوح الاحداث وانحراف الشباب لم تعد مشكلة دولة معينة دون غيرها فقد أصبحت عصرية بكل المواصفات الجديدة تفرض نفسها داخل البيت والشارع في كل قطر... تتشابه الى حد كبير رغم الاختلافات الجوهرية التي تتميز بها انماط التركيبة الاجتماعية بين الدول العربية والاوروبية وقد اتيحت لي في مناسبات متقاربة، فرصة الاشتراك في عدة مؤتمرات حول جنوح الاحداث وتوفرت لي أسباب لقاءات متعددة في أقطار متفرقة حول مشاكل الطفولة واضطرابات الأحداث واذا لم تكذبني الذاكرة فأكاد أجزم أن تشابه تضاريس المشكلة بين الدول المشاركة والمراقبة في هذه اللقاءات يجعلني اتساءل ان كان السبب ــ حقا ــ ينبع من مصدر مشترك يصب في قرار واحد ؟ واذا أردنا أن نجد حلا جذريا لهذه المشكلة فيجب أن يكون التحرك بتخطيط مشترك وجهد جماعي ونهج قومي وحس وطني يتجاوز الحساسيات الاقليمية والنزعات الشعوبية، ويضع القضية في الحجم المناسب ويسلم مفتاح الحلّ الى أعلى مستويات المسؤولية في انتظار خطوات التنفيذ... وحتى يتم هذا الاعجاز، فلتكن هذه فترة صمت عاقل... بعيدا عن لطم الخدود وشق الجيوب ودعوى الجاهلية، ومحاولة رصد حسابات الفصل الختامي في بند الربح والخسارة... لأننا نتعامل مع عنصر الانسان... الرقم الوحيد الذي يصعب

القفز فوقه... أو السير عليه... أو الألتفاف حوله... أو الاستخفاف به... أو الاتكاءة عليه... أو المزايدة فيه لأن خسارته لا تقدر... وفقده لا يعوض... وفرصته لا تتكرر في العمر مرتين.

الفصل الثاني عشر

* في مجال الطب النفسي

١ ــ أزمة الطب النفسي

٢ ــ اثر الموسيقى في حياتنا

٣ ــ المطوع والمطيع

٤ ــ خطر المظلة الكيماوية

٥ ــ نظرة في العلاج النفسي

٦ ــ حول رعاية الاحداث

أزمة الطب النفسي

لقد ظل الطب النفسي كفرع من فروع الطب البشري، يعاني من خلط كبير في أذهان الناس. حول وظيفة الطبيب النفسي والخبير النفسي أو المتخصص في علم النفس، وان كان من واجب الطبيب النفسي دراسة علم النفس كأصل ثابت في تخصصه، إلا أنه ليس بالضرورة أو ينبغي للمتخصص في علم النفس، دراسة الطب. ورغم أن كلا التخصصين مكملان لبعضهما، إلا أن دور الطبيب النفسي قد غاب في ضباب الفكرة العامة عن علم النفس.

وقد فكرت في الكتابة باللغة الانجليزية كاضافة متواضعة الى تراث عظيم من الابحاث التي كتبت في هذا المجال، ولكن الذي استوقفني قلة الكتب العربية التي كتبت في مجال الطب النفسي،وان معظم الرواد الذين خاضوا في هذا المجال كتبوا عن مواضيع علم النفس النظرية والعلمية، دون الاستعانة بوجهة نظر الأطباء الذين، كثيرا ما يلجأون الى كتابة ابحاثهم باللغة الانجليزية الدوريات الأجنبية أو مخطوطات في المجال الأكاديمي.

ولقد ظل الطب النفسي معزولا عن مجال الرؤية للقارىء العربي الذي يتوق الى المعرفة العلمية والمعلومات الطبية، عن الحقائق النفسية التي تطرح في أكثر من مجال. وزاد من قناعتي هذا الزخم الهائل من التراجم العربية للمخطوطات الأجنبية، والتي هي في الأصل نتاج ولادة طبيعية لعدة عوامل بيئية وثقافية واجتماعية لهذه المجتمعات الأجنبية، والتي تمثل حقيقة هامة في مجال الطب النفسي، وهي أن الطب النفسي أكثر المجالات تأثرا

وتأثيرا بالثقافة الخاصة بالمجتمع. وعلى سبيل المثال، فاللجنة التي كونتها هيئة الصحة العالمية، من كبار الأطباء النفسانيين في العالم لدراسة أثر الثقافة المحلية في تشكيل أعراض مرض الاكتئاب، أثبت أن عامل الثقافة والتقاليد والنظرة الاجتماعية تلعب دورا كبيرا في اعطاء الصورة الخاصة بالمرض، رغم أن المرض، كظاهرة طبيعية، موجود في كل هذه المجتمعات.

وقد كان من أحد الدوافع التي شجعتني على هذه التجربة، شعوري بأن الفئة التي يجب أن تنتفع من هذه الدراسة، هي في المكان الأول موضع الدراسة وأن هذه المعلومات ستظل محجوبة عن ادراكها لفترة قد تطول كثيرا قبل أن نتمكن من الاستفادة منها ونكون قد فقدنا أحد الأهداف الأساسية في الممارسة العلمية في حقل الطب النفسي، إضافة الى ذلك، فالسؤال الذي يطرح نفسه دائما لمن نكتب ؟ يستدعي بالضرورة أن يتسع مفهومه بحيث يشمل كل أنواع المعرفة... فبقي أن تتسع نظرتنا للغاية من الكتابة في الموضوعات العلمية والنظرية... اذا كان الهدف من الكتابة تقديم أطروحة للحصول على درجة علمية أو اثراء البحث العلمي في المؤسسات الأكاديمية أو المساهمة في مؤتمرات علمية، فإن الفرد المعني هو المواطن العربي الذي يصعب عليه في كثير من الظروف مواكبة هذه التطورات العلمية باللغات الأجنبية.

لعلني لا أضيف جديدا اذا قلت أن الطب النفسي والذي لم يتجاوز عمره الزمني قرنا ونصف من الزمان، قد ظل حتى فترة قريبة بعيدا عن مجال العلوم التطبيقية وحبيس الأبراج العاجية للفلسفة والمنطق، حتى أن معظم كليات الطب في معظم أقطار الوطن العربي، كانت لا تدرس مادة الطب النفسي في المنهاج المقرر، فخرجت أجيال من الأطباء حتى عهد قريب، تعاني من مشكلة المعرفة أو واجب الاعتراف بأهمية الطب النفسي في حياتنا العلمية والعملية... ولعلني لا أتجاوز الحقيقة اذا قلت أن كثيرا من الزملاء في المهنة لا يعرفون بوجه التحديد، الفارق بين وظائف عالم النفس والطبيب النفسي والعلاقة بينهما، وعندما ملأت دراسة هذا الفرع في الجامعات العربية، طغت مؤلفات علم النفس على حقائق الطب النفسي،

فظل الأخير يعاني من سلبيات الأول لأن كثرة من غير المخصصين في علم النفس قدموا جهدا كبيرا في هذا المجال أدى الى كثير من الخلط بين الحقائق العلمية والاجتهادات الفردية، وإذا أريد للطب النفسي أن يشق طريقه وسط هذا الزخم الهائل من التراث فعليه أن يصل الى عقل وقلب القارىء العربي، بأقصر الطرق وبأسرع وقت وبأقل جهد وبأفضل وسيلة، إلا وهي اللغة العربية.

ولا أريد أن يكون هذا المؤلف طرفا في الحوار الدائر في الساحة العلمية، حول تعريب المفاهيم بكليات الطب، فهذا موضوع آخر له سلبياته وايجابياته. والمدخل اليه يقتضي مناقشته من زوايا أخرى عديدة، ولكن المبدأ لا يتعارض مع تعريب المؤلفات العلمية من ذوي الأختصاص كلما كان هذا ممكنا، وبصورة لا تفسد المعنى وتخدم الغاية المنشودة من زيادة الوعي بمشاكل الصحة النفسية لدى الفرد العربي.

لقد كانت بدايات التأليف في مجال الطب النفسي وعلم النفس، منذ عهد الرازي والفارابي وابن سينا، باللغة العربية وقد تمت ترجمات هذه المؤلفات الى اللغات الأجنبية. ولعله من باب القول المعاد التأكيد على أن مجال الطب النفسي أكثر أنواع المعارف الطبية التي لها علاقة سببية بالأسطورة والتراث الشعبي لدرجة يصعب فيها على طبيب غير عربي أن يتعامل مع مريض عربي يعاني من مشكلة نفسية... ليست فقط لصعوبة مشكلة الترجمة، كما في فروع الطب الأخرى، حيث يقوم طرف آخر بهذا الدور الوسيط خير قيام، ولكن في المحتوى الفكري والدلالة اللفظية والخلفية الثقافية التي تتداخل عناصرها في صنع قوالب الأعراض المرضية التي يطرحها المريض، ويتطلب تفسيرها وفك رموزها، معايشة تلك البيئة وتحليل هذه العناصر الى جزئيات صغيرة تتطلب من الطبيب وضعها في الشكل الكلي الذي يعطيها المعنى الخاص أو الهيئة (جستالط).

ان عنصر الثقافة المحلية أصبح يشكل عاملا هاما في تشخيص المرض النفسي والعقلي، مما جعل هيئة الصحة العالمية تقوم بعدة دراسات وابحاث

في مجال تصنيف وتسمية الأمراض العقلية والنفسية حسب الأعراض المرضية، مما أعطى التقسيم سمات اقليمية ومحلية وشعوبية، حسب طقوس كل أمة وشعب ودولة. وقد ورد ذلك في المرجع.

ولعل الموسوعة العلمية الخاصة بتصنيف الأمراض العصبية والنفسية في المجتمع المصري، أكبر دليل على خصوصية هذه العلاقة بين المرض النفسي والثقافة المحلية، كما يذكر الدكتور أحمد عكاشة استاذ الطب النفسي بجامعة عين شمس بالقاهرة.

اذا أخذنا مثلا مرض الاكتئاب النفسي نجد أن السمات المميزة لهذا المرض تتخذ صورتها النهائية، ليس فقط من البيئة المحلية للفرد، بل من مجتمعه الصغير ومحيطه الضيق الذي يعيش ويتفاعل معه... ولعل الملاحظة العلمية الجديرة بالذكر، والتي تؤكد أن حالات الانتحار أقل شيوعا في المجتمعات الشرقية المسلمة، قياسا بالمجتمعات الغربية، تشير الى دور العقيدة في تحريم القتل (لا تقتلوا النفس التي حرم الله)، ودور الايمان في تخليص الفرد من حصار الدافع الفردي للتخلص من الحياة تحت ضغط (الأنا العليا)، كما ورد في نظريات فرويد.

وإذا وقفنا أمام مرحلة المراهقة، نجدها نتيجة تفاعل بين العوامل الوراثية البيولوجية والثقافة الاجتماعية... والموقف الاجتماعي والمستوى الثقافي لدى الأسرة والمدرسة بل والحارة، نجد بعض ملامح شخصية المراهق وسلوكياته، مما يؤكد ضرورة البدء في تنقيح التراث الموروث والمستورد من التركة المثقله في مجال الطب النفسي، وبلورة المفهوم الصحيح باللغة العربية الأصيلة القاسم المشترك الأعظم بين دول المنطقة، حتى نربط حاضرنا بماضينا دون أن نفقد علاقتنا العلمية باللغات الأخرى والتي ظلت المنبع الوحيد الذي ننهل منه المعرفة ونتبادل بها المنفعة مع زملائنا في المهنة مع الدول الأجنبية.

لقد اقترح أحد الأطباء النفسانيين العرب الذين حضروا المؤتمر التأسيسي لجمعية الأطباء النفسانيين بالخليج العربي، والذي عقد في دولة البحرين في

ديسمبر عام/١٩٨٢م أن تكون مداولات المؤتمر باللغة العربية تجسيدا لهذا المعنى وتأكيدا بضرورة بداية تعريب موضوعات الطب النفسي ورغم الاستجابة الضمنية لهذه اللفتة، الا أن موضوعات المؤتمر كانت قد كتبت وطبعت باللغة الانجليزية، ومنذ تلك اللحظة بدأ التفكير في التأليف باللغة العربية، دون التخلي عن الأصول العلمية في اللغات والمؤلفات الأجنبية في تناول البحث موضوع الكتابة مستشهدا بقوله تعالى (قل اعملوا وسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) صدق الله العظيم.

أثر الموسيقى في حياتنا

لقد ظلت الموسيقى منذ قرون، لغة تخاطب ووسيلة اتصال ومصدر تأثير على قدر كبير من الأهمية في عالم الانسان والحيوان... فهي كلغة تشبع رغباتنا في التعبير عن خلجات نفوسنا، ونسمّيها فنا (فن الموسيقى)، وهي كوسيلة اتصال بين الناس والتعريف بهم تعكس نمط حياة وتفكير الجماعة، وتصبح ذات رسالة عالمية في تلاقح ثقافات الشعوب من خلال الدراسات الفولكلورية والمهرجانات الموسيقية، ونعتبرها علما (الموسوعة الموسيقية) وهي كمصدر تأثير تساعدنا على الاسترخاء، وخفض التوتر العصبي والجهد الذهني لدى الانسان السليم، وعلى التنبيه الحسي في حالة المرض وضعف الاستجابة ونطلق عليه ترويجاً (العلاج بالموسيقى). وقد قال أحد الشعراء :

أصخرة أنا مالي لا تحركني... هذي المدام ولا هذي الأغاريد

مجرد تأكيد لأثر الموسيقى في تحريك حواس الأنسان... واذا ادركنا ان الحركة تحت تأثير (المدام) سلبية تقود في الاتجاه المضاد للنشوة الفعالة المؤثرة المستمرة، وذلك بالتنبيه المؤقت حتى يسقط الفرد في درك حالة الشلل والخمول. فإن الحركة تحت تأثير (الأغاريد) الموسيقى تقود في الاتجاه الإيجابي كظاهرة صحية وعلمية نفسية فيزيولوجية، تحدث حالة انخفاض درجة التوتر العصبي نتيجة المؤثرات المنغومة المنتظمة.

خلفية علمية

يعتقد الكثيرون ان الحديث عن أثر الموسيقى في حياة الناس، نوع من الترف الذهني والبطالة الفكرية، وحتى تتسم هذه الملاحظات العابرة بدقة العلم الموضوعية، لا بد من ذكر نظريات تثبت هذه الحقيقة... فقد اثبت العالم النفسي المعروف واستاذ فرويد (شاروكوت) إمكانية علاج اعراض جسمية نتيجة حالة نفسية، كالشلل والبكم الهستيري، عن طريق الايحاء وإستعمال الموسيقى كإحدى وسائل احداث حالة الايحاء بالترويح النفسي او التفريغ العقلي او حالات التنويم المغناطيسي بداية بالاسترخاء... والغفوة والنوم وانخفاض الوعي وضعف السيطرة على النفس... كما اثبت العالم الروسي بافلوف، ان الفارق بين النوم الطبيعي والتنويم، يكمن في القدرة على الاتصال بالعقل الباطني بالايحاء... وقد لاحظ ان تنويم الطفل اثر الاهتزازات الرتيبة المنتظمة الخاصة والاصوات المنغومة التي تصدر من الأم، تحدث هذا الأثر من الاسترخاء والنوم بتكوين (عادة)، نتيجة مجموعة انعكاسات شرطية مكتسبة وهذه حقيقة يتعامل معها الأب والأم كل يوم.

اذا انتقلنا الى عالم الكبار، نلاحظ ان الذين ينامون على صوت الموسيقى او المذياع، يستيقظون متوترين اذا توقف هذا المثير... خاصية تستغلها إدارات الفنادق الفاخرة، في تزويد غرف النوم بموسيقى وجدانية صرفة، تبعث على الرغبة في الاسترخاء والنوم نتيجة الإيقاعات المتواترة الهادئة، كما نلاحظ ان بعض الطلاب يستذكرون دروسهم تحت تأثير المذياع والأغاني، وتقل دافعيتهم ويشعرون بالملل والضيق عندما يتوقف المثير، وان بعضهم يحفظ الأغاني لعدة سنوات وينسى الدرس بعد بضع ساعات. ونلاحظ في حالات الهستيريا الجماعية في اغاني (الديسكو) الصاخبة وحفلات الخنافس في اوربا، قد تصل مرحلة قابلية الايحاء درجة فقدان السيطرة والعنف وحالات الإغماء...

وتمتد الظاهرة منذ عهد زرياب والموصلي والموشحات الاندلسية

وسيمفونيات بتهوفن، الى حلقات الذكر والتواشيح الدينية التي تحدث حالة من الرهبة والخشوع بخلفية المؤثرات الصوتية والكلمات المنغومة في مسبحة الانفعال المؤدي الى حالة الانجذاب اثر صوت (النقشبندي) والابتهالات الدينية المشحونة بالتنغيم المؤثر المخاطب للقلب مباشرة.

ويبدو هذا اكثر وضوحا في تأثير القرآن المرتل بصوت (عبد الباسط عبد الصمد)، حيث تلتصق الآيات المنغومة بالوجدان مباشرة وهي اعلى مراحل التنبيه الحسي في قوة التأثير المستمر في الذاكرة... ونلاحظ الظاهرة في الصراع بين الشعر العمودي والشعر الحر يبدو اكثر حدة في محور الاهتمام بالموسيقى الداخلية للشعر... فالموسيقى الشعرية تجعلنا نحفظ مضامين للشعر العمودي أكثر من الشعر المنثور. وهذه بعض أسباب خلوده في ذاكرتنا.

الموسيقى والشخصية

نلاحظ ان هناك تصنيفا محدودا وانطباعيا عن علاقة نوعية الموسيقى بشخصية الفرد... فالذين يميلون الى الموسيقى الكلاسيكية، يكونون أكثر ميلا للاستبطان والتأمل والتروي في التفكير، والتحكم في الأنفعال والقدرة على التدقيق. والذين يميلون الى الموسيقى الدرامية عاطفيون وانطباعيون يتميزون بسرعة الاستجابة لمثيرات البيئة، أما عشاق التراجيديا فيبكون وينفعلون مع الاحداث بصورة تلقائية كرؤية منظر في تمثيلية أو مشهد في مسرحية، بينما نجد الذين يميلون الى الموسيقى النحاسية الصاخبة، يتميزون بالاثارة وحدة الانفعال.

العلاج بالموسيقى

من المعروف ان من وسائل الترويخ النفسي، الاستماع الى الموسيقى في حالات العافية والمرض ومن مؤثرات العلاج النفسي، استعمال الموسيقى في بعض حالات المرض العضوي والنفسي... في الحالة الأولى ترفع منسوب الروح المعنوية وفي الثانية تتغلغل في أعماق النفس من خلال التأثيرات التي

ذكرناها، مؤكدة بتجارب (مخنر وقيبر وهلموهوتز)، في دراسة الطبيعة النوعية للدفعة العصبية الحسية، وذلك بناء على نوعية المرض... وقابلية المريض... وشخصية الطبيب الذي يستعمل الاسترخاء في نزع افكار وخيالات مريضة وغرس افكار اخرى سوية، قادرة على مخاطبة العقل الباطني نتيجةالفقدان النسبي للذاكرة، ونسيان الأحداث المسببة للقلق، وإمكانية استدعاء ذكريات سارة من الماضي، وتوجيه الرغبات اللاشعورية توجيها سليما، وهذا أساس بعض الاضطرابات النفسية... وقد وضح من خلال التغيرات الادراكية إمكانية رؤية وتخيّل أشياء غير موجودة (تحضير الأرواح) ومخاطبة أشخاص غير موجودين في (طقوس الزار)، وفقدان سيطرة المراكز العليا، كالمشي في الجمر وأكل النار، عند بعض المجتمعات...

وفي مجال الطب النفسي، فأكثر الحالات استجابة، هي حالات الانقباض والتوتر العصبي والاكتئاب النفسي والهستيريا. ومن المثير حقا ان بعض حالات انفصام الشخصية، وهي أخطر الأمراض العقلية الناجمة عن اضطرابات كيميائية وبيولوجية، يتأثر المريض بالموسيقى في نوع الاستجابة ودرجة المشاركة الوجدانية، مما يؤكد الحقيقة العلمية، عن أثر الموسيقى الفزيوكميائية، بإحداث تفاعلات في جزء المخ تنشّط المراكز المعطلة.

والحق يقال، أن أثر الموسيقى في حياتنا، تمتد من أخمص القدم الى شعر الرأس... من دهاليز الحزن الى أضواء الفرح... من ألم التوتر الى لذة الاسترخاء، وفوق كل ذي علم عليم.

المطوع والمطيع

أذكر من ضمن البحوث التي قُدمت في المؤتمر الإفريقي الثالث للطب النفسي في الخرطوم، بحثا للعالم (النيجيري) (البروفسور لامبور) من جامعة « أبادان »، حول العلاقة بين الطب النفسي الحديث، والطب التقليدي الذي يرتكز على الايمان (بالمعالج البلدي)، والثقة بالأعشاب والتعاويذ والأحجبة... وهي ظاهرة متفشية بصورة مذهلة في المجتمعات الإفريقية البدائية، وحتى بعض الأقطار المتحضرة ووسط قطاعات على درجة عالية من الوعي... وقد ربط بين الصلة الروحانية والايمان والمرض النفسي كظاهرة جسدية نفسية في جسم الانسان.

وقدم العالم الياباني (ين يانغ ين)، في مؤتمر لاحق في فيلادلفيا بأمريكا، بحثا حول دور الكاهن في علاج الأمراض النفسية في المجتمع الياباني... وفي المجلة البريطانية للطب النفسي، نشر البروفسور أحمد عكاشة، أستاذ الطب النفسي في جامعة عين شمس، بحثا حول دور التراث والثقافة المحلية في تشكيل الاعراض النفسية في المجتمع المصري.

وخلاصة هذه الأبحاث تدور حول الصراع القائم بين الموروث في البيئة، حول دور (الطب القديم) أو (الفكي) أو (المطوع)، حسب مسميات كل مجتمع، والذي يقوم بدور أصحاب الكرامات وذوي الموهبة، في علاج الأمراض النفسية ومكتسبات العلم الحديث، المتمثلة في العقاقير والجلسات الكهربائية وجراحة المخ الخ...

وباختلاف المدارس الفكرية، يُجمع بعض العلماء على ضرورة الالتقاء في نقطة وسط، من أجل مصلحة المريض... نقطة التقاء لا تفقد العلم هيبته، ولا تسلب المريض ثقته وإيمانه بآيات الله. والواقع أن التجربة أثبتت أن عامل الثقة يقطع نصف الطريق في رحلة العلاج... وأن تعزيز إيمان المريض بحتمية الشفاء، جزء أساسي من (العلاج النفسي)، كما أن تأكيد دور العقاقير الطبية، خطوة هامة في مجال (العلاج الكيميائي)، ولا تناقض ولا تعارض بين القاعدتين... ولكن يجب أن نحذر لحظة عبور خطوط التماس بين محورين أساسيين في العلاقة بين المريض (المطيع)، وبين المعالج (المطوع).

وما من أحد ينكر دور الإيمان، في التعجيل بشفاء المرض النفسي، خاصة اذا كان المعالج على درجة كبيرة من الوعي والايمان والعمل. قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم). صدق الله العظيم فالعلماء من ولاة أمور المؤمنين والمؤمن بعلم العالم... كالحافظ لعهد الله (انما يخشى الله من عباده العلماء). ولكن عندما يتجه العالم بعلمه الى كسب المال بغير حلال... ويتعدى حدود الله فقد ظلم نفسه... فالحلال بيِّن والحرام بيِّن، وما بينهما ظلال الشبهات، وقال تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون). وقال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات). ولكن التعاويذ... والبخور... والأحجبة... وقراءة الفنجان... وخطوط الكف... ومطالعة النجوم... كلها محدثة وبدعة... وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ومن المفارقات التي ولّدت عندي رغبة صادقة في تناول هذا الموضوع، ملاحظة بعض ذوي المريض، الذين يرفضون الانتظار في أقصر صفوف المستشفيات، ولا يستعملون العلاج في أكثر الحالات... هؤلاء أنفسهم، يقطعون المسافات بمشقة الراحلة وطول القافلة... يقبلون ضرب الطفل بالسياط والكي بالنار، وحرمانه الأكل والشراب... ويدفع كل ما ملكته يداه من نفيس مدخراته وحلي زوجاته (للمطوع)، الذي غالبا ما ينصحه بترك العلاج والاكتفاء ببعض التعاويذ. ومع إيماننا المسبق بضرورة الإيمان في

مسألة الشفاء، فإننا نتحفظ في قبول التجاوزات وادعاءات البعض الضارة. وفي الحديث الشريف (ولو يعطى الناس بدعواهم لا دعى رجال أموال قوم ودماءهم. لكن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر). وما أكثر الذين يسارعون في إقامة الدعوى... في غياب البينة والحلف بأغلظ الإيمان.

وأسوق شاهد صدق، على حالات أطفال تشقي النفس وتؤرق الضمير، يعانون من مرض (الصرع)، وهو اضطراب فزيولوجي في وظائف المخ، وراثي أو مكتسب بفعل الإصابة أو الحمى أو التسمم، لا يعدي ويستجيب للعلاج الطبي، لفترة تمتد الى ثلاث سنوات، وفي حالات نادرة لجراحة المخ، وهذه آخر انجازات أعظم مستشفيات عالم اليوم. ولكن الكثيرين سافروا للخارج طلبا للعلاج، فعادوا يحملون العقاقير القديمة في عبوات جديدة، وفاتورة فاخرة تضاف الى البنود الجديدة في ميزانية وزارة الصحة... واذا كانت الوزارة في سبيل تقنين هذا الوضع، فإن ميزانية (المطوع) في حياة الأسرة، ما زالت تمثل التحدي الأكبر، حيث أن حساسية الموضوع تجعلها خارج إطار النقاش... وتجعلنا نتأرجح بين القناعة بخطأ الفاتورة ولزوم الضرورة... ضرورة الثقة المستمدة من التربية الدينية، والتي صعد بها البعض الى مصاف الكهنوت، وقد نهى الرسول عن (ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن)، متفق عليه وقال (من أتى عرافا فسأله عن شيىء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما)، ولا يزيد الدخول في متاهة تعريف العراف... والكاهن... والمطوع، ولكن لا طاعة لمخلوف في معصية الخالق.

ان من مظاهر تردي الواقع العربي في هذا الزمان، أننا استسلمنا لعجزنا وسلس قيادتنا لغيرنا في كل الاتجاهات... وبات الفكر العربي بطيء الحركة في طريق المبادرة... وحتى لا يشطط بي الخيال في العتاب، يكفي أن نتذكر أن أوائل المستشفيات العقلية في العالم كانت في بغداد عام ٧٠٠م، وفي القاهرة عام ٨٠٠م، وفي دمشق عام ١٢٧٠م. وكان العرب يقودون حركة انسانية واسعة من أجل رعاية أفضل المرضى وظلت مؤلفات

الرازي والفارابي في مكانة متميزة، حتى مطلع القرن التاسع عشر حين بدأت النظرة الانسانية في أوروبا على يد علماء مثل بنيل في فرنسا ويتوك في انجلترا ودكسي في أمريكا، لانقاذ المرضى الذين كانوا يحرقون أحياء للتخلص من الشياطين الساكنة في أجسادهم، لأنهم يعتبرون الأمراض العقلية قوة ميتافيزيقية خارجة عن الجسم، كالأرواح الشريرة والجان والآلهة الخ...

والآن لم يتبق من قبس نور الهداية وعمل السلف الصالح، إلا أن نتجادل في شرعية الطاعة وحكم الاستطاعة، ودور المطوع وقدر المطيع... فالأول يكوي الجسم بالنار والثاني يقدم الطاعة بلا خيار وحتى المستطيع بالقول يردد (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)، والمتمكن من الفعل لسان حاله (ولا تزر وازرة وزر أخرى)، وليت قومي يعلمون أن الشرر المتطاير من (مراويد) المطوع كثيرا ما تقتل بقايا الخلايا النابضة في مخ الانسان... فاذا كان قدر المطيع (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فأن لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان)، فهل يدرك (المطوّع) أن (من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه). صدق الرسول الكريم.

ورحم الله أبا الطيب المتنبي الذي قال :

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها
هوانا بها كانت على الناس أهونا

خطر المظلة الكيماوية

كتب أحد الكتاب في إحدى الصحف اليومية، تعقيبا مقتضبا حول المذكرة التحذيرية التي بعثت بها هيئة الأبحاث الأمريكية الى الجهات الطبية حول ضرورة تشديد الرقابة على تصدير الملطفات والمهدئات النفسية الى الدول النامية... وشاءت الصدف أن تصلني نشرة طبية مماثلة من مجلس الأبحاث البريطانية، في نفس المعنى حول خطر المظلة الكيمائية التي يسير تحت ظلالها ملايين البشر في العالم دون استشارة طبية أو مشورة علمية.

وقد وصلتني في نفس الأسبوع، النشرة الدورية لهيئة الصحة العالمية تناقش مشكلة حوادث السيارات في الدول النامية، تحت عنوان (الطاعون الحديث)، كما تسلمت تقرير وقائع مؤتمر الاضطرابات النفسية المنعقد في شيكاغو بأمريكا حول احصائيات مرض الاكتئاب والقلق النفسي في أمريكا والدول النامية... وهناك عشرات التقارير والنشرات ولكن ما يستوجب الوقفة، أن التحذير موجه نحو الدول النامية، علما بأن الدول المتقدمة هي أكثر استعمالا لهذه العقاقير وأن اعداد المرضى النفسيين، يفوق عدد المرضى بكافة الأمراض الجسدية مجتمعة في احصائيات مركز الأبحاث الأمريكي في العام الماضي.

حقائق وبيانات :

اذا حاولنا استخلاص الحقائق من البيانات الواردة نصل الى حقيقة في غاية الأهمية للدول النامية... فالنشرة التحذيرية الأولى تشير الى أن (المهدئات)، أصبحت مشكلة خطيرة في الدول النامية، في الوقت الذي تكاد تكون فيه وجبة يومية في المجتمعات الغربية... ومشكلة الطاعون الحديث، تؤكد أن حوادث السيارات في الدول النامية أصبحت تمثل إحصائية الوفيات حالة بين كل ثلاثة عشرة حالة وفاة في سن الشباب دون العشرين، واذا كان مرض الطاعون قد فتك بالملايين في الماضي، فإن مرضى التكنولوجيا الحديثة قد أصبح بديلا للطاعون كالنار في الهشيم أحرقت عائد الثروة المادية وحصيلة لثروة البشرية في بعض الدول النامية بصورة الطاعون... وقد اتضح في مجال البحث عن السبب والنتيجة أن تعاطي المهدئات دون مشورة طبية يمثل نسبة عالية وان كانت أقل خطورة من المسكرات.

وفي تقرير مؤتمر الأمراض العقلية الأخير بشيكاغو، ورد أن عدد الذين يعانون من القلق النفسي والاكتئاب في العالم قد تجاوز مائتي مليون شخص، وحصة الدول النامية من هذا الرقم أربعون مليون نسمة وان نسبة المرضى النفسيين في أمريكا نسبة واحدة لكل أربعة أشخاص وأن المعدل أعلى في المدن من الريف، وأعلى نسبة للانتحار نتيجة للأمراض النفسية وأن ٦٠٪ من الأمريكيين يتناولون يوميا مهدئا نفسيا لمواجهة مشاكل الحياة.

وفي نشرة مجلس الأبحاث البريطانية، تبرز حقيقة هامة وجديدة وهي انتشار ظاهرة الأعتماد على المهدئات بنسبة كبيرة وسط الفتيات والنساء والتي كانت قاصرة على الرجال والشباب دون الثلاثين.

حصيلة الاحصائيات :

ان نظرة عاجلة الى دلالة التقارير والبيانات الواردة تؤكد حقيقة هامة... وهي ان ضعف الوعي الصحي لدى الفرد والمجتمع في الدول النامية... وانتقال مشكلة التكنولوجيا وأمراض العصر الحديث المتبادلة بين الدول المتقدمة والدول النامية، نتيجة اختزال المسافات وسرعة الاتصالات... وازدهار تجارة العقاقير بشتى أنواعها... وعجز الفرد عن أشباع رغباته الفردية في المجتمعات الاستهلاكية الجديدة وسرعة خطى العصر المتواترة التي فرضت نمطا معينا من السلوك يقود الى الاحباط والاضطرابات النفسية كنتيجة حتمية ومنطقية لهذا الصراع غير المتكافىء بين امكانات الفرد ومتطلبات الحياة... وسوء استغلال المال والوقت والفراغ النفسي الداخلي رغم الزحام المادي الخارجي.

فوجود العلاقة السببية بين تعاطي المسكرات والمخدرات وحوادث السيارات، أصبحت قضية لا تحتاج الى مزيد من الأبحاث العلمية، بقدر المزيد من التوعية الصحية... وان وجود أكثر من أربعين مليون حالة اكتئاب نفسي في الدول النامية، لا تمثل إلّا مؤشرا الى قمة جبل الجليد المتحرك تحت سطح المحيط البشري من مرضى الإضطرابات النفسية والذين يمثلون أكثر من ٣٠٪ من المترددين على العيادات الخارجية بشكوى جسدية ذات أسباب نفسية (مجلس الأبحاث البريطاني)، وهي حرب استنزاف جديدة مستمرة بين أمراض العصر وموارد الدولة وهي قضية في بعض الأحيان، لا تحتاج الى أكثر من تقويم جديد الى حكمة قديمة (درهم وقاية خير من قنطار علاج).

المبدأ... والخيار :

من المبادىء الثابتة في مجال الطب النفسي... مبدأ التوعية الصحية... وأن من أهم ركائز العمل في ميدان الصحة النفسية مبدأ الوقاية في البداية والعلاج داخل الأسرة... الوقاية من المشاكل النفسية بنفس درجة الاهتمام

ببرامج التطعيم ضد أمراض الكوليرا... وشلل الأطفال... والحصبة الألمانية... وان حملات القوافل الثقافية التي تطوف أطراف العالم النائية للتوعية بضرورة التطعيم، تمثل قاعدة أساسية في الحفاظ على الثروة البشرية... فإذا كانت أمراض الكوليرا وشلل الأطفال قد حصدت الملايين من الكبار والصغار في الماضي، وأمتلأت دور المعوقين ومراكز التأهيل العلاجية، فإن الأمراض النفسية قد شلت قوة الارادة وحرية الحركة لدى الملايين في الشارع، واكتظت المصحات العقلية حتى أصبح أكثر من ٦٠٪ من نزلاء هذه المصحات حالات مزمنة، تردد عبارة (لا يأس مع الحياة ... ولا حياة مع اليأس)، في كل ارجاء العالم ولذلك بدأ الاتجاه الحديث، في إعتبار الصحة النفسية مندرجة تحت قاعدة (الرعاية الصحية الاولية)... هذا هو المبدأ... والخيار يبقى في كيفية تحقيق هذا الهدف بالوسائل المتوفرة بأقصى درجات الفعالية.

لقد ظلت الابحاث العلمية، حتى هذه اللحظة، مستمرة بخطى مثمرة ولا يمر عام إلا ويدخل الانسان مرحلة انتصار جديدة على الأمراض المستوطنة والوافدة، ولكن كيف تصل هذه الاكتشافات الى الفرد... للاستفادة من ثمرة هذه الأبحاث... خاصة، اذا وضعنا في الاعتبار ارتفاع نسبة الأمية في الدول النامية وضعف التثقيف الصحي... واذا ادركنا قلة المجلات العلمية المتخصصة، واذا توفرت فهي في أضيق الحدود وتخاطب فئات معينة بلغة خاصة واذا تيسرت فهي تعاني مشاكل الترجمة وضعف التوزيع... واذا تيسرت فهي لا تصل الى القارىء الذي تبحث عنه... صاحب القضية... الفرد المعني بالتوجيه والارشاد.

اذن أصبح الخيار... اذا توفرت خيارات أخرى — في الوقت الحاضر... خيارا واحدا في عدة اتجاهات... ان نخرج من قاعات الاجتماعات في البنايات العالية... وردهات الأكاديميات العتيقة كالمتاحف الأثرية الى حيث يوجد هذا الفرد... لا ينبغي أن يكلف أحدا أن يقوم نيابة عنا بهذه المهمة، اذا أدركنا العقبات التي تحيط بهذه القضية... واذا أختلفت الصورة أصبح شهادة أكاديمية تزين صدر من يتشرف بحملها...

لا يكفي أن نرصد احصائيات وفيات الأطفال من الأمراض المعدية... وقضايا الأدمان وسط الشباب... وضعف الوعي الصحي بأهمية التطعيم، وضعف الأقبال على مراكز الأمومة والطفولة... يجب أن يتجاوز طموحنا هذا القصور في تغطية هذا النقص، وتقوية هذا الضعف الموروث والمكتسب لدى الفرد والمجتمع في التوعية الصحية... يجب أن نختزل الأبحاث العلمية الموسوعية في شكل نشرات طبية... أفلام قصيرة... ملصقات حائطية... إعلانات معبرة في كل وسائل الاعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في كل الأشكال.

أطراف المعادلة :

ان الأبحاث العلمية المنشورة والموثوقة، تؤكد أن الاضطرابات النفسية موجودة في كل المجتمعات البشرية وأن الفارق النوعي والموضوعي يكون فقط في تشكيل الأعراض بطبيعة ثقافة وتراث وتكوين المجتمع والتركيب النفسي للأفراد... وأننا لا نتجاوز تقدير الواقع اذا قلنا أن الدول المتقدمة تقنيا وعلميا، تعاني من أعلى نسبة للاضطرابات النفسية، وقد يكون هذا نتيجة الوعي الصحي في دقة الملاحظة، واكتشاف المرض وسرعة التبليغ ووفرة الاحصائيات.

وأحد أطراف المعادلة، أن هذه المجتمعات، أولا: لا ترى في المرض النفسي سُبه اجتماعية... ولا تتردد في الافصاح عن احصائياتها داخل وخارج الدولة، وثانيا : تضع من الضوابط والقوانين ما يجعل الحصول على العقاقير الطبية في شتى أنواعها أشبه بالمستحيل بدون القنوات الرسمية التى ترسمها الدولة الا ما كان من باب التهريب، وهذه قضية أمنية في المرتبة الأولى وليست مشكلة مهنية قاصرة على الخدمات الطبية. وثالثا : تعاني هذه المجتمعات من مشكلات التكنولوجيا الحديثة، أضعاف ما تعاني من المجتمعات النامية وأن أصبحت الأخيرة مسرحا للجريمة فما زالت الأولى حقلا للتجارب.

أما الجانب الآخر للمعادلة فنجد أن مجتمعاتنا تسير تحت مظلة التعتيم في دهاليز الأمراض النفسية أما جهلا بها... أو خوفا منها، أو تسترا عليها... والجهل والخوف والتستر من أكبر آفات العصر الحديث في قضايا علاج الأمراض النفسية في المجتمعات النامية... وهذه نفس الدوافع التي تجعل المريض يقضي نصف رحلة المرض بين عيادات (الطب البلدي)، والاجتهاد الفردي في تعاطي المهدئات (المظلة الكيمائية)، دون استشارة طبية، مما يضاعف من صعوبة السيطرة على هذه المصادر الذكية في تمويل هذه التجارة الرابحة.

ثقوب... المظلة الكيمائية :

في آخر نشرة لهيئة الصحة العالمية لأقليم شرق البحر الأبيض المتوسط، ورد بالنص فقرة حول خطورة ظاهرة ارتفاع تعاطي المهدئات وسط الفتيات والنساء في الدول النامية، حيث يتحرج الفرد من استشارة الطبيب، وترفض الأسرة الاعتراف بالواقع... ويتشدد المجتمع في حصار هذه الشريحة من المجتمع، في وقت يسهل فيه الحصول على المهدئات بشتى الطرق.

ويبدو ان هذه المظلة، من فرط الاستغلال وسوء الاستعمال، أصبحت مليئة بالثقوب بصورة لا تقي من هجير ولا تحجب من أعاصير الأضطرابات النفسية التي تعصف بهذا الجيل المتأزم.

ودور وسائل الاعلام ــ الصحف ــ المجلات ــ التلفزيون ــ السينما ــ وللتكرار مجددا يجب أن يكون نقطة الارتكاز في تكثيف مجالات التوعية الصحية... مع مراعاة ألا يطغي الاعلان عن سلبيات المهدئات النفسية على ايجابياتها العلاجية. فالعقاقير الطبية في كل المجالات لها من السلبيات والايجابيات، ما يؤكد ضرورة التمييز الواعي بين أهمية التبصير وضرر التحذير، لأن كل ممنوع مرغوب... فالهرمونات أكسير الحياة... وقد تكون كأس المنية نتيجة الاستعمال الخاطىء، ولا يعني هذا عدم استعمال هذه العقاقير.

رحم الله استاذي العالم الجليل البروفسور التجاني الماحي ــ طيب الله ثراه ــ فقد قال لنا ونحن على عتبة التخرج، من أراد الثراء فليتجه الى طب الولادة... فعطاء كل مولود عرفان، ومن أراد طول العمر فليتجه الى طب الأطفال، فشفاء كل صغير غفران، ومن أراد القناعة في الفقر فليتجه للطب النفسي، فجزاء كل مريض نكران... قلنا له لماذا لا تشجعنا وأنت أب الطب النفسي في البلاد... قال : لقد علمتني التجارب أن صاحب الحاجة لا يسعى اليك... والمعافى لا يثني عليك... والمريض لا يجهرك... وان شفي لا يذكرك وقد يلقاك مضطرا، فينكرك وكأني به يقول :

ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى عدواً له ما من صداقته بدُّ.

رحم الله استاذ العلامة الذي لم يمتد به العمر ليعيش عصر الأزمات النفسية حيث أصبحت الملايين تسير تحت المظلة الكيمائية ليل نهار... وأصبح الأطباء النفسانيون من أكبر مليونيرات أوروبا في المال والعقار، وتجار المخدرات من أكبر مراكز القوى في العالم وفي كل الأقطار... ومصائب قوم عند قوم فوائد.

نظرة في العلاج النفسي

لقد كان الطبيب والعالم الاغريقي ابو قراط (أبو الطب) في عام ٤٦٠ ــ ٣٧٧ قبل الميلاد، أول من انتقد فكرة الروح الشريرة والعفاريت، في حدوث الاضطرابات العقلية ودافع عن وجود مرض في خلايا الدماغ، وبذلك خطا أول خطوة في الطريق الصحيح نحو فهم طبيعة الأمراض العقلية، وقد تبعه الأطباء الأغريق والرومان في تأكيد أهمية المعاملة الأنسانية للمريض النفسي باشاعة جو المسرة والترويح والرياضة والتغذية الجيدة والتدليك والسباحة ونسبة لعدم وجود مستشفيات كانت هذه الطقوس تمارس في المعابد.

بين الطب والسحر :

لم تستمر هذه النظرة الأنسانية طويلا عند بداية القرون الوسطى، التي شهدت عودة السحرة والعرافين والقوى الخارقة وروح الشياطين التي تسكن اجساد هؤلاء المرضى، وتسبب الفيضانات والكوارث الطبيعية للمجتمع، وتحت الاعتقاد الخاطىء بأن المعاملة القاسية للمريض هي عقاب غير مباشر للشيطان بداخله، بدأ الجلد بالسياط، والكي بالنار، والتجويع الشديد. وبلغ الذروة في (محاكم السحرة) التي أعدمت آلاف المرضى في القرن الخامس عشر والسابع عشر، للخلاص من روح الشيطان... وانشئت اول المصحات العقلية لايواء المرضى الذين امتلأت بهم الشوارع،

الوعي الصحي في المجتمع وإنشاء العيادات النفسية للأطفال والمجمعات الطبية للرعاية النفسية، والتي ساعدت في وقاية وعلاج الاضطرابات النفسية.

النظرة الحديثة :

لقد شهد الربع الأخير من هذا القرن، تطوراً ملحوظاً في علاج الاضطرابات النفسية، بإنشاء المستشفيات العقلية، عقب الحرب العالمية الثانية في مباني مستشفيات الميدان بعد نهاية الحرب، وزادت اعداد هذه المستشفيات، ولو ان كثيرا منها ظل مراكز حراسة وتكديس للنزلاء بصورة لا إنسانية، عنابر مكتظة متداعية. وقد تحولت النظرة اليوم، حيث اصبحت هذه المستشفيات جميلة وجذابة تتدفق حياة، كخلية النحل، تحت إشراف طاقم مدرّب متعاطف يقود المرضى في مجالات فسيحة متعددة الأنشطة، التي تساعد على بلوغ اعلى درجة من النشاط البدني والعقلي. وتبلورت روح الحداثة في تحديد جدول عمل يومي لكل مريض يتناسب وقدراته الخاصة ويشمل (جلسات علاجية)، مع الطبيب المختص وجلسات (علاج جماعي) مع مجموعة مرضى يعانون من نفس الأعراض، وجلسات في وحدة (العلاج العمل) لتعلّم مهارات جديدة، وجلسات (العلاج بالماء) في حمامات خاصة للمعالجة المائية العلمية للأمراض، تساعد على الاسترخاء وتخفيف حدة التوتر العضلي والعصبي، وأنشطة الترويح البدني والعلاج التعليمي التأهيلي للمريض للحصول على عمل أفضل بعد خروجه من المستشفى.

وبينما كانت المستشفيات العقلية في الماضي تشيد في أطراف المدينة وفي أماكن معزولة، فإن الاتجاه الحديث هو بناء هذه المستشفيات، قرب الجامعات وكليات الطب في الأماكن ذات الكثافة السكانية الضخمة، بحيث يحدث اتصال مباشر مع احدث مراكز الأبحاث العلمية، والتفاعل بين طاقم العلاج وأقسام المستشفيات الاخرى. وبعض هذه المستشفيات يقوم بتدريب طلبة الطب في علوم الأمراض العصبية والنفسية وعلم النفس

ومبادىء علوم البحث الاجتماعي، وتوفير خبرة عملية في التمريض النفسي واجراء ابحاث علمية حول تطور المؤسسات شكلا ومضمونا.

كما أن وضع المستشفيات داخل او قرب المدينة، يحقق رسالة ربط المريض بالمجتمع والمستشفى، وتوطيد الصلة القائمة بين الاسرة والمستشفى وتطوير مبدأ صحة البيئة.

وقد بدأ الاتجاه نحو بناء مستشفيات صغيرة بدلا عن المستشفيات الكبيرة المكتظة بآلاف المرضى، وذلك تحقيقا لمبدأ الرعاية الاولية والاهتمام بنظرية (البيئة العلاجية)، والتي تركز على ان كل عناصر البيئة داخل وخارج المستشفى، يجب ان تشترك في علاج المريض وان توظف في مساعدته على فهم وتغيير سلوكه في الاتجاه الصحيح، وهذا يعني ان طاقم التمريض او الفريق المعالج المنوط به العناية بالمريض، ينبغي أن يكون على درجة عالية من التدريب وقوة الاحساس بالمسؤولية تجاه مشاكل المريض... ان الفوائد العديدة في جلسة علاجية واحدة مع الطبيب المختص، قد تضيع هباء اذا انفق المريض بقية اليوم في احتكاكات متوترة مع طاقم علاج غير متفاهم في وحدة متجانسة (كفريق عمل) يتبادلون المساعدة فيما بينهم حول مدى تقدم حالة المريض، وتقييم أوضاعه وتقديم المقترحات اللازمة لحظة علاجه في المستقبل.

وقد بدأ انشاء العيادات الخارجية للمراجعة، والعيادات النفسية، مع الاحتفاظ بقوة الصلة بين العيادات والمستشفيات، لمتابعة الحالات داخل البيئة، تحت الرعاية المشتركة مع الاسرة. وهذه العيادات تقوم بدور مماثل للمجمعات الطبية، حيث تقدم خدماتها لقطاعات متنوعة داخل المجتمع دون ضرورة الدخول للمستشفى، خاصة الحالات الاولية والطارئة والتي يمكن علاجها قبل ان تصل درجة الخطورة الموجبة للدخول للمستشفى.

ان أهم تطور حدث في مجال العلاج النفسي، هو انشاء « وحدات علاج نفسية » داخل اطار المستشفيات العامة بدل المصحات القديمة، وهذا الاتجاه اصبح من اساسيات التخطيط الطبي منذ ان تقدم وزير الصحة

البريطاني السير اينوك باول بمشروع (خطة عام ١٩٦٢) للبرلمان الانجليزي، والتي توصي بإزالة كل المستشفيات العقلية القديمة وإقامة وحدات علاجية، مثل وحدة العلاج الطبيعي ووحدة علاج أمراض السرطان والذرة داخل المستشفيات الحديثة، حتى يتم علاج المريض النفسي دون تمييز عن المرضى الآخرين. الا حالات تكتسب أهمية خاصة في الدول النامية التي لم تصل درجة الوعي الصحي المطلوب الخالص من شوائب المعتقدات القديمة.

ان التجارب العلمية تؤكد أن أكثر الناس حاجة للعلاج النفسي لا يصلون الى مراكز هذه الخدمة، إما خوفا او رهبة... كبرياء أو استحياء... جهلاً أو استعلاء. ويدفع المجتمع ضريبة هذه الشريحة مع المجتمع في شتى مجالات العمل العام او الخاص... وما يصل العيادات يمثل قمة جبل الجليد العائم في بحر الظلمات الممزق بفوانيس السحرة والعرافين المنتشرين في الريف والحضر... والقلة الموجودة بالداخل لا تمثل إلّا الحالات المزمنة والمستعصية، وهذا وضع صحي محزن للغاية... يصدق عليه المثل القائل (ليس كل اللصوص داخل السجون وليس كل المجانين داخل المصحات).

حول رعاية الاحداث

ان الرعاية الاجتماعية مصطلح علمي، ظهر أواخر القرن التاسع عشر، في أعقاب حركة الأصلاح الأجتماعي، والتي انتشرت في الدول الصناعية في أعقاب الثورة الصناعية، وما أثمرت عنه من مشكلات الفقر والجوع والتفكك الأسري. ورغم أنه قد عني بها في بادىء الأمر، بالجهود الحكومية والأهلية لمساعدة الفقراء والعجزة والمعوقين والأرامل والمتعطلين على المعيشة من خلال مفاهيم أخلاقية مجردة. إلّا أنها لم تلبث ان اتسع مفهومها لتشمل كافة الجهود التي تستهدف رفاهية الأنسان العلاجية والوقائية.

وعرَّفت منظمة اليونسكو الرفاهية الاجتماعية، بأنها نسق منظم من الجهود والخدمات والبرامج التي تستهدف مساعدة الأفراد والجماعات، لتحقيق حياة أفضل، من خلال تنمية قدراتهم ومساعدتهم على تكوين علاقات بناءة مع مجتمعاتهم، بما يحقق قدرا مقبولا من التفاهم بين الأفراد والجماعات المحلية.

لقد انطلقت، في الفترة الأخيرة، نماذج علمية تميز بين ما يُعرف بالمجتمعات المتحضرة والمجتمعات النامية ؟ وذهبت بعض هذه النماذج، إلى أن الرعاية الاجتماعية بالمفهوم الغربي مصطلح لا يجوز ممارسته في المجتمعات النامية. ومن ثم انطلقت في محيط العالم العربي شعارات،

ترفض حاجة المجتمعات النامية الى مجرد الرعاية الاجتماعية لبعض الفئات، بل تنادي بالتنمية الاجتماعية كضرورة ملحة تواجه الكليات ولا تقف عند الجزئيات، تتصدى للمشكلات الجماهيرية حسب اولوياتها لتحقيق خطة التنمية الشاملة للحاق بركب الحضارة والتقدم.

أهداف الرعاية الأجتماعية :

يعتبر صدور التشريعات الخاصة لمعاملة الاحداث الذين لم يتجاوزوا سنا معينة، البداية الجادة والمنظمة لرعاية الجانحين، والتي بدأت في انجلترا وامريكا وبعض دول اوروبا وافريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، في أواخر القرن الماضي ومع ظهور المحاكم الخاصة للاحداث والمدارس الاصلاحية على اختلاف انواعها، في بدايات القرن الحالي، ثم نظام الاختبار القضائي والمراقبة الاجتماعية كأنظمة متميزة لمعاملة الجانحين الصغار، استقرت في السياسة الأجتماعية لكثير من المجتمعات ما يعرف بسياسة الرعاية الأجتماعية للأحداث، اعتبرتها بعض المجتمعات جزءاً من سياسة الدفاع الأجتماعي. بينما ادرجتها اخرى ضمن برامج رعاية الطفولة بصفة عامة.

ويمكن حصر جهود الرعاية الاجتماعية في المجالات التالية :

(١) تشريعات خاصة لمعاملة الأحداث الجانحين، وتحديد الأعمال والجرائم التي يعامل مرتكبوها معاملة الأحداث.
(٢) تحديد انماط العلاج والتقويم (وليس العقاب والردع) المناسبة لكل حالة على حدة، حسب السن ونوع الجريمة.
(٣) تشريعات تنظم كيفية حماية القصر والمشردين المعرضين للانحراف كمن لا مأوى لهم او ضحايا الأسر المفككة او اللقطاء وضعاف العقول.
(٤) اجراءات خاصة بمعاملة الأحداث بداية من مرحلة القبض على الحدث حتى مرحلة نهاية تنفيذ العقوبة الاصلاحية.
(٥) ايجاد هيئة قضائية خاصة للأحداث بالتعاون مع هيئة اجتماعية، لمتابعة

مراحل الحكم على الحدث سواء بإيجاد شرطة خاصة واجهزة خاصة للاتهام، ودور للضيافة واخرى للملاحظة قبل المثول امام المحكمة.

(٦) ايجاد نظم خاصة للرعاية المؤسسية في حالة ايداع الأحداث مؤسسات اصلاحية لمدة معينة تتمثل في انظمة خاصة للاستقبال ثم التصنيف ثم الايداع ليتلقى الحدث برامج تربوية وتعليمية وترفيهية وتشغيلية.

(٧) ايجاد نظم للمراقبة الاجتماعية في حالة تسليم الحدث لذويه تحت اشراف الاخصائيين الاجتماعيين.

(٨) ايجاد نظم الرعاية اللاحقة والتي تستهدف متابعة تكيف الحدث في بيئته الطبيعية بعد اخلاء سبيله من المؤسسات الايداعية.

تأهيل الأحداث

يقصد به عملية علاجية مكملة للعلاج المؤسس للأحداث الجانحين المفرج عنهم تستهدف استعادة الحدث لقدرته على ادراك مشكلاته، وتحمل مسؤولياته لمواجهتها في بيئته الطبيعية ليحقق افضل تكيف ممكن مع هذه البيئة.

وهي تقوم على مبدأ التفاعل والتفريد، ونجاحها يعتمد على قدرة الممارس للرعاية اللاحقة، على تكوين العلاقات العلاجية بينه وبين الحدث واسرته، وهدفها النهائي هو في تحقيق افضل معايشة ممكنة للحدث مع بيئته الاجتماعية.

ورغم نزعتها الى التفريد، إلا أنها ليست عشوائية تسير بأسلوب المحاولة والخطأ، مهما تعددت الأساليب إلا أنها لا بد وأن تحكم خطواتها خطة منظمة وهي هنا تعتبر عملية مقننة وهي أيضا عملية بمعنى أنها تقوم على تنظير علمي متكامل لعملية المساعدة. ونعني بهذا التنظير المتكامل، وحدة علمية متعددة الاتجاهات للنظريات المحدثة لكل من شخصية الحدث ونمطه وسلوكه الى جانب التنظيرات المحدثة للبيئة الاجتماعية وآثارها على هذا السلوك.

وتستمد الخدمة الاجتماعية مقوماتها من القيم الأنسانية، كما نصت عليها الشرائع السماوية والمواصفات الاجتماعية، ومن ثم مهما بلغت الأنماط الانحرافية من الشذوذ أو القسوة، فالرعاية اللاحقة عليها ان ترعى كرامة الحدث وحقه في تقرير حياته ومستقبله. وأخيرا، فإن الرعاية الاجتماعية، لا بد وأن ترتبط بتنظيم مؤسس تحكمه لوائح ثابتة ومستقرة في إطار نظام أساسي يسمح بالمرونة الكافية عند التطبيق، وان خضع في النهاية لأهداف مستقرة للمؤسسة ولائحتها الأساسية وأهدافها المقررة.

وسائل التأهيل

ولتحقيق التأهيل للأحداث ثمة وسائل أهمها :

* **المراقبة الاجتماعية** : وهي أسلوب علاجي يبقى الحدث بمقتضاه في بيئته الطبيعية متمتعا بحريته تحت رعاية ماهرة وملاحظة شخصية.
* **الزيارة التتبعية** : ويقوم الاخصائي كل فترة بزيارة أسرة الحدث للوقوف على التغيرات التي تطرأ على ظروف ومتابعة خطة العلاج.
* **التأمين الأقتصادي للحدث** : حيث تتيح الرعاية اللاحقة الفرصة للحدث لاعانة اسرته اقتصاديا وادراك نموه المهني والاستمتاع بنتائج عمله واجره كاملا.
* **التأمين النفسي للحدث** : فوجود المراقب الاجتماعي بجانب الحدث يتيح المجال للتعبير عن انفعالاته والشعور بالأمن والتخلص من الصراعات المختلفة.

* **التأمين التعليمي للحدث** : عن طريق متابعته دراسيا وتقديم كل الخدمات التي تمكنه من اتمام تعليمه اذا ما رغب الحدث في ذلك.

وصولا الى تحديد اطار مناسب للرعاية في الوطن العربي، يتعين مناقشة كل من هذه الاتجاهات وتحليلها لاختيار افضلها ملاءمة لثقافتنا الاسلامية والعربية، وإن كلا من هذه الاتجاهات، المؤيدة منها والرافضة والمتحفظة، تتفق على ما يلي :

(أ) انحراف الصغار هو نتيجة حتمية لعوامل ذاتية واخرى بيئية.
(ب) رعاية هؤلاء الصغار تتطلب رعاية خاصة، تتمثل في نظم خاصة... للمحاكمة والحجز والاتهام والايداع المؤسس والمراقبة الاجتماعية او التأهيل.
(جـ) عقوبة الصغار لم تعد ردعا او انتقاما، ولكنها نماذج مختلفة للتقويم والاصلاح والتربية والتدريب.

ولكنها تختلف فيما بينها، فيما يلي :

(أ) مدى ثبوت النمط الإنحرافي لشخصية الحدث بعد إخلاء سبيله.
(ب) مدى ثبوت البيئة المثيرة للانحراف عند عودة الحدث اليها.
(جـ) مدى الدور الذي يلعبه كل من النمط الذاتي للحدث، مقارنا بالدور الذي تلعبه ظروفه البيئية في العودة للفعل الانحرافي.
(د) ومن ثم اختلفت فيما بينها، في مدى الضرورة في الأخذ بنظام التأهيل فالمؤيدون يفترضون امكانية العودة للانحراف للجانحين بعد اخلاء سبيلهم، بدعوى ان تكرار الفعل الانحرافي هو امر ممكن طالما بقيت في الحدث رواسب لنزعات الانحراف، وطالما استمرت بيئته تحمل في طياتها عناصر اثارة لهذه النزعات، ويتبنى هذا الاتجاه المؤيد للرعاية اللاحقة امكانية صياغة شعورين كاملين للعودة للفعل الانحرافي مؤداها: ان التفاعل الديني بين السمات الذاتية للحدث الجسمية والنفسية والعقلية والسلوكية، وبين الظروف البيئية المحيطة بالحدث،

سواء كانت بيئته العامة او بيئته الخاصة او بيئة الفعل نفسه. أما المعارضون للرعاية اللاحقة فهم : إما قد سلّموا بنماذج علمية ما زالت تفتقد اللياقة العلمية، او انهم تبنوا مذاهب عقائدية او ايديولوجيات متطرفة. فكل من النموذج الوظيفي والعلاج الحر والسلوكية المحدثة في علم النفس، ما زالت نماذج تحت التجريب، بل أن رفضهم لمبدأ الوصاية المستمرة على الفرد يتناقض مع معتقداتهم المذهبية التي تفترض خضوع الفرد التام لارادة الجماعة.

وميّز الاسلام بين المجرمين البالغين والقصر فيما يلي، حيث اشترط الاسلام لتوقيع عقوبة الحدود او القصاص او التعزيز ما يلي :

(١) أن يكون المجرم بالغا، قال الشافعي : « لا قصاص على من لم يثبت عليه الحدود وذلك من لم يحتلم الرجال ».

(٢) ألا يكون جاهلا : فالجهل في الفقه الاسلامي يصبح عذرا اذا لم يصحبه تقصير من الجاني.

(٣) عقاب المجرم تطهير له : عن الامام الشافعي قوله : « الراجح ان المذنب، إن عوقب او تقصى منه الذنب، لا يعاقب ولا يقتص منه في الآخرة.

والاسلام قد قبل التوبة محددا لها شروطا خاصة لما ميز بين جرائم الكبار وجرائم الصغار حيث اعتبر البلوغ شرطا لتوقيع العقوبة.

نظام التأهيل :

تستقر حاليا في الأقطار العربية أنظمة خاصة لرعاية الأحداث متجانسة في جوانب وغير متجانسة في جوانب أخرى، فما زالت هناك اختلافات في بعض الاجراءات المنظمة لها خاصة فيما يتعلق بتحديد السن ونوع الجرائم ودور كل من السلطات الشرطية والقضائية والاصلاحية في هذه المعاملة.

ومن ثم فإن تقديم نظام موحد للتأهيل في ظلّ الواقع الحالي لا يحقق اهدافه المرتقبة ما لم يتحقق قدرا مناسبا من الأطر المتجانسة لرعاية

الأحداث، ومن ثم توصى الدراسة بأن يتحقق على مستوى الوطن العربي ما يلي :

* أولا : توحيد النظم الرئيسية لمعاملة الأحداث ومراحلها في الوطن العربي ومن فلسفة قضائية اجتماعية موحدة ويقتضي ذلك :
أ — توحيد التشريع المنظم لمعاملة الأحداث ورعايتهم.
ب — توحيد المداخل المنظمة لهذه الرعاية مثل الشرطة الخاصة بالأحداث واجراءات القبض على الحدث ودور الحجز الاحتياطي بالأحداث ودور الملاحظة للذي يبقى الحدث فيه تحت الملاحظة قبل تقديمه الى المحاكم، وتوحيد اسلوب الرعاية في المؤسسات الابداعية وممارسة الرقابة الاجتماعية التربوية.

* ثانيا : حصر شامل لكافة الأجهزة المعنية لمعاملة الأحداث الحكومية منها والأهلية للتنسيق بينهما تجنبا لتضارب الجهود او ازدواجية الخدمات.

* ثالثا : اجراء البحوث الاجتماعية لتحليل ظاهرة الجناح وأسبابها وصولا الى انسب الوسائل لتطويعها لتناسب كل قطر عربي وفق الفلسفة العامة الموحدة.

وسائل العمل في التأهيل :

ينظم العمل في هذه المكاتب، لائحة تحدد فلسفة المكتب وأهدافه ونظام العمل ومسؤولية العاملين به.

وثمة نموذج مقترح للممارسة العملية في هذه المكاتب يتلخص فيما يلي :

(١) يقوم رئيس المكتب بتوزيع الحالات المودعة في المؤسسة قبل عام على الأقل من تاريخ اخلاء سبيلهم على الاخصائيين الاجتماعيين في حدود ٢٠ حالة على الأكثر لكل.

(٢) يقوم كل اخصائي بدراسة حالات مجموعته دراسة تفصيلية وتاريخهم الاجتماعي وسلوكهم داخل المؤسسة وما حققوه من مستويات تعليمية او تدريبية.

(٣) يقوم الاخصائي المكلف بالأشراف على الحدث، بتقديم اخصائي التأهيل الى الحدث للتعارف وتكوين العلاقة المهنية بينهما.

(٤) تنتقل مسؤولية رعاية الحدث تدريجيا الى الاخصائي، قبيل فترة اخلاء سبيله ويفضل ان تنتقل كليا قبل ثلاثة أشهر من هذا التاريخ حيث تبدأ مرحلة التخطيط المشترك لحياته المستقبلية.

(٥) يتم اتصال الاخصائي بأسرة الحدث او أقاربه للتمهيد لعودة الحدث اليهم.

(٦) العمل على توثيق العلاقة بين الحدث واسرته، سواء بتكرار زيارة الحدث لأسرته او زيارة الأسرة له.

(٧) تتخذ الاجراءات القانونية لأخلاء سبيل الحدث، قبيل التاريخ المحدد ويفضل ان يتنقل الحدث فترة الشهر الأخير الى دار الضيافة الملحقة بالمؤسسة للتعود على الحياة الاستقلالية.

(٨) بانتقال الحدث الى اسرته يفضل متابعة الحدث بالزيارة مرتين على الأقل في الشهر الأول ثم تتباعد تدريجيا مع استقرار الحدث في اسرته.

(٩) تستمر فترة الرعاية اللاحقة لمدة عام على الأقل باستثناء الحالات الخاصة.

الفصل الثالث عشر

في اتجاه واحد

١ ـــ من اجل ابنائي
٢ ـــ من اجل عيون القدوة
٣ ـــ ان للملاقاة أوقات
٤ ـــ الأيدز واسرائيل
٥ ـــ لمن تقرع الأجراس
٦ ـــ كن جميلاً

من أجل أبنائي

اذا لم تكذبني الذاكرة فإن هذا العنوان ترجمة لمضمون الفيلم الهندي الشهير في بداية الستينات بعنوان (أمنا الهند). وقد كان الفيلم على مستوى الجودة التي تفرض نفسها على كل دور العرض العربية والأجنبية، طيلة اعوام شأن كل الفعاليات الثقافية قبل عقدين من الزمان قبل عهد البضاعات المغشوشة في عالم الفن، حيث يختلط العنف بالحب والغناء بالموت، والرقص بالكاراتيه والملاكمة بالمصارعة والمطاردات الاجرامية بالدعوة الى السلام في فيلم استعراضي واحد طيلة نهار الجمعة الفضيلة. وقد كان الفيلم المذكور يعكس تجسيد المعاني الوطنية وصراع الآباء من أجل الأبناء ونضال الأمهات في سبيل حياة أفضل للأجيال المقبلة وكان يحمل شتى القيم الجميلة التي تعطي الحياة معنى وتمنح الفرد هدفا وتعطي المجتمع قيمة متميزة بروح التضحية في سبيل الآخرين كرنفال الفرح.

كرنفال فرح

تذكرت هذا الفيلم في صبيحة اليوم الحادي والعشرين من شهر سبتمبر الماضي، وقد خرجت المدينة عن بكرة أبيها في موكب استعراضي رهيب وكرنفال فرح اسطوري امتلأت فيه الشوارع بالسيارات الملونة وفاضت الأرصفة وتناثرت كالكرات البللورية في طبق فضي محلى بروائع الماس وازدانت بتشكيلة رائعة من شتى الألوان المنثورة في الساحات السوداء المسفلتة أو المساحات الخضراء الموشاة بالورود الزاهية يتناثر فيها مجموعات الأطفال ويكونون دوائر أو مربعات أو بانوراما أشكال هندسية

تجعل من هذا المنظر الفريد منظومة استعراضية أشبه باولمبياد موسكو أو مهرجانات افتتاح دورات الكرة الخليجية في تابلوهات راقصة واسراب الحمام الأبيض الذي يغطي الفضاء. هكذا كان مشهد المدينة في الصباح مع بداية العام الدراسي الجديد ودخول الأطفال للمدارس يفرح النفس ويدخل البهجة الى القلوب ويحيل لسعة الرطوبة العالية الى نسمة ربيعية تدغدغ الوجوه والوجدان وتملأ العيون المقروحة من سهر الليالي في التفكير المتصل او اليقظة المبكرة بريقا خاطفا من ضوء الأمل في غد سعيد مشرق.

رسمت هذه الصورة القلمية وأنا أشهد مؤشر الحرارة في سيارتي يرتفع الى درجة مخيفة وهي تتحرك في بطء السلحفاة وتزحف بالبوصة الواحدة في شارع اطول من حبال الصبر وأعرض من سواحل المحيط، لأول مرة تتخلل هذا الزخم البشري في موكب السيارات روح تسامح ونزعة مغفرة ورغبة مجاملة في العفو عند المقدرة والتحلي بآداب المرور ربما لأن الكنز الذي بالداخل لا يعادل ثمنه كل ما في الدنيا بالخارج او ربما لأن الصدى النابع من الداخل والهاتف « أطفالنا أكبادنا تمشي على الأرض » كان أقوى من كابح جماح الفرامل او مستيقظا في ضمير كل فرد عاقل... وبعد فترة لا تتجاوز في عمرها غفوة نائم أو شرود واهم في خضم الحياة ينفض السامر وتخلو الشوارع وكأنها سحابة صيف انقشعت او افرغت جوفها في الأرض العطشى التي تنادي : (اطلبوا العلم ولو في الصين)، وعظمة المشهد في روعة اللقاء والفراق تمثل حكمة الخالق في قبضة العالم بين يديه ساعة الوقوف بعرفة... وفي غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال الى حال فتصبح خلية النحل افرغ من فؤاد أم موسى والذين اجتمعوا على محبة الله افترقوا عليها وعلى ساحة العلم انفضوا عنها. وما هي الا لحظات اشبه بيوم الحشر العظيم تنفض البقعة المباركة ظهرها من الملايين متجردة من المحيط والمخيط في طريق المزدلفة مع قوافل العائدين إلى الحرم الشريف وتبقى شوارع المدينة وساحات المدارس خالية من البشر اثراً بعد عين.

في كل مكان

لقد تجلت صورة الحج الى حرم العلم والتي تتكرر في مطلع كل عام ويتساوى الجميع في الموعد والمقصد فالآباء والأمهات والأسر الكبيرة والصغيرة... المقيمة والوافدة المواطنة والمهاجرة الى الرحاب المقدسة في طلب فضيلة العلم... صورة شقاء الآباء في سبيل الأبناء ومعاناة الأسر في سبيل الأطفال... وليت أبناءنا يعلمون.

وفي كل مكان تتكرر مأساة الأب الذي ترك وظيفته عندما تعارضت مع تعليم ابنائه والأم التي بقيت في المنزل لرعاية أطفالها والأسرة التي هاجرت من موطنها لمستقبل أولادها والدولة التي أثقلت كاهلها بديون المؤسسات الدولية في بناء هيكل تعليمي يؤمن مستقبل الأجيال رافعة شعار « رعاية الطفولة تأمين للشيخوخة » وبقدر ما نرعى أطفالنا بقدر ما نؤمن شيخوخة أجيالنا فالطفل المتعلم يبني المجتمع المتقدم في شتى مجالات الحياة.

وفي كل مكان يتشابه الناس في الشعور المفاجيء بالخروج من جلدته من فرط ذل الوظيفة أو رتابة الحياة ويفكر ويقدر وينام الليلة بالنوايا المبيتة في لقاء المسؤول لينشده قصيدة :

أعطني حريتي أطلق يديّا

انني اعطيت ما استبقيت شيئا

حتى اذا اقبل الصباح ورأى اطفاله يحزمون حقائبهم ساعة الذهاب للمدرسة تكسرت أجنحة التحليق في سماوات اللامعقول وهبط في مدرج مطار المسؤولية المسمى « من أجل ابنائي » وفي كل زمان عندما تنتاب الفرد رغبة التصرف في ممتلكاته أو بيع عقاراته من أجل الخروج من أزمة أو فك اشتباك فكر في ابنه الذي يدرس بالخارج أو ابنته التي تستعد للزواج فيخرج من بوابة المأزق التاريخي ويقرر تأجيل الصفقة حتى نهاية الدراسة ثم اتمام مراسيم الزفاف وفي كل اسرة يدخل الآباء طواعية في رمال الديون

المتحركة فيغرق في بؤرة الديون حتى آخر عظمة في عنقه من أجل علاج طفله المعتل وتبيع الأم أغلى مصوغاتها وكل مدخراتها وتطوي ضلوعها على الجوع حتى غشاء النخاع لتؤمن القوت لأطفالها في حالة الوفاة او المرض أو الطلاق واذا كان الأخير هو أبغض الحلال الى الله فانه اكبر العقاب للأبوين وقد يكون الطفل الواحد الحبل الوحيد في عقد الزِّيجة الذي يربط طرفين يرغبان في الانفصال او طائرين محبوسين في قفص يحلمان بالانعتاق ولسان حالهما يقول (من أجل ابنائي).

خيار واحد

وتدل التجارب العملية على ان وجود الأطفال في الأسرة يقلل من الأصابة بالأمراض النفسية حيث تكون قوة الرابطة ومتانة العلاقة ووحدة الهدف والخوف المشترك من المستقبل والرغبة المتبادلة في التعاون والتطلع الى المستقبل وقلق الانتظار على نهاية الدراسة والتهيئة النفسية والاجتماعية للاطفال عوامل جذب نحو عش الزوجية وعوامل طرد من حظيرة المشاكل النفسية كالانطواء والأنانية والأثرة والادعاء والتنصل من المسؤولية...

وفي مكان ما، وجدت صديقا يضع على طاولة مكتبه لوحة صغيرة منقوش عليها أبيات :

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبري
وأصبر حتى يأذن الله في أمري
وأصبر حتى يعلم الصبر أنني
صبرت على شيء أمر من الصبر

فسألته عن سر اعجابه بهذه الأبيات فقال لي : لكي أتعلم الصبر، فعندما أدخل المكتب وأبدأ في أستقبال المراجعين أقرأ هذه الأبيات وكأنني اتناول برشامة مهدئة للأعصاب...

يعني مكره اخاك لابطل فلا راحة في الدنيا ولا فرار من الموت ومن

أجل ابنائي أحيا ومن أجلهم اخاف أن أموت، فقد تعودت أن اعيش لنفسي وبعدها تعلمت أن أعيش للآخرين والآن وجدت نفسي اعيش رهينة في يد ابنائي فلا نفسي تنال ما تريد ولا الآخرون يلقون ما يتمنون لأن حياتي اصبحت بوليصة تأمين لأبنائي لا أملك حق التصرف فيها إلا بتوكيل شرعي من ذوي العلاقة. وفي فتوى شروط التوكيل بلوغ سن الرشد فأنا أريد الحفاظ على حياتي حتى يبلغ اطفالي سن الرشد فيكفونني مؤونة البحث عن كفيل ومشقة التدبير للبديل ودوامة التفكير في البقاء والرحيل... من أجل ابنائي.

وجاءني آخر يسألني بعد ارتكاب مخالفة مرورية لأول مرة في حياته في أسبوع المرور قائلا : لا أدري لماذا تصيبني رهبة قاتلة في قيادة السيارة في الشوارع التي تكثر فيها ملصقات المرور ورغم انني لم أرتكب مخالفة مرورية في حياتي، إلا أنني بدأت كلما شاهدت التحذيرات المعلقة في لوحات المرور، أشعر وكأنني المعني بهذه العبارة، خاصة عندما أقرأ عبارات مثل « لا تسرع فأطفالك في انتظارك »، فأكاد أنزل من السيارة وأجرها بيدي حتى أصل الى البيت. فماذا تسمي هذا في علم النفس ؟ قلت له : هذه يقظة ضمير تستجيب للخطأ والصواب والأوامر والنواهي وهي نعمة تحسد عليها، فلا تعقد الأمور وكفاك ما أنت فيه !!

من أجل عيون القدوة

من الأهداف التربوية العامة التي تسعى المجتمعات لتحقيقها مترجمة على أرض واقع الحياة مبدأ القدوة في القول والفعل والتعلم والسلوك ومنذ بداية نمو الطفل في السنوات المبكرة تبدأ غريزة التقليد في التشكل والتلون لتصنع من قطعة الصلصال نموذج القدوة... والطفل السعيد هو الذي تتيح له الظروف الوراثية والبيئية فرصة صنع القدوة في الشكل والمضمون... والقدوة تبدأ في دائرة الوالدين وفي الشكل يرى الطفل في وجه والده صورة الأب القدوة وفي شكل أمه لوحة الأم المثالية... وفي المضمون يتعلم الطفل من قيم ومبادىء والده نمط الحياة القدوة ومن اخلاقيات وسلوكيات امه المثل الأعلى للأسرة والمجتمع.

ازمة القدوة

واذا قيل الطبع يغلب التطبع، فيعني ان مسخ نماذج القدوة المطبوعة في ذاكرة الطفل عملية عسيرة لأن الصورة لا يمكن ان تحل مكان الأصل... وفي الأهداف التعليمية في المرحلة المبكرة نقش القدوة في وجدان الطفل... بالصورة... بالحرف... بالكلمة وصياغة مجموعة هذه السلوكيات في دليل خلقي أو « مجسم قدوة » في وسط الساحة التربوية... وأعظم الأسر... وأفضل المؤسسات التعليمية وأرقى المجتمعات الانسانية هي التي جعلت من القدوة هاجس الفرد والمجتمع والدولة ويشهد

مطلع الصحوة الحضارية في المجتمعات الأسلامية الأولى ظهور مجتمع القدوة في حياة من كانت لهم اسوة حسنة في رسول الله واتباع سنته فأصبحت القدوة في الشرع والفلسفة في التشريع في النظرية الاسلامية الاقتداء بهدى الكتاب والسنة... وكان التدرج في التطبيق في شكل جزئيات صغيرة تتماشى وادراك الانسان العاجز في كل المجتمعات وشتى اللغات ومختلف الاجناس من خلال الأطر المناسبة ومن المؤسف ان القدوة اليوم اصبحت فرض كفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين وهي في الأصل فرض عين فلا تزر وازرة وزر اخرى لأن اكرمكم عند الله اتقاكم والتقوى لا تقف عند حدود الايمان المطلق بالشيء ولكن من خلال الممارسات العملية له ولذلك ظل قول الداعية مرتبطا بقدوة الفعل ومتى تعارض نهج القول في الدعوة مع مسلك التوجه في العمل سقط تمثال القدوة في عيون التابعين ومن أزمات المجتمعات المعاصرة ضعف أو فقدان القدوة فيقول أئمة الفقه أن بين الحق والباطل شعائر لا تخضع لحكم العقل ولكن تثبت بحكم الايمان والايمان ذاته من تعاليم القدوة فالانسان يولد على الفطرة وأهله هم الذين يهودونه أو ينصرونه أو يمجسونه كما قال الرسول الكريم.

فلماذا ينشأ الطفل على دين والديه ؟ لأنه يتعلم بالقدوة... ولماذا يتبع الطفل خصال معلميه ؟ لأنه يتطبع بالقدوة ولماذا يجاري الطفل هوى أقرانه ؟ لأنه اتخذهم قدوة فاذا اردنا الأصلاح أو التبديل في السلوك أو العادة والتقليد فعلينا أن نستغل مبدأ الثواب والعقاب في تشكيل نماذج للقدوة ولكل قدوة قالب وقد قيل :

ولا تسَّل عن المرء بل سَل عن خليله فكـل قريـن للمقـارن يـنسِّب

فالقدوة في الأرض ضالة الانسان في البيت والشارع والمجتمع والعالم كله والانسان يعيش اليوم أزمة ثقة حقيقية في وجود القدوة في عالمه المعاصر فعندما تهتز كل القيم الجميلة تثبت بعض القيم الضارة ثباتا عكسيا يكتسب من ضعف المجتمع قوة المادة اللاصقة بشغاف القلوب وهو ثبات

عكسي وسلبي اشبه بكلمة حق يراد بها باطل... ليس ثباتا على مبدأ وانما تقمص روح ميكيافيلية تبرر فيه الغاية الوسيلة، وهذه محنة قبلية وقومية وشعوبية وعنصرية وعالمية الأبعاد... فالقدوة في مجال القبيلة تفككت بفعل العقار الحضاري الجديد الذي فكك مفاصل الأسرة الواحدة والقدوة القومية اصيبت بالعقم من تأثير اللقاح السياسي الفاسد الذي أتلف خصوبة رحم التربة الوطنية في انجاب بدائل واحداث متغيرات والقدوة الشعوبية اهترأت من فرط الاحباط الذي زج بالفرد في دهاليز المخدرات وأوكار الجريمة والمصحات العقلية والقدوة العنصرية ازدهرت بفعل تشتيت الكيانات القومية وتذويب الجماعات القبلية في صراعات عنصرية وتقسيم شعوب العالم بين لونين ابيض وأسود وعقائد متعددة والقدوة العالمية تلاشت في أتون الصراع بين قوتين عظيمتين أصبح الولاء لواحدة يعني بالضرورة العداء لاخرى تحت شعار « من ليس معنا فهو ضدنا » وأصبح الاختيار بين الأولى والثانية هو تحديد الهوية وبطاقة الانتماء للوجود في هذا الكون وأصبحت أسطورة عدم الانحياز في حد ذاتها نوعاً من التفكير بصوت مرتفع عن فقدان القدوة.

أصل القدوة

بعد هذه الجولة من التحليق في عالم التجريد وخطوط المثاليات نضع أقدامنا على الأرض نمشي على جمر الحقيقة لأن القابض على الجمر ليس كالذي يده في الماء، وأكثر القابضين على الجمر في مجتمع اليوم هم المعلمون ورجال التربية واكبارا مني لدورهم في الحياة وتقديرا مني لقدسية علاقتهم بالمثل والقدوة في نفوس الناشئة اخصهم بهذا الحديث وأنا أول المعنيين به مدحا أم ذما ويكفي أن اذكر بروح المعتز بهم معايشتي لواقعهم العملي بحكم التصاقي المهني بخصوصية العلاقة بين الطالب والمعلم خلال عشرة اعوام قضيتها عضوا في مجالس الآباء بعدة مدارس تخرج منها آلالاف من الطلاب والمئات من المعلمين والعشرات من المدراء والوكلاء وبقيت مثل السيف وحدي عاضا بالنواجز على عظم قضيتي في مقعد

المجلس بحكم طبيعة العمل وحكم مسؤولية الأب وروح زمالة المهنة واستطعت ان اتعلم الكثير من الطرفين المعلم والطالب، ويشهد الله انني قد تعلمت من علاقتي بالجانبين الكثير الذي ساعدني في تسيير مهنتي في المكتب وتنشئة أطفالي في البيت ومن قال انني علمت فقد بدأ يجهل...

واستطيع ان اكرر من باب القول المعاد ان المعلم كان ولا يزال وسوف يظل المثل الصالح والقدوة الطيبة والأب البديل والأخ الأكبر حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وقد رأيت بعيني رأسي كيف يصعد المعلم بالطالب من أسفل درك الفشل الى أعلى مراقي النجاح خطوة بعد خطوة كالطفل الذي يتعلم المشي في سنواته الأولى ورأيت ولمست وعاصرت المعلم الذي يلقي بالطالب من أعلى طوابق النجاح الى عمق قاع الفشل، ولم تكن هذه خلاصة مشاهدة يومية عابرة او زيارة ميدانية طارئة أو وليدة مناقشات واستنباطات من دفاتر مجالس الآباء بل كانت عصارة تجارب عشر سنوات متصلة ومحصلة مقابلات شخصية ولقاءات فردية وجماعية لا تخضع فقط للانطباع، ولكنها ثمرة بحث طويل وليس هنا مجال لنشر الاحصائيات أو سرد الوقائع المتعددة أو عرض الممارسة والاجتهاد ولكنني حتى لا يوقعني التعميم في الأضرار بمسألة التقويم اكتفي بذكر حادثة واحدة تعكس صورة مشرقة لطالب ظل راسبا لفترة طويلة في مادة معينة نتيجة عدة عوامل حتى وجد في أحد الأساتذة قدوة حسنة فأنتشله من وهدة الفشل الى قمة النجاح فأحرز درجات تقديرية مذهلة ظلت في ملفات ثانوية أبو ظبي تقف شاهد صدق على عظمة المعلم.

ويكفي أن أشير في عدة محاضرات ولقاءات في شتى المدارس وعلى مدار سنوات طويلة كان يتردد السؤال التقليدي : لماذا أكره مادة كذا مع انني ناجح في كل المواد ؟! وعدة اسئلة اخرى توضع في سياق « اياك اعني واسمعي يا جارة »، ولعلني لا اذيع سرا اذا قلت ان اغلب الأسئلة كانت تشير الى اعتلال العلاقة بين المعلم والطالب اكثر مما تدل على مصداقية التصريح أو التلميح بسهولة أو صعوبة المادة.

وحتى اهبط من العام الى الخاص وغاية الخصوصية الاعتراف الضمني بتطابق التجربة والحدث في علاقة النظرية بالتطبيق فأسوق مثالا من تجربتي الخاصة في سنوات دراستي قبل ربع قرن لا أعرف اذا كانت قد تغيرت النظريات أم اختلف التطبيق ولكن تظل القدوة واحدة... لقد علمني احد اساتذة اللغة العربية من خريجي الازهر حب الشعر واكاد اتخيل محياه الكريم وكأن صورته ماثلة بين يدي وطبع في نفسي حب ابي الطيب المتنبي فصار عندي القدوة في محاولاتي الشعرية في الاقتباس والمجاراة والتضمين حتى انني في المرحلة الابتدائية حفظت عن ظهر قلب رائعته :

ليالي بعد الظاعنين شكول

طوال وليل العاشقين طويل

يبِّن لي البدر الذي لا أريده

ويخفين بدرا ما اليه سبيل

يحرمه لمع الأسنة فوقه

فليس لظمآن اليه وصول

وتطور حبي للشعر واعجابي بالأدب حتى اصبحت امنيتي دخول كلية الآداب لأصبح استاذا في الأدب العربي وحال دون تحقيق غايتي رغبة الأهل التي كانت أشبه بالفراشة المولعة بالوقوع في اللهب تخرجت من كلية الآداب لأدخل كلية الطب ويظل عشقي للأدب حتى اليوم بمثابة الخيط الوحيد والأمل الأخير الذي يربطني بحبي الأول وليغفر الله لي زلة القلم وما كان شغفي بهما الا تعلقا بالهاجس القابع في داخلي كالشجن القديم يقول عنه المتنبيء :

وما شغفي بالماء الا تذكرا

لماء به اهل الحبيب نزول

وفي المقابل اذكر الوجه الآخر من العملة او الجانب المظلم من الصورة المشرقة في ظل العلاقة المؤثرة بأحد معلمي مادة الرياضيات بصورة

جعلتني اقرر اسقاط هذه المادة من حساباتي مع علمي المسبق بضرورتها في الكليات العلمية وقد الهمني الله القدوة في استاذ اجنبي مستر ماكنزي من الباكستان حيث كنا ندرس الرياضيات باللغة الانجليزية، فأعطاني رعايته المعهودة وعنايته المشهودة ما جعلني ادخل مادة الرياضيات الاضافية لأضيف رصيدا كبيرا لمعدلات شهادتي لتمكنني من الاختيار بين الكليات العلمية والأدبية بحرية ما كانت تتوافر لو استمر الحال على ما كان عليه.

والحق يقال ان التأثير الايجابي والسلبي لا يقف عند حد النجاح في امتحان أو الدخول الى جامعة أو الحصول على وظيفة ولكنه ينسحب على مناشط الحياة الخاصة والعامة فأذكر جيدا انني بعد ان تخرجت من كلية الطب وحاولت ملاقاة استاذ اللغة العربية الجليل وعرفت انه قد عاجلته المنية فشيعته بمرثية ما زالت تقول لي « الذكرى للانسان عمر ثان » وفي ذات الوقت وأنا استقل القطار من محطة الخرطوم قابلني استاذ الرياضيات وجها لوجه ونازعتني نفسي اللوامة أن أهرب منه وبينما كنت أردد في دخيلتي « من علمني حرفا صرت له عبدا » وأبيات شوقي العملاقة:

قـم للمعلـم وفـه التبجيـلا

كـاد المعلـم أن يكـون رسـولا

لم تنجح محاولات المد والجزر في علبة روح العفو عند المقدرة حتى اختفى وجهه في الزحام... وبقيت هذه الحادثة عالقة كالخطيئة في الوجدان لأن النفس البشرية امارة بالسوء وما لم تكن القدوة مشعة بالقبس الروحاني المضيء لدهاليزها ستبقى الاحداث مترسبة في قاعها كالمياه الراكدة لا يحركها الا ساعد القدوة.

ومن أجل عيون القدوة سيظل الفرد السوي في كل زمان يعيد صياغة المواقف.

إن للملاقاة أوقات

نتداول في حياتنا اليومية كثيرا من الامثال والعبارات والأقوال لنضفي شيئا من الحكمة على افعالنا او نوعا من التبرير على تصرفاتنا أو مزيدا من التقدير على علاقاتنا فنتداول القول المأثور للتوضيح او التصحيح ونردد العبارة المألوفة للتأكيد أو التأييد ونكرر الأمثال العامية للاستبصار والاعتبار او الاستذكار لما حدث أو سيحدث وقد حاولت جاهدا ان استقصي (الدلالة النفسية في الأمثال العامية) في كتيب يحتوي على بعض الأمثال المعروفة والدلالة النفسية التي تعكسها وأثرها على علاقة القائل بالمتلقى او السائل بالمسؤول وقد وجدت درجة عالية من الصدق والشفافية بين المضمون الفكري والدلالة النفسية في حياتنا العامة.

مدخل مهم

من المقولات المأثورة التي استوقفتني كثيرا من فرط تداولها واذهلتني من كثرة مصداقتها (ربَّ صدفة خير من ميعاد) او عبارة « ان للملاقاة اوقات » وحتى استدل على جانب من العلاقة بين مضمون المثل ودلالة التجربة اسوق للقارىء حادثتين مرتا بي في فترة وجيزة في حياتي تحملان صورة التعبير العملي عن العلاقة النظرية. فاذكر الحادثة الأولى قبل بضعة أشهر عندما كنت أرغب في طبع بعض مؤلفاتي في إحدى دور النشر العربية بما في ذلك مؤسسة « الاتحاد » الموقرة واذكر الأخيرة لا من باب

الاعلان بالمجان ولكن من اجل ثبوت الرؤية وتأكيد الحدث والاستدلال بالقرائن الموثقة على أزمة النشر في العالم العربي وقد واجهت مطاردة حصان طروادة وعشت اسطورة دون كيشوت في محاربة طواحين الهواء وتقدرون فتضحك الاقدار... فبعد ان اغتيلت بيروت في ليلة عرسها وهرب الفارس الملثم انهارت دار الكلمة ولا اعني المعنى الحرفي لمباني الدار التي تحمل هذا الاسم ولكني اقصد المعنى الواسع لبنية لبنان الدولة بلد السوق الحرة واحدى واجهات الحضارة العربية المتعددة الاطراف او « سويسرا الشرق » كما يسميها اهل لبنان فقد كانت منتدى الفكر ومنبت الكلمة المطبوعة والمقروءة حيث كنت ارسل كتبي مخطوطات يدوية لتصلني مطبوعات فنية من دار الثقافة في ساحة « رياض الصلح » في بيروت وقد اكون فقط احد قراء المخطوطة دون ان يكون لي شرف التصحيح او التنقيح او معاناة التسويق والتوزيع فكان هذا شأن الصديق الناشر (خليل طعمة) والذي انقطعت صلتي به عندما اختفت ساحة رياض الصلح وسقط تمثاله في ساحة المعارك وافتقدت الناشر ولم اعرف الى أين رحل او اية سفينة ابحرت به ليلة الخروج العظيم يوم الهزيمة الكبرى.

وعندما استوثقت من ان الدار اصبحت في عداد المفقودين وفشلت كل وكالات غوث اللاجئين في الحصول على الاسم والعنوان المفقود بدأت رحلة الضياع في البحث عن دار نشر اخرى وبدأت قافلة العذاب تتجه خارج خريطة الوطن العربي الى قبرص وكل الجزر المنسية في شتى المحيطات مثلما رحلت كل طيور الاحلام العربية خارج حدود الوطن الأم تبحث عن عش آمن في عالم آخر... وتجولت في كل دور النشر التي رفعت شعار « مصائب قوم عند قوم فوائد »وهنا بالداخل طرقت ابواب عدة دور للنشر فقدمت العروض والصفقات باسعار لا تخضع للمقارنة مع دور أجنبية أخرى، ولكن شروطها قطعا كانت اكثر اجحافا من استيراد مربيات وخادمات من دول غير ناطقة باللغة العربية وتخلو من كل مجاملات التنزيلات الموسمية التي لا تقبل المنافسة!! وقلت لنفسي اذا كان استيراد انسان من الخارج يكلفني اقل من طباعة كتاب بالداخل من

الجهد البدني والمادي فهل يستحق الغذاء العقلي صرف كل هذه المبالغ في شراء الوقود الذهني في عصر النفط والطاقة البترولية المتدنية الاسعار في أسواق اليوم خاصة وان إحدى دور النشر قد عرضت عليّ طبع مؤلفاتي بما يفوق قيمة مستحقات نهاية عقد خدمتي كاملة ومقدما دون اتعاب الكفيل في استخراج اوراق نهاية العقد وبراءة الذمة من دم ابن يعقوب... وحتى أبرىء ذمتي من تهمة المتاجرة بفكري والتسول بكتاباتي فقد طرحت فكرة طبع مؤلفاتي بالمجان لكل هذه الدور لكي تتمكن من سداد تكلفة الطباعة من عائدات المبيوعات ويكون لي اجر المناولة فقط وحتى هذا العرض المغري قد قوبل بالسخرية والرفض من كل الدور حيث ان بضاعة الكلمة اصبحت ارخص من بضاعة المعلبات الفاسدة التي يمكن ان تباع لدول العالم الثالث بسعر التكلفة على نفقة المليارديرات مع رسالة شكر جوابية بينما لا يوجد ناشر واحد يشتري كتاباً علمياً او أدبياً من كاتب عربي مجهول من زمان يعاني فيه العالم العربي ذاته من فقدان الهوية وظلام المصير وفي وقت يتبارى الناشرون في كل انحاء العالم لشراء اسرار الممثلات ومذكرات الرؤساء السابقين وأخبار الزوجات الأرامل بمليارات الدولارات.

فطويت احزاني... وحفظت كتبي في خزانة ملابسي في انتظار الفرج واخيرا قررت الاتصال بدور النشر في بلادي فقد تقبل بضاعتي على علاتها فهي شركة التأمين على مصدر البضاعة والمسؤولة عن عقد التصدير فوجدت نفسي داخل دار جامعة الخرطوم للنشر والتوزيع أعرض بضاعتي على المسؤولين فلم يكونوا اقل حظا في فهم نفسية العالم العربي فتعاملوا معي بأسلوب حضاري يتكلم بالعملة الصعبة لتسهيل عملية النشر بعد سرد كل الأزمات في الورق والحبر وتكاليف الطباعة وضعف التسويق.

وقلت : رب ضارة نافعة... فقد يطول الزمان حتى ترى الكتب النور وسوف انعم في خريف العمر برؤية مؤلفاتي منشورة في بلادي واذا رحلت فسوف تدخل ارشيف دار الوثائق المركزية وتظل جزءا من التاريخ وحق التراث السوداني وهذا في حد ذاته اكبر مكسب ودليل قناعتي من الغنيمة بالاياب.

الصدفة والميعاد

وعودا على بدء اذكر ان آخر مرة التقيت فيها بالاستاذ الناشر خليل طعمه كانت في (فندق الواحة) بالخرطوم عام ١٩٧٠ يحمل لي بضعة دواوين شعرية. وعندما سافرت الى بيروت لملاقاته تصادف موعدي في نيسان ١٩٧٥ صبيحة اندلاع الحرب الاهلية واتصلت به من فندق الكونكورد بالحمراء في « الجبل » فطلب مني ترك الاصول في الفندق قائلا : ان الطريق غير آمن فسافر على بركة الله وسوف اتصل بك وسافرت الى لندن ليصلني ديوان الشعر في عام ١٩٨٠ بعد ان ظلّ سنوات يناضل في صفوف المقاومة للخروج من بيروت الجريحة ورغم كل الاساطيل المتجولة في سواحل البحر الأبيض المتوسط وصلني في أبو ظبي.

المثل والدلالة

عندما كنت جالسا مع مدير دار جامعة الخرطوم للنشر دخل علينا رجل تبدو عليه ملامح أهل الشام وبصحبته مرافق سوداني غيرت ملامحه سنوات التصحّر والجفاف العجاف التي ضربت عمق التربة السودانية وبعد ان نفض عنه الغبار تعرفت على الكاتب الأديب الصديق هنري رياض المحامي والذي قدم لي صديق الطرفين الناشر خليل طعمه والذي جاء لمتابعة اعماله التجارية مع دور النشر السودانية وصاح من اعماقه (رب صدفة خير من ميعاد)، انني ابحث عنك منذ خمسة عشر عاما خارج السودان والقاك داخل السودان... ثم أعطاني عنوانه في باريس حيث يعيش الآن... وتدور ماكينات دار الثقافة للطباعة في مكان ما في بيروت مؤكدة صمود الارادة اللبنانية وان بيروت ستبقى نفس بيروت خميلة الشعر والفن والسلام ولن يطفئوا مجد لبنان.

والحادثة الثانية تكاد تكون صورة طبق الاصل مع اختلاف بسيط في التفاصيل... فقد تعرفت قبل عشرة اعوام على الكاتب المصري الصديق سامي عمارة الصحفي بجريدة الاتحاد حاليا عندما كنا كلانا نعمل في دولة

البحرين الشقيقة وكان مهتما بأخبار الطب النفسي وتوطدت بيننا صلات الود... حتى أصبح طبيبا بين الصحفيين وأصبحت صحفيا بين الأطباء وذات مرة اراد ان يجري تحقيقا صحفيا في وزارة الصحة فسألني السيد الدكتور ابراهيم يعقوب وكيل وزارة الصحة بالبحرين : هل لك أخ يدعى سامي عمارة، فقلت : (ربّ أخ لم تلده أمك) فهو أخي في الله وفي حق المواطنة وصلة الجوار ووحدة المصير وشرف الهواية وافترقنا جميعا حتى كان الشهر الماضي وبعد انقطاع عامين عن الكتابة في (الواحة) بعثت بمقالة لأسرة التحرير واتصلت هاتفيا للتأكد من الاستلام فرد محدثي في الظرف الآخر قائلا « اهلا يا دكتور معاك سامي عماره... وحشتني والله... رب صدفة خير من ميعاد » ولم اصدق أذني... فتطابق الاسم... وتكرار اللقاء... وصدفة الملاقاة وتوقيت عودتي لكتابة (الواحة) وتزامن اشرافه على تحريرها بعد سنوات يصدق فيها حسن التعبير (العبد في التفكير والرب في التدير) فتظهر اول مقالة في اول لقاء في اول أيام عيد الاضحى المبارك قائلا :

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى ام لأمر فيك تجديد

ويقول لي الأخ سامي عمارة:

« رب صدفة خير من ميعاد ».

وأقول له :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
يظنان كل الظن الا تلاقيا

وأقول لكم: ان للملاقاة اوقات.

الايدز واسرائيل

الايدز !! الايدز !! الايدز !!... هكذا تنطلق صفارات الانذار من كل عواصم العالم وتقرع كل اجراس كنائس العالم الغربي ويقول قداس الأحد في كاتدرائية نوتردام : ايها العالم : ان المصائب تجمعن المصابينا. فتلاحم موجات الارسال من غرب اوروبا الى شرق آسيا في ذبذبة صوتية واحدة اشبه بحروف الشفرة لتفك طلاسم الايدز الى بضعة حروف تكون في مجموع ترجمتها كلمة « مرض فقدان المناعة المكتسبة » الذي ضرب العالم كالزلزال... ويتزامن مع اعلان نبأ وفاة عالم الزلازل الشهير « ريختر » مخترع وحدة قياس ريختر لقياس قوة الهزة الزلزالية...

الطاعون الحديث

يكاد مرض الايدز يقول للزلزال الذي ضرب المكسيك : اذا كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا ليؤكد ان هذا العالم الذي أصبح يتعامل مع الزلازل والفيضانات على انها كوارث طبيعية لا تحمل انذارا لأحد ولا تعني موعظة لجماعة يحتاج الى كارثة خاصة تطرق باب كل فرد وتؤرق عيني كل انسان وتقض مضاجع كل المجتمعات وبصورة اكثر تأثيرا واعمق تدميرا لحياة الانسان لان هيستريا الزلزال قد تحرم ضحاياه فرصة التأمل والاستقراء... فقبل عقدين من الزمان وزعت هيئة الصحة العالمية نشرة

حول حوادث المرور بعنوان « الطاعون الحديث » حيث بلغت نسبة فقدان الارواح البشرية ارقاما مذهلة وحتى يتضاءل او يتساوى طاعون كل عصر مع حجم مأساته اطلقت على مرض الايدز طاعون القرن العشرين... والتساؤل ينطلق في عدة اتجاهات... في اتجاه الريح التي يهب منها فيروس الايدز فهي نفس الدولة التي تصدر كل الشرور الاجتماعية الى كل انحاء العالم من قلب الولايات المتحدة بالاسم ومن الساحل الغربي في مقاطعة لوس انجلوس بالذات ومن عالم الملاهي والسينما والترفيه بالتحديد وغرابة الأمر في صورة العجز المتمثل في استثمار التكنولوجيا في الاغراض السلمية فيما امتدت باع امريكا في مجال العلوم الحديثة للوصول الى الفضاء من حرب الغابات ومطاردة العصابات الى حرب النجوم ومطاردة القمر عجزت عن انقاذ آلاف الضحايا من البشر ووقفت التكنولوجيا مكتوفة الايدي على مدى اربعة اعوام في حرب « مرض فقدان المناعة المكتسبة » واصطياد الفيروس المسبب وما زال اكثر اهل الشرق العربي محبوسين في دهاليز اللعبة الامريكية واكبر عمالقة الفكر العربي يصدقون اكذوبة استخدام الطاقة الذرية في خدمة السلام في عالم يمثل فيه القادة الامريكان اكبر تهديد لسلامة الانسان.

لقد ظل علماء الدين في كل ارجاء العالم... رجال الدين الاسلامي في المساجد ورجال الدين المسيحي في الكنائس يتحدثون للشباب عن جدوى الاستقامة ونعمة الخلق الحسن في الوقاية من الانزلاق في متاهة المخدرات والجريمة والانحراف ولم تحرك هذه الدعوات ساكنا حتى تفجر زلزال الايدز... وكلما شدد هؤلاء العلماء في الدعوة الى المحبة والتبشير بالسلام وصبت جام الغضب ولهب الدعوات واللعنات على رؤوس اليهود ليل نهار كلما اسشترى طاعون الصهيونية ليحرق كل مقدسات الامة العربية ويتسرب بين حدودها مثل فيروس الايدز بلا رادع او مانع وهم في جهاد مستمر حيت أراد الله ان يبدل الغيبوبة بالصحوة والعصيان بالطاعة والتمرد بالتعقل فابتلى الناس بالطاعون.

فيقول المتشائمون :

كلّما انبت الزمان قناة

ركّب المرء في القناة سنانا

ويقول المتفائلون :

على قدر اهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

رب ضارة نافعة : وبين الطاعون الحديث المتمثل في حوادث السيارات وهي انجازات التكنولوجيا وطاعون القرن العشرين المتمثل في الايدز تمتد مساحة واسعة للحركة والاجتهاد وطرح الفرضيات وسرد المسببات والنتائج فقد ثبت ان من اكبر اسباب حوادث السيارات بين فئة الشباب هو تأثير الخمر والمخدرات وقد قيل ان مرض فيروس الايدز ينتقل عن طريق الدم وينتشر بين مدمني المخدرات والانحرافات الخلقية وتتعدد الاسباب والموت واحد... ويختلف الطاعون والسبب واحد وقد قيل انه ينتقل من القرود الافريقية فاذا كانت العدوى تنتقل عن طريق الدم فكيف تلاقح الدم الزنجي في القرود الافريقية مع الدم « السامي » في الشعوب الامريكية وبينهم مسافات خرافية وابعاد اسطورية في امكانية التلاقي وافتراض التلاقح وخطورة المعاشرة حتى بين الامريكي الاسود والابيض في البلد الواحد.

وقبل ان يفيق العالم العربي من كابوس الايدز في مجال الطب يضرب ارضه المنكوبة زلزال الطاعون القديم كالايدز من قلب اسرائيل... فما زال المكتشفون العرب يحللون في مختبراتهم العلمية وكواليسهم الخلفية خلال نصف قرن نتيجة زراعة الفيروس الصهيوني في التراب العربي ورغم ان قناعاتهم تتفاوت في نوعية الفيروس ومصدر الاصابة ووسيلة الانتقال وطرق الوقاية واسلوب العلاج والمصل المضاد للايدز المزمن في جسد الوطن العربي الا ان التكنولوجيا الحديثة قد فشلت على مدى أربعة أعوام في اكتشاف حقيقة المرض وسبل العدوى والترياق المضاد لفيروس في حجم رأس الدبوس في وقت يطرح فيه برنامج حرب النجوم نقل الصواريخ ذات الرؤوس النووية من الأرض الى الفضاء لأنها لم تعد كافية لردع العقول

البشرية التي تحمل افكارا همجية في اختراع وسائل القتل والدمار بين عملاقين كبيرين يربط بينهما فراغ... وكأن العالم العربي قد امتثل الى واقع الامر القائل : « من لم يمت بالسيف مات بغيره ومن لم تقتله اسرائيل يموت بالايدز ». ولان مصدر الايدز متورط في تسخير التكنولوجيا لخدمة الفيروس الناقل للامراض الصهيونية فقد وصلتنا في عقر ديارنا صرخة الايدز الاخير بعد فوات الاوان وبعد ولادة الطفل غير الشرعي للعلاقات المزدوجة بين امريكا وعشاقها المتعددين وبعد ان شل القمر التكنولوجي قدرة العملاق على التصريح عن خطورة الايدز او التوضيح لكيفية انتقال الفيروس من القرود الافريقية الى الملاهي الامريكية.

وفي المقابل وصلتنا في ثلاث دقائق فقط صرخة الايدز المستوطن في تل أبيب في شكل غارة جوية على قلب ارض عربية بعد ان قطعت آلاف الاميال عبر عدة اقطار لتضرب موقعا في حجم الكبسولة المهدئة في الخريطة الجغرافية التي يتعاطاها المراقبون الدوليون في خطوط الهدنة عند حدوث مثل هذه الغارات وايمانا منها باستخدام الطاقة الذرية والقدرة التكنولوجية للاغراض السلمية فقد اعترفت امريكا بأن فيروس الايدز قد انتقل من تل أبيب بواسطة الاسطول الامريكي في البحر المتوسط ليتزود بالوقود من قاعدة وسيطة لضرب الأهداف المحددة لأسباب امنية دفاعا عن النفس واهدارا للكرامة العربية التي بلغت من ضعف المناعة الذاتية... الموروثة والمكتسبة... درجة تجعلها عرضة للاصابة بشتى الامراض وضحية للمؤامرات المعلنة والخفية في اللقاءات المغلقة والمفتوحة.

والعلاقة بين مرض الايدز الاول وعلة الايدز الثاني علاقة الامة العربية بالحكومة الامريكية فهي تصدر لنا النوع الاول لاننا لا نكف عن معاشرتها وتصيبنا بالنوع الثاني لأننا لا نقوى على مواجهتها لا باللسان ولا بالقلب وهذا أضعف الايمان.

ولعل الحكمة في اكتشاف الايدز تكمن في افريقيا في الحالتين وكان الله في عون افريقيا وقرود افريقيا وانسان افريقيا... فالايدز الاول يأتي من

القرود الافريقية واكثر الغابات في جنوب افريقيا حيث يعاني الشعب الافريقي شتى الوان التمييز العنصري واصناف القمع البربري بالدعم الامريكي اللامحدود والايدز الثاني وقع على بلاد عربية في شمال افريقيا ظلت تتكلم بأعلى صوت منذ عشرين عاما وتنادي بالسلام مع اسرائيل وتقول الآن بعد ان تحملت تبعاتها التاريخية ومسؤولياتها القومية :

اذا انت اكرمت الكريم ملكته
وان انت اكرمت اللئيم تمردا.

وفي وقت تتحرك فيه عربة السلام بسرعة اسطورية ليلحق بها كل المتعطشين الى ركوب الموجة الاستسلامية رغم شعار الاستنفار الذي يقول لهم :

اذا لم يكن من الموت بدٌّ
فمن العار ان تموت جبانا

وتقول « الغارة الاسرائيلية » لنا جميعا : ربَّ ضارة نافعة

ويقول ابو الطيب المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت إيلام

ويقول الله تعالى « ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ».
صدق الله العظيم.

لمن تقرع الاجراس ؟؟

ان من نكد الدنيا على المرء أن يبتليه الله بخيارين كلاهما مر... الغني الموثر الذي يحرمه المرض نعمة الاستمتاع بماله في المأكل والمشرب... والصحيح المقتدر الذي يسلبه لذة المال والبنون في الحياة الدنيا... والمقاتل الجسور الذي يقعده نفاذ الذخيرة عن كسب معركة... وبين هذا التفاوت في الأقدار تكمن كلمة العدل في حكم الخالق... فلا العافية تشترى بالمال ولا الذرية تباع في الأسواق ولا النصر يتحقق بالمال... ولكي تكون الصورة قريبة من ذهن القارىء فلنتأمل في نعمة التكنولوجيا التي نلهث للحصول عليها فردا ومجتمعا ودولة وما تعقده في المقابل وما ندفعه من ثمن نتيجة الاستمتاع بها...

أسوق هذه المقدمة وأنا أشبه بالذي يدور حول سور مستدير كبير يبحث عن المدخل الرئيسي بين عدة أبواب وبعد تعب شديد يتضح بأن كل الطرق تؤدي الى روما فيطرق اول باب ويكتشف بالداخل انه الباب الوحيد الممنوع الدخول منه الى روما !

بوابة الدخول

ان دخولنا عصر التكنولوجيا كان طفرة خيالية بكل المعايير فقد اصبحت الأساطير العلمية التي كانت تتحدث عن الوصول الى القمر قبل عقدين من الزمان حقيقة ماثلة نعيشها على الشاشة التلفزيونية ونتابعها

بالكلمة المكتوبة والمرئية والمسموعة ونكاد نلمس بأصابعنا العشرة وجه القمر ونمشي بأقدامنا على حجارة المريخ... ثم ماذا بعد ؟ كل مكتشف يريد أن يرفع علم بلاده على وجه ذلك الكوكب الجديد وكأن الكرة الأرضية بكل ما فيها ومن فيها لن تتسع لاطماع الحكام او حملة الاعلام او كأن الشعوب المغلوبة على أمرها في الأرض قد رفضت حكم الوصية وحياة الرعية أو غير كافية لقيام امبراطورية لكل حكام العالم الأرضي.. ونتيجة لضياع الهدف وضلال الطريق بين الوسيلة في السعي والغاية في الوصول ضاعت لذة الاستمتاع بالاكتشافات العلمية في بؤرة صراع المصالح الشخصية وطارت غفوة الحلم في أحضان العلم الحديث في كابوس الخوف من دمار العالم بالرؤوس النووية وقنبلة النيوترون والاسلحة الكيمياوية وتمنى الفرد العادي ان لو ظل مكوك الفضاء قابعا في قاعدته لم يتحرك قدما واحدا من فوق سطح الأرض ليعود لنا بالدمار من بطون الكواكب الأخرى.

وفي مجال السمعيات والبصريات حدث ولا جرح... لقد اصبح العالم اسرة واحدة... متصلة ومنفصلة... ولكن الاسرة الواحدة اصبحت الف عالم يحيا تحت سقف واحد... فاهتمامات الأب... وشؤون الزوجة... وأماني الأطفال... وهموم الجيران وعلاقات الأهل عدة عوالم متفرقة يجمعها في الأصل البعيد والجذور العميقة صلة الرحم والعقيدة والتراث والمصير، ولكن الكل يسير نحو هذه الاتجاهات في طريق مغاير تعددت بهم الطرق وتفرقت الغايات.

عالم الهموم

فاهتمامات الأب في توفير العيش المشروع وتأمين المستقبل المضمون يصطدم بعقبات فولاذية لا يقفز فوق واحدة الا ويسقط تحت اخرى... وحرصه على تسيير دفة الأمور في بيته تطاردها لعنة الفراعنة... من المذياع والتلفزيون والفيديو وكل الاجهزة الحديثة... فالمذياع الذي يبث الأغاني

المبتذلة يشوه صورة الأب الفظ الغليظ القلب الذي لا تحركه هذه المدام ولا تلك الاغاريد والتلفزيون الذي يرسل نبضات ضوئية ذات اشعاع سحري يتحدى كل ارشادات الأب التي تحاول ان تدخل عقول ابنائه والفيديو ذلك القزم العملاق الذي يتعاطاه الاطفال مثل برشامة الغش في الامتحان يزرع في العقل والقلب وينحت في الصلب والصخر وينقش في الدائرة العين ولا يحس به الوجدان... ويزرع ويحصد في غفلة من عين الرقابة الأسرية والرعاية التربوية ويحمله الابناء مثل مصباح علاء الدين في دهاليز مظلمة لا يستطيع الدخول اليها أكثر الآباء حنكة ودهاء... ويحملون مفتاح (افتح يا سمسم) فتفتح الأبواب على مصاريعها ويظل الأب امام الباب الوحيد يطرق متواصلا... مستأذنا متخوفا... مستنكفا رد السؤال... وغضب الاطفال والقيل والقال.

وشؤون الزوجة معلقة بين السماء والأرض فهي لا تقنع بما حصلت عليه من الموديلات الا وداهمها موديل جديد كالموجة العاتية او ريح صرصر لا تبقى ولا تذر تفقد الصواب وتفسد الحساب... ولا تصحو عيناها من صدمة الضوء المنبعث من واجهة معرض الا وتصطدم بأخرى اقوى اثارة وأشد انارة واكثر جمالا واغلى مالا وهي في موقف الخيار بين امرين كلاهما مر ولسان حالها يردد رائعة سيدة الغناء واسطورة الطرب العربي ام كلثوم.

« اللي شفته قبل ما تشوفك عينيّ عمر ضايع يحسبوه ازايّ عليّ ».

وكان الله في عيون النساء التي ترى ولا تبصر فالرؤية مادية والبصيرة معنوية والأولى ثمرة الحواس والثانية نتاج العقل ويكون القول أكثر مصداقية لو كان (العين بصيرة واليد قصيرة).

والحديث عن الأطفال ذو شجون يبدأ منذ صرخة الميلاد وحتى ليلة الزفاف... وفي هذه الرحلة الطويلة يكون السعيد من الآباء هو الذي وصل المرحلة بلا جراح المعارك في غير معترك وصراع طواحين الهواء... وأسعد منه خطاً الأم التي تحضر الليلة بأعصاب هادئة ومعنويات عالية ونفسية لم

تهدها معاول هموم التربية طوال سنوات الطفولة البريئة أو طيلة اعوام المراهقة الجريئة في عالم متناقض يهتف بأعلى صوته : « لا عزاء للسيدات »، والسيدة التي تستطيع أن تحتفظ برجاحة عقلها وقوة أعصابها حتى يكبر الصغار ويتكيف الكبار مع البيت والمدرسة والمجتمع استحقّت بجدارة لقب:

الأم مدرسة اذا أعددتهـــــا أعـددت شعبا طيب الأعـراق

وأصبحت نموذجا يحتذى به في تأكيد القول الكريم (الجنة تحت أقدام الأمهات).

وفي الوقفة الأخيرة عند قضايا الأطفال وفي اطار الاجابة على السؤال المطروح لمن تقرع الأجراس ؟ أكاد أتصور الطفل نفسه مطروحا في المزاد العلني... وتتفاوت أصوات الأجراس بأهمية الجهات ذات المصلحة الحقيقة في هذه السلعة الاستراتيجية في عالم اليوم... فالذي يملك مصير هذه السلعة يستطيع أن يسيطر على زمام الأمور في العالم ويحتكر مصير البشرية في المستقبل فيبني دولة ويحطم أخرى... ويفكك أسرة ويخلخل التركيبة الاجتماعية ويدمر البنية الاقتصادية في أي دولة لأن عنصر الانسان هو العامل الوحيد القادر على أحداث هذه التغيرات في أي مجتمع... فالتجمعات لا تبني بالمال ولكن بعقول الرجال فمتى خربت العقول وفسدت النفوس فلن يستقيم الظل والعود أعوج وهذا ما يحدث بالفعل في مجتمع اليوم... فابتداء من تجارة المخدرات وسط شريحة الشباب الى حرب المعتقدات الى اعلانات الفيديو والتلفزيون وشتى أنواع التسجيلات وملصقات صالات السينما -ودور العرض يتحرك ديناصور القرن العشرين المخرب لنفوس الأطفال من الشارع الى المنزل الى غرفة النوم الى آخر لحظة في مرحلة الحلم الطفولي في حجرة مظلمة باردة.

مكافحة الارهاب

وسط هذا الزخم الهائل من المتناقضات بين أسلوب الطرح وشكل التناول ومنهج العلاج لقضايا العصر ترتفع أصوات عمالقة العالم في أكبر مجتمعات اليوم تنادي بمكافحة الارهاب... وعندما تتأمل في واقع الحياة تجد أن الارهاب في حد ذاته أصبح السلعة الرئيسية التي يتاجر فيها العالم... كالخبز اليومي والقوت الضروري الذي يشقى به ومن أجله الانسان... فكيف يحارب الانسان نفسه والانسان ذاته أصبح اداة الارهاب. ان الارهاب لا يأتي من خارج هذا الكوكب الأرضي وبالداخل لا يستورد بالعملة الصعبة ولكنه يباع في أصغر الحوانيت بأرخص الأثمان والارهاب موجود داخل كل انسان فقط يحتاج الى عملية قيصرية ليخرج من بطون المجتمعات... عملية لا تحتاج الى تخدير كامل في مجتمع نصف مخدر ولا تحتاج الى عناية مكثفة في عالم يمشي في شبه غيبوبة... لقد كانت الولادة الحقيقية للطفل ميلادا لكل أمة وقضية لكل مجتمع وهموما لكل أسرة ولذلك قال عمرو بن كلثوم :

وينشأ ناشىء الفتيان منّا على ما كان عوّده أبُوه

والآن ينشأ الطفل على ما تعوده من الفيديو والسينما والتلفزيون ولتذهب تعاليم الأب والمعلم والأسرة الى الجحيم... والعالم الذي ينادي اليوم بمحاربة الارهاب هو الذي زرع الارهاب ويحصد ثماره في كل موقع في الكرة الأرضية... والذين ترتفع أصواتهم بالمكافحة هم الذين أنفقوا الأموال الطائلة في غرس الارهاب... وتنميته... بالكلمة والصورة والقول والفعل تصريحا وتلميحا وفي كل يوم تزداد المساحة الممنوحة لممارسة شتى أنواع العنف على المسرح السياسي والاجتماعي والرياضي.

صور وأشكال

ان صورة العنف وأشكال الارهاب مثل قوس قزح يصعب تفكيك ألوانها ويمكن أن تكون النظرة اليها متكاملة بداية بأخبار الحروب المختلفة وقتل

الآلاف من البشر وتمتد على ساحات هدم القيم الاخلاقية وتحطيم القدوة والمثل العليا في أحب مجالات النشاط الشبابي... في انهيار الاستادات الرياضية واشعال الحرائق فيها وسقوط القتلى والجرحى واستقالة الحكومات هذا في اطار الشكل... وتبقى الصورة المظلمة في مجال المضمون... لقد كان الانسان الذي أكرمه ربه ونعمه وميزه على جميع المخلوقات... هذا الانسان هو الغاية في حد ذاته ليكون وسيلة لاستمرارية الكون وديمومة الحياة على وجه الأرض ليعمر المساجد ويرفع المآذن... ويتزاوج ويحفظ النسل وكان للموت قداسته فلا تمثيل بالجثث ولا صلب للموتى ولا دفن للأحياء شأن الجاهلية الأولى والآن نرى الانسان معروضا في شاشة التلفزيون أشلاء ممزقة تسبح في بحار الدم أو شبحا يتحرك في انتظار اطلاق رصاصة الرحمة عليه فهانت قيمة النفس البشرية على مرأى ومسمع من عيون الأطفال... فكيف ينشأوون على الرحمة واحترام النفس التي حرّم الله قتلها الا بالحق ؟

لقد حاولت بالجهد الذاتي أن أحارب الارهاب داخل أسرتي فامتنعت عن عرض العنف في الأفلام العربية والأجنبية والمسلسلات ونشرات الأخبار وأخيرا وجدت نفسي في مقاطعة مع التلفزيون بعد أن فقدت ما يربطني به... واستبدلت المواد الاعلامية بشرائط فيديو للرسوم المتحركة (كارتون) للأطفال بداية (بميكي ماوس) و(السنافر) و(توم ان جري) ووجدت نفسي وزوجتي نشاهد أفلام الكرتون (في فترة أحبائنا الصغار وبما أن الأحباء الصغار لا يلتزمون بالدوام الرسمي في العمل والأحباء الكبار لا يسكنون في السكن الداخلي بالمدارس وانما يشاركوننا نفس المنزل ولا تتجاوب رغبات الصغار والكبار فقد انشأت جهازا خاصا للرقابة الداخلية بأجهزة للصغار وأخرى للكبار لأن هنالك شرائط في حجم علبة السجائر تتسرب في الفيديو وتحتاج الى لوائح وقوانين ولجنة متابعة. وقد يكون من هذه الصورة للجهد الشخصي العزاء في قصور الجهد الرسمي من الدولة والمجتمع والعالم في مكافحة الارهاب.

كن جميلا

عطر الله ثرى شاعر المهجر الكبير ايليا أبو ماضي، وأنزل عليه شآبيب رحمته وألهمنا الحكمة في عظمة التذكار وعظة الاعتبار، حيث قال :

أيهـا المشتكـي ومـا بك داء   كيف تبـدو اذا غدوت عليـلا

لقد كان ايليا أبو ماضي حكيما بلغة أهل الشام وطبيبا في القاموس العربي العام... والحكمة هنا ذات شقين فالأولى تعني الناحية الأدبية المعروفة في محاولة تخليد مآثر الشاعر الذي ترك رصيدا من التراث الفني في باب الحكمة العقلانية ومعايير الجمال والثانية ترمز للنزعة الفلسفية وليست الدرجة العلمية في الطب لأن فن المداواة وموهبة التطبيب ليسا مقصورين على أروقة الجامعات خاصة في مجال علاج العلل النفسية التي يعاني منها الفرد في حالات العزلة في المهجر والاحباط في الوطن... ولست هنا بصدد تحليل السجل الأدبي الحافل للشاعر فهذه محاولة يقصر دونها باعي في هذا المجال ولكنني على مشارف بوابة الدخول الى العالم الفلسفي الذي خلقه شاعر المهجر الكبير في قصيدته الرائعة والتي تصلح لأن تقرر في المنهاج الدراسي لشتى مراحل التعليم واذا أردنا أن نكون أكثر انصافا للشاعر وأكثر صدقا مع أنفسنا فاننا نحتاج الى كتابة هذه القصيدة في ملصقات توزع مجانا في مكاتب الحكومة والأندية الثقافية ودور

المستشفيات حيث يتردد على العيادات الخارجية المتمارضون الذين لا يعانون من علة ويشتكون وما بهم داء... ولا يجدون من يسألهم: كيف تبدو اذا غدوت عليلا ؟ واذا تقدم السادة الأطباء بهذا السؤال الى عشرات المتسكعين في ممرات المستشفيات والمتسكعين في قاعات انتظار العيادات لكانت هذه الوصفة الطبية أكثر فعالية من كل العقاقير المرصوفة في رفوف الصيدليات.

مناجاة النفس

اننا حقا لا نشعر بقيمة العافية الا عندما نسقط في فراش المرض... ولا نتذوق طعم المال الا عندما نلعق مرارة الحاجة وفي الحالة الأولى نحلف بأغلظ الايمان اننا لو وجدنا سلعة العافية معروضة في أقصى أسواق العالم لدفعنا فيها أغلى الأثمان بل كل ما نملك حتى اذا ما تحققت الأمنية نسينا كل ما قلناه وفي الحالة الثانية نكبح جماح كل الشهوات ونجمع شتات كل المأثورات من أفواه العقلاء في تفاؤل حذر وصمت قائل.

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت ولما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

وحتى اذا ما فرجت الأزمة وانزاح كابوس الضيق الجاثم على صدورنا عدنا نكرر نفس الأخطاء ويستمر هذا النمط من الهواجس الداخلية والمناجاة النفسية في لحظات العوز والفاقة ويصبح التأمل في سير الكون والتمسك بأهداب الحياة نوعا من لذة التصوف وقمة العبادة بين الفرد وذاته حتى اذا تخطى عتبة دهليز الأزمة طفح كيله وشطح ميله الى المغالاة وعاد سيرته الأولى في الشطط واللامبالاة وخرج الى الناس مؤكدا أن الشكاة لغير الله مذلة وهي كلمة حق يراد بها باطل لأنها ليست من باب الرجوع الى الحق فضيلة ولكنها من زاوية الغاية تبرر الوسيلة ولذلك تتحول المناجاة مع النفس والحساب مع الضمير الى مخاطبة الغير ومغالطة الآخرين وتدور الساقية من البحر وللبحر.

تصدير القصيدة

ان قصيدة ايليا أبو ماضي قد حوت ووعت من اصالة الفكرة وجودة الطرح والتعبير ما يجعلها ينبوعا متدفقا يتجدد ماؤه ويتألق رواؤه بقدرة اليد التي تحرك موجته والعين التي تعشق رؤيته وهي من نوع القديم المتجدد والجديد المتفرد من زاوية الرؤية التي ننظر منها الى البعد الفلسفي لمعايير الجمال التي ينشدها الشاعر وفي زمان يطفح فيه الكيل بالقبح والدمامة في القول والفعل لا يكفي فيه البكاء على الاطلال وفي وقت تتعالى فيه انات المحرومين وحشرجات المذبوحين لا ينفع فيه الدعاء على القاتل أو الصراخ خلف نعش القتيل.

لقد كانت الاطلال مدخلا ضروريا في فن المعلقات الشعرية وقد أصبحت اليوم خبزا يوميا يتعاطاه الناس في الوجبات اليومية في الصحيفة والاذاعة والتلفزيون والقصة والمسرحية والحكاية والخبر ولقد أصبح مشهد القاتل والقتيل أكثر حضورا في أذهاننا من قصة قابيل وهابيل وفي اطار هذه اللوحة المظلمة المليئة بالألوان المخلوطة والمفاهيم المغلوطة لا بد أن نخلق في داخلنا واحة وأن نوجد في مسيرتنا استراحة للاستجمام من رحلة السير في وحل الخطايا ولا بد من تصدير لاعادة طبعة الحياة في الرواية... رواية جديدة تسدل الستار على مسرح تحطم من هدير موجات العنف وصرير سياط العذاب وكبح جماح الشر وهذا المسرح موجود في داخل كل فرد جنبا الى جنب مع اطلال المسارح النقيضة ووجها لوجه أمام مناظر الجثث البغيضة وهذا تصدير جديد لطبعة قصيدة ايليا أبو ماضي بعنوان : كن جميلا تر الوجود جميلا.

كن جميلاً

لقد صدر قبل سنوات قليلة في أوروبا كتاب بعنوان (كيف تنتحر) لكاتب فرنسي شاب وقد ترجم هذا الكتاب الى عدّة لغات لا أعلم ان كان من بينها اللغة العربية حتى يتهم « باللوثة العقلية » والتي تمثل الموضة

العصرية في الدول العربية... على الرغم من أن كل عاقل في العالم يستطيع أن يؤكد أن الكاتب كان نموذجا شاذا للاحباط المادي من أجل حفنة دولارات حيث ضرب الكتاب رقما قياسيا في التوزيع وبلغ درجة خيالية في الشهرة وأحدث فعالية مؤسفة في المجتمع حيث انتحر عشرات الشباب من الموتورين والعابثين الذين يبحثون عن عذر مكتوب يحرك الشيطان القابع في القاع أو يتدافعون الى بوابة الخروج من العالم العاصف الذي يقذف الناس من أحشائه كالبركان الذي يلفظ الحمم واللهب ولأن عالم اليوم لا يتعامل مع عناصر الجريمة بنفس القوة التي يتكلم بها عن دوافع الارهاب فلم يصادر الكتاب بدعوى حرية الرأي حتى وان كان الرأي يحمل تحريضا صريحا على قتل النفس وأسلوبا غير علمي في التصدي لمعالجة القضايا الاجتماعية في مجتمعات وصلت فيها قيمة الانسان في بورصة المعاملات في الجمع والطرح الى حصيلة الصفر وهذا في رأيي قاع السقوط. في وقت تحاول فيه قوى الخير والحب والجمال أن تعيد للفرد قيمته الانسانية وتنتشل الانسان من مستنقع اليأس في رواية كوميدية أو قصة ضاحكة أو أغنية جديدة تعلم الناس (كيف نعيش) لأن الحياة حقا حلوة بقدر ما نتعب في صنعها وقبيحة حسب ما نتعامل فيها كما يقول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا

وفي مجال الرؤية البصرية وحسب الحركة الرادارية لعيون الرضا والسخط يتشكل لون الحياة وقبل أن نفكر في كيف ننتحر ؟ علينا أن نتساءل : كيف نعيش فالأولى غريزة الفناء والثانية حب البقاء وكلاهما في طبيعة نسيج النفس البشرية ووجهان لعملة واحدة...

فاذا أردت أن تكون... فكن جميلا تر الوجود جميلا.

الفصل الرابع عشر

غايات واهداف

١ ـ انهم بشر
٢ ـ الضغوط النفسية في العمل
٣ ـ حرب الطاقة الذهنية
٤ ـ المساير والمغاير
٥ ـ بين لذة الأقتناع ومعاناة الأقلاع
٦ ـ سحر الكلمة
٧ ـ النفس المطمئنة
٨ ـ مرآة الوجه الآخر

انهم بشر

يبدو لي أن المهم والصحيح فيما أغفله التصحيح في العلاقة بين الطبيب والمريض أن يطلع كلا الطرفين على مضمون قسم أبوقراط في الطب. وخصوصية هذه العلاقة لا تفقدها ضرورة مراجعة أبعاد المشاركة الوجدانية والنظرة الانسانية. للحقوق والواجبات المتبادلة وهي وثيقة عقد والعقد شريعة المتعاقدين وكذلك يستوجب طبيعة المتعاقدين طرفين في مثالية العلاقة ضرورة القراءة المتانية والاستقراء المتأمل والاستنباط العاقل لا لحرفية نصوص القسم ولكن لروح المناخ الصحي الذي يسعى لخلقه بين الطبيب والمريض.

الاطار العام: قد يكون من الملاحظ أن يحفظ بعض الأطباء فقرات القسم عن ظهر قلب ومن المشاهد الا يداوم البعض على قراءته باستمرار ومن الطبيعي أن يخطىء الآخرون في تطبيق بعض نصوصه ولكن الممارسة العملية للطبيب الحاذق تجعله أكثر التصاقا بوجدان المريض وأكثر بعدا عن الانسلاخ من روح القسم ولكن هذا الفهم المسطح للمعنى العميق لروح القسم أعطى انطباعا خاطئا لدى بعض المرضى ومفهوما مغايرا لدى أكثر الاصحاء تفترض صورة الكمال في الطبيب والكمال لله وحده. أو تتطلب فيه سماحة من تصفعه على خده الأيمن فيعطيك خده الأيسر وقد يكون هذا معلوما في أكثر حالات الشواذ وضروريا باعتباره أحد أخطار المهنة ولكنه قطعا غير مستساغ في ظل العلاقات السوية القائمة مع المريض ذي

البصر والبصيرة. والطبيب البشر الذي يخطىء ويصيب ومن لا يعمل لا يخطىء وانما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ويهمني في هذا المقال تحليل نظرة المجتمع الى (رسل الانسانية) والتي تفترض في سلوكياتهم صفات الأنبياء وفي غفلة الحماس والانفعال ينسون قول الرسول الكريم (انما أنا بشر مثلكم يوحي الي)... فاذا استخدمنا هذا المنطق في قبول الطبيب لواجباته الا ينبغي بالمثل أن ينطبق على المرضى والاسوياء القبول بحقوق أصحاب الرسالات على العباد ايمانا بأن العلماء ورثة الأنبياء ؟

إنني لا أود أن أبرىء ساحة بعض الأطباء من التقصير في حق قدسية العلاقة بالمريض ولكنني قطعا أريد أن أزيح عن كاهلهم تركة الفهم الخاطىء لرسالة الطبيب في محاولات التجاوز غير المنطقي لكل الاعراف والتقاليد وتعامل البشر فقط لأن الطب مهنة انسانية... وبهذا المعيار يكون السؤال هل هنالك مهنة غير انسانية ؟ وفي ظل هذا الفراغ النفسي الهائل بين التشريعات السماوية المنزلة والتطبيقات الوضعية المفروضة ؟ أي هناك ضوابط لا تخضع لمزاج الطبيب ولا رغبته الخالصة في توطيد أواصر المودة والتمسك بالعروة الوثقى بين شرف المهنة ومتطلبات العمل الوظيفي. ولذلك تقيم الجمعيات الطبية في كل أنحاء العالم لجان دفاع عن حقوق الأطباء ملتزمة بروح القسم متمسكة بحقوق الطبيب محافظة على كرامة المريض بصورة لا تشوه وجه العدالة ولا تطفف الكيل في الميزان وتحارب القناعات الخاطئة التي تعتبر الطبيب مدانا حتى تثبت براءته نتيجة أساليب توعية صحية قاصرة ومفاهيم موروثة بالية عن طبيعة هذه العلاقة.

نظرة خاصة: اذا كان هذا المسح العام على سبيل المثال في نطاق الأطباء النفسانيين (وأهل مكة أدرى بشعابها) فكثيرا ما يشكو لي بعض الزملاء من متاعب أهل المرضى أكثر من مرضاهم وكيف أن هؤلاء ينتظرون حدوث المعجزات ويطالبون بصنع الخوارق على يد الطبيب النفسي تلك الاسفنجة القادرة على امتصاص كل أنواع الصدمات. وان تفريغ العبوات الناسفة داخل قفصه الصدري ينبغي الا ينعكس على تقاطيع وجهه

المرآة الطبيعية المعبرة عن انفعال البشر الطبيعي علما بأننا جميعا ندرك أن الطبيب النفسي يتعامل في أغلب الأحيان مع انماط من البشر يفترض فيهم ظلما أو عدلا أنهم غير طبيعيين وفي أحسن الفروض غير أسوياء فهل يستقيم عقلا ان يظل الفرد معصوما من الخطأ في خصال النبوة في التعامل مع غير الاسوياء واذا افترضنا جدلا امكانية ذلك فهل من الممكن القدرة على السيطرة على النفس وكبت المشاعر مع غيرهم من الاسوياء ان ذلك غير الطبيعي بالفعل والقول والحقيقة القائلة (من غير الطبيعي أن تكون طبيعيا في ظروف غير طبيعية).

من الصحيح والمأثور أن يكون الطبيب النفسي على درجة عالية من شفافية الحس المهني وتلقائية الاستجابة المنضبطة مع انفعالات الآخرين والقدرة على رسم ابتسامة عريضة تغطي خريطة وجهه طوال حياته ولكنه قطعا غير مطالب بالوصول الى درجة الكمال وإلا أصبح ذاته مجنونا يدعي النبوؤة... ويذكرني هذا الموقف باخصائية علمية تشير الى ارتفاع نسبة الانتحار بين الأطباء عامة والأطباء النفسانيين خاصة ورغم أن هذه الحقيقة مازالت مثار جدل الا أنني أستطيع التشكيك في صحتها. من خلال الممارسة والمعايشة على مدى عشرين عاما مع المرضى والأطباء. ولعل بعضهم قد بلغ من طول العمر ما سوف يجعل هذه الحقيقة أقرب الى الانطباع والله أعلم.

نكران الجميل: ومن الصحيح والمأثور ان اعتلال العلاقة بين الطبيب النفسي والمريض يكمن في ظاهرة نكران الجميل نتيجة الفهم الخاطىء لدور الطبيب النفسي واسهاماته في حياة الناس فاذا رجع القارىء بذاكرته سنوات طويلة الى الماضي ليحصي عدد اعلانات الشكر والعرفان للأطباء عامة نتيجة الرعاية المعهودة والعناية المشهودة فقلّ ان: يجد بينها بطاقة شكر واحدة الى طبيب نفسي قدم خدماته مشكورا لمريض تماثل للشفاء علما بأن درجة عالية من حالات الاصابة والانتكاسة في الأمراض النفسية تعود الى محيط الأسرة وتركيبة المجتمع وعيوب الأمة وكثيرا ما يكون

الطبيب النفسي كبش فداء وهذه اضافة أخرى الى قائمة أسباب الانتحار فعلاقة الأخذ والعطاء الأوفر من جانب الطبيب لا ينبغي أن تكون ابتزازية بالدرجة الأولى أو قائمة على قناعة (لا شكر على واجب)وان كان هذا النفي يقع في صلب قسم أبوقراط ولكنه لا يطغى على حقيقة الكمال لله وحده وقول الشاعر :

احـرام علـي بلابلــه الــدوح   حلال على الطير من كل جنس!

هل من الانصاف في شيء أن تقيم علاقة حميمة مع مريض حتى اذا بلغ ذروة العافية يبخل عليك بالتحية في مكان عام أو ينكر معرفتك في حضرة المدعوين؟ أوليس من الظلم أن يعتقد ويشيع الكثيرون ان بوابة الطب النفسي هي جسر العبور الى كل المحرمات وان المطلوب منه طلاء الواقع الأسود بالألوان الوردية في عيون المرضى والأقارب كضريبة دم يدفعها من حريق أعصابه ودخان رئتيه وطحين كبده حفاظا على أسرار المريض وترابط الأسرة وتماسك المجتمع... وأصدقكم القول أن أحد المرضى قال لي (ان الخطيئة لا تولد معنا ولكن المجتمع يدفعنا اليها).

ومازلت أسأل نفسي ماذا أقول له ان جاء يسألني « أمجنون أنا أم المجتمع » ؟

وهذه نظرية ينادي بها علماء في مكانة « هوفمان » و« ساس » في أمريكا و« لانج » في انجلترا وهم علماء يعرفهم الأطباء النفسيون في كل أنحاء العالم وقطعا لن أملك غير أن أقول له: « خذ الحكمة من أفواه المجانين » ويقيني أن ليس كل المجانين في المصحات العقلية وليس كل اللصوص داخل السجون.

ان المطلوب من الطبيب النفسي ان يكسر الحلقة المفرغة التي يدور فيها الفرد والأسرة والمجتمع والعالم... وهذه مسؤولية الكل وليس الطبيب النفسي وهذه بكل المعايير الانسانية.

تتزاحم اعداد هائلة من البشر في مسيرة الملايين الى عيادات الطب النفسي في المستقبل الذي يقول (ان مهنة الطب النفسي منجم ذهب) ويقول الطبيب النفسي ما قاله المتنبي :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها   اني بما أنا باك منه محسود

وأقول لكم : إنهم بشر !!

الضغوط النفسية في العمل

ان العلاقة الثلاثية الأبعاد بين الفرد ووظيفته ومجتمعه تكون شكلا هرميا يقف الفرد على قمته وتكون خطوط الصلة بين متطلبات الوظيفة وأهداف المجتمع وطاقة الفرد قاعدة الهرم وهذه العلاقة تحكمها عدة عوامل وكلما كانت الوظيفة ذات أثر مباشر في حياة المجتمع، خلقت نوعا من الضغوط المباشرة على الفرد وكلما اصبح المجتمع ذا اهتمام خاص بتلك الوظيفة، شكلت عبئا اضافيا على كاهل الفرد. وبما ان التقدم الحضاري اليوم يربط بين الوظيفة والمجتمع ربطا استثماريا يتعامل بحساب الربح والخسارة فقد اصبح الفرد ضحية هذه المعادلة الصعبة. وعلى الرغم من قلة الجهد البدني للوظيفة نتيجة التقدم التكنولوجي إلا أن الجهد الذهني والضغوط النفسية في ازدياد مضطرد، وهذه ضريبة التقدم المدفوعة من حساب صحة الفرد في مجتمع اليوم فالوظيفة اصبحت تمثل الحق العام للمجتمع تخضع لقوانين وضوابط على حساب الفرد في وقت يخضع الفرد ذاته خارج نطاق الوظيفة لضغوط اخرى اشبه بالحركة بين فكي الرحى او العيش بين المطرقة والسندان.

ومع سرعة التقدم في مسيرة التكنولوجيا لاختزال دور الانسان في دولاب العمل اصبحت العلاقة في المؤسسات الكبرى معقدة التركيب بين الفرد والوظيفة وأصبح الفرد مجرد ترس في آلة الوظيفة يدور بالسرعة المطلوبة لانجاز العمل المحدود ومتى تآكل او تصلب أو توقف عن العمل استبدل بترس آخر

جديد لأن المجتمع الاستهلاكي لا يقبل اهدار الزمن في اصلاح الأجزاء المعطوبة مع وجود قطع الغيار البديلة وهذه نظرة اقتصادية تضع عامل الزمن في قائمة أولويات مؤشرات النجاح في النظام الاقتصادي.

ماهية الضغوط

ان الضغوط النفسية تعني عملية الاستجابة الفسيولوجية والسيكولوجية للمثيرات في سلسلة الأحداث المتلاحقة بصورة تؤثر على توازننا الداخلي أو تحدث خللا في تكيّفنا الذاتي التلقائي مع هذه الأحداث . وهذه الاستجابات ليست مرتبطة بالمثير المعني ارتباط السبب بالنتيجة. فقد يحدث المثير الواحد عدة استجابات مختلفة. وقد تكون الاستجابة المعنية وليدة مثير بعيد عن مجال الرؤية الحالية او عصارة تراكمات بعيدة المدى (كالقشة التي قصمت ظهر البعير). ولكن هذه الاثارة المستمرة او المتقطعة سوف تؤدي بالضرورة الى اضرار صحة الفرد. أما نوعية الضغوط النفسية فتتأثر بالفروق الفردية بين الناس في اختلاف قدراتهم على احتمال الضغوط ونوعية استجاباتهم لها ودرجة الانفعال بشتى مظاهره الضارة والنافعة ومن أضرار الانفعال فقدان القدرة على التركيز وكثرة النسيان وصعوبة التعلم والتذكر وضعف السيطرة على النفس واضطراب وظائف اعضاء الجسم مما يؤدي الى الأمراض النفسية والعضوية. ومن فوائده تمكين الفرد من التوافق مع الآخرين والمشاركة الوجدانية للجماعة والتنفيس عن الأحاسيس المكبوتة والتعبير عن المشاعر المضادة والمؤلمة.

مصادر الضغوط

ان الضغوط النفسية تأتي من عوامل الشد والجذب بين اطراف المثلث المكون من الفرد والوظيفة... فشخصية الفرد وعاداته وعلاقاته تمثل احد مصادر الضغوط النفسية. فطموح الفرد الذي لا يتحقق اما نتيجة ضعف القدرات او طبيعة العمل تؤدي الى احباط داخلي من صنع الفرد ذاته وعادات الفرد في التعامل مع الوظيفة كاحتراف مهنة أو ممارسة هواية أو مصدر رزق

أو مظهر اجتماعي أو تعبير عن الذات أو كل هذه الصفات مجتمعة يحدد شكل استجابته للأحداث التي تتعلق بوظيفته كما أن علاقة الفرد بالآخرين في الهرم الوظيفي تؤثر الى حد كبير في تحديد قدرته على خلق الضغوط او الابتعاد عنها أو التعايش معها.

والبيئة تلعب دورا كبيرا في تشكيل الضغوط النفسية نتيجة كونها بيئة متكيفة او متوافقة او معتلة. فالبيئة المتكيفة قابلة للأخذ والعطاء والبيئة المتوافقة قادرة على التنازلات الخاصة في سبيل المصلحة العامة والبيئة المعتلة هي مصدر المناخ الملوث الذي يخنق كل ملكات الابداع عند الفرد ويحدث ردة فعل عكسية. أما الوظيفة فهي التي تتأثر مباشرة بمصادر الضغوط من احداث في مجال العمل او خارج العمل.

ففي مجال العمل، نجد أن تراكم الضغوط لفترة طويلة، قد يحدث انفجارا في وقت غير مناسب، لأن الانفجار قد يحدث في غير ساعة الاختيار وبلا سابق انذار... فيبدو رد الفعل أشد من الفعل، والعقوبة أكبر من الجريمة، لأن التراكمات أحدثت ثقوبا شتى في ثوب العلاقات حتى « اتسع الخرق على الراتق ». كما أن الأحداث السارة والمؤلمة قد تحدث ضغوطا متشابهة. فقد أثبتت أبحاث الكفاءة الادارية أن أحداث الترقي في الوظيفة أو التوقيف عن العمل تحدث ضغوطا نفسية مماثلة حسب شخصية الفرد، والظروف المحيطة به، كما أن مصادر الضغوط الأخرى تتمثل في كثرة العمل المطلوب مع قلة الوقت الممنوح أو كثرة الأنذارات مع شح الحوافز أو لفت النظر مع فقدان التقدير الاجتماعي أو الاستقرار الوظيفي والضمانات المهنية كما أن احتكاكات العمل تحدث نوعا من الخلل النفسي أشبه بالتهابات الجراح المزمنة في جسد الوظيفة.

أما الضغوط خارج العمل فهي مرتبطة بطبيعة الحياة الاجتماعية كالعلاقات الزوجية أو حالات الوفاة للأقارب فتكون سلسلة الأحداث المتغيرة محصلة صخمة تؤدي الى شتى أنواع الأمراض غير أنه لا توجد ضغوط معينة تقود إلى أمراض معينة، إلا أن الثابت أن كل أنواع الأمراض

المعروفة يمكن أن تحدث نتيجة الضغوط النفسية بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وفي خارج العمل توجد ضغوط متواصلة ومتباينة الأثر حتى أن الضغوط اليومية والتي نعتقد أننا قد تعودنا عليها مثل الضوضاء في الشارع والتلوث في البيئة وعدم الراحة في السكن وتقلبات الدخل المادي وحدوث المشاكل الأسرية تحدث على المدى البعيد شروخا في البنية النفسية للفرد، تؤدي في النهاية الى ضعف الشعور بالرضا عن النفس أو الأحساس بالفشل في العمل أو فقدان الطمأنينة داخل الأسرة والعجز عن أداء الوظيفة أو الأصابة بالمرض.

مواجهة الضغوط

من الطبيعي أنه لا يوجد عقار طبي ناجع أو علاج واحد للضغوط النفسية لأنها متعددة الأسباب متداخلة الزوايا ولذلك يظل الأطار السليم للوقاية هو التعامل مع الانسان كوحدة... كروح وجسد انطلاقا من قاعدة المعرفة بأسلوب الصحة النفسية حيث يتعلم الفرد في البداية أن أي انسان يحتاج الى قدر معين من الضغوط لكي يستمر في عمله كضرورة الملح في تذوق الطعام. فالقلق على الوظيفة والخوف من نظرة المجتمع والاهتمام بتلبية الحاجة الذاتية عوامل ضغط هامة للحافر والانتاج، وكل انسان له استجابته المتميزة للضغوط وتختلف عن الآخرين، كما أن الضغوط تمثل التحدي لقدرات الفرد لكي يبدع في مجال عمله ويكتشف ذاته من خلال محاولات الابداع.

ومن المؤسف ان الادارة في القطاعات العامة تبدو أقل اهتماما من ادارة القطاعات الخاصة ربما لأن شدة الاهتمام بالفرد من أجل الانتاج أو نظرة علاقة الترس بالآلة تبدو أكثر وضوحا... أما الادارة الناجحة فهي التي تربط بين كفاءة الاداء وصحة الفرد وكثرة الانتاج، فقد أثبتت أبحاث الصحة النفسية أن الخسارة المادية نتيجة الضغوط النفسية تصل الى أرقام فلكية من بلايين الدولارات سنويا مما جعل علم النفس السلوكي أحد الاهتمامات الحديثة في مجال ادارات الأعمال وذلك بالاهتمام الزائد

بدراسة أثر الضغوط على حياة الفرد وانتاجية المؤسسة... وتركز المؤسسات الاقتصادية على اهتمام الادارة بتأثير التوترات الناتجة في العمل والتخطيط والادارة على صحة الفرد النفسية وتعليم الفرد كيفية مواجهة الضغوط المستمرة والطارئة. وأصبح الارتفاع بالحس المهني لدى المؤسسة بالضغوط والاهتمام بها يمثل صمام الأمان في احداث التوازن النفسي والتكيف الذاتي والاجتماعي والانتاجية الجيدة. كما أثبتت الأبحاث ان خلق برامج تدريب تعتمد على نظرية المسؤولية الذاتية تقوى من الدافعية الشخصية لدى الفرد... كما تعمل الادارات على دراسة اسلوب الحياة الفردية والجماعية وارتباطه بنوعية الضغوط النفسية في الوظيفة. كما أثبتت الأبحاث أن القرارات الفردية غير المخططة والتي تفتقر الى روح الطرح الجماعي تهز التركيبة الأساسية للمؤسسة الانتاجية كما تؤكد الدراسات ان المسؤول الكبير في العمل يحتاج الى قدر أكبر من الضغوط ليتمكن من تقدير أثرها وتحجيم ضررها على المسؤول الأصغر... وقديما قال سقراط ان من اعظم مبادىء الصحة النفسية : « اعرف نفسك » ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه »... وحتى يتحقق مبدأ التدرج في حجم المسؤولية والعدالة في طرق المساءلة ستظل الضغوط النفسية في العمل تمثل اكبر تحديات العصر في المجتمع.

ولا بد للانسان من اعتناق فلسفة ولا أعني العقيدة الايدلوجية وإنما الرؤية الذاتية للأمور وأن تكون من المرونة بحيث تستوعب عدة مبادىء قابلة للأخذ والعطاء في التعامل وهي أشبه بالعملة النقدية في بورصة الحياة تختلف صعودا وهبوطا من يوم الى آخر... فاذا كانت جامدة اصطدمت بصخرة الواقع واذا كانت هشة ذابت في حرارة الضغوط... وخير الأمور الوسط...

حرب الطاقة الذهنية

لماذا يستيقظ الانسان من النوم متثائبا متثاقلا متحاملا على قدميه من فرط التعب والارهاق بعد قضاء ليل طويل في السرير الوثير وغطاء الحرير داخل غرف التكييف المركزي. بينما كان الانسان في الماضي ينام جزءا أو بعض جزء من الليل بعين نصف مفتوحة في ليل الشتاء القارس أو الحر اللافح على قطعة حصير ثم يستيقظ مع آذان الفجر يتفجر نشاطا وحيوية يؤدي الصلاة ويذهب الى عمله ضاحكاً مستبشرا لماذا ؟ لماذا يعود الانسان منا من العمل في سيارة فارهة بعد ساعات قليلة في مكتب جميل الاثاث يوقِّع فيه الأوراق بقلم مذهّب او يطوف على مواقع العمل بمظلة شمسية تتخلل هذا الاداء فنجان القهوة وأكواب الشاي والبارد ثم يعود منهكا منهار القوى مشتت الفكر يطمع في ساعة نوم في الظهيرة وقد كان الانسان في الماضي يخرج من الصباح الباكر يحمل فأسا يحتطب في الغابة أو شبكة ليغوص في أعماق البحر ويعود يتصبب عرقا في آخر النهار يجتر ذكريات اليوم في ظل القيلولة نائما هانئا بعد جهد خارق. لماذا ؟

لماذا يموت الانسان اليوم في ريعان الصبا ونضارة الشباب من أمراض العصر الحديث كالسكتة القلبية المفاجئة، وغيبوبة الأمراض المباغتة، رغم اكتشافات العصر الحديثة التي طوقّت هذه الأمراض بالوقاية والعلاج بشتى العقاقير بينما كان الانسان في الماضي لا يعرف معنى التطبيب الا في الكي بالنار او خلاصة الاعشاب البرية ويظل يصارع الأمراض حتى يموت من داء

الشيخوخة أو مرض طول العمر بعد ان يزهد في الحياة أو تزهد فيه. لماذا ؟ لماذا يقضي انسان اليوم حياته في رحلة البحث عن الوظيفة ثم تكوين الاسرة ثم بناء البيت ثم الدخول في اعمال تجارية وملاحقة الأسهم ويظل يلازمه الشعور بالفشل في تحقيق شيء ما بينما كان الانسان في الماضي يقنع ويقضي حياته راضيا بتأمين القوت اليومي الضروري لأسرته، وغاية امنياته ان يعيش مستورا في دنياه بحسن السيرة ويموت مصحوبا في آخرته بحسن الخاتمة. لماذا ؟ اننا نؤمن بالقضاء والقدر، ولكننا نؤمن ايضا بقوله تعالى « وفي أنفسكم أفلا تنظرون » صدق الله العظيم.

أصل المشكلة

يبدو لي أننا في زمان تصدق فيه مقولة « أن لا تكون هناك مشكلة هي المشكلة » هل يصدق ان هناك عاملا أو موظفا أو تاجرا أو شعبا أو مجتمعا أو دولة أو حكومة لا تعيش في مشكلة أو تعايش أزمة الحلول لمشكلة ؟ اذا كان الرد بالايجاب فإن هذه، اكبر مشكلة في حد ذاتها وبصرف النظر عن تعريف ومفهوم وأبعاد المشكلة فان أهداف كل هذه الفئات لا بد ان تتعارض مع بعضها او تتناقض في وسائل الوصول اليها... وطالما بقيت هناك أهداف تنتظر التحقيق فلا بد من وجود وسائل لتحقق الوصول ولا بد ان يظل الانسان حبيس المشكلة وتبقى القضية وجهة نظر.

ان كل جهد يبذل لحل مشكلة يحتاج الى طاقة والحلول المثالية دائما تحتاج الى حشد طاقات بدنية وذهنية ونفسية في وقت واحد وفي نسق متكامل وجهد متواصل لا ينقطع الا بالقدر الذي يتيح مجالا لتجديد وترشيد انفاق الطاقة حتى لا تهدر في غير جدوى أو تبدد في غير طائل... وقد كان الانسان في الماضي ونمط الحياة السابق يعتمدان كثيرا على الطاقة البدنية كالقوة الميكانيكية لعضلات الانسان وحركة الآلة في قطع الأشجار وحفر الجداول وحرث الأرض وكانت حركة الآلة بدائية للغاية وطبيعة العمل ذات طابع روتيني في الشكل والمضمون، كما أن عامل الزمن كان في جانب الانسان فيحقق له راحة البال. ويوفر الطاقة الذهنية دون ان يلغي

عقل الفرد... ثم تعقدت الحياة فأصبحت الطاقة البدنية والذهنية ليست كافية لأداء الواجبات اليومية الكافية لأمور الحياة فأصبح الفرد ينفق طاقة بدنية هائلة وجهدا ذهنيا وافرا ولكنه ظل قلقا على نتائج عمله ومستقبل قدرته على التغلب على مشاكل ذلك العمل فأضاف مخزون طاقة جديدة... طاقة نفسية سداها ولحمتها من أعصاب الانسان واجهزة الجسم الحيوية خاصة الجهاز العصبي والغدي من تنبيه وأثارة ونشاط زائد وانفعال متواصل تظهر آثاره في خفقان القلب وتقرحات المعدة وتشنجات القولون وشتى أنواع الأمراض القاتلة داخل هذه الحلقة المفرغة.

وجهة نظر

من هذا المنظور قد يبدو تطور الصراع بين نزعة الخير والشر والحق والباطل نزوعا طبيعيا يساير طبيعة الحياة في تطورها من سكون الى حركة ومن سلم الى حرب. ومن خلال معرفة الانسان لذاته في أحسن الحالات الى جهل الانسان لقدر نفسه على اسوأ الفروض تغيرت وجهة نظره في توجيه هذه النزعات الغريزية فأصبح الصراع بين الخير والشر يخضع الى موازنة ومعادلة صعبة بين نزوع الانسان الى ممارسة حياته بصورة تلقائية بصرف النظر عن غلبة صورة الخير او الشر في أفعاله وبين رغبته في الخضوع لسيطرة المجتمع والانضباط بسلوكياته والتي اصبحت في نهاية القرن العشرين مترعة بثمالة الشر وكل اناء بما فيه ينضح... وليس هذا افراطا في التشاؤم او تجسيدا للعيوب او تشويها للواقع من منظور أسود وإنما محاولة رسم لوحة تجسد ابعاد المأساة في حجم صغير أشبه بالمقال السياسي المضغوط في خطوط الكاريكاتور وهي وجهة نظر قابلة للأخذ والرد ومفتوحة للحوار ولكنها قطعا لا تخلو من صدق القول وصراحة المواجهة لواقع اليوم... فالنزعات الانسانية في عصرنا اليوم تخضع لاعادة نظر ومواجهة تهمة المصادرة من ضمير الانسان والقيم الجميلة دخلت قفص الاتهام في انتظار محكمة القيم والمبادىء الموروثة التي اصبحت مسائل نسبية لا تخضع لاصول علم الجمال والاخلاق والمنطق المتعارف عليه...

وفي محاولة لاحداث نوع من الانسجام او صورة من التمويه على هذا الواقع يحاول الانسان وضع مساحيق كل العالم على وجه افعاله المعاصرة لكي تبدو مقبولة ومقنعة او غير مرفوضة ومنطقية فاستبدل الحرب البدائية من قتال مبارزة مباشرة الى مناورات بالاسلحة الاوتوماتيكية كاتمة الصوت.

وفي محاولة لتطوير شكل الصراع انتقل من الحرب الساخنة الى الحرب الباردة بالمقاطعة الاقتصادية وتجميد العلاقات الدبلوماسية وتبادل الحملات الاعلامية وتطورت المواجهة المعلنة الى حملات خفية في التكتيك والاستراتيجية كحرب الجاسوسية والحرب النفسية واحدث صور دمار الانسان لأخيه الانسان.

فاذا كانت الغاية من اشعال الحرب هي محاولة احراز نصر أو صرف هزيمة بأسلوب أو آخر فان أكبر الهزائم هي هزيمة الانسان ذاته بتحطيم معنوياته وتدمير نفسيته ففي لحظة الصحوة العقلية اكتشف العالم بعد التطور المذهل في فنون الحرب ان العنصر الحاسم ليس نوع البندقية ولكن قوة اليد خلف البندقية وعندما تهتز تلك اليد نتيجة الخوف أو ضعف الثقة أو شلل الضمير فلن تنجح في إصابة الهدف ولن تخدم اهداف المعركة وهذا سر التوجه الحديث في فن الحرب بين الدول في العقدين السابقين لأن وسيلة فناء العالم كله في لحظات اصبحت في متناول اليد والاصبع واتخاذ القرار اصبح من حق فرد واحد يخطىء ويصيب مثل بقية البشر يتعرض للأهواء والنزوات ويكفي ان يضغط في لحظة انفعال جنونية على احد الازرار الكثيرة فيتحول العالم الى كومة من رماد وعلينا ان نتصور الى اي حد وصلت قدرة انتصار الشر على الخير والباطل على الحق ورغم كل هذا يبقى مثل هذا الأمر مجرد وجهة نظر.

محاولة... للتحليل

يبدو حقيقة ان الانسان المعاصر يعيش حالة ترف مرضية قاتلة بعد معاناة شظف طائلة وان مجتمع الوفرة الذي يخفي حياة الانسان في بضع حركات

آلية خلال النوم واليقظة قد حول كل طاقاته الى معلبات مجمدة للاستعمال عند حالة الطوارىء فحياة النعمة في سهولة الحصول على الملبس الجاهز والمأكل الجاهز والمسكن الجاهز حولت حياة الانسان اليومية الى مجرد طقوس يمارسها بشكل روتيني يفضي الى الرتابة والملل القاتل... فالانسان قد تجمد في ثلاجة التطور فأصبح يدير شؤونه البعيدة وهو ثابت في مكانه الواحد ويتصل بالعالم المتحرك وهو جالس في مقعده... يصنع الأحداث بلا أدنى حركة... ويخلق المواقف ويلعب الأدوار من غير جهد بدني يحرك المفاصل والعضلات وينشط القلب والأوعية الدموية فأصابة تيبس المفاصل وتضخم القلب وتصلب الشرايين، وبعد اختراع العقل الالكتروني حفظ فكره في خزانة فولاذية والغى عقله من فاتورة السداد الختامي مع الجرد السنوي لكي يتعامل مع كمبيوتر المكتب والمنزل والرجل الآلي الذي بدأ يتحرك في المصانع لينطلق قريبا الى الشوارع ليحتل مكان الانسان البشري ويقذف به في جحيم العطالة وضاعت شعارات « العمل شرف ورجولة... والعرق كد وفضيلة » حتى أصبح العمل في حد ذاته سلعة نادرة وكلما تطور المجتمع كلما ازدادت حدة المشكلة وتحولت المدينة « غابة الاسمنت » التي تصور تغول ناطحات السحاب على سائر الكائنات الحية الى « المدينة الجماد » حيث تمتلىء الشوارع بالسيارات الآلية المتحركة بجهاز التحكم البعيد « الريموت كونترول » والانسان الآلي ويصبح وجود البشر على وجه الطريق بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار...

لذلك تحول الانسان من فرد متحرك نشط بالشارع الى تحفة أثرية ثمينة بالمكتب او المنزل يضغط على الازرار لكي يمارس حياته اليومية كالمريض الذي يعيش داخل جهاز صناعي في غرفة العناية المركزة ترصد لوحة الكمبيوتر نبضات قلبه وذبذبات دماغه وعضلاته وقد توفرت قريبا في سوق الاطراف الصناعية قطع الغيار الاخرى للانسان كقرنية العين والقلب الصناعي والكلية المزروعة واجزاء « التنفس » المصنوعة من المطاط القابل للمد الحراري...

ثم ماذا بعد ؟

ووقفة اخيرة امام الخبر الذي تناقلته الصحف عن الرجل البالغ من العمر واحدا وخمسين عاما ويدعى لويس بونسيو في سان فرانسيسكو احد اربعة رجال يعيشون بقلب صناعي وكلية مزروعة ومفاصل حديدية ونريد هنا ان نتساءل بأي جهاز للحالة النفسية سوف يستمر هؤلاء الرجال في الحياة خاصة وأنه لا توجد قطع غيار حتى الآن لهذا الجزء المتبقي من أصل الأجزاء... وهذا اكبر التحديات.

وثم ماذا بعد ؟ ان التفكير في هذه العبارة يمثل المدخل للاجابة على التساؤلات المطروحة في صدر هذا المقال.

المساير ... والمغاير

يقولون ان التباكي على الماضي نوع من الترويح النفسي ونزع فتيلة الاحباط ويقال ان الافراط في ذكر الماضي وراء العجز في الحاضر ويقال ان دوامة العيش في أحضان الماضي عزاء المسنين في المستقبل. والواقع ان البكاء على الماضي اتكاءة على حائط المبكي في جحيم الحاضر وهو حصيلة كل هذه الأقاويل مجتمعة. وكل يبكي على ليلاه.

وفي الحالة الاولى يكون التباكي على الماضي ضربا من التنفيس والتفريغ العقلي والخروج بلا جراح من قنبلة موقوتة تسابق عقارب الزمن في الانفجار حيث يجد الفرد السلوى والعزاء ويستشعر العاجز ألم الحاضر الذي يعاني منه في الحصول على غنيمة او الخروج بلا هزيمة نتيجة تغيرات العصر. فلو كان الزمن كما كان في الماضي والايام كما مرت بالأمس لما حدث ما حدث من قصور في الاداء. وتقصير في الوفاء وفشل في الأهداف وان المصائب نتاج قسوة الزمان وليست محصلة عجز الانسان في القول والفعل ويكون العزاء ان الانسان يسقط مصائبه على الزمن ويصبح الموقف الشخصي المساير معلقا على مشجب القدر العام المغاير وفي هذا اكبر العزاء للنفس في لحظات الضعف.

وفي الحالة الثانية نجد الافراط في مدح الماضي ادانة ضمنية للحاضر وتجسيدا لسلبياته الوقتية دون ايجابياته الثابتة والواقع ان الفرد في حالة قناعة

في الحالتين وعلى حق بقدر ما ندرك ان الزمن لا يتوقف للاستدراك ولا يرجع للمساءلة ولا يعلق على صالة عرض للتأمل فيه بحيث نقارن بين الماضي والحاضر او تستبطن اشتات الحاضر والمستقبل. فالمتأمل او المستبطن يريد ان يثبت الزمن بالمسمار على جدران الواقع ليقول هكذا اصبح وهكذا كان، وهذا مستحيل — وبين الواقع او الممكن والمستحيل مساحة واسعة للتأمل والاستبطان وهذه الصفات هي من أكثر مستلزمات النضج. فكلما تقدم العمر بالانسان كلما شعر بالرغبة او تملكه تماما الاحساس القهري بالتأني في الحكم والصبر في الحوار، والاستشراف للمستقبل وهذا ضد طبيعة الحركة الدائبة غير المستقرة لأكثر انماط البشر في حياتهم اللاهثة قبل كسوف القمر او حلول سنوات العد التنازلي.

وفي الحالة الثالثة تكون دوامة العيش في الماضي عزاء المسنين حيث تضعف الذاكرة على استيعاب الاحداث القريبة المستجدة وتضعف القدرات العقلية على احتواء المتغيرات المستحدثة وتضعف الخطى على ملاحقة خطوات العصر المتحركة بسرعة اسطورية فيتقوقع الفرد داخل صدفة محارية من صنع ذاته تحكمها قدراته المحدودة. وادراكه المنهك وخطاه العاجزة وهذا لا يعني فقدان القدرة على معايشة الواقع تماما ولكنه يستلزم التعامل معه بحذر وفي حدود ضيقة. وعلينا ان ندرك ان طبيعة الفرد في هذه المرحلة تتطلب وجود نوع من العزاء في معركة الصراع من اجل البقاء وهذه سنة الحياة.

نوع التجربة

وتحضرني في هذه المناسبة تجربة متمثلة في واقع اليوم سوف تصبح واقعا معاشا في رحاب الغد عندما كنت ابحث عن بعض الاغنيات السودانية في احد المحال التجارية وعرض علي البائع مجموعة أشرطة مسجلة للمطربين، وقد طالت غربتي عن الوطن بعدد سنوات هي نصف عمر اكثر المطربين « الواعدين » في الساحة اليوم، وأسرعت بنظري في قائمة الاسماء ابحث عن وجه اتعرف عليه للتعامل معه في اطار العمر

والتجربة والمزاج. ووجدت انني اجهل معظم الاسماء وأدركت ان غيابي عن الساحة السودانية قد اقتطع من عمري بضع سنوات هي في الواقع اشبه بالحياة في كوكب آخر. وشعر البائع بحيرتي وايقظني من غفوة الحرج بأن أعطاني شريطا لأحد المطربين وقلت له: لا اعرف هذا الطـرب وفجأة أفلت الزمام من يد الشخص الواقف معي يقلب في الاسماء. وحطمت المفاجأة أعصابه وفاجأني : ألا تعرف هذا المطرب وأنت تبحث في سجل الاغاني السودانية، فقلت في خجل وحياء : ربما تشابهت عليّ الاسماء فأنا أبحث عن المطرب فلان ــ فقال لي : لن تجد هذا فقد انتهى زمانه... وقفزت الى ذهني تجربة المساير والمغاير.

تذكرت في تلك اللحظة تجربة مماثلة مرت بي في الماضي عندما كنت في موقف الشخص الثاني في الشاطىء الآخر من بحر الحياة قبل عشرين عاما عندما استضاف التلفزيون السوداني احد شيوخ الاغنية السودانية الاصيلة الاستاذ المرحوم ابراهيم العبادي في ندوة خاصة وسأله عن رأيه في أحد الشعراء الشباب المشهورين في ذلك الوقت فأجاب : انني لم أسمع به. وكان الرد صاعقة سقطت على رؤوس الحاضرين من جيل الشباب. وظننت ان العبادي يريد ان يعبر بطريقة دبلوماسية عن رأيه في الشاعر ــ فالتقينا بعد أيام في أحد اجتماعات لجنة النصوص والأغاني بالاذاعة السودانية وكنا عضوين فيها، وعرضت علينا قصيدة للشاعر. فاعجبت العبادي وأثنى على الشاعر فقلت له : يا أستاذنا... هذا هو الشاعر الذي قلت انك لا تعرفه فقال لي : يشهد الله انني لم اسمع به قبل اليوم. وها أنذا اقول لك انني اعجبت به... ولم اتجاوز الحقيقة ومن قال لا أعرف فقد أفتى. وهو مولود لزمان غير زماني فأكبرت ثورة الرجل المظلوم. وحنكة المسن الطاعن. وصراحة العاجز العاقل. فقد كان في موقف لا يحسد عليه يصور في صدق قدر المساير في الزمن المغاير. فالى اي حد يستطيع الفرد فينا ان يساير زمانه عندما يغاير افكاره.
ويصدق القول فيه.

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو ذا الزمان بكل قبح   ولو نطق الزمان لنا هجانا.

فجوة الاجيال

يبدو من الطبيعي في هذه الدوامة ان نستدرك ان الحياة سلسلة من الاحداث متصلة الحلقات، ولعل كل جيل يمثل حلقة من حلقات هذه السلسلة. ومن خلال هذا التواتر الديناميكي تكتسب الحياة شكل التسلسل في هذا الكون. وما دام كل جيل يمثل حلقة واحدة فلا بد ان يكون هناك فواصل بين هذه الحلقات منفصلة ومتصلة لكي تتماسك بقوة ونقاط التماس لكي تتلاحم بشدة. وهذا التماسك والتلاحم يحدثان نوعا من الاحتكاك بين شرائح المجتمع او أطراف الحلقات. يثير شرارة الوصلة العصبية بين قدرة وتفكير وتفاعل جيل وآخر. ولا بد ان يكون هناك تفاوت ملموس وأثر محسوس بين هذه القدرات ينعكس في شكل الاستجابة للاحداث الثابتة والمتغيرة فالجيل المعاصر صاحب القضية يعيش حياته بدون خلفية ذهنية سابقة لنماذج الحياة او صورة « البوم » في وجوده اليومي لكي يقارن ويمايز بين شكل وآخر وهو بهذا يعيش حياته على علاتها مستمتعا بها الى اقصى درجة لأنه لم يعرف البديل الآخر، راضيا بها الى ابعد الحدود لأنه لم يعرف النموذج القديم متحمسا لها أشد الحماس لانه لا يستطيع ان يفرط فيها مدافعا عنها حتى الموت لأنها تمثل عنده صمام الامان لوجوده الحقيقي ورمزه الشخصي في اطار جيله العام.

ولكن الجيل السابق يمثل الجانب الآخر من المسألة. فهو يمتلك النماذج القديمة التي قطع بها شوط الحياة الطويل القديم الجديد حتى هذه المرحلة ولذلك تصبح نظرته مليئة بالتأمل حافلة بالمقارنة والمفاضلة مترعة بالحس النقدي والنظرة التشريحية للاحداث، ولديه عدة صور خاصة وعامة عاشها في الماضي واكتسبت خصوصية مفرطة وحساسة ومقدسة الى درجة ان اي نموذج آخر يخرج من اطار هذه النظرة يمثل عنده نشاطا انسانيا

بعيدا عن المألوف وخروجا على المعروف وفي المقابل فهو لا يستمتع بالحياة المعاصرة الا بالقدر الذي يحفظ له الحد الادنى من الاتفاق مع مبادىء حياته السابقة ولا يرضى بها تمام الرضى لأنها ليست صورة طبق الأصل للنموذج المطبوع في ذهنه ولا يتحمس للدفاع عنها الا في حدود قناعة الناقد المطبوع على الاصل المتمسك بالمضمون على حساب الشكل ولذلك قد يمتد رفضه لاشكال الحياة من ملبس ومأكل ومشرب الى رفضه لمضمون الحياة ذاتها. وقد يدفعه هذا الموقف المتعنت الى رفض الشكل جملة وتفصيلا ومن هنا يبدأ مسلسل البكاء على الماضي لأن الحاضر أصبح مصدر احباط والتعامل معه أصبح قضية وجود وصراع بقاء.

نماذج معاصرة

فاذا وضعنا هذه الصيغة من الفهم بطبيعة المساير والمغاير في صراع الاجيال، فنستطيع ان نكون اكثر موضوعية في وضعها في اطار عام يبتعد عن خصوصية النظرة بين جيل وآخر، ويبدو هذا اكثر وضوحا في قضية الشعر. لقد بدأ الصراع بين الجيل القديم والحديث بصفة عامة ولكل قاعدة شواذ كما يقول الكاتب العربي الكبير حسين مروة في كتابه « قضايا أدبية »... بدأ الأختلاف حول الشكل بين القصيدة العمودية أو القصيدة الحرة... قصيدة التفعيلة، وامتد الاختلاف الى المضمون حتى وصل مرحلة الرفض في المخاطبة والقطيعة الادبية بين الشعر الحر والشعر التقليدي، ثم وصل مرحلة صراع البقاء في عالم الشعر بين الشعر الحديث والشعر القديم وأصبحت قضية الحداثة والتجديد أحد أشكال الصراع الحاد بين جيلين وأصبح موقف الجيل القديم من الشعر الحديث موقف عداء تقليدي في كل اروقة الأدب وبالمقابل بات موقف الجيل الجديد من الشعر القديم موقف رفض مباشر حتى في حالات يتفق الطرفان في المضمون ويكون الاختلاف في الشكل الخارجي للقصيدة.

اذن فالقضية ليست فقط خط المساير في الزمن المغاير حتى بعد ان

انقلب بعض شعراء التفعيلة المجددين في الماضي الى الشعر القديم بعد عمر طويل من الممارسة ولم يتغير موقف الشعراء المعاصرين لمسايرة النمط القديم حتى وان كان المضمون جديدا ومعاصرا ويخدم قضايا فكرية مستجدة لانهم يتحركون من موقف ثابت تمليه ارادة الشباب وفورة العطاء وملكية الزمن المعاصر. وكذلك الحال في الغناء والموسيقى والنحت والتمثيل، وفي كل يوم يبدو البون شاسعا بين جيل وآخر في شتى مجالات الحياة. وكل يقف على منصة زمانه يخاطب عقول معاصريه من منظور مغاير، وهو محق لانه يعبر عن تجاربه الحقيقية التي عاشها وافكاره الشخصية التي تمرس فيها. فتعلق الجيل الحديث بالحياة اشبه بتعلق المسافر بأول مركبة تصل به الى محطته لأنه لا يعرف اخرى، بينما يمثل موقف الجيل القديم انتظار المسافر لمركبة اخرى لأنه يبحث عن الافضل من سابق تجربة مخزونة في رصيد الزمن الماضي وشتان بين الموقفين وعندما يصل الامر هذه المرحلة يكون التباكي على الماضي عزاء المسنين خاصة اذا قلّ القدر المتبقي من السنوات الرصيد لأن الحياة لا يمكن ان تتوقف والكون لا يمكن ان يتغير وهذا قدر المساير في الزمن المغاير ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

بين لذة الامتناع... ومعاناة الاقلاع

هذه رؤية خاصة من زاوية شخصية الى قضية عامة في إطار كبير واذا كان لهذه الرؤية أهمية فهي مكتسبة من كونها صادرة عن تصور فرد يعمل في اطار مجموعة في حقل الصحة النفسية تتأثر وتؤثر في المعطيات المستجدة في وضع الحركة المستمرة لتحرير الانسان من أمراض العصر الحديث الممثلة في الخوف الدائم من المستقبل والتوتر القاتل في خطى الحياة وفقدان القدرة على حدوث توازن نفسي بين رغبة الفرد وطموح الجماعة أو حب الخلاص من ضغوط العمل ولذلك أستطيع أن أؤكد ان

فالتدخين يمثل احدى الرغبات الخاصة، وتحقيق هذه الرغبة يعني الاصطدام برغبة الجماعة في الامتناع عنه، ورؤيتي هذه تتمثل في نظرة شخصية للتدخين بين الامتناع والاقلاع وهي أشبه برحلة بين شطان بحر طويل من تجربة المدخنين.

وقد يكتسب حديثي مصداقيته من انني لم أجرب التدخين في حياتي اطلاقا لا من باب الفضول أو حب التجربة أو حب الانخراط في مزاج الجماعة أو حب الخلاص من ضغوط العمل وذلك لا أستطيع أن أؤكد ان الوصول الى هذه الغايات لا يستوجب اللجوء الى التدخين، ولا يعني بالضرورة التعامل مع السيجارة كأحد المفاتيح السحرية للدهاليز المغلقة امام الانسان لدخول عالم اللذة والمتعة والاسترخاء كما تصوره دور

الاعلام والترويج للدخان ورغم عملنا كأطباء نفسانيين، فاننا كأحد افراد المجتمع قد نكون ضحية سيكلوجية الاعلان التي تربط بين متعة التدخين وخافضات التوتر وندرك سلفا ان ارتباط الاولى بالثانية هو ارتباط مفتعل وخلط ذهني وقول مكرور ومعادلة مغلوطة.

انني من خلال عملي في مجال الصحة النفسية خلال عشرين عاما دون الاستعانة بسيجارة واحدة، وجدت نفسي اكثر قدرة على مواجهة مشاكل الحياة وأكثر جرأة في الحديث عن أضرار التدخين البدنية والنفسية دون حرج الوقوع في الاجابة عن السؤال التقليدي: ولماذا تدخن أنت ؟

ودون أن أشعر أن المريض الذي يلقي عليّ هذه الاسئلة يتطلع الى خريطة وجهي يبحث عن الاجابة الخفية في تضاريس أحاديثي المسطحة أو المغلّفة وهو في صمت يقول مع الشاعر...

لا تنه عن خلق وتأت بمثله عار عليك اذا فعلت ذميم

وفي حالة الامتناع تكفي نفسك مؤونة البحث عن مكان للتدخين في حضور الآخرين خاصة في قاعات المحاضرات العلمية وصالات العرض الترفيهية أو داخل الطائرة أو القطار أو وسائل النقل المختلفة وعليك ان تختار بين البقاء تحت مظلة الانفعال والتوتر الداخلي حتى النهاية وهي فترة اقلاع مؤقتة كافية لأن ترمي بالفرد في شباك الاحباط ثم المزيد من الحنين الى التدخين والعودة الى داخل الحلقة المفرغة.

وفي حالة الامتناع ترى نفسك حرا من عبادة العادة، طليقا من أسر القيد الذي صنعته بيدك فلا تمد يدك الى جمر الدخان كراهة أو طواعية في أشد حالات الجوع أو أقصى درجات الارهاق، فيكون مزاجك ضحية التقلبات وتكون المعدة بؤرة الاوجاع والتقرحات.

وفي حالة الامتناع لذة الاستمتاع بهدوء الاعصاب وانتظام دقات القلب والابتعاد عن ارتفاع ضغط الدم وتصلب الشرايين والسكتة القلبية والخوف القاتل من مرض العصر ــ السرطان ــ الحقيقة الماثلة في حجم جبل

الجليد العائم في سطح الماء لا تنكره العين ولا تخطئه الرؤية. ان سرطان الرئة الذي اصبح يمشي بأقدامه في حارة المدخنين وظل يطرق الابواب ليلا ونهارا يلتقط ارواح الاحياء من مقبرة الموتى في مراكز المدخنين يؤكد لنا ان الفارق بين ضعف الثقة وقوة الارادة هو الفارق بين الوقوف على حد السكين أو المشي على لهب الجمر.

وفي معاناة الاقلاع من التدخين تبدأ رحلة العذاب من مجرد لحظة التفكير في الامتناع فتتحول المتعة الى معاناة واللذة الى ألم والجنة الى جحيم وغالبا ما تكون بداية الاقلاع نهاية مرض طويل في القلب أو الصدر أو المعدة فتصبح المتعة مرضا وادمانا... ومحاولة الاقلاع عذابا وحرمانا بالمسكنات والمهدئات والدخول في دوامة العلاج البدني والنفسي والاجتماعي فلا يفقد الانسان قدرا كبيرا من العافية فقط بل حظا وافرا من التقدير الاجتماعي في بعض الحالات نتيجة فقدان القدرة على الامتناع المطلق أو التوقف بالتدريج أو التردد بين الانقطاع والعودة.

ومن هذه الزاوية يتضح أن قضية الامتناع أقل ضررا وتكلفة من محاولة الاقلاع لأن الاولى هي محاولة الدخول في دنيا الفضيلة والثانية محنة العيش في احضان الرذيلة... والرذيلة لا تتجزأ في المبدأ ولا توزن بالحجم والكم لأن معظم النار من مستصغر الشرر والخطيئة تبدأ بخطوة في الاتجاه المضاد للقيم الجميلة ويتفرغ منها السير في شتى دروب المسكرات والمخدرات والامراض الاجتماعية ولا يعفينا من المسؤولية أن المجتمع يتغاضى أو يغض الطرف عن التدخين لأن هناك شرور أشد خطرا وأعظم أثرا في المجتمع ولا يقلل من خطر المشكلة أن المؤسسات الحكومية أو الشركات المعنية قد تصورت خلو طرفها من المسؤولية لمجرد أنها وضعت عبارة التحذير المفرطة « اللامبالاة » لتقول (ان التدخين ضار بالصحة ويسبب السرطان) حتى ان الانسان من فرط ادمانه للتدخين وتعوده على العبارة واستهانته بالتحذير اصبح لا يتعامل مع التحذير إلا بقدر ما ينظر الى العلبة ليتأكد من نوعية الدخان الموجود فيها.

ان معاناة الاقلاع ورحلة العذاب التي يقضيها الفرد، لا يقدر بثمن في ظل المعاناة التي يمر بها وقد انتهت لذة المتعة التي قضاها في أحضان التدخين وأصبح يتذوق في حرارة تحرق الشفتين طعم السيجارة التي كانت مصدر الراحة النفسية والمتعة الاجتماعية وهي تتحرك في فمه كالبندول المتأرجح لشد الانظار بالخارج وتحرق الاحشاء بالداخل وكأنها تقول للناظرين اليه ما قاله الشاعر...

لا يعرف الشوق الا من يكايده   ولا الصبابة الا من يعانيها

هذه هي ابعاد الرؤية الخاصة على امتداد عمر طويل ومن خلال تجربة عشرين عاما في مجال الصحة النفسية وجدت فيها ان لذة الامتناع عن التدخين تمكن منذ البداية من حياة خالية من التوتر والبحث عن ابواب بديلة للدخول الى الحياة من بابها الطبيعي بينما لاحظت من تجربتي مع الآخرين في معاناة الاقلاع رحلة طويلة تمتد منذ نقطة البداية والنهاية فاذا كان الامتناع يمثل قمة الفضائل فان محاولة الاقلاع تمثل اضعف الايمان وهذه دعوة مخلصة للامتناع عن التدخين لمن لم يحاول أبدا، والاقلاع عن التدخين لمن بدأ المشوار في رحلة الألف ميل.

وهي رؤية خاصة متجردة عن مأساة التدخين تغطي المساحة الواسعة بين لذة الامتناع ومعاناة الاقلاع.

سحر الكلمة

في البدء كانت الكلمة... فالكلمة اصل ادوات اللغة... واللغة وسيلة التخاطب والتخاطب قناة الاتصال... والاتصال والتواصل اجزاء مكعبات في تركيبة التصميم المعماري لهيكل الحياة... فعندما ينقطع الاتصال تتفكك هذه المكعبات الى اجزاء لا تعطي معنى للشكل ولا تحمل مفهوما للناس... ويصبح الانسان جزيرة معزولة عن محيط مجتمعة ويصبح المجتمع خلايا مبعثرة في الجسد الميت، ولذلك تقوم فسيولوجيا جسم الانسان بخلق قنوات اتصال من خلال اداء الوظائف العضوية في الجسم.

واستحداث لغة خاصة من النبضات العصبية والافرازات الهرمونية كما تقوم تركيبة المجتمع باحداث بيروقراطية خاصة من شكل هرمي وظيفي أو شكل اداري تنظيمي يربط اجهزة المجتمع المختلفة ببعض، بلغة تخاطب تسمى « التخطيط » كما تقوم الاجهزة الالكترونية باستحداث لغة خاصة في شكل اشارات كهربائية او موجات كهرومغناطيسية في الكمبيوتر لتكون وسيلة اتصال وتخضع كل هذه الأساليب المختلفة لمفهوم الكلمة الواحدة... الكلمة المقروءة او المسموعة او المرئية.

انواع الكلمة

فالكتابة تقوم على جزئيات الكلمة لتصنع من الكل اللغة... ومن

الجزئيات يتكون الكل... والكلمة رمز لمدلول حسي او معنوي واللغة هي التعبير المادي عن هذه المدركات الحسية باستعمال الكلمة فلذلك اصبحت الكتابة من أهم وسائل الاتصال فقد قال تعالى في أول سورة نزلت « اقرأ باسم ربك الذي خلق » للتأكيد على ان في البدء كانت الكلمة بالقراءة مقرونة بالكلمة ومتصلة بالكتابة في محكم التنزيل « الذي علم بالقلم » والعلم حصيلة كتابة الكلمة واحد روافد التواصل.

والكلمة المسموعة هي ذبذبات هوائية تتحول الى طاقة كهربائية تصل الى طبلة الأذن فتتحول الى قوة كهروميكانيكية تحرك عظيمات الأذن الوسطى وتصل في شكل موجات مغناطيسية الى عصب السمع ثم الى نبضات عصبية تختزن الكلمة في مركز السمع في المخ حيث تتحول الى مادة مختزنة في ارشيف الذاكرة قابلة للاستدعاء والاسترجاع لدى الحاجة ولدى التأثير عند الانفعال وهكذا تتحول الكلمة المسموعة الى طاقة نفسية في عدة مراحلة فسيولوجية لتحدث سحر الكلمة المسموعة ولذلك جاء في اكثر الآيات القرآنية تقديم ذكر السمع على البصر في قوله تعالى « والسمع والبصر » رغم اننا في حياتنا اليومية نتصور اننا بدون نعمة البصر نفقد متعة الحياة وننسى اننا في أشد حالات الحرمان الحسي نستطيع ان نعوض فقدان حاسة بأخرى. فالأعمى يستطيع ان يعوض بحاسة اللمس على طريقة « بريل » في تعليم المكفوفين القراءة والكتابة بينما نجد ان فقدان حاسة السمع كثيرا ما يؤثر في القدرة على الكلام وعلاقة الصمم بالبكم ظاهرة ملحوظة لعامة الناس للارتباط الوثيق بين قوة السمع وسلامة النطق او ضعف السمع واضطرابات الكلام فالتعلم بالمثير والاستجابة او التقليد والمحاكات يتم عن طريق الربط بين الكلمة المسموعة وحركة الشفاه او التدعيم بين السمع والنطق واكبر الدلائل تعودنا على بعض عيوب النطق الهجائية والاستبدالية بالتعلم الشرطي بتقليد الآخرين.

والكلمة المرئية اقتران بين الصوت والصورة فالصور المتحركة مثل الافلام الصامتة نتجاوب معها كاننا نتابع حوارا دراميا في غياب الكلام الحركي.

مدلول الكلمة

يختلف مدلول الكلمة بظرف الزمان والمكان... فالكلمة قد تكتسب اهمية قصوى في وقت معين وزمن خاص وتفقد ذات الاهمية في وقت آخر وزمن مختلف ولذلك قيل « لكل مقام مقال » والكلمة قد تفقد معناها تماما عندما تخرج في غير موقعها فيقال « اذا كان الكلام من فضة فان السكوت من ذهب » والكلمة قد تتعلق بين القلب واللسان اذا تضارب الواقع بين الزمان والمكان فتموت كالزرع الذي يذبل من كثرة الماء فيقال « ما كل ما يعرف يقال » فمدلول الكلمة مرتبط بالزمان ارتباط توقيت التصويب بحركة الهدف ومرتبط بظرف المكان ارتباط فصول السنة بحركة دوران الارض يفسد بالتقديم والتأخير.

ومدلول الكلمة يختلف باختلاف او تناغم اسلوب القائل ونية المتلقي. فالمتحدث اللبق الذرب اللسان، يستطيع ان يعطي الكلمة شكلا مقبولا ووزنا معقولا في نظر السامع، ويمكن ان يسلب الكلمة ابسط درجات القدر المتوفر فيها من شفافية الوقع وقوة الدفع في نفسية المتلقي... والمستمع ذو الايجابية في التلقي والدافعية في الانطباع، يعطي الكلمة مساحة واسعة للحركة داخل وجدانه تتجاوز كل مراحل المقاومة المبدئية والتشكك الفضولي والرفض الغريزي للمثير الخارجي لتستقر في قاع النفس البشرية هادئة مطمئنة ولذلك قيل ان سر الديبلوماسية فن الكلام وحسن اسلام المرء خير الكلام والكلمة الطيبة صدقة وقال الشاعر زهير بن أبي سلمى « وان الحرب اولها كلام » فالدبلوماسي الناجح هو الذي اذا قال : « نعم » يعني « ربما » واذا قال : « ربما » يعني « لا » واذا قال : « لا » فقد سقط في مصيدة الفشل... أوليست البيانات الختامية في اللقاءات الرسمية وطاولة المفاوضات نوعا من استثمار فنون الكلام في عرف التعامل الدبلوماسي وطرح ظلال الكلمة بين اللون الأسود والأبيض، فلا « نعم هنيئة » ولا « لا مريحة »، لأن في الاولى تجاوزا مبتذلا للخلافات الواضحة والرؤى المغايرة امام كل العيون، وفي الثانية فجاجة في

اللفظ وغلظة في القول وقطع لكل طرق العودة الى نقطة البداية وهدم جسور العبور الى الطرق المتقاطعة، وهذه فلسفة الدبلوماسية في سياسة الباب المفتوح المغلق ومقولة من حس اسلام المرء خير الكلام تنم عن عظمة اثر الكلمة والابتعاد عن اسفاف المنطق.

العلاج بالكلمة

يقولون ان الكلمة سلاح ذو حدين شأن العقار الطبي في وصفة العلاج له فعالية الشفاء وفيه خطر الموت. ولذلك يوصف بجرعات محددة ولاعمار معينة وارشادات استعمال خاصة، وكذلك شأن الكلمة فلها قدر معلوم من الاثر وحظ وافر من الضرر والمضاعفات قصيرة المدى وطويلة الأمد... والمرء بأصغريه قلبه ولسانه ويقول الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم تبق الا صورة اللحم والعظم

واذا كان الانسان يتميز عن الحيوان باللسان الناطق، والفؤاد العاقل، فلذلك نقرأ ونسمع المناشدات للاطراف المتنازعة « بالاستماع الى صوت العقل وتحكيم الضمير » فنعطي صفة مادية « الاستماع » الى مدلول معنوي « العقل » فالعقل لا يتكلم بصوت والضمير لا يحكم بمطرقة القاضي، ولكنها مخاطبة الهاجس وحاسة الايحاء... اذن فالعلاج بالكلمة مقصود به اثر الايحاء الذي يزرع الطمأنينة في القلوب.

ان الذين يشاهدون افلام التدليس حول التحليل النفسي والتنويم المغناطيسي في لقطات اشبه بحركات مهرج السيرك يحيطون هذه الظواهر بقوى خفية خارجة عن حواس البشر. وقد ظلت لعنة الحاسة السادسة شبحا يطارد خيال المفكرين في طبيعة ظاهرة الايحاء... وتوارد الخواطر... وتناسق الارواح الى آخر الظواهر التي قد تستند على قاعدة عامة تعمد الى خفض درجة التوتر النفسي للفرد بحيث يكون قابلا للايحاء مستعدا للاستجابة باستقبال الكلمة المسموعة وفتح ابواب قلبه وعقله لتستقر في قاع النفس وتحدث الاثر المطلوب في تغيير وتبديل وتحوير مخاوفه

المرضية او اضطراباته النفسية على المدى البعيد وقد يستعين المعالج في بعض الحالات بالعقاقير الخافضة للتوتر للوصول الى حالة الاسترخاء، لأن المتوتر الاعصاب المنفعل لا يستجيب للايحاء « والقلوب اذا كلت عميت » وقد يستعين برتابة الموسيقى الهادئة الايقاع او رؤية البندول المتحرك المتأرجح لاحداث الاسترخاء حيث يبدأ عملية تخزين الكلمات في ارشيف التسجيلات، بحيث يسهل استدعاؤها بعد مرحلة العلاج ويحدث الشفاء في الحياة اليومية اللاحقة.

وفي مجال العلاج النفسي وحالات الاستشارة دون الاستعانة بكل هذه الاساليب يكون تبادل الحديث الودي الذي يمس شغاف القلوب ويعزف على وتر الأسى ليرتخي القوس العصي المشدود بالداخل وتجد الكلمات مستقرا في الاعماق وتنفتح كوة في الدهليز المظلم وتخرج موجات الدخان المنبعث من الحرائق المشتعلة بالداخل فيتنفس الصعداء وينزاح العبء الثقيل الجاثم على الصدر والقلب، وبالمقابل تتسرب كلمات الايحاء كقطرات الندى تبلل الوردة الذابلة فتزهو وتنتعش وتنشر اوراقها للضوء وتدخل الطمأنينة الى الذات مثلما يدخل الايمان الى القلوب.

ولذلك يصبح قدر الداعية الى الحق... حسن التوجه الموضوعي بالكلمة وكلمة البعث الواعي لدلالتها واستغلال سحرها في تعقل، فاما صارت شفاء من علة او أصبحت هدما لبناء او قتلا لنفس دون قصد او سبق اصرار في غياب الوعي وسوء الاختيار وكذلك يكون قدر الطبيب المعالج ان يدرك ان سحر الكلمة قد يكون اشد تأثيرا من وصف الدواء فالمريض الذي يخرج نادما على الوقت الذي ضاع دون ان يفضي بما في دخيلته او الزمن الذي انقضى دون استثماره في شرح حالته وان الكلمات التي قيلت لم تصل الى اعماق نفسيته فلن ينفعه اي عقار طبي حتى لو توافرت النية في استعماله وحتى لو كان على قدر ضئيل من البصيرة.

واخيرا فان سحر الكلمة يتجاوز واجب الداعية ومسؤولية الطبيب الى حق الافراد والجماعات... فالتأثير والتاثر ليسا قاصرين على المعالجة...

ففي حياتنا اليومية سوف تظل المشورة والنصيحة عائد البضاعة الرائجة او حصاد التجارة الكاسدة في سوق المعاملات الانسانية حسب القدرة على فن التعامل مع سحر الكلمة...

خاتمة الكلمة

طيلة العرض ومن صور الاعجاز في القرآن نزول الوحي فعندما هبط جبريل بالوحي لم يكن ذلك هبوطا ماديا يرى بالعين المجردة ولم يتكلم بالكلمة المقروءة المخطوطة او المسموعة المسجلة او المرئية المحسوسة بل كان اشد وقعا واقوى صدى من قدرة الحواس الانسانية وظل الفارق بين الرؤية والحلم فارقا في العتبة الحسية بين الشعور واللاشعور او بين الشيء الذي نراه ولا نصدقه وبين الآخر الذي لا نراه ولكننا نستوثق من وجوده خارج حواسنا وجودا ميتافيزيقيا خارج دائرة الادراك المادي ولكنه ايمان يقيني بثبوت ذلك الحدث ولذلك كان للرؤية اثر على النفس يختلف عن الاثر الملموس للحقيقة المادية في الواقع الضبابي الرؤية... فالاشياء التي تتحرك بفعل السحر دون قوة مرئية قابلة للصدق والكذب ولكن احساسنا الداخلي او الهاجس النفسي بحدوث شيء لا يوجب تكذيبه الا حدوث النقيض له...

وخير الدعاء ما قيل فيه « اللهم اجعلنا ممن يسمعون القول فيتبعون احسنه »... والاستماع فيه الانصياع الجبري لسحر الكلمة الطيبة التي يبقى جذعها ثابتا في الارض وفروعها ممتدة في السماء، وفي الحديث « من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه » اي الامتناع عن سماع الباطل والاتباع في الاصغاء لصوت الحق وفي الحديث الشريف « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا او ليصمت » فلان مدلول الكلمة ينطوي على خطر كبير فاذا كانت كلمة خير « فلا خير فيها ان لم نقلها » والساكت عن الحق شيطان اخرس وان كانت كلمة شر فالصوم عن الكلام فيه فضيلة لان خبيث الكلام ما حاك في صدر المرء وخاف ان يطلع عليه الناس والله عليم بذات الصدور.

والكلمة هي الشرارة الاولى في نار الحرب فهي لا تشتعل في فراغ وفي حالة الدول عندما يتوقف الحوار تنطلق البندقية وفي حالة الافراد عندما ينقطع الكلام يقع الصدام.

لماذا يحدث ذلك؟
إنه سحر الكلمة.

« النفس المطمئنة »

لقد ورث الطب النفسي منذ ولادته قبيل قرن من الزمان تركة مثقلة من الخلافات الفكرية بين مدارس علم النفس النظرية نتيجة افتقارها الى قاعدة علمية صلبة من جهة وعلماء النفس ورجال الدين من جهة اخرى نتيجة شطط اتباع فرويد في توسيع منطقة الظل في الشعور واللاشعور والعقل الباطن ومفهوم الروح والنفس من جهة اخرى.

ولذلك وجد الطب النفسي نفسه وسط معركة مفروضة عليه دون ان يكون طرفا فيها لان اختلافات المدارس الفكرية في علم النفس كانت اصلا وليدة خروج علم النفس من صلب الفلسفة واختلافات علماء الدين كانت في النظرة الفلسفية للحياة والوجود والوعي واللاوعي بينما تتجه رؤية الطب النفسي كأحد فروع الطب البشري الى البحث في الكائن الحي عن الأسس البيولوجية والكيميائية والفسيولوجية للأمراض النفسية والعقلية عامة وتتعامل مع الانسان كنفس وجسد وتنظر الى النفس نظرة مختلفة غير الروح في قوله تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا » الاسراء ٨٥، بينما يرون أن النفس مجموعة وظائف فسيولوجية في القشرة او لحاء المخ تخضع للدراسة والتحليل ويؤكدون أن اعادة التوازن البيولوجي للانسان تتم بتصحيح تركيبة خواص مواد الجسم بواسطة العقاقير الطبية ووسائل علاج اخرى تضع في اعتبارها القدرات الخاصة داخل الانسان كالايمان والثقة بالنفس وقوة الارادة وقابلية الايحاء

في الاستجابة للعلاج النفسي في قوله تعالى « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص في الاموال والانفس والثمرات » صدق الله العظيم.

وجوه الاختلاف:

لقد تعرض الطب النفسي كأحد العلوم الانسانية الحديثة للعدوان التحولي الموجه في الاصل الى اختلافات رجال الدين مع علماء النفس ويجب التأكيد على أن علم النفس ليس مرادفا للطب النفسي وإن كان الطب النفسي يعني بالضرورة الالمام بحقائق علم النفس. ولم تكن المواجهة الاولى صادرة من رجال الدين فقط وانما خرجت من صفوف الاطباء النفسانيين انفسهم نتيجة اختلاف المدارس الفكرية فيما بعد... فبعد ان تخطى مرحلة العصور الوسطى المظلمة حيث كان المرضى يحرقون في الساحات العامة للتخلص من الروح الشريرة ويضربون بالسياط ويتعرضون لشتى انواع التعذيب، انقشع ظلام الجهل مع طلوع فجر عهد جديد على يد علماء امثال « بيينل » في فرنسا و« يتوك » في انجلترا و« دكشي » في امريكا، وبرزت النظرة الانسانية في علاج المرضى النفسيين داخل المستشفيات الكبيرة والمصحات العقلية. ثم جاءت المواجهة الثانية على يد الاطباء النفسانيين وبعض العلماء المعروفين امثال « ساس وهوفمان » في امريكا « ولانج » في انجلترا والذين ينادون بعدم وجود ما يسمى « بالمرض النفسي »، ويعتقدون ان هذه التسمية من صنع المجتمع وهي محاولة عزل يقوم بها الجماعة للحجر على حرية الفرد في السلوك والتفكير، وان تصنيف الاطباء للناس من المرضى اقرب الى القوانين والنظم الاجتماعية التي تحجر على الفرد بادانة خروجه على المعايير الاجتماعية دون محاولة فهم دوافع السلوك غير السوي في نظر الجماعة والذي يعبر عن حالة شخصية للفرد يمكن أن تكون أي شيء، دون أن نطلق عليها المرض العقلي وظلت هذه النظرة وميض نار يوشك ان يكون له ضرام اندلع في الحرب بين الشرق والغرب... وقد تبلورت هذه المواجهة الثالثة عندما تصاعد صراع العملاقين في ساحة العلم والايمان فقامت ثورة عقائدية جديدة بين العلماء الامريكان والروس حول ازمة المنشقين الروس

الذين بدأوا الهجرة الى امريكا وأوروبا طلبا للحرية من قبضة الايدلوجية الشيوعية على حد تعبيرهم وقيل ان موسكو تعاقبهم على هذه الافكار المناهضة وتوصفهم بالجنون لتزج بهم في السجون والمصحات العقلية تحت مظلة المرض العقلي وقد اثارت هذه القضية نقاشا واسعا أدى الى دعوة بعض علماء غرب اوروبا لطرح القضية على مؤتمر الاتحاد العالمي للأطباء النفسانيين في جنيف، وقد أحدثت المشكلة شرخا عميقا في صرح هذا الاتحاد وبدأت مرحلة « تسييس » المنظمة العلمية لخدمة أفكار عقائدية وهذه أحد الوجوه البارزة في النظرة الى الطب النفسي... البعد السياسي في الاطار العلمي وان المؤثرات الفكرية والنظرة العقائدية، تجعل الاسس العلمية في مرحلة التفاعل الكيمائي البطيء الذي يجب أن يتخذ مسارا علميا مجردا من الاهواء السياسية اذا اريد أن يصب في دائرة المعارف الانسانية لخدمة البشرية.

الجمعية الاسلامية:

لقد أثارت هذه الخواطر العلمية الدعوة الشخصية التي وصلتني من الجمعية العالمية الاسلامية للصحة النفسية في مدينة مصر بالقاهرة، والتي انشأت عام ١٩٨٤ برئاسة الزميل الاكبر الدكتور جمال أبو العزائم، رئيس الندوة الحالية للجمعية واستاذي الأسبق الدكتور طه بعشر نائب رئيس الاتحاد لمنطقة الشرق الاوسط كما وجهت فيه الدعوة لحضور المؤتمر الاول للجمعية العالمية الاسلامية للصحة النفسية والذي سينعقد في لاهور في باكستان هذا العام كما يتضمن دعوة شخصية للمشاركة في تحرير مجلة « النفس المطمئنة » مجلة الطب النفسي الاسلامي والخبر في حد ذاته ليس موضع التعليق بقدر ما يمثل بداية الحوار المفتوح بين جميع العلماء من رجال الدين المهتمين بشؤون الطب النفسي ومن رجال العلم في شتى المجالات الفكرية للبحث عن نقاط التقاء تمثل نواة العمل لسد الثغرات في البحث والتفكير في أسلوب علمي مشترك بين علماء النفس ورجال الدين يتجاوز مرحلة الادراك القاصر لمهام ووظيفة كل جانب...

وأن يكون في هذا اللقاء والدعوة الموجهة للأطباء المرموقين في حقل الطب النفسي منذ أكثر من ربع قرن في جمعية انشئت حديثا للتعبير عن وجهة النظر الجديدة في الشكوك القديمة القائمة حول بعض حقائق علم النفس بصفة خاصة كما تعمل على بناء الجسور المتصدعة بين المدارس الفكرية المختلفة في علم النفس ومثلما نجحت في توسيع معنى التحريم في الخمر والمخدرات تعمل على تضييق شقة الخلاف بين مفهوم النفس في ممارسة جميع النشاطات الانسانية.

وتجدر الاشارة هنا الى ضرورة المقارنة بين بعض الفتاوى لعلماء امثال الشيخ أبو الاعلى المودودي في كتاب (الاسلام اليوم) والعالم وحيد الدين خان في كتاب « الدين في مواجهة العلم » وبين وجهات نظر دينية معاصرة لعلماء امثال الدكتور حسين الشرقاوي في كتابه (نحو علم نفس اسلامي) حيث نلاحظ ضرورة دراسة الاختلافات بين مدارس علم النفس ذاته لكي نصل الى حقيقة الاختلاف بين علم النفس والدين اذا وجد في الاصول الفلسفية، ويجب أن نلاحظ ان العلاج النفسي والذي يعتمد على مدرستين مختلفتين كل الاختلاف هما المدرسة السلوكية والمدرسة التحليلية تحتل الاولى محور العلاج في المجتمع الاشتراكي وتمثل الثانية الاساس في العلاج في المجتمع الرأسمالي وهذا فارق نوعي وموضوعي.

لعل في وصول الطب النفسي مرحلة التشريح الفسيولوجي لمناطق المخ والذي أوضح ان النشاط العصبي والهرموني والكيمائي لخلايا المخ يمكن دراسته عن طريق التحليلات لسوائل الجسم والدم ورسم الدماغ الكهربائي حيث وضح ان هناك مناطق للذاكرة يمكن اثارتها كهربائيا، في قشرة لحاء المخ هذه البداية تمثل المدخل العلمي للخروج من دهاليز الفلسفة وما زالت الاكتشافات الحديثة في البحث عن الاسباب البيولوجية للمرض العقلي تتطور من عام الى آخر بصورة تدعو الى الثقة في الوصول الى حقائق جديدة في مجال الطب النفسي البشري.

ان الموضوعات المطروحة في صفحات مجلة « النفس المطمئنة » في

العدد الخامس في السنة الاولى تبشر بمستقبل علمي واعد لوجود حلول كثيرة لشتى العلل النفسية بأسلوب عصري في اطار العلم والايمان وتوضح ان الخلافات انعكاس للقناعات المختلفة في الممارسة الشخصية والنظرة العقائدية والفلسفية التي تحكم عقل الطبيب النفسي او رجل الدين وان العلم الحقيقي لا يمكن ان يخرج ابدا من اطار الايمان الصحيح والله أعلم.

مرآة الوجه الآخر

ان لكل انسان مرآته الخاصة التي تعكس له صورة الحياة، ولكن قوة او ضعف هذه الانعكاسات لا تتوقف على سلامة سطح الزجاج العاكس فقط، وإنما على تأثير نوعية عدسة العين التي تتحكم في عكس الاشعاعات الضوئية الصادرة من المحيط الخارجي. وهذه ذات عيوب موروثة او عاهات مكتسبة من البيئة بالتعلم والتدريب، بجانب التكوين النفسي بالداخل الشبيه بشكل العدسة المحدودبة او المُقعَّره فأما ان يقع الضوء سليما في داخل شبكة العين ويعطي انطباعا حقيقيا للصورة الخارجية واما ان يتكسر فيقع بعيدا الى الخلف أو كثيرا للامام فيكون من علامات مرض قصر أو طول النظر... وليس هذا الوصف مرادفا بالضرورة للتعبير المجازي عن بعد النظر للاستدلال على عمق التفكير وقوة الاستبصار او قصر النظر للتعبير عن ضيق الافق وسطحية النظرة التي لا ترى ابعد من أرنبة الانف.

اذن فالمرآة الخاصة وعدسة العين الخارجية والتكوين النفسي الداخلي تمثل بعض عناصر رؤية الانسان للأمور وما بين النظرة في المرآة الخاصة والتعامل مع الحدث الماثل يتحرك الفرد بين النرجسية التلقائية التي لا تتعدى غريزة الاشباع برؤية النفس في أروع صورها ولذة الامتاع بتحقيق الذات في اجمل أطرها، وبين الوقفة التلقائية الواقعية التي تبحث عن عيب للاصلاح او خلل للترتيب، وخلال المسافة الزمنية القصيرة بين نرجسية الاشباع وواقعية الابداع، تتكون وتتشكل اهتمامات الفرد في حياته الخاصة

بشكل مباشر وحياته العامة بصورة غير مباشرة... والفرد لا يستطيع الفصل بين الخاص والعام في حياته الا من خلال قوة ارادة اسطورية وايمان خارق منقطع النظير يجعله قادرا على الاحتفاظ بدرجة من الاتزان النفسي لا يخلط فيها اوراق اللعبة في المساحة الضيقة المتاحة له للحركة في اطار غاية في الانضباط.

صراعات الحياة

على غير ما يعتقد الكثيرون فان الكثرة الغالبة من الناس تملك حظا وافرا من القدرة على التمييز بين ما يقع في البقعة العمياء في نظرها نتيجة خلل في المرآة الخاصة او عيب في عدسة العين، وتملك الاستعداد لتصحيح الخطأ بعدسة طبية مساعدة أو وقفة شخصية شجاعة مع النفس، ولكن ما يفتقده الكثيرون هو القدرة على التعامل مع الأحداث بدقة في توقيت الفعل ورد الفعل، ولذلك كثيرا ما يصبح الفرد ضحية الشعور بالذنب وعقاب الضمير بعد فوات الاوان، لأن الحكم لم يكن قاطعا في لحظته والتصرف لم يكن ملائما في ساعته لظروف خارجة عن الارادة وهذا بيت القصيد واحدى شعب الايمان والايمان ينبوع الحكمة في قوله تعالى (ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا). وأتصور أن بعض فوائد الخير في مفاتيح القدرة على التمتع بنعمة الجوارح في المرآة الخاصة والعدسة السليمة وانضباط التكوين النفسي الداخلي الذي يعطي المعنى المناسب والحجم الطبيعي للاشكال الخارجية بأبعادها الثلاثة ولا ضرر ولا ضرار... ان هذه المعطيات العلمية في اطار فلسفي ميسّر تقودنا الى رؤيتنا للحياة والآخرين وكيف نشكل من هذا المزيج موقفا معينا في الحياة... ان مرآتنا الخاصة التي تلتقط صور الواقع من خلال عدسة العين السليمة او المعطوبة تلقي بالأشياء في بؤرة المخ في احدى شرائح العقل وهي تخطىء أو تصيب الهدف اختلافا او اتفاقا مع طبيعة التكوين النفسي لشخصياتنا... فعيون الرضا لا يمكن ان تصيب في التعامل مع الأحداث... الا اذا تركنا في عملية الادراك هامشا لحركة التبديل والتحوير يتناسب وكل الاحتمالات في

حالة ردود الفعل المباشر، والا نكون قد ظلمنا الحقيقة المجردة وعيون السخط لا يمكن بالمقابل أن تكون قادرة على التحقيق والتدقيق الا اذا تعاملنا بالمثل في ظل الظروف المتناقضة... ان ردود فعلنا المنفعلة او استجابتنا المترنة هي في الواقع اعتراف ضمني بأننا في تعاملنا مع المواقف لا ننطلق من قناعات مسبقة فقط ولكننا نتأثر ايضا بالحالة النفسية التي تتحكم فينا لحظة الفعل.

إننا نعلم أن هناك ردود فعل لا ارادية تعمل في حياة الانسان لحمايته والدفاع عن حياته من خلال اندفاعه في حرب الارادة في شكل صراعات الحياة، واذا تعطلت ردود الفعل اللاارادية يصبح الانسان عرضة للهلاك والموت. فرد الفعل للخوف هو الهرب من موقع الخطر هروبا ماديا بالابتعاد عن محيط الدائرة أو نفسيا باللجوء الى وسائل نفس دفاعية تحول اذهاننا وتفكيرنا الى نشاطات اخرى تجعل الخطر بعيدا عن رؤيتنا وهامشيا في واقعنا المعاش... ولكن أكثر الناس قادر على أن يتمثل هذا الواقع الخطر ويتعايش فيه ويتكيف معه من خلال قوة الارادة التي تصنع له خوذة في حجم رأسه وسيفا في قوة ساعده بحيث يستطيع خوض حرب عادلة ومعركة تليق به وتتفق مع قناعاته وتتلاءم مع ظروفه. وهنا يتحقق نوع من الامتاع المادي والاشباع المعنوي يسمى بالسعادة وهي نسخة طبق الأصل من عبارة التوافق الاجتماعي وعندما يصل الانسان هذه الدرجة من النضج في الرؤية والسمو في المعاملة والقناعة في السلوك والرضا بالواقع يحدث التجانس في صراعات الحياة.

مرآة الآخرين

يقولون ان الحقيقة بنت التاريخ ولا بد أن يولدها الزمان، وهذا في حد ذاته يحمل شفاء للنفس من كل سقم وعزاء للمرء في كل مصيبة ولأن مرآتنا الخاصة وعدسات عيوننا قابلة للخطأ والصواب حسب زاوية الرؤية والتكوين النفسي فان خط الرجعة المتمثل في حتمية ولادة الحقيقة بشكل أو بآخر بصورة نسبية أو مطلقة في لحظة عاجلة أو آجلة يمثل صمام الأمان

لمن يضع في قائمة حساباته عامل الربح والخسارة في التعامل مع لغة الأرقام ولأن الحقيقة أحد الأرقام الثابتة في لوحة الحياة، مهما تغيرت الآلات الحاسبة والعقول الالكترونية، فاننا يجب ان ندرك المتغير الأول في هذه المعادلة وهو عامل الزمن... وهو العدد الأول في معركة الوصول الى قاعدة تحديد شكل وخواص وجه المرآة في أبعاد الرؤية واتجاه الهدف.

اننا لكي نكسب هذه المعركة علينا ان ننظر في مرآة الآخرين... ان وجوه الآخرين تحمل مرايا مشابهة أو متناقضة وتحمل عدسات عيون متحركة أو ثابتة وتحمل تركيبة نفسيات مبسطة أو معقدة وهذا الاختلاف في الشكل والتنوع في المضمون يعطينا بعدا ثالثا ورابعا يدخل في نطاق التجريد في المقارنة والتشبيه.

ان الانسان بقدر ما يظلم الآخرين كثيراً فهم يظلمونه أحيانا... وبقدر رغبته في الابتعاد عن دائرة الظلم عليه الاقتراب للنظر في مرآة وجوههم. فهي تعكس بدرجات متفاوتة من الصدق في التعبير... والمجاملة في التقدير... والغلو في التأثير... تعكس الأبعاد الخفية في رؤيته الذاتية وتجسد السطور غير المقروءة في صفحات كتابه الخاص المخطوط بأصابع هلامية ومنقوش بماء الذهب والذي يرى فيه وجهه بلا عيوب ويشاهد سلوكه بدون مآخذ، وعندما يلتفت الى مرآة الآخرين يرى البعد الثالث والجانب الخلفي الذي لا تعكسه المرآة المنصوبة أمام الوجه... ويرى خط الرجعة وطريق العودة واسعا ليسير الى الواقع وينظر في مرآة الوجه الآخر ليقول :

اذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لن تلقى الذي لا تعاتبه
اذا انت لم تشرب دواما على الأذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

الفصل الخامس عشر

خاتمة

- الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠
- المؤلف في سطور
- المراجع العربية والانجليزية

خاتمة
الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠

رسالة من الدكتور عبد الحسين طبا، مدير منظمة الصحة العالمية بأقليم شرق البحر الأبيض المتوسط ليوم الصحة العالمي في ١٩٨١

« تحقيق الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠ »

من الحقائق القاسية التي لا يمكن انكارها في القرن العشرين، أن براعة الأنسان قادته الى القمر، بينما لا زال ثالوث الفقر والمرض والجهل متفشيا في جميع أنحاء العالم. وادراكا لوجوب اتخاذ اجراء عنيف للقضاء على ما لا ضرورة له من آلام يعاني منها السواد الأعظم من الشعوب، أصدرت جمعية الصحة العالمية في عام ١٩٧٧ قرار يلزم منظمة الصحة العالمية والدول الأعضاء بتحقيق « بلوغ جميع شعوب العالم بحلول عام ٢٠٠٠ مستوى من الصحة يمكّنها من أن تحيا حياة منتجة اجتماعيا واقتصاديا ».

وقد انقضت أربع سنوات منذ ذلك الحين، واليوم لدينا من الأسباب ما يدعو الى الاعتقاد بأنه، بالنسبة لأقليم شرق البحر الأبيض المتوسط، وغيره من الأقاليم الأخرى، لا يمكن لهذا الهدف النبيل أن يكون مجرد أمل ليس الّا، بل هو تعبير واقعي ملموس عن الارادة السياسية الجماعية لوضع حد للظلم الاجتماعي الذي يجعل الصحة حكرا للأقليات المتميّزة المحظوظة.

ولعلنا نذكر أنه خلال المؤتمر الدولي عن الرعاية الصحية الأولية (١٩٧٨) اشترك ممثلون للدول الأعضاء بهذا الأقليم في التصديق على اعلان ألما آتا الذي بنى على اعتقاد راسخ بأن الصحة حق من حقوق الأنسان. ونتيجة لكون أنماط الرعاية الصحية الحالية قد اتضح اخفاقها في الوصول الى المحتاجين اليها، صادق هذا الاعلان التاريخ على أن أسلوب الرعاية الصحية الأولية هو مفتاح تحقيق الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠، وبتطبيق مبادئه وتكييفها لتقديم الخدمات الصحية الجوهرية لهؤلاء الذين يحتاجون اليها، نكون على ثقة من أننا وجدنا الأدوات السليمة لتحرير جميع شعوب اقليمنا مما يمكن تجنبه من ألم أو عجز أو وفاة بحلول عام ٢٠٠٠.

وبينما يقوم عدد متزايد من السياسيين، والاداريين والفنيين الصحيين في مختلف المجالات بتعزيز مبادىء الرعاية الصحية الأولية، هناك شك فيما اذا كان الجمهور حتى الآن مدركا لها. ومن ثم، أود أن أذكر بعضا من أهمها :

أولا، مشاركة المجتمع في التنمية الصحية مطلب لازم لتحقيق الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠، فالصحة الشخصية والنظافة، والرضاعة الطبيعية مع أساليب أفضل للفطام والتغذية، وتنظيم الفترات بين حمل وآخر، وتحسينات الأسكان واصلاح القرية، ومرافق المياه المأمونة، والتخلص السليم من الفضلات، الخ... تعتمد على المشاركة الفردية والجماعية من قبل المنتفعين أنفسهم. ومن ثم، فإن إيجاد سبل ووسائل لحث السكان قضية حاسمة بالنسبة لتنمية الرعاية الصحية الأولية وشغل شاغل بالنسبة للحكومات.

وثانيا، ان التنمية الصحية جزء لا يتجزأ من التنمية الأجتماعية الأقتصادية الشاملة، ولا يمكن تحقيقها بالعمل في القطاع الصحي وحده. ولاسهامات قطاعات أخرى مثل التعليم، وانتاج الطعام، والاسكان، ومرافق المياه، أثر هام على الحالة الصحية للسكان. ومن ثم، فإن التعاون المشترك بين

القطاعات شرط ضروري لتحقيق الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠.

وثالثا، لتطبيق تكنولوجيا بسيطة مثل استخدام محاليل تعويض سوائل الجسم عن طريق الفم لمعالجة أمراض الأسهال، أثر على صحة المجتمع يفوق أثر التكنولوجيا المعقدة باهظة التكاليف في المراكز الطبية.

وفي ضوء هذه المبادىء، بذلت جهود ضخمة من قبل بلدان الأقليم ومنظمة الصحة العالمية لترجمة روح ألما آتا الى عمل، ويجري وضع الخطط أو تنفيذها في معظم البلدان لضمان تغطية السكان بصورة أوسع وأكثر تكاملا بمختلف عناصر الرعاية الصحية الأولية مثل التثقيف الصحي، وصحة الأم والطفل، والتحصين، الخ...

وفي بعض البلدان، شكّلت مجالس تنمية صحية مشتركة بين الوزارات لمعاونة السلطات الصحية في مهامها الجديدة، واسداء المشورة بشأن اعادة التوزيع بشكل ملائم للموارد المالية و/أو البشرية الشحيحة عادة.

وقد أنشىء مجلس استشاري اقليمي للتنمية الصحية يضم مجموعة رفيعة المستوى من تخصصات متعددة، مهمته الخاصة اسداء المشورة اليَّ عن الشؤون ذات العلاقة بتحقيق الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠.

وعقب الاجتماعات شبه الاقليمية الثلاثة التي عقدت في عام ١٩٨٠ في مقديشيو ودمشق والكويت، وطبقا لقرار اتخذته جمعية الصحة العالمية في عام ١٩٧٩، وضعت كافة البلدان استراتيجياتها الصحية القومية من أجل تحقيق الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠ وهي تشكّل أيضا أساس الاستراتيجية الأقليمية لمنظمة الصحة العالمية.

وتستحث منظمة الصحة العالمية اهتمام ومساندة المنظمات الدولية والثنائية والخاصة لتنمية الرعاية الصحية الأولية، وقد أنشأت بالفعل أجهزة مثل كونسورتيوم (اتحاد مالي) الموارد الصحية لتحقيق الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠، لضمان زيادة الدعم المالي للبرنامج من مصادر ثنائية

ومتعددة الأطراف. كما تعمل منظمة الصحة العالمية على جمع ونشر المعلومات العامة والفنّية لتسهيل التعاون الفني بين الدول النامية.

وادراكا لأن هذه التطوّرات تشكّل بداية مشجعة نحو تحقيق الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠، واعتقادا بأن بلدان اقليمنا ستواصل الكفاح من أجل السلام والعدالة الاجتماعية واحترام حقوق الانسان، واقتناعا بأن شعب اقليمنا مستعد للأسهام في تنمية صحته، يمكننا أن نتطلع بثقة الى المهمة التي تنتظرنا.

المراجع العربية

١. **الأمراض النفسية والعقلية** ــ احمد عزت راجح
٢. **الأنسان وصحته النفسية** ــ مصطفى فهمي
٣. **سيكلوجية الجنوح** ــ عبد الرحمن عيسوى
الناشر منشأة المعارف ــ الاسكندرية
٤. **نحو علم نفس اسلامي** ــ دكتور حسن الشرقاوي
مؤسسة شباب الجامعة ــ الاسكندرية (١٩٨٤)
٥. **رياض الصالحين** ــ العالم محي الدين بن زكريا النووي الشافعي
٦. **متن الأربعين النووية** ــ للامام يحي بن شرف الدين النووي
٧. **مختار الصحاح** ــ للشيخ الامام محمد ابي بكر بن عبد القادر الرازي

16. Morrow W. & Wilson R. (1961): Family Relationship of Bright High Achieving and under achieving.
High School Boys: Child Development Journal. Vol 32 PP. 501-510.

17. Mowbry R.H. & Rodger T.F.: Psychology in relation to Medicine E & S Livingstone - London.

18. Price J.H.: Modern Trends in Psychological Medicine - Bultenworth -London.

19. Philip J.L. (1969): The origins of intellect: Piaget theory - San Francisco Freeman.

20. Rodger T.F., Ingram I.M., Timbury G.C. & Mowbry (1967): Lecture notes on Psychological Medicine - Livingstone - London.

21. Stafford - Clark D. (1966): What Frued really said - London Mcdonald

22. Sadek A. (1972): A personality study of the Egyptian Murderer.

23. Sargant W. & Slater E.: Physical methods of treatment in Psychiatry. Livingstone - London.

24. Smythies J.R.: Biological Psychiatry (1968) Heinemann - London.

25. Strang R.: «An introduction to child study» N.Y. Mcmillan Company - 1938.

26. Torrance E.P. (1971): The Creative Persons - The Macmillan Company

27. Thorpe L.P.: «The Psychology of mental health» N.Y. The Ronald Press Co.

28. Wolpe J. & Slater A.: The conditioning therapies. U.S.A. Halt - Rinehart & Winston Inc.

29. Linfod-Rees: Stress, distress and disease - Review Article - British J. of Psychiatry.

30. Anthony Storr: Psychology of violence.

ENGLISH REFERENCES

1. Ashdown and Brown: Social Services and Mental Health.

2. Allport Q.W. (1961): Pattern & Growth of Personality N.Y.

3. Badwin, A.D.: «Behaviour and development in child-hood» N.Y. The Dryden Press Inco.

4. British J. of Educational Psychology: Is the theory of instinct dead: SYMPOSIUM
   (a) Burt The case for human instincts. Vol XI P. 155.
   (b) Burt Conclusions. Vol. XII PP. 1-15.

5. Bartlett (1932): Remembering Cambridge University.

6. Cattell R.B. (1949): General Psychology.
   (1946): Description and measurements of Personality.

7. Eysenck H.J.: Handbook of abnormal Psychology.

8. Eysenck H.J.: Dimensions of Personality.

9. Fleming C.M.: «Adolescence» London 1949.

10. Frued S. (1920): Introduction to Psychoanalysis.
    (1957): New introductory lectures on Psychoanalysis.
    (1927): The ego and the ID.

11. Hilgard E & Aitkinson: Introduction to Psychology.

12. Jean Piaget: Psychology and Epistosmology.

13. Jung C.G.: Anthony Stoor - New York.

14. Lorenz K. (1952): King Solomon's Ring - London Methwen.

15. Morgan C.T.: Physiological Psychology
    Macgraw - Hill book Co. N.Y.

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة ٩

الفصل الأول : قضايا الاغتراب ١٣

(١) سيكلوجية الغربة ١٥

(٢) سيكلوجية العنف والعدوان ٢١

(٣) القلق.. طاعون العصر الحديث ٢٧

(٤) حصاد العمر في الغربة ٣١

(٥) آيبون.. عائدون.. تائبون ٣٧

(٦) مغادرون.. نعم.. عائدون.. لا ٤١

(٧) حقيقة الوجه الآخر ٤٦

(٨) حوار حول هجرة العقول ٥١

(٩) هجرة العقول ٦٤

الفصل الثاني : النفس والجسم ٧١

(١) المريض والمتمارض وبينهما حاجز ٧٣

(٢) تحت مطرقة الغضب ٧٨

(٣) الوجه مرآة العقل ٨٣

الفصل الثالث : العصر الذهبي للأزمات ٨٩

صفحة

(١) حجر في لجة الماء ٩١
(٢) من يحرسنا .. من ٩٥
(٣) مزيدا من الخيام.. يا كرام ٩٩
(٤) انهم يحرثون في البحر ١٠٤
(٥) بيروت .. لن تموت ١٠٩

الفصل الرابع : لحظات تأمل ١١٣

(١) مظلة في الهجير ١١٥
(٢) قضاء حوائج الناس ١٢٠
(٣) شيء من الفرح ١٢٤
(٤) أسئلة بلا أجوبة ١٢٨
(٥) دعوة للمدينة الفاضلة ١٣٢
(٦) مرحبا أيها الحزن ١٣٦

الفصل الخامس : آراء في الأدب ١٤١

(١) الشعر أو الطوفان ١٤٣
(٢) الحزن ينبت شعرا ١٥١
(٣) لذة الهواية.. وألم الاحتراف ١٥٥
(٤) واذا كانت النفوس كبارا ١٦٠
(٥) لمن تكتب الأقلام ١٦٥

الفصل السادس : رسائل مؤثرة ١٧١

(١) عفوا أستاذي ١٧٥
(٢) خواطر ١٧٩
(٣) رسالة الى عمر في العالم الآخر ١٨٣
(٤) السائرون تحت المظلة الكيمائية ١٩٠

صفحة

الفصل السابع : نظرة في التربية ١٩٥

(١) طواحين الفراغ ١٩٧

(٢) الوقت أغلى من معدن ٢٠٢

(٣) نعيب زماننا ٢٠٧

(٤) أثر السلوك الجماعي في تكوين الشخصية ٢١٣

الفصل الثامن : قضايا اجتماعية ٢١٧

(١) البحث عن الحقيقة ٢١٩

(٢) السباق مع الزمن ٢٢٤

(٣) السباق مع الزمن ... مرة أخرى ٢٢٩

(٤) الجحيم هم الآخرون ٢٣٢

(٥) اللغة .. التراث .. الجذور ٢٣٦

(٦) لا تبخسوا الناس أشياءهم ٢٤١

(٧) لا يصح الا الصحيح ٢٤٦

الفصل التاسع : رؤية فلسفية ٢٤٩

(١) حوار حول مطاردة الظل ٢٥١

(٢) بقايا مطاردة الظل ٢٥٨

(٣) أنواع الصراع.. ونوعية الحلول ٢٦٥

(٤) من أجل عيون الحقيقة ٢٧٠

(٥) التفاؤل والتشاؤم.. ونقطة الوسط ٢٧٤

الفصل العاشر : قضايا سيكلوجية ٢٧٩

(١) بين البصر والبصيرة ٢٨١

(٢) فضيلة الثقة بالنفس ٢٨٥

(٣) السيطرة على النفس ٢٨٩

صفحة

(٤) شجرة ثقة أم غابة علاج ٢٩٤

الفصل الحادي عشر : حول رعاية الطفل ٢٩٩
(١) الأم شجرة العطاء ٣٠١
(٢) محنة الاختيار بين المال والأطفال ٣٠٦
(٣) عود على بدء ٣١٠
(٤) حول رعاية الطفل ٣١٥
(٥) رعاية الطفل مرة أخرى ٣٢٠
(٦) حساب الربح والخسارة ٣٢٥

الفصل الثاني عشر : في مجال الطب النفسي ٣٣١
(١) أزمة الطب النفسي ٣٣٣
(٢) اثر الموسيقى في حياتنا ٣٣٨
(٣) المطوع والمطيع ٣٤٢
(٤) خطر المظلة الكيماوية ٣٤٦
(٥) نظرة في العلاج النفسي ٣٥٣
(٦) حول رعاية الأحداث ٣٥٨

الفصل الثالث عشر : في اتجاه واحد ٣٦٧
(١) من أجل أبنائي ٣٦٩
(٢) من أجل عيون القدوة ٣٧٤
(٣) أن للملاقاة أوقات ٣٨٠
(٤) الايدز .. واسرائيل ٣٨٥
(٥) لمن تقرع الأجراس ٣٩٠
(٦) كن جميلا ٣٩٦

صفحة

الفصل الرابع عشر : غايات .. وأهداف ....

(١) انهم بشر ٤٠٢

(٢) الضغوط النفسية في العمل ٤٠٧

(٣) حرب الطاقة الذهنية ٤١٢

(٤) المساير .. والمغاير ٤١٨

(٥) بين لذة الامتناع ومعاناة الاقلاع ٤٢٤

(٦) سحر الكلمة ٤٢٨

(٧) النفس المطمئنة ٤٣٥

(٨) مرآة الوجه الآخر ٤٤٠

الفصل الخامس عشر : خاتمة ٤٤٥

ـ الصحة للجميع بحلول عام ٢٠٠٠ .... ٤٤٧

ـ المراجع العربية والانجليزية ٤٥١

المؤلف

ـــ من مواليد مدينة عطبرة بالسودان.
ـــ تلقى تعليمه الثانوي بمدرسة حنتوب الثانوية بمدني.
ـــ نال بكالوريوس الطب والجراحة من جامعة الخرطوم.
ـــ نال دبلوم الطب النفسي من معهد الدراسات النفسية ـــ جامعة لندن.
ـــ نال زمالة كلية الأطباء النفسانيين الملكية بالمملكة المتحدة.
ـــ عضو منتخب في جمعية الطب النفسي للاطفال بانجلترا.
ـــ عضو منتسب لمجمع الدراسات النفسية باكسفورد.
ـــ عمل اخصائيا للطب النفسي بمستشفيات بريطانيا.
ـــ عمل مستشارا للطب النفسي بوزارة الصحة في دولة البحرين.
ـــ انتدب لتدريس علم النفس بكلية التربية بجامعة الامارات العربية المتحدة منذ عام ١٩٧٩ حتى تاريخه.
ـــ انتدب للتدريس بمركز التأهيل التربوي بوزارة التربية والتعليم منذ انشائه حتى تاريخه.
ـــ تم اختياره للتدريس بشعبة الطب النفسي بكلية الطب بجامعة الخرطوم.
ـــ يعمل حاليا كاستشاري للطب النفسي بوزارة الصحة ورئيساً لقسم الطب النفسي بمستشفى أبو ظبي المركزي.
ـــ عضو في جمعية الاطباء النفسانيين العرب.
ـــ صدر له المجلد الاول من المجموعة الشعرية الكاملة ويحوي خمس مجموعات شعرية هي :

١. الضياء والحريق.
٢. مع رياح العودة.
٣. مايو والاطفال.

٤. قصائد من بريطانيا.
٥. نقوش على البحر.

— مجموعته الشعرية الأخيرة (أشباح المدينة) هي الأولى في المجلد الثاني للمجموعة الشعرية الكاملة :

— صدر له عن هذه الدار المطبوعات التالية :

١. اضواء على النفس البشرية.
٢. مدخل الى الطب النفسي.
٣. محاضرات في الطب النفسي باللغة الانجليزية.
٤. أشباح المدينة (ديوان شعر).

— يصدر له قريباً عن هذه الدار المطبوعات التالية :

١. محاضرات في الطب النفسي باللغة العربية
٢. حوار مفتوح حول رعاية الطفل.
٣. المرآة المهشمة (مجموعة شعرية)